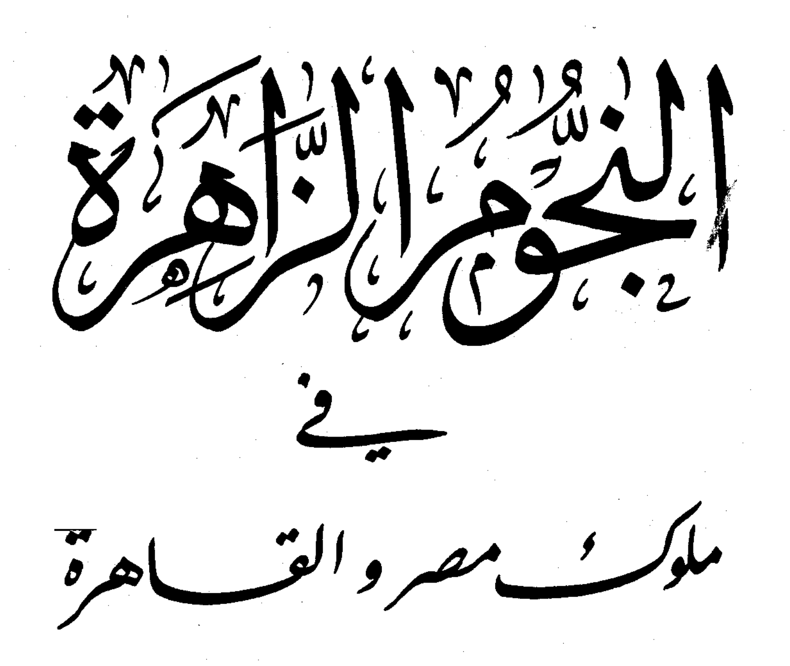


تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغْري بَرْدي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء السادس

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

ذكر سلطنة السلطان صلاح الدين[1] على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو المظفَّر صلاح الدين يوسف آبن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادي بن مروان، ويقال: إنّ مروان من أولاد خلفاء بني أميّة. وقال آبن القادسي[2]: كان شادي مملوك بِهْرُوز الخادم. قال صاحب مرآة الزمان: «وهذا من غلطات آبن القادسي، ما كان شادي مملوكاً قطّ، ولا جرى على أحد من بني أيّوب رِقٌّ، وإنّما شادي خدم بِهْرُوز[3] الخادم، فآستنابه بقلعة تَكريت». اِنتهى.

قلت: كان بداية أمر بني أيّوب أنّ نجم الدين أيّوب والد صلاح الدين هذا، وأخاه أَسَد الدين شِيركُوه ـ ونجم الدين هو الأكبر ـ كان أصلهم من دُوِين: بلدةٍ صغيرة في العجم، وقيل: هو من الأكراد الرَّوَادِيّة، وهو الأصحّ. فقدِم نجم الدين

---

(١) مصادر أخبار صلاح الدين كثيرة يصعب حصرها؛ نذكر منها: السلوك للمقريزي، والروضتين لأبي شامة، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) لابن شداد، والبرق الشامي للعماد الأصفهاني، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وبدائع الزهور لابن إياس، وتاريخ ابن خلدون، وتاريخ ابن الأثير، ومفرّج الكروب لابن واصل، والبداية والنهاية لابن كثير، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، وشفاء القلوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ودائرة المعارف الإسلامية، وغيرها من المصادر العربية والأجنبية وسائر ما كتب عن الحروب التي سميت بالصليبية. ونذكر منها هنا كتابين تناولا الحروب الصليبية من وجهة نظر الرواية العربية فقط وهما «الحروب الصليبية كما رآها العرب» لأمين معلوف، و«الحروب الصليبية» لسيّد علي الحريري.

(٢) هو الشيخ الأديب المؤرخ الكبير أبو عبد الله محمد بن أبي العباس القادسي الكتبي. ألف الذيل على المنتظم لابن الجوزي، وتاريخ الوزراء. توفي سنة ٦٢٢هـ. (مجلة المجمع العلمي العراقي: ١٠٩/٢ مقال للدكتور مصطفى جواد بعنوان: تواريخ مصرية أغفال). وقد ورد الاسم في الأصل: «ابن الفارسي».

(٣) كان على شحنة العراق، أي رئيس الشرطة أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها.

أيّوب وأخوه أسد الدين شِيرِكُوه إلى العراق وخدما مجاهد الدين بِهْرُوز الخادم شِحْنَةَ بغداد، فرأى بهروزُ من نجم الدين رأياً وعقلاً، فولّاه دُزْداراً[١] بتَكْرِيت، وكانت تكريت لبِهْرُوز، أعطاها له السلطان مسعود بن غِياث الدين محمد ابن ملكْشاه ــ المقدّم ذكره ــ السَّلجُوقيّ. وبِهْرُوزُ كان يلقَّب مجاهدَ الدين. وكان خادماً روميّاً أبيض، ولّاه السلطان مسعود شِحْنة العراق. وبِهْرُوز (بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي)، وهو لفظ عجميّ معناه: يوم جيّد. فأقام نجم الدين بتَكْرِيت ومعه أخوه أسد الدين إلى أن آنهزم الأَتَابَك زَنْكِي بن آق سُنْقُر من الخليفة المسترشد في سنة ستّ وعشرين وخمسمائة، ووصل إلى تكريت وبه نجم الدين أيّوب، فأقام له المَعَابِر فعبرَ زَنْكِي بن آق سُنْقُر [دجلة][٢] من هناك، وبالغ نجمُ الدين في إكرامه، فرأى له زَنْكِي ذلك. وأقام نجمُ الدين بعد ذلك بتَكْرِيت إلى أن خرج منها بغير إذن بِهْرُوز. وسببه أنّ نجم الدين[٣] كان يَرْمِي يوماً بالنشاب فوقعتْ نُشّابةٌ في مملوك بِهْرُوز فقتلتْه من غير قصد، فآسْتَحَى نجم الدين من بِهْرُوز فخرج هو وأخوه إلى المَوْصِل. وقيل غير ذلك: إنّ بِهْرُوز أخرجهما لمعنى من المعاني، وقيل في خروجهما غير ذلك أيضاً.

ولمّا خرجا من تكريت قصداً الأَتَابَك بن آق سُنْقُر ــ المقدّم ذكره ــ وهو والد الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكِي المعروف بالشَّهيد، فأحسن إليهما زَنْكِي وأقطعهما إقطاعات كثيرة، وصارا من جملة أجناده إلى أن فتح زَنْكِي مدينة بَعْلبكّ[٤]، وولّى نجمَ الدين أيّوب دُزْدَاراً بقلعتها. والدُّزْدَارُ (بضمّ الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعدها ألف وراء مهملة) ومعناها بالعجمي: ماسك القلعة. ودام نجمُ الدين ببعلبكّ إلى أن قتِلُ زَنْكِي على قلعة جَعْبَر. وتوجّه

---

(١) دزدار القلعة: أي حافظها. (شفاء القلوب: ٢٣)

(٢) زيادة عن ابن الأثير وابن خلكان.

(٣) في شفاء القلوب: «أسد الدين شيركوه» بدلاً من نجم الدين.

(٤) مدينة قديمة في سهل البقاع اللبناني. وبها آثار رومانية ضخمة. وقد فتحها عماد الدين زنكي في أوائل سنة ٥٣٤هـ.

صاحبُ دِمشق [يومئذ مُجِير الدين][١] وحصَر نجمَ الدين المذكور في بعلبكّ وضايقه، فكتب نجم الدين إلى نور الدين الشهيد بن زَنْكِي وسيف الدين غازي يطلب منهما نجدة، فآشتغلا عنه بملك جديد[٢]؛ وآشتدّ الحصار على بعلبكّ، فخاف نجم الدين من فتحها عنوةً وتسليم أهلها، فصالح مُجيرَ الدِّين صاحب دمشق على مال[٣]؛ وآنتقل هو وأخوه أسد الدين شِيرِكُوه إلى دمشق وصارا من كبار أمرائها. ولا زال بها أسدُ الدين شِيركوه حتّى آتّصل بخدمة الملك العادل نور الدين محمود[٤] بن زَنْكِي وصار من أكابر دولته. فرأى منه محمود نجابة وشجاعة فأعطاه حِمْصَ والرَّحْبة، وجعله مقدَّمَ عساكره. فلمّا صرَف نور الدين همّته لأخذ دمشق أمر أسد الدين أن يكاتب أخاه نجم الدين أيّوب على المساعدة على فتحها، فكتب أسدُ الدين إلى أخيه، وقال له: هذا يجب عليك؛ فإنّ مُجِير الدين قد أعطى الفِرِنْجَ بانْياسَ وربما سلّم إليهم دمشق بعد ذلك؛ فأجابه نجم الدين. وطلبا من نور الدين إقطاعاً وأملاكاً فأعطاهما، وحلف لهما ووفًى بيمينه. وأمّا مُجير الدين المذكور صاحب دمشق، فكان آسمه آبَق بن محمد بن بُوري بن الأتابَك ظَهِير الدين طُغْتِكِين. وطغتكين مولى تُتُش بن ألب أرسلان أخي مَلِكْشاه السَّلْجُوقيّ.

ولمّا ملك نور الدين محمود دمشق وفّى لهما بما وعدهما، وصارا من أكابر أمرائه خصوصاً نجم الدين؛ فإنّ جميع الأمراء كانوا إذا دخلوا على نور الدين لا يقعد أحد حتّى يأمره نور الدين بالقعود إلّا نجمَ الدين هذا، فإنّه كان إذا دخل قعد من غير إذن. وداما عند نور الدين في أعلى المنازل إلى أن وقع من أمر شَاوَر وزير مصر ما وقع ــ وقد حكيناه في ترجمة العاضد العُبَيْديّ ــ ودخول أسد الدين شِيرِكُوه إلى الديار المصريّة ثلاثَ مرّات، ومعه آبن أخيه صلاح الدين يوسف هذا، حتّى ملك أسدُ الدين الديارَ المصريّة في الثالثة، وقُتِل شاوَر؛ ووَلي أسدُ الدين وزارةَ

(١) زيادة عن ابن خلكان وما سيأتي. وكان ذلك سنة ٥٤١هـ.
(٢) المراد أنهما كانا مشغولين بتوطيد ملكهما الذي ورثاه عن أبيهما زنكي.
(٣) عبارة شفاء القلوب: «فسلمها إليهم (أي عسكر دمشق) على إقطاع كبيرة» وهي أصوب، لأن المفهوم أن نجم الدين انتقل إلى دمشق متخلياً عن بعلبك مقابل ذلك الإقطاع.
(٤) كان نور الدين في ذلك الوقت صاحب حلب.

مصر، ولُقِّب بالمنصور، ومات بعد شهرين؛ فولّى العاضدُ الخليفةُ صلاحَ الدين هذا الوزارةَ[١]، ولقّبه الملكَ الناصر، وذلك في العشر الآخير من جُمَادى الآخرة سنة أربـع وستين وخمسمائة. وآستولى على الديار المصريّة ومهّد أمورها. وصار يُدْعَى للعاضد، ثمّ من بعده للملك العادل نور الدين محمود، ثمّ من بعدهما لصلاح الدين هذا. ونذكر ولايتَه إن شاء الله بأوسـع من هذا من كلام آبن خلّكان، بعد أن نذكر نبذة من أموره.

وآستمرّ صلاح الدين بمصر وأرسل يطلب أباه نجم الدين أيّوب من الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، فأرسله إليه معظَّماً مبجَّلاً؛ وكان وصوله (أعني نجم الدين) إلى القاهرة في شهر رجب سنة خمس وستين وخمسمائة؛ فلمّا قرب نجم الدين إلى الديار المصريّة خرج آبنه السلطان صلاح الدين بجميـع أمراء مصر إلى ملاقاته، وترجّل صلاح الدين وجميـع الأمراء ومَشَوْا في ركابه؛ ثمّ قال له آبنه صلاح الدين: هذا الأمر لك (يعني الوزارة) وهي السلطنة الآن، وتدبير ملك مصر، ونحن بين يديك؛ فقال له نجم الدين: يا بنيّ، ما آختارك الله لهذا الأمر إلّا وأنت أهل له. وأَبَـى نجمُ الدين عن قبول السلطنة، غير أنّه حكّمه آبنه صلاح الدين في الخزائن، فكان يُطلِق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين.

وكانت الفرنـج تولّتْ على دِمْياط في ثالث صفر من السنة المذكورة وجَدّوا في قتالها، وأقاموا عليها نحو الشهرين يحاصرونها بالمجَانيق ويزحَفون عليها ليلاً ونهاراً، وصلاح الدين يوجِّـه إليها العساكر مـع خاله شِهاب الدين و[ابن أخيه][٢] تَقيّ الدين، وطلب من العاضد مالاً فبعث إليه شيئاً كثيراً، حتّى قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد! جهّز إليَّ في حصار الفرنـج لدِمْياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

---

(١) انظر نسخة تقليده الوزارة في صبح الأعشى: ١٠/٩١ وشفاء القلوب: ٦٨. وهو من إنشاء القاضي الفاضل.

(٢) زيادة عن شفاء القلوب.

ولمّا سمع نور الدين بما وقع لدِمْياط[١] أخذ في غزو الفرنج بالغارات عليهم. ثم وقع فيهم الوباء والفناء فرحلوا عن دِمياط بعد أن مات منهم خلق كثير. كلّ ذلك في حياة العاضد في أوائل أمر صلاح الدين.

ثمّ أخذ السلطان صلاح الدين في إصلاح أحوال مصر وعمارة البلاد؛ وبينا هو في ذلك ورد عليه كتاب الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكِي من دمشق، فأمره فيه بقطع خطبة العاضد وإقامتها لبني العبّاس خلفاء بغداد، فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألّا يجيبوه إلى ذلك، وربّما وقعت فتنة؛ فعاد الجواب لنور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع له نور الدين؛ وأرسل إليه وخشّن له في القول، وألزمه بذلك إلزاماً كليّاً إلى أن وقع ذلك؛ وقُطِعت خطبة العاضد في أوّل المحرّم سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان العاضد مريضاً فأَخْفى عنه أهله ذلك حتّى مات يوم عاشوراء، فندم صلاح الدين على قطع خطبته، وقال: ليتني صبرت حتّى مات. وقد ذكرنا ذلك كلّه مفصّلاً في ترجمة العاضد السابقة لهذه الترجمة. ومن هنا نذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ أقوال المؤرّخين في أحوال السلطان صلاح الدين هذا وغزواته وأموره، كلّ مؤرّخ على حدته.

ومن يوم مات العاضد عظُم أمر صلاح الدين وآستولى على خزائن مصر وآستبدّ بأمورها من غير منازع. غير أنّه كان من تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكِي المعروف بالشهيد صاحب دمشق على ما سنبينه في هذا المحلّ. وكان يدعو له الخطيب بمصر وأعمالها بعد نور الدين المذكور ويدعو لنور الدين بعد الخليفة.

وكان مولد صلاح الدين بِتَكْريت في سنة آثنتين وثلاثين وخمسمائة، ونشأ في حِجْر أبيه نجم الدين أيّوب في الدولة النُّورِيّة، وترقّى فيها؛ وكان ولّاه نور الدين قبل خروجه مع عمه أسد الدين شِيرِكوه الثالثةَ إلى ديار مصر، شَحْنَجِيةَ[٢] دمشق، فخرج عنها غَضِباً على ما سنذكره إن شاء الله.

---

(١) كان صلاح الدين قد أرسل إلى نور الدين محمود رسالة فيها: «إن تخلّفتُ عن دمياط ملكها الفرنج، وإن خرجتُ ما آمن الشيعة».

(٢) راجع الجزء الخامس، ص ١٩٧، حاشية (٢).

قال العلّامة أبو المظفَّر شمس الدين يوسف بن قـزأوغْلي في تاريخه مرآة الزمان: «كان السلطان صلاح الدين شجاعاً شهماً مجاهداً في سبيل الله؛ وكان مغرَماً بالإنفاق في سبيل الله؛ وحُسِب ما أطلقه ووهَبه مدّةَ مُقامه على عَكّا مرابِطاً للفرنـج، من شهر رجب سنة خمس وثمانين، إلى يوم آنفصاله عنها في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان آثني عشرَ ألفَ رأس من الخيل العِرَاب والأكاديش الجياد للحاضريـن معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال.

قال العماد الكاتب[١]: لم يكن له فرس يَرْكب إلّا وهو موهوب، ولا جاءه قود إلّا وهو مطلوب؛ وما كان يَلْبَس إلّا ما يحِلّ لبسه، كالكَتّان والقطن والصوف؛ وكانت مجالسه منزَّهة عن الهُزْء والهزل، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، ويُؤثر سماع الحديث. وكان مَنْ جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه[٢]. قال: ورأى معي يوماً دَواة محلاَّة بفضّة فأنكر عليّ وقال: ما هذا! فلم أكتب بها عنده بعدها. وكان محافظاً على الصلوات في أوقاتها لا يصلّي إلّا في جماعة، وكان لا يلتفت إلى قول منجِّم؛ وإذا عزم على أمر توكّل على الله. اِنتهى كلام العماد بآختصار.

وذكره القاضي آبن شدّاد في السِّيرة[٣] فقـال: كان حسنَ العقيـدة، كثيرَ الذكر لله تعالى؛ وإذا جاء وقتُ صلاة وهو راكب نزل فصلّى، وما قطعها إلّا في مرضه الذي مات فيه ثلاثةَ أيّام آختلط ذهنُه فيها. وكان قد قرأ عقيدة القطب[٤] النَّيسابوريّ، وعلمَّها أولادَه الصغار لترسـخ في أذهانهم، وكان يأخذها عليهم. وأما الزكاة فإنّه مات ولم تجب عليه قطّ. وأمّا صدقة النوافل فاستُنفدتْ أموالُه كلّها فيها. وكان يحبّ سماع القرآن؛ وآجتاز يوماً على صبيّ صغير بين يديّ أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته، فوقف عليه وعلى أبيه مَزْرعةً. وكان شديد الحياء خاشـع الطَّرْف،

(١) ينقل المؤلف عن الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الكاتب الأصفهاني.

(٢) عبارة شفاء القلوب عن العماد: «جالس سلطاناً وإنما هو أخ من الإخوان».

(٣) كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة السلطان صلاح الدين.

(٤) هو أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، الفقيه الشافعي الملقب بقطب الدين. توفي سنة ٥٧٨هـ. (انظر وفيات سنة ٥٧٨هـ في هذا الجزء).

رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث. وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممّن يحضر عنده، آستحضره(١) وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، ويأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن لم يكن ممن يحضر عنده، ولا يطرُق أبواب الملوك سعى إليه. وكان مُبْغِضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة. ولمّا بلغه عن السُّهْرَوَرْدي(٢) ما بلغه أمر ولدَه الملك الظاهر بقتله. وكان محبّاً للعدل يجلس في كلّ يوم اثنين وخميس [في](٣) مجلس عام يحضُره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز، وما آستغاث إليه أحد إلّا أجابه وكشف ظُلامته؛ وآستغاث إليه آبن زُهَير الدِّمشقيّ على تقيّ الدين عمر [ابن أخيه](٣) وقال: ما يحضُر معي مجلسَ الشرع، فأمر تقيَّ الدين بالحضور معه. وآدعى رجل على السلطان صلاح الدين المذكور بأنّ سُنْقُر الخِلَاطِيّ مملوكُه ومات على ملكه. قال آبن شَدّاد: فأخبرته فأَحضَر الرجل، وقد خرج عن طَرّاحَته وساواه في الجلوس، فآدّعى الرجلُ؛ فرفع السلطانُ رأسَه إلى جماعة الأمراء والشيوخ الأخيار، وهم وقوف على رأسه، فقال: أتعرفون سُنْقُرَ الخِلَاطِيّ قالوا: نشهد أنّه ملوكُك، وأنّه مات على ملكك. ولم يكن للرجل المّدعي بيّنة، فأُسْقِط في يده. فقلتُ: يا مولانا، رجل غريبٌ، وقد جاء من خِلاط في طمع، ونفِدتْ نفقته، وما يَحْسُن أن يرجع خائباً؛ فقال: يا قاضي، هذا إنّما يكون على غير هذا الوجه، روهب له نفقة وخِلْعة وبغلة وأحسن إليه.

قال: وفتحَ آمِدَ، ووهبها لابن قَرَا أَرْسلان. وآجتمع عنده وفودٌ بالقدس ولم يكن عنده مال، فباع ضَيْعة وفرّق ثمنها فيهم.

قال آبن شَدّاد: وسألت باليان بن بارِزَان(٤) يوم آنعقاد الصلح عن عدّة الفرنج الذين كانوا على عَكّا، وهو جالس بين يدي السلطان، فقال للترجمان: قل

---

(١) في الأصل: «استحضر عليه» والتصحيح عن سيرة صلاح الدين لابن شداد.

(٢) هو يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح. فيلسوف، نسب إلى انحلال العقيدة فأفتى العلماء بإباحة دمه، وقتل سنة ٥٨٧هـ.

(٣) زيادة عن ابن شداد.

(٤) في الأصل: «وسألت ابن ميروان» وما أثبتناه عن ابن شداد.

له كانوا من خمسمائة ألف إلى ستّمائة ألف، قُتِل منهم أكثر من مائة ألف وغَرِق معظمهم.

قال: وكان يوم المَصَافّ يدور على الأطلاب[(١)] ويقول: وهل أنا إلا واحد منكم! وكان في الشتاء يعطي العساكر دستوراً[(٢)] وهو نازل على برج عَكّا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير.

وكان على الرّملة فجاءه كتاب بوفاة تَقّي الدين [آبن أخيه][(٣)]، فقال وقد خنقته العَبْرة: مات تقيّ الدين! أُكتموا خبَره مخافةَ العدوّ.

قال: ولقد واجهه الجناح[(٤)] على يافا بذلك الكلام[(٥)] القبيح، فما قال له كلمة، وآستدعاه فأَيْقن بالهلاك؛ وآرتقب الناسُ أن يضرب رقبَته فأطعمه فاكهةً قَدِمتْ من دمشق وسقاه ماء وثلجاً.

قال: وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنـج بالليل ويسرقونهم، فسرقوا ليلةً صبياً رضيعاً فباتت أمّه تبكي طول الليل، فقال لها الفرنـج: إنّ سلطانهم رحيم القلب فآذهبي إليه، فجاءته وهو على تلّ الخَرُّوبة[(٦)] راكب، فعفرت وجهها وبكت، فسأل عنها فأخبر بقصّتها، فَرقّ لهـا ودمَعت عيناه، وتقـدّم إلى مقدّم اللصوص بإحضار الطفل، ولم يزل واقفاً حتّى أحضروه؛ فلما رأته بكت وشَهقتْ وأخذته وأرضعته ساعة وضمّته إليها، وأشارت إلى ناحية الفرنـج؛ فأمر أن تُحمل على فرس وتُلْحَق بالفرنـج ففعلوا.

---

(١) الأطلاب: جمع طُلب (بضم أوله) وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس أو مائة أو سبعين. ويقول ابن إياس إن هذا اللفظ أول ما ظهر بمصر والشام في أيام صلاح الدين. ثم عدّل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش. (انظر بدائع الزهور: ٢٤/٣، وخطط المقريزي: ١٣٩/١)

(٢) الدستور: الإجازة أو الإذن.

(٣) زيادة عن ابن شداد.

(٤) هو الجناح بن علي بن أحمد الهكاري، وكان من أمراء صلاح الدين، كما في ابن الأثير.

(٥) ذكر ابن الأثير أن الجناح قال له: يا صلاح الدين، قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالجماقات يتقدمون فيقاتلون؛ إذا كان القتال فنحن، وإذا كانت الغنيمة فلهم!» ـ انظر ابن الأثير: حوادث سنة ٥٨٨هـ.

(٦) الخرّوبة: حصن بساحل الشام مشرف على عكا. (معجم البلدان)

قال آبن شدّاد: وكان حسن العِشرة طيِّب الخُلُق حافظاً لأنساب العرب، عارفاً بخيولهم، طاهر اللسان والقلم، فما شتم أحداً قطُّ ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم. وما حضر بين يديه يتيمٌ إلّا وترحّم على من خَلّفه، وجبر قلبه وأعطاه ما يكفيه؛ فإن كان له كافل [سلّمه إليه](١) وإلّا كفَله. وسُرِق يوماً من خزائنه ألفا دينار وجُعل في الكيس فُلوس فما قال شيئاً. اِنتهى كلام آبن شدّاد بآختصار.

قال أبو المظفّر: وحكى لي المُبارز سُنْقُر الحلبيّ ــ رحمه الله تعالى ــ قال: كان الحجاب يزدحمون على طرّاحته فجاء سُنْقُر الخِلَاطيّ ومعه قِصَص فقدّم إليه قِصّة، وكان السلطان مدّ يدَه اليمنى على الأرض ليستريح، فداسها سُنْقُر الخلاطيّ ولم يَعْلَم؛ وقال له: علِّم عليها، فلم يُجِبه، فكرّر عليه القولَ؛ فقال له: يا طَواشي، أعلِّم بيدي أم برجلي! فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل؛ وتعجّب الحاضرون من هذا الحلم؛ ثم قال السلطان: هات القصّة فعلّم عليها».

وقال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلّكان ــ رحمه الله ــ في تاريخه: «وصلاح الدين كان واسطة العِقْد، وشهرته أكبر من أن يحتاج إلى التنبيه عليه. اتّفق أهل التاريخ على أنّ أباه وأهله من دُوِين (بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون)، وهي بلدة في آخر عمل أَذْرَبِيجان من جهة أَرَّان وبلاد الكَرَج، وأنّهم أكرادٌ رَوَادِيَّةٌ (بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة [مكسورة](٢) ثم ياء مثنّاة من تحتها مشدّدة ثم هاء). والرَّوَادِيَّةُ: بطن من الهَذَبانيّة (بفتح الهاء والذال المعجمة والباء الموحّدة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مثنّاة مشدّدة من تحتها وبعدها هاء) وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. وقال لي رجل عارف بما يقول، وهو من أهل دُوِين: إنّ على باب دُوِين قريةً يقال لها: أَجْدَانقان (بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة ثم قاف وبعد الألف الثانية نون أخرى) وجميعُ أهلها أكرادٌ رَوَادِيَّة؛ ومولد أيّوب والدِ صلاح الدين بها، وَشادِي أخَذ ولديه، [منها](٢): أسدَ الدين شِيرِكُوه، ونجمَ الدين أيّوب، وخرج بهما إلى بغداد؛

(١) زيادة عن ابن شداد في سيرة صلاح الدين.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

ومن هناك إلى تَكريت. ومات شادِي بها، وعلى قبره قبةٌ داخلَ البلد. ولقد تتبعت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً [ذكر][١] بعد شَادِي أباً آخر، حتّى إني وقفتُ على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك بآسم شِيرِكُوه وأيوب فلم أَرَ فيها سوى شِيرِكُوه بن شادِي [وأيّوب][١] بن شَادي لا غير. وقال لي بعض أعوانهم[٢]: هو شادِي بن مروان، وقد ذكرته في ترجمة أيوب وشِيرِكُوه. قال: ورأيت مدرجاً رتّبه الحسن بن غريب[٣] بن عِمْران الحَرَشِي[٤] يتضمّن أن أيوّبَ بـن شادِي بن مروان بن [أبـي][١] علي بن عنترة[٥] بن الحسن بن عليّ بن أحمد بـن أبـي عليّ بن عبد العزيز بن هُدْبـة بن الحُصَين بن الحارث بن سِنان بن عمرو بن مرة بن عَوْف بن أَسَامة بن بَيْهَس[٦] بن الحارث صاحب الحَمَالة آبن عَوْف بن أبـي حارِثة بن مُرّة بن نُشْبَة[٧] بن غَيْظ بن مُرّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبْيان بن بَغِيض بـن رَيْث بن غَطَفان [بن سعـد][١] بن قَيْس بن عَيْلان بن الياس بن مُضر بن نزار بـن مَعَدّ[٨] بن عَدْنان؛ ثم رَفـع هذا النسبَ إلى أن آنتهى إلى آدم عليه السلام. ثم ذكر بعد ذلك أن عليّ بن أحمد بن أحمد بن أبـي عليّ يُقال إنه[٩] ممدوح المتنبـي، ويعرف بالخُرَاسانيّ. وفيه يقول من جملة قصيدة: [الخفيف]

شَـرِق الجوّ بـالغُبـار إذا سـا ر عليُّ بنُ أحـمـدَ القَـمْقَـامُ

وأمّا الحارث بن عَوْف بن أبـي حارثة صاحبُ الحَمَالة[١٠] فهو الذي حمل

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في ابن خلكان: «وقال لي بعض كبراء بيتهم». ولعل اللفظ الصحيح هنا: «أعيانهم» ووقع عليه تحريف.

(٣) في الأصل: «الحسن بن عمرو بن عمران». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٤) في الأصل: «الحرسي» بالسين المهملة. وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٥) في الأصل: «عتورة». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٦) في الأصل: «مهين». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٧) في الأصل: «شيبة». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٨) في الأصل: «سعد». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٩) في الأصل: «فقال هو» وما أثبتناه عن ابن خلكان، وهو المناسب للسياق اللغوي.

(١٠) الحَمَالة: الدِّيَة والغرامة التي يحملها قوم عن قوم. وقد تطرح منها الهاء فيقال: الحمال. (انظر لسان العرب: مادة حَمَل).

الدماء بين عَبْس وذُبْيان، وشاركه في الحَمَالة خارجةُ بن سِنان أخو هَرِم بن سِنان. وفيهما قال زُهَير بن أبـي سُلْمَى المُزَنِيّ قصائدَ كثيرة، منها قوله: [الطويل]

وهـل يُنبِت الخَـطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُـه وتُغْـرَس إلاّ في منـابتهـا النخـلُ

هذا آخر ما ذكره في المدرّج، وكان قد قدّمه إلى الملك المعظّم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظّم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسعَ عشرةَ وستمائة. والله أعلم[١]. اِنتهى ما ذكرته من المدّرج. ثم قال:

وأقول: ذكر المؤرّخون أنّ أسد الدين شِيرِكُوه لمّا مات آستقرّت الأمور بعده لصلاح الدين يوسف بن أيّوب وتمهّدَت القواعد، ومشى الحال على أحسن الأوضاع، وبَذَل الأموالَ وملك قلوب الرجال، وشكر نعمة الله تعالى عليه، فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهـو، وتقمّص بقميص الجدّ والاجتهـاد، ولا زال على قدم الخير وما يقرّ به إلى الله تعالى إلى أن مات». قال: «وقال شيخنا آبن شدّاد ــ رحمه الله ــ: قال صلاح الدين ــ رحمه الله ــ: لمّا يسّر الله تعالى بملك الديار المصرية علمت أنّ الله أراد فتح الساحل لأنه أوقـع ذلك في نفسي. قال: ومن حين آستقام له الأمر ما زال صلاح الدين يَشُنّ الغارات على الفرنـج إلى أن ملك الكَرَك والشُّوبَك وبلادهما، وغشي الناس من سحائب الإفضال والإنعام [ما لم يؤرّخ عن غير تلك الأيام. و][٢] هذا كلّه وهو وزير متابـع للقوم، ولكنّه يقول بمذهب أهل السُّنة، [غارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوّف والدين، والناس يهْرَعون إليه من كلّ صَوْب ويَفِدون عليه من كل جانب وهو لا يُخيِّب قاصداً، ولا يعدم وافداً][٣]

(١) علّق الدكتور محمد مصطفى زيادة في حاشية ص ٢٢ و٦٢ من كتاب السلوك للمقريزي، الجزء الأول، بقوله: «وكل هذه الأنساب، أو ما يشابهها من الأنساب العربية للأكراد، ليس لها نصيب من الصحة. وهي محاولات من الأكراد للاتصال بالنسب العربي؛ ولكن الثابت أنهم من الجنس الإيراني».

(٢) زيادة عن ابن خلكان. وانظر سيرة صلاح الدين: ص ٤٠ ــ ٤١.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

إلى سنة خمس وستين وخمسمائة. فلمّا عرف نور الدين آستقرار[١] أمر صلاح الدين بمصر أَخَذ حِمْص من نوّاب أسد الدين شِيرِكُوه، وذلك في رجب سنة أربع وستين. ولمّا علم الفرنجُ ما جرى من[٢] المسلمين وعساكرهم، وما تمّ للسلطان من آستقامة الأمر له بالبلاد المصرية علموا أنه يملك بلادهم، ويخرّب ديارهم، ويقطع آثارهم؛ فآجتمع الفرنج والروم جميعاً وقصدوا الديار المصريّة، ونزلوا دِمْياط ومعهم آلات الحصار وما يُحتاج إليه».

قلت: وهذه الواقعة التي ذكرناها في أوّل هذه الترجمة، غير أنّنا نذكرها أيضاً مِن قولِ آبن خلّكان لزيادات تأتي فيها.

قال: «ولمّا سمع فرنج الشام ذلك آشتدّ أمرُهم، فسرقوا حصنَ عَكّا من المسلمين وأَسَروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين محمود، يقال له: «خَطْلُخ العلم دار»، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة خمس وستّين. ولمّا رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دِمْياط قصد شَغْل قلوبهم، فنزل على الكَرَك فحاصرها في شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها، وقصد لقاءهم فلم يقووا له. ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الدّاية، وكانت وفاته بحَلَب في [شهر] رمضان سنة خمس وستين، فآشتغل قلبه، فإنّه صاحب أمره. وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي أَخْربت البلاد، وكانت في ثاني عشر شوّال فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين مودود بالموصل، وبلغه خبر موته وهو بتَلِّ باشِر، فسار من ليلته طالباً لبلاد الموصل. ودام صلاح الدين في قتال الفرنج بدِمْياط إلى أن رحلوا عنها خائبين».

قال آبن خلّكان: «والذي ذكره شيخنا عزّ الدين بن الأثير: [أمّا][٣] كيفيّة ولاية صلاح الدين فإنّ جماعة من الأمراء النُّوريّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على

---

(١) في الأصل: «استقلال» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «ما جرى للمسلمين وعساكره» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٣) زيادة عن ابن خلكان. وابن خلكان ينقل عن ابن الأثير في كتابه «تاريخ الدولة الأتابكية» المعروف بالتاريخ الباهر.

العساكر و[ولاية](١) الوزارة (يعني بعد موت أسد الدين شِيركُوه): منهم الأمير عين الدولة اليَارُوقي، وقُطْب الدين خُسْرُو بن تُلَيْل(٢)، وهو آبن أخي أبي الهَيْجاء الهَذَبانيّ الذي كان صاحبَ إِرْبل. قلت: [وهو](١) صاحب المدرسة القُطْبِيّة(٣) بالقاهرة؛ ومنهم سيف الدين عليّ بن أحمد الهَكَّارِيّ، وجدّه كان صاحب القِلاع الهكاريّة». قلت: هو المعروف بالمَشْطوب ـ ولوالده أحمد ترجمة في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» [قال](٤): ومنهم شهاب الدين محمود الحارِميّ، وهو خال صلاح الدين؛ وكلّ واحد من هؤلاء قد لحظها(٥) لنفسه [وقد جمع ليغالب عليها](١)؛ فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين يأمره بالحضور إلى قصره ليخلع عليه خِلْعة الوزارة ويولّيه الأمر بعد عمّه. وكان الذي حمل العاضدَ على تولية صلاح الدين ضعفُ صلاح الدين، فإنّه ظَنّ أنّه إذا وَلّى صلاحَ الدين، وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته مستضعفاً، يَحْكُم عليه ولا يقدر على المخالفة، وأنّه يضع على العساكر الشاميّ من يَسْتميلهم [إليه](٦)، فإذا صار معه البعضُ أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية(٧) مَن يَحْميها من الفرنج ونور الدين. والقصّة مشهورة «أردتُ عَمْراً وأراد الله خارِجةً»(٨). فامتنع صلاحُ الدين وضعُفت

(١) زيادة عن ابن خلكان. وابن خلكان ينقل عن ابن الأثير في كتابه «تاريخ الدولة الأتابكية» المعروف بالتاريخ الباهر.

(٢) كذا في ابن خلكان. وفي الأصل والمقريزي في الكلام على المدرسة القطبية: «ابن بلبل».

(٣) المدرسة القطبية: كانت تقع في خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريري. وكانت هي والمدرسة السيفية (جامع الحطاب اليوم) من حقوق دار الديباج. أنشأها قطب الدين المذكور سنة ٥٧٠هـ وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية (انظر خطط المقريزي: ٢/٣٦٥) وقال الاستاذ محمد رمزي: وبالبحث تبين أن محلها اليوم الدار وقف النلاوي رقم ١٠ بحارة الملطي (درب الحريري سابقاً) المتفرعة عن سكة اللبودية بالحمزاوي.

(٤) زدنا هذه الكلمة لأن الكلام بعدها لابن خلكان.

(٥) في ابن خلكان: «وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه».

(٦) زيادة عن ابن خلكان.

(٧) في الأصل: «الكتامية». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٨) انظر قصة المثل في ابن خلكان: ٧/٢١٦ ـ ٢١٧. وخارجة المذكور هو خارجة بن حذافة، كان على شرطة مصر في أيام ولاية عمرو بن العاص. قتله خارجيّ بمصر سنة ٤٠هـ وهو يحسب أنه عمرو بن العاص.

نفسه عن هذا المُقَام، فألزمه العاضد وأخِذ كارهاً؛ إنّ الله لَيَعْجب من قوم يُقادون إلى الجنّة بالسلاسل. فلما حضر في القصر خلع عليه خِلْعة الوزارة: الجُبّة والعِمامةَ وغيرهما، ولقّب بالملك الناصر، وعاد إلى دار عمّه أسد الدين شِيرِكُوه وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خَدموه. وكان الفقيه ضِيَاء الدين عيسى الهَكّاريّ معه، فسعى مع سيف الدين عليّ بن أحمد حتّى أماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارِميّ وآبن تليل، فمال إلى صلاح الدين. ثم قصد شهابَ الدين الحارِميّ، وقال له: إنّ هذا صلاحَ الدين هو آبن أختك ومُلْكه لك[1]، وقد آستقام له الأمر فلا تكن أوّل من يسعى في إخراجه عنه [ولا يصل إليك][2]، ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلّفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إنّ صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغيرُ اليَارُوقيّ، وعلى كلّ حال فيَجْمع بينك وبين صلاح الدين أنّ أصله من الأكراد، ووعده وزاد في إقطاعه[3] فأطاع صلاحَ الدين. ثم عدل إلى عين الدولة اليَارُوقيّ، وكان أكبرَ الجماعة وأكثرهم جمعاً، فآجتمع به فلم ينفع فيه رُقَاهُ ولا نَفذ فيه سحرهُ، وقال: «أنا لا أخدُم يوسف أبداً!» وعاد إلى نور الدين محمود ومعه غيره. فأنكر عليهم نور الدين فراقه، وقد فات الأمر، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وثبتت قدمُ صلاح الدين ورَسَخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلّها، ولا يتصرّفون إلّا عن أمره. وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسْفَهْسَالار[4]، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتُب آسمَه، وكان لا يُفْرده بمكاتبة، بل يكتب: «الأمير الأسفهسالار صلاح الدين، وكافّةُ الأمراء بالديار المصريّة يفعلون كذا وكذا». وآستمال صلاحُ الدين قلوبَ الناس وبَذَل الأموال ممّا

---

(١) في الأصل: «له». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) في الأصل: «إعطائه». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٤) الأسفهسالار: مقدم العسكر، أو قائد الجيش. وهو مركب من لفظين فارسي وتركي: «أسفه» بالفارسية بمعنى «المقدم». «وسلار» بالتركية بمعنى العسكر. (انظر الألقاب الإسلامية: ١٥٦، وصبح الأعشى: ٤٧٩/٣و٨/٦)

كان أسد الدين قد جمعه، فمال الناس إليه وأحبُّوه، وقوِيتْ نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه؛ وضعُف أمر العاضد، وكان العاضد كالباحث عن حتفه بظِلْفه».

قال آبن الأثير(١) في تاريخه الكبير: قد آعتبرتُ التواريخ ورأيت كثيراً من التواريخ الإسلاميّة، فرأيت كثيراً ممّن يبتدىء الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه: منهم في أوّل الإسلام معاوية بن أبـي سُفْيان، أوّل من ملك من أهل بيته، فانتقل الملكُ عن أعقابه إلى بني مَرْوان من بني عمّه. ثم من بعده السفاح أوّل من ملك من ملوك بني العبّاس، آنتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه أبـي جعفر المنصور. ثم السامانيّة أوّل مَن ملك منهم نصر بن أحمد فآنتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه. ثم يعقوب [بن اللّيث] الصَّفّار أوّل مَن ملك من أهل بيته فآنتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو وأعقابه. ثم عِماد الدولة بن بُوَيه أوّل مَن ملك من أهل بيته ثم آنتقل الملك عنه إلى أخويه: ركن الدولة ومعزّ الدولة. ثم السَّلْجوقيّة أوّلُ مَن ملك منهم طُغْرُلْبَك. ثم آنتقل الملك إلى أولاد أخيه داود. ثم هذا شِيرِكُوه كما ذكرنا آنتقل الملك عنه إلى ولد أخيه نَجْم الدين أيوب. ولولا خوف الإطالة لذكرنا أكثر من هذا. والذي أظنّه السببَ في ذلك أن الذي يكوِّن أوّل دولة يُكثِر القتل، فيأخذ المُلْكَ وقلوبُ من كان فيه متعلِّقة به؛ فلهذا يحرم الله تعالى أعقابه ويفعل ذلك لأجلهم عقوبةً [له](٢). اِنتهى.

قلت: وما ذكره آبن الأثير من آنتقال المُلْكَ من عَقِب مَن يلي الملكَ أوّلاً إلى أقاربه، هو بعكس ما وقع لخلفاء مصر بني عُبَيد؛ فإنّه لم يَلِ الخلافةَ منهم أحدٌ بعد أخيه من أوّلهم المُعِزّ إلى آخرهم العاضد. قلت: ونادرة أخرى وقعت لخليفة زماننا هذا، فإنّه خامسُ أخ وَلِي الخلافةَ بعد إخوته، وهو أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف، وهم خمسة إخوة من أولاد المتوكّل، كلّ منهم وَلِي الخلافة: وأوّلهم المستعين بالله العباسيّ، الذي تسلطن بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق، في سنة خمس عشرة [وثمانمائة]؛ ثم بعده المعتضد داود؛ ثمّ من بعده المستكفي

(١) لا ينقل المؤلف عن ابن الأثير مباشرة، وإنما ينقل عن ابن خلكان الذي ينقل بدوره عن ابن الأثير.
(٢) زيادة عن ابن خلكان.

سليمان؛ ثم من بعده القائم حمزة؛ ثم يوسف هذا خليفة زماننا.

وأكثرُ مَن ولي من بني أميّة أربعةٌ من أولاد عبد الملك بن مَرْوان: وهم الوليد وسليمان ويَزيد وهِشام؛ قيل: إنّ عبد الملك رأى في نومه أنّه بال في محراب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أربع بولات، فأوّلَه المعبِّرون بأنّه يلي الخلافة من ولده لصلْبه أربعة، فكان كذلك. وأمّا ثلاثة الإخوة: فالأمين محمد والمأمون عبد الله والمعتصم محمد أولاد الرشيد هارون. ثم وقع ذلك أيضاً لبني العبّاس في أولاد المتوكّل جعفر؛ ولي من أولاده ثلاثة: المنتصر والمعتزّ والمعتمد. ثمّ وقع ذلك أيضاً للمعتضد؛ ولي من أولاده ثلاثة: وهم المكتفي[1] عليّ والمقتدر جعفر والقاهر محمد. ثم وقع ذلك للمقتدر جعفر؛ ولي من أولاده ثلاثة: الراضي والمتّقي والمطيع. ونادرة أخرى، قيل: إنّ المستنجد بن المقتفي رأى في حياة والده في منامه كأنّ مَلَكاً نزل من السماء فكتب في كفّه أربع خاءات معجمات، فعبَّروه أنه يلي الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة فكان كذلك. وقد خرجنا عن المقصود، ونعود إلى ذكر صلاح الدين.

ثم ذكر آبن الأثير شيئاً عن أحوال صلاح الدين إلى أن قال: وتُوفّي العاضد وجلس صلاح الدين للعزاء، وآستولى على قصره وجميع ما فيه؛ فكان قد رتّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قَرَاقُوش، وهو خَصيّ يحفظه، فحفظ ما فيه حتّى تسلّمه صلاح الدين. ونقل صلاح الدين أهله إلى مكان منفرد، ووكّل بهم مَن يحفظهم، وجعل أولاده وعُمومته وأبناءه في إيوان بالقصر، وأخرج مَن كان فيه من العَبِيد والإماء، فأعتق البعضَ ووهب البعض وأخلى القصر من سكّانه وأهله. فسبحان من لا يزول ملكه! قال: ولمّا آستولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره آختار منه ما أراد، ووهب أهلَه وأمراءه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك. قال آبن الأثير[2]: ولمّا وصل الخبر إلى الإمام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن الإمام المستنجد، وهو والد الإمام الناصر

(١) في الأصل: «المقتفي».

(٢) النقل هنا عن ابن خلكان، وليس عن ابن الأثير.

لدين الله، بما تجدّد من أمر مصر، وعَوْد الخطبة والسكّة بها بآسمه بعد آنقطاعها بمصر هذه المدّة الطويلة عمِل أبو الفتح محمد سِبْط[آبن][١] التعاويذي قصيدةً[٢] طنّانة مدح بها المستضيء، وذكر هذا الفتوح المتجدِّد له، وفتوح بلاد اليمن، وهلاك الخارجيّ بها الذي سمّى نفسه المهديّ. نذكر في آخر ترجمته أمر القصيدة التي نظمها آبن التَّعَاويذيّ من كلام آبن خلّكان وغيرها إن شاء الله تعالى. وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريّين شيئاً كثيراً.

ثم ذكر آبنُ الأثير[٣] فصلاً في سنة سبع وستين وخمسمائة يتضمّن حصول الوَحْشة بين نور الدين الشهيد وبين صلاح الدين باطناً، فقال: «في هذه السنة جرت أمور أوجبت تأثر نور الدين من صلاح الدين، ولم يظهر ذلك. وكان سببه أنّ صلاح الدين سار [عن مصر][٤] في صفر منها إلى بلاد الفرنج، ونازل حِصْن الشُّوبَك، وبينه وبين الكَرَك يوم، وحصره وضيَّق على مَن به من الفرنج، وأدام القتال؛ فطلبوا الأمان وآستمهلوه عشرةَ أيّام، فأجابهم إلى ذلك. فلمّا سمع نور الدين ما فعله صلاح الدين سار من دِمَشْق قاصداً بلاد الفرنج ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إنْ دخل نور الدين إلى بلاد الفرنج وهم على هذه الحال ــ أنت من جانب ونور الدين من جانب ــ ملَكها، ومتى زال ملك الفرنج عن الطريق لم يبقَ لك بديار مصر مُقام مع نور الدين؛ ومتى جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا فلا بدّ لك من الاجتماع به؛ وحينئذ يكون هو المتحكم فيك، إن شاء تركك وإن شاء عَزَلك، ولا تقدر على الامتناع عليه؛ وحينئذ[٥] المصلحة الرجوع إلى مصر. فرحَل عن الشُّوبَك عائداً إلى مصر [ولم يأخذه من الفرنج][٦].

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) ذكر منها ابن خلكان (٧/١٥٩ـــ١٦٠) أربعين بيتاً. وأولها:

قل للسحاب إذا مَرَتْـ ـهُ يد الجنائبِ فارْجَحَنْ
عج بالـلوى فاسمح بدَمْـ ـعِك للمعاهد والدِّمَنْ

(٣) الكامل في التاريخ: ١٠/٣٥.

(٤) زيادة عن ابن الأثير.

(٥) هذا اللفظ زائد ولا لزوم له. والأولى أن يقول: «والمصلحة الرجوع» كما في ابن الأثير.

(٦) زيادة عن ابن الأثير.

وكتب إلى نور الدين يعتذر بآختلال الديار المصريّة لأمور بلغتْه عن بعض شِيعة العلويّين، وأنّهم عازمون على الوثوب بها، وأنّه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلّف بها. فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغيّر عليه، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه عنها. وظهر ذلك لصلاح الدين فجمع أهلَه وفيهم أبوه نجم الدين أيّوب، وخالُه شهاب الدين الحارِميّ وسائر الأمراء، وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، فآستشارهم فلم يُجِبه أحد منهم بكلمة؛ فقام تقيّ الدين عمر آبن أخيه وقال: إذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله؛ فشتَمهم نجم الدين أيّوب وأنكر ذلك وآستعظمه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، ونحن أكثر محبّةً لك من جميع من ترى؛ والله لو رأيتُ أنا وخالك نور الدين لم يمكنا إلّا أن نقبّل الأرضَ بين يديه، ولو أمَرَنا أن نضرب عنقَك لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا فما ظنّك بغيرنا! وكلّ مَن ترى من الأمراء لو رأى نورَ الدين وحدَه لم يتجاسروا من الثبات على سُروجهم. ثم قال: وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوّابه فيها، فإن أراد غيرَ ذلك سمِعْنا وأطعنا؛ والرأي أن تكتب إليه وتقول: بلغني أنّك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلى هذا! يُرْسِل المولى نَجّاباً[1] يضعُ في رقبتي مِنْدِيلاً ويأخذني إليك، فما هاهنا من يمتنع عليك؛ وقام الأمراء وتفرّقوا. فلمّا خلا نجم الدين أيّوب بآبنه صلاح الدين قال له: يا بنيّ، بأيّ عقلٍ قلتَ هذا! أَمَا علمت أنّ نور الدين متى سمع عزمَنا على منعه ومحاربته جَعلَنا أهمَّ الوجوه عنده؛ وحينئذٍ لَا نقوى به؛ وإذا بلغه طاعتُنا له تَركَنا وآشتغل بغيرنا، والأقدارُ تَعْمل عملها؛ والله لو أراد نور الدين قصبةً من قصب السُّكّر لقاتلتُه أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل. ففعل صلاح الدين ما أشار به والدُه عليه؛ فترك نورُ الدين قصدَه وآشتغل بغيره؛ فكان الأمر كما ظنّه أيُّوب. وتُوُفِّي نور الدين ولم يقصِده. وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أصوب الآراء وأحسنها». اِنتهى كلام آبن الأثير بآختصار.

---

(١) النجّاب: البريديّ الذي يحمل البريد على النُّجب. ويجمعونها على: نجّابة. (التعريف بالمصطلح الشريف: ١٣٥، ٢٤١).

قال ٱبن شدّاد[١]: «ولم يزل صلاح الدين في نَشْر الإحسان وإفاضة النعم على الناس إلى سنة ثمان وستّين وخمسمائة، فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكَرَك والشُّوبَك، وإنّما بدأ بها لأنّها كانت أقرب إليه، وكانت على الطريق تمنع من يَقْصِد الديار المصريّة، وكان لا يمكن أن تَعْبُر قافلةٌ حتّى يخرج هو بنفسه يُعْبِرها، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها، فحاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنج وَقَعات، وعاد إلى مصر ولم يظفر منها بشيء. ولمّا عاد بلغه خبرُ وفاة والده نجم الدين قبل وصوله إليه. قال: ولمّا كانت سنةُ تسع وستين رأى قوّة عسكره وكثرةَ عَدَده، وكان بلغه أنّ باليمن إنساناً ٱستولى عليها وملك حصونهَا، وكان يسمّى عبد النبيّ بن مهديّ[٢]، فأرسل أخاه تُوران شاه فقتله وأخذ البلاد منه. ثم مات الملك العادل نور الدين محمود صاحبُ دِمشق في سنة تسع وستين وخمسمائة، على ما سيأتي ذكره في الوَفيات. ثم بلغ صلاحَ الدين أنّ إنساناً [يقال له «الكنز»][٣] جمع بأسْوانَ خَلْقاً كثيراً من السودان، وزعم أنّه يعيد الدولةَ العُبَيْديّة المصريّة. وكان أهل مصر يُؤْثِرون عَوْدَهم وٱنضافوا إليه، فَسيّر صلاحُ الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدّمه أخاه الملك العادل، فساروا وٱلتقوْا به، وكسروه في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة. ثم بعد ذلك ٱستقرّتْ له قواعدُ الملك. وكان نور الدين محمود قد خلّف ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان بدمشق عند وفاة أبيه. وكان بحلب شمسُ الدين عليّ بن الدّاية، وكان ٱبن الداية حدّث نفسَه بأمور، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها في المحرّم سنةَ سبعين ومعه سابق الدِّين[٤]، فخرج بدر الدين حسن[٥] بن الدّاية فقبَض على سابق

---

(١) ما زال المؤلف ينقل عن ابن خلكان. وانظر سيرة صلاح الدين لابن شداد: ص ٤٥ وما بعدها.

(٢) هو علي بن المهدي أبو الحسن المعروف بعبد النبي صاحب زبيد. كان قطع الخطبة العباسية، فاستأذن صلاح الدين نور الدين محمود في أن يسير إليه فأذن له. فسيّر إليه أخاه توران شاه بن أيوب فأسره وملك زبيد وأقام فيها الخطبة العباسية.

(٣) زيادة عن ابن خلكان والسيرة.

(٤) هو سابق الدين عثمان بن محمد بن نوشتكين المشهور بابن الداية، صاحب شيزر، أحد أولاد الداية الأربعة. وكانت أمهم داية نور الدين الشهيد. توفي سنة ٥٩٢هـ. (ذيل الروضتين: ١٠).

(٥) هو صاحب حارم وعين تاب وأعزاز (الروضتين).

الدين. ولمّا دخل الملك الصالح قلعة حلب قبض على شمس الدين عليّ بن الداية، وعلى أخيه بدر الدين حسن المذكور، وأودع الثلاثةَ السجن. وفي ذلك اليوم قُتِل أبو الفضل بن الخشّاب لفتنةً جرتْ [بحلب](١)، وقيل: بل قُتِل قبل القبض على أولاد الدّاية [بيوم، لأنهم تولوا تدبير ذلك](١).

ثم(٢) إنّ صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أنّ ولدَه الملك الصالح صبيّ لا يستقلّ بالأمر، ولا يَنْهَض بأعباء الملك، وآختلفت الأحوال بالشام. وكاتب شمسُ الدين [محمد بن عبد الملك](٣) بن المقدَّم صلاحَ الدين، فتجهّز صلاحُ الدين من مصر في جيش كثيف، وترك بالقاهرة مَن يحفظها، وقصد دمشق مظهِراً أنّه يتولى مصالح الملك الصالح؛ فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سَلْخَ شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة، وتسلّم قلعتَها وآجتمع الناس إليه وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم مالاً جزيلاً، وأظهر السرورَ بالدِّمَشْقِيّين وصعِد القلعةَ؛ ثم سار إلى حلب ونازل حِمْصَ وأخذ مدينتها في أوّل جمادى الأولى، ولم يشتغل بقلعتها وتوجّه إلى حلب، ونازلها في يوم الجمعة سَلْخَ جمادَى الأولى من السنة، وهي الوقعة الأولى.

ثم إنّ سيف الدين غازي بن قطب الدين مَوْدود بن زَنْكي صاحب الموصل لمّا أحسّ بما جرى علم أنّ الرجل قد آستفحل أمرُه وعظُم شأنه، فخاف إن غَفَل عنه آستحْوَذ على البلاد وآستقرت قَدَمه في المُلْك وتعدّى الأمر إليه، فأرسل عسكراً وافراً، وجيشاً عظيماً، وقدّم عليه أخاه عزّ الدين مسعود بن قُطْب الدين مودود، وساروا يريدون لقاءَ صلاح الدين نَجْدةً لابن عمّه الملك الصالح آبن نور الدين، ليردّوا صلاحَ الدين عن البلاد. فلمّا علم صلاح الدين ذلك رحَل من حلب في مستهلّ رجب من السنة عائداً إلى حَمَاة، ثم رجع إلى حِمْص وأخذ قلعتَها. ووصل عزُّ الدين مسعود إلى حلب وأخذ معه عسكر آبن عمّه الملك الصالح إسماعيل بن

---

(١) زيادة عن ابن خلكان والسيرة.

(٢) ابن خلكان: ١٦٥/٧، والسيرة: ٥٠.

(٣) زيادة عن الروضتين وابن الأثير. وهو الأمير الذي تولى تربية الملك الصالح إسماعيل بعد وفاة والده نور الدين.

نور الدين محمود، وهو صاحب حلب يومئذ، وخرجوا في جمع عظيم؛ وما علم صلاح الدين بخروجهم حتّى وافاهم على قرون[(١)] حماة، فراسلهم وراسلوه، وآجتهد صلاح الدين على أن يصالحوه فلم يصالحوه؛ ورأى أن ضرب المَصَافّ معهم ربّما نالوا به غرضهم، والقضاء يَجْري إلى أموره وهم لا يشعرون. فتلاقَوْا فقضى الله تعالى أنهم آنكسروا بين يديه، وأسر جماعةً منهم فَمنّ عليهم وأطلقهم، وذلك في تاسع عشر شهر رمضان من السنة عند قُرون حَمَاة. ثم سار صلاحُ الدين عَقِيبَ كسرتهم[(٢)] ونزل على حلب، وهي الدفعة الثانية، فصالحوه على المَعَرَّة وكَفَرْطَاب وبارِين. ولمّا جرتْ هذه الواقعة كان سيف الدين غازي محاصراً أخاه عِماد الدين زَنْكِي صاحب سِنْجار، وعزم على أخذها منه، لأنّه كان قد آنتمى إلى صلاح الدين، وكان قد قارب أَخذها. فلمّا بلغه خبرُ هذه الواقعة، وأنّ عسكره آنكسر من صلاح الدين على قُرون حَمَاة خاف أن يبلغ أخاه عمادَ الدين الخبرُ فيشتدَّ أمرُه ويَقْوَى جأشُه، فراسله وصالحه. ثم سار غازي من وقته إلى نَصِيبين وآهتمّ بجمع العساكر والإنفاق فيها، وسار إلى الفُرات وعبَرَ البِيرَة وخيمّ على الجانب الشاميّ، وراسل آبن عمّه الملك الصالح آبن الملك العادل نور الدين صاحب حلب حتى تستقرَّ له قاعدة يصل إليها. ثم إنّه وصل إلى حلب وخرج آبن عمّه الملك الصالح صاحب حلب إلى لقائه، وأقام غازي على حلب مدّة، وصعِد قلعتَها جريدة؛ ثم نزل وسار إلى تلّ السلطان، وهي منزلة بين حلب وحَمَاة، ومعه جمع كبير. وأرسل صلاحُ الدين إلى مصر وطلب عسكرَها، فوصل إليه منها جمع كبير، فسار بهم صلاحُ الدين حتّى نزل قُرون حَمَاة ثانياً. وتَصَافُّوا بكُرْةَ يوم الخميس العاشر من شوّال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وجرى قتالٌ عظيم، وآنكسرتْ مَيْسرة صلاح الدين من مظفَّر الدين بن زَيْن الدين صاحب إرْبِل، فإنّه كان على مَيْمنة سيف الدين غازِي، فَحَمل صلاحُ الدين بنفسه على عسكر سيف الدين غازي حَمْلةً شديدة فآنكسر القومُ، وأَسر منهم جماعةً من كبار الأمراء، فَمنّ عليهم صلاح الدين

---

(١) قرون حماة: قلّتان متقابلتان، جبل يشرف على حماة ونهرها العاصي. وبين كل واحد من حماة وحمص والمعرّة وسلمية وبين صاحبه يوم. (معجم البلدان: مادة حماة).

(٢) في الأصل: «عقيب عسكرهم». وما أثبتناه عن السيرة وابن خلكان.

وأطلقهم. وعاد سيف الدِّين غازِي إلى حلب فأخذ منها خزائنه وسار حتّى عَبَر الفراتَ، وترك آبنَ عمّه الملكَ الصالح صاحبَ حلب بها وعاد إلى بلاده. ومنع صلاحُ الدين من تتبّع القوم، ونزل في بقيّة اليوم في خيامهم، فإنّهم تركوا أثْقالهم وآنهزموا؛ وفرّق صلاحُ الدين الأطلاب ووهَب الخزائنَ وأعطى خَيْمة سيف الدين غازِي لابن أخيه عزّ الدين فرخشاه بن شاهِنْشَاه بن أيّوب أخي تقيّ الدين عمر صاحبِ حَمَاة، وكان فرخشاه صاحب بَعْلَبَكّ. ثم سار صلاحُ الدين إلى مَنْبِج فتسلّمها، ثم سار إلى قلعة عَزَاز وحاصرها في رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. وبينما صلاحُ الدين بها وثب عليه جماعةٌ من الإسماعيليّة (أعني الفِداوية) فنجّاه الله منهم وظفِر بهم. وأقام عليها حتّى أخذها في رابع عشر ذي الحجّة من السنة. ثم سار فنزل على حلب في سادس عشر ذي الحجّة وأقام عليها مدّة. ثم رحل عنها بعد أن أخرجوا له آبنةً صغيرةً لنور الدين محمود فسألْته عَزَازَ فوَهبها لها. ثم عاد صلاحُ الدين إلى مصر ليتفقّد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وسبعين وخمسمائة؛ وكان أخوه شمس الدولة تُوران شاه بن أيّوب قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدِمَشق. ثم بعد ذلك تأهّب صلاح الدين للغَزَاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرَّملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك الوقت. ولمّا آنهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأْوُون إليه، فطلبوا جهةَ الديار المصرية وضَلّوا في الطريق وتبددوا، وأسِر منهم جماعة: منهم الفقيه عيسى الهَكّارِيّ. وكان ذلك وهْناً عظيماً، جبَره الله تعالى بوقعة حِطّين المشهورة.

ووصل صلاح الدين إلى مصر ولمَّ شَعَثَه وشعثَ أصحابه من أثر كَسْرة الرَّمْلة؛ ثم بلغه تخبُّط الشام فعاد إليه وآهتم بالغَزَاة، فوصله رسولُ صاحب الروم[١] يلتمس الصلح ويتضرّر من الأرمن، فعزم[٢] على قصد بلاد آبن لاون (يعني بلاد سِيس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل) [لينصر قليج أرسلان عليه][٣]؛ فتوجّه

(١) المقصود صاحب بعض البلاد على تخوم بلاد الروم، وهو قليج أرسلان.

(٢) عبارة الأصل: «ويتضرر من الأرمن، يقصد بلاد ابن لاوي.» وما أثبتناه عن ابن خلكان والسيرة.

(٣) زيادة عما سبق.

صلاحُ الدين إليه، وآستدعى عسكر حَلَب، لأنّه كان في الصلح متى آستدعاه حضر إليه؛ (يعني صلح صلاح الدين مع الملك الصالح صاحب حلب). ثم دخل صلاحُ الدين بلاد آبن لاون وأخذ في طريقه حصناً وأَخْربه، ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم. ثم سأله قليج أَرْسلان في صلح الشرقيّين بأسرهم (يعني سيفَ الدين غازي وإخوته) فأجاب [إلى] ذلك صلاح الدين وحلف في عاشر جمادى الأولى سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، ودخل في الصلح قليج أَرْسلان والمَوَاصِلةُ. ثم عاد صلاح الدين بعد تمام الصلح إلى دِمشق؛ ثم منها إلى مصر. فورد عليه الخبرُ بموت الملك الصالح آبن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بعد أن آستحلَف أمراء حَلَب وأجنادَها قبل موته لابن عمّه عز الدين مسعود صاحب المَوْصل، وهو آبن عم قطب الدين مودود. ولمّا بلغ عزّ الدين مسعوداً خبرُ موت آبن عمّه الملك الصالح المذكور، وأنّه أوصى له بحلب بادر إلى التوجّه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين إليها فأخذها. وكان أوّل قادم إليها مظفّر الدين بن زَيْن الدين صاحب إِرْبِل، وكان إذ ذاك صاحب حَرَّان، وهو مضاف إلى الموصل، ووصلها مظفّر الدين المذكور في ثالث شعبان من سنة سبع وسبعين. وفي العشرين منه وصلها عزّ الدين مسعود وطلع إلى القلعة وآستولى على ما فيها من الحواصل، وتزوّج بأم الملك الصالح في الخامس من شوّال من السنة. قال[1]: وحاصل الأمر أنّ عزّ الدين مسعوداً قايض [أخاه][2] عِماد الدين زَنْكي صاحب سِنْجار عن حلب بسِنْجار، وخرج عزُّ الدين من حلب ودخلها عِمَاد الدين زَنْكي، فلمّا بلغ صلاح الدين ذلك توجّه إليه وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرّم سنة سبع وسبعين وخمسمائة. فتحدّث عماد الدين زَنْكي مع الأمير حُسام الدين طُمَان بن غازي في السرّ بما يفعله، فأشار عليه أن يطلب من صلاح الدين بلاداً وينزل له عن حلب، بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال؛ فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي. ثم آجتمع حسام الدين طمان بن غازي مع صلاح الدين في السرّ على

(١) المقصود ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

تقرير القاعدة لذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب ووقّع له بسِنجار وخابُور ونَصِيبين وسَرُوج، ووقّع لطُمَان المذكور بالرّقّة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع [عشر][1] صفر من السنة؛ وكان صلاح الدين قد نزل قبل تاريخه على سِنْجار وأخذها في ثامن[2] شهر رمضان من سنة ثمان وسبعين وأعطاها لابن أخيه تقيّ الدين عمر؛ فلمّا جرى الصلح على هذا أخذها من عمر وأعطاها لعماد الدين المذكور. وتسلّم صلاحُ الدين قلعة حلب وصعِد إليها في يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر [سنة تسع وسبعين وخمسمائة][1]، وأقام بها حتّى رتّب أمورها ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وجعل فيها ولده الملك الظاهر وكان صبيّاً، وولّى القلعة لسيف الدين يازكوج الأسديّ وجعله يرتّب مصالح ولده.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق وتوجّه من دمشق لقصد محاصرة الكَرَك في الثالث من رجب من السنة، وسيّر إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر، يستدعيه ليجتمع به على الكَرَك، فسار إليه الملك العادل أبو بكر بجمع عظيم وجيش كبير، وآجتمع به على الكَرَك في رابع شعبان. فلمّا بلغ الفرنجَ نزولُه على الكَرَك حشَدوا خلقاً عظيماً وجاؤوا إلى الكَرَك ليكونوا من خارج قُبَالَةَ عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصريّة، فسيّر إليها آبن أخيه تقيّ الدين عمر، ثم رحل صلاح الدين عن الكَرَك في سادس عشر شعبان من السنة (وآستصحب أخاه الملك العادل معه) ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة، وأعطى أخاه العادل حلب، فتوجّه إليها العادل ودخلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة. وخرج الملك الظاهر ويازكوج من حلب ودخلا دمشق يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوّال من السنة. وكان الملك الظاهر أحب أولاد أبيه إليه لما فيه من الخِلال الحميدة، ولم يأخذ منه حلب إلّا لمصلحة رآها أبوه صلاح الدين في ذلك الوقت. وقيل: إنّ الملك العادل أعطاه على أخذ حلب ثلاثمائة ألف دينار

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «في ثاني» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

يستعين بها على الجهاد. ثم إنّ صلاح الدين رأى أنّ عَوْد الملك العادل إلى مصر، وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح. قيل: إنّ علم الدين سليمان بن جَنْدَر[١] كان هو السبب لذلك، فإنّه قال لصلاح الدين (وكانت بينهما مؤانسة قبل أن يتملّك البلاد، وقد سايره يوماً، وكان من أمراء حلب، والملك العادل لا يُنصفه، وقدّم عليه غيره؛ وكان صلاح الدين قد مرِض على حصار الموصل! وحُمِل إلى حَرَّان وأشْفَى على الهلاك، ولمّا عُوفِيَ ورجع إلى الشام وآجتمعا في المسير، قال له ــ وكان صلاح الدين قد أُوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد ــ): بأيّ رأيٍ كنتَ تظنّ أنّ وصيَّتَك تُنفَّذ! كأنّك كنت خارجاً إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك! أما تَسْتَحِي [أن][٢] يكون الطائر أَهْدى منك إلى المصلحة؟ قال صلاح الدين: وكيف ذلك؟ وهو يضحك؛ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عُشّاً لفراخه قصدَ أعاليَ الشجر ليَحْمي فراخَه، وأنت سلَّمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض؛ هذه حلب ــ وهي أمّ البلاد ــ بيد أخيك، وحَمَاة بيد آبن أخيك تقيّ الدين عمر[٣]، وحِمْص بيد آبن عمك أَسَد[٤] الدين؛ وآبنك الأفضل مع تقيّ الدين بمصر يُخرجه متى شاء، وآبنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد؛ فقال له صلاح الدين: صدقتَ، فآكتُم هذا الأمر؛ ثم أخذ حلب من أخيه العادل وأعادها إلى آبنه الملك الظاهر، وأعطى العادل بعد ذلك حَرَّان والرُّها ومَيَّافارقين ليخرجه من الشام. وفرّق الشام على أولاده، فكان ما كان. وزوّج السلطان صلاحُ الدين ولدَه الملك الظاهر بغازِية خاتون آبنة أخيه الملك العادل المذكور.

ثم كانت وقعة حِطِّين المباركة على المسلمين، وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة. وكان صلاح الدين كثيراً ما يقصِد لقاء العدوّ في يوم الجمعة عند الصلاة تبرّكاً بدعاء

(١) في الأصل: «حيدر». وما أثبتناه عن ابن خلكان وابن الأثير والروضتين.
(٢) زيادة عن ابن خلكان. .
(٣) المراد أنها بيد ابن تقي الدين. لأن تقي الدين كان بمصر، كما سيأتي بعد قليل.
(٤) المراد أنها بيد ابن أسد الدين، لأن أسد الدين شيركوه كان قد توفي قبل هذا التاريخ.

المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت وآجتمع له من العساكر الإسلامية عدد يفوت الحَصر، وكان قد بلغه أنّ العدوّ آجتمع في عِدَّة كثيرة بمَرْج صَفُّورِيَة[١] بأرض عَكّا عندما بلغهم آجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين ونزل على طَبَرِيّة على سطح الجبل ينتظر قَصْد الفرنج؛ فلمّا بلغهم نزولُه في الموضع المذكور لم يتحرّكوا ولا خرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم في الموضع المذكور يومَ الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر؛ فلما رآهم لا يتحركون نزل جَريدةً على طَبَرِيّة، وترك الأطلاب[٢] على حالها قُبالة العدوّ، ونزل طبريّةَ وهَجمها وأخذها في ساعة واحدة، وآنتهب الناس ما فيها، وأخذوا في القتل والسَّبْي والحريق؛ وبقِيت القلعة ممتنعةً بَمن[٣] فيها. ولمّا بلغ العدوّ ما جرى في طبريّة قَلقوا لذلك ورحَلوا نحوها، فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبرية مَن يحاصرها ولَحِق بالعسكر، وآلتقى بالعدوّ على سطح جبل طبريّة الغربيّ منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، فحال الليل بين العسكرين، فناما على المَصَافّ إلى بُكْرة يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، فركب العسكران وتصادما وآلتحم القتال وآشتدّ الأمر؛ ودام القتال حتّى لم يبق إلاّ الظَّفَر، فحال الليل بينهم، وناما على المَصَافّ. وتحقّق المسلمون أنّ من ورائهم الأُرْدُنَّ، ومن بين أيديهم بلاد العدوّ، وأنّهم لا يُنجيهم إلاّ القتال والجهاد. وأصبحوا من الغد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب، وحمَل القلبُ وصاحوا صيحةَ رجل واحد: [آلله أكبر][٤] وألقى الله الرُّعْبَ في قلوب الكافرين، وكان حقّاً عليه نصرُ المؤمنين.

ولما أحسّ الملك القُومِص[٥] بالخذلان هرب في أوائل الأمر [وقصد جهة

(١) في الأصل: «بمرج صفر» وما أثبتناه عن ابن خلكان والسيرة وابن الأثير.

(٢) أي كتائب الجيش ــ راجع ص ١٠، حاشية (١).

(٣) كان فيها زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي، حفيد سان جيل (صنجيل)، قمص (قومص) طرابلس. (الحروب الصليبية كما رآها العرب: ص ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٣٩).

(٤) زيادة عن ابن خلكان.

(٥) القومص Comes هو ريمند صاحب طرابلس. راجع الحاشية (٣) أعلاه.

صور](١)، فتبِعه جماعة من المسلمين، فنجا منهم. وأحاط المسلمون بالكافرين من كلّ جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحَمَلوا عليهم بـالسيوف، وسَقَـوْهم كأسَ الحِمام، وآنهزمت طائفة منهم فتبِعهم المسلمون يقتلونهم؛ وآعتصمت طائفة منهم بتَلّ يقال [له](١): تلّ حِطِّين، وهي قرية عندها قبر النبـيّ شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران، وآشتدّ بهم العَطَش فآستسلموا [للأسر خوفاً من](١) القتل، فأسِر مقدموهم وقُتِل الباقون؛ وكان ممّن أُسِر من مقدميهم الملك جُفْري(٢) وأخوه الملك، [وآلبِرِنْس أرناط](٣) صاحب الكرك والشوبك، وآبن الهُنْفِري(٤) وآبن صاحب طبريّة(٥)، [ومقدّم الديويّة، وصـاحب جبيل، ومقـدّم الاسبتار](١).

قال آبن شدّاد: لقد حكى لي مَن أَثِق به أنّه رأى بحَوْرَان شخصاً واحداً ومعه نيِّف وثلاثون أسيراً ربطهم بطُنُب خَيْمة، لما وقـع عليهم من الخِذلان.

ثم إنّ الملك القُومِص الذي هرب في أوّل الوقعة وصل إلى طَرَابُلُس، وأصابه ذات الجَنْب فهلك. وأمّا مقدّم الأسْبِتار والدِّيْوِيّة(٦) فإنّه قتلهما السلطان صلاح الدين،

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) كان من حقه أن يقول: الملك (جاي) Guy وجفري أخوه (جفري Geoffri de Lusignan. وقد نبّه دي سلّان إلى ذلك، ولكن المؤلف هنا يتابع ابن خلكان الذي يتابع بدوره ابن شداد في السيرة. (وفيات الأعيان: ١٧٦/٧، حاشية: ٢).

(٣) زيادة عن ابن خلكان والسيرة. والبرنس أرناط هو: Prince Renaud de Chatillon ويرد اسمه في بعض الكتابات الإسلامية: رانود.

(٤) ابن الهنفري: Humphrey of Thoron.

(٥) لعله ابن ريمند بن ريمند الصنجيلي.

(٦) الإستبار، أو الاستبارية، أو الاسبِتارية هو تعريب لكلمة Les Hospitaliers الفرنسية. وقد أنشأ الفرنجة في القدس مشافي يشرف عليها الرهبان، ونجم عنها تأسيس ثلاث منظمات رهبانية عسكرية هدفها إيواء ومداواة المرضى والجرحى من الجنود والحجاج المسيحيين؛ وهذه المنظمات هي: منظمة فرسان القديس يوحنا، ومنظمة فرسان الهيكل وهما فرنسيتان، ومنظمة الفرسان التوتونيين وهم من الألمان. أما منظمة فرسان القديس يوحنا أو فرسان بيت المقدس، وأسماهم العرب الإسبتارية، فقد تأسست في السنة التي استولى فيها الصليبيـون على القدس سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م. وقد اضطلـع أفرادها بدور كبير في الحروب التي خاضها الصليبيـون في فلسطين. ولم تلبث المنظمة أن اكتسبت سلطة واسعة ونفوذاً قوياً بفضل

وقَتَل مَن بقي من أصحابها حيّاً؛ وأمّا آلْبِرِنْس أرناط فإنّ السلطان كان نَذَر أنّه إن ظَفِر به قتله، وذلك أنّه كان عَبَر إليه بالشَّوبَك قوم من الديار المصريّة في حال الصلح فَغَدر بهم وقتلهم، فناشدوه الصلح الذي بينه وبين السلطان، فقال ما يتضمّن الاستخفافَ بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ وبلغ ذلك السلطانَ، فحملتْه حَمِيّة دينه على أن أهدر دمه.

ولمّا فتح الله عليه بالنصر جلس بالدِّهْلِيز (يعني الخَيْمة) فإنّها لم تكن نُصِبت بعدُ لشغل السلطان بالجهاد، وعُرِضتْ عليه الأَسَارَى، وصار الناس يتقرّبون إليه بما في أيديهم منهم، وهو فرِحٌ بما فتح الله عليه؛ وأشْخَصَ الملكَ جُفْري وأخاه، وآلْبِرِنْس أرناط، وناول السلطانُ الملكَ جُفْرِي شَرْبةً من جُلَّاب وثَلْج فشرب منها، وكان على أشدّ حال من العطش ثم ناولها لِلْبِرِنْس، ثم قال السلطان للتَّرجُمان: قل للملك أنت الذي سقيتَه وإلّا أنا فما سقيتُه، فإنّه كان من جميل عادة العرب وكريم

= المساعدات المادية والأموال التي كانت تجبى باسمها في جميع أنحاء أوروبا المسيحية. ولما استرد العرب مدينة القدس بعد معركة حطين ٥٨٣هـ رحل الإسبتارية عنها إلى عكا، ثم انتقلوا بعد تحرير عكا سنة ٦٩٠هـ إلى قبرص وبعدها إلى رودس سنة ٧٠٩هـ، وفيها أقاموا مؤسساتهم الدينية والدنيوية، وعرفوا يومئذ بفرسان رودس. وقد نعمت المنظمة عهدئذ بفترة ازدهار وتألق، فامتدت سيطرتها وقامت بغزوات بحرية ناجحة على سواحل البحر المتوسط. وفي سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م لم يستطيعوا الثبات أمام جحافل السلطان سليم الأول القانوني، فنزحوا عن رودس، وكاد شملهم يتفرّق لولا أن منحهم الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٨هـ جزيرة مالطة فجعلوها مقرهم الرئيسي وسموا بعدها فرسان مالطة. وانصرفوا بعد زوال تعصبهم الديني وضعف الروح العسكرية فيهم إلى أعمال البر والإحسان. وظلت تسمية فرسان مالطة هي الغالبة عليهم.

أما منظمة الداوية، أو فرسان المسيح الفقراء، أو فرسان الهيكل Les Templiers، وسمّاهم العرب الداويّة أو الديويّة، فقد تأسست سنة ٥١٣هـ/١١١٩م؛ وكانت أهدافها مثل منظمة الإسبتارية. وقد اختلط تاريخهم بتاريخ الحروب الصليبية، واشتهروا بتعصبهم وشراستهم في الحرب. وبفضل التأييد الشعبي المسيحي في الغرب وتدفق الأموال عليها، غدت منظمة الداوية أغنى المؤسسات في ذلك الوقت؛ وبفضل الأموال الهائلة التي تدفقت عليها تمكنت من إنشاء الوكالات والبيوت التجارية والمصرفية في الشرق والغرب، حتى غدت «مصرفاً للبابوات والملوك والأمراء». بيد أن هذا الثراء أثار حفيظة الناس والحكام وكان من الأسباب التي أدت إلى القضاء على المنظمة. وكان أن أصدر البابا كليمان الخامس سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م مرسوماً بإلغاء المنظمة في جميع أنحاء أوروبا المسيحية وحرمان كل من يرتدي ملابسها. ثم أمر البابا بإحراق رئيسها الأعلى جاك دي مولاي حياً. (عن الموسوعة الفلسطينية: ١/٢٠٥ ـ ٢٠٦ و ٢/٣٩٦ ـ ٣٩٧ باختصار).

أخلاقهم أنّ الأسير إذا أكل أو شرب من مال مَن أسره أَمِن؛ فلذا قال السلطان للتَّرْجُمَان: أنت الذي سقَيتَه. ثمّ أمر السلطانُ بمسيرهم إلى موضع عيّنه لهم فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم ولم يبق عند السلطان سوى بعض الخَدَم؛ فاستحضرهم وأقعد الملكَ في دِهليز الخيمة، فطلب ٱلْبِرِنْس أرناط وأوقفه بين يديه، وقال [له][1]: ها أنا أنتصر لمحمد منك. ثم عَرَض عليه الإسلام فلم يفعل، فسلّ النيمجاة[2] فضربه بها فَحلّ كتفَه، وتمم قتلَه مَن حضر، وأُخرِجت جثّته ورُميت على باب الخيمة؛ فلما رآها الملك جُفْرِي لم يشكّ أنه يُلحقه به، فٱستحضره السلطان وطيّب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، إلاّ أنّ هذا تجاوَزَ الحدَّ وتجرّأ على الأنبياء صلوات الله عليهم، ثم أمره بالانصراف. وبات الناسُ تلك الليلة على أتمّ سرور. وفي هذه الواقعة يقول العِماد[3] الكاتب قصيدةً طنّانة منها: [الطويل]

حططتَ على حِطين قَدْرَ ملوكهم ... ولم تُبقِ من أجناس كفرهمُ جِنْسا
بطون ذئاب الأرض صارت قُبورَهم ... ولم تَرْضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسا
وقد طاب رَيّانا على طَبَـرِيّة ... فيا طيبها ريّا ويا حُسْنَها مَرْسى

وقال ٱبن السّاعاتيّ[4] قصيدةً أخرى عظيمةً في هذا الفتح، أوّلها: [الوافر]

جلت عـزماتـك الفتـح المبينا ... فقــد قـرّت عيــون المؤمنينا

ثمّ رحل السلطان بعد أن تسلم طَبَريّة ونزل على عَكّا في يوم الأربعاء سَلْخ شهر ربيع الآخر، وقاتلها بُكْرةَ يوم الخميس مستَهلّ جمادَى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة؛ وأخذها وٱستنقذ مَن كان فيها من أُسَارى المسلمين، وكانوا أكثرَ من أربعة آلاف أسير، وٱستولى على ما كان فيها من الأموال والذخائر والبضائـع،

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) النيمجاه: خنجر مقوس شبه السيف القصير (فارسي معرب). ويقال أيضاً: نمجاه، ونمجا، ونمجه، ونمشا، ونمشاه، ونمشه. (صبح الأعشى: ٤/٢٤ والتعريف بمصطلحات الصبح: ٣٥٢).

(٣) هو القاضي عماد الدين أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله الأصفهاني. توفي سنة ٥٩٧هـ.

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد بن رستم المعروف بابن الساعاتي. توفي سنة ٦٠٤هـ.

لأنّها كانت مظنّة التجّار؛ وتفرّقت العساكرُ في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقِلاع.

ثم سار السلطان من عكّا ونزل على تِبْنِين[١] يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى، وهي قلعة مَنِيعة، فحاصرها حتّى أخذها في يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى المذكور عَنْوةً. ثمّ رحل عنها إلى صَيْدَا فنزل عليها وتسلّمها في غد يوم نزوله عليها.

ثم رحل عنها وأتى بَيْرُوت فنازلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، حتى أخذها في يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى.

ولمّا فرغ باله من هذا رأى قَصْد عَسْقَلان، ولم يَرَ الاشتغالَ بصُور بعد أن نزل عليها؛ ثم رأى أنّ العسكر تفرّق في الساحل وكانوا قد ضرسوا من القتال؛ وكان قد آجتمع بصور مَن بقي من الفرنج فرأى أنّ قصده عَسْقلان أولى، لأنّها أيسرُ من صُور؛ فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة. وأقام عليها إلى أن تسلّم أصحابُه مدينة غَزّة وبيتَ جبريل[٢] والنطرون من غير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها ثانياً من المسلمين خمس وثلاثون سنة؛ فإنّ أخذها كان في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ولمّا تسلّم السلطان عسقلان والبلاد المحيطة بالقُدْس شمّر عن ساق الجِدّ والاجتهاد في قصد القدس المبارك، وآجتمع عليه العساكر التي كانت متفرّقة في الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمداً على الله تعالى مفوِّضاً أمرَه إليه منتهزاً الفُرْصة في فتح باب الخير الذي حُثّ على آنتهازه بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن فُتِح له بابُ خير فلينتهزْه فإنّه لا يعلم متى يُغلق دونه». وكان نزول السلطان على

(١) من بلدات جبل عاملة في لبنان الجنوبي. وهي قائمة على تلة مرتفعة، وفيها قلعة حصينة من بناء الصليبيين.

(٢) والصواب أن يقال: «بيت جبرين» وهو لفظ من أصل كنعاني يعني: بيت الأقوياء الجبابرة. وهي قرية تقع عند نهاية السفوح الغربية لجبال الخليل على بعد ٢٦ كلم شمالي غربي الخليل. (الموسوعة الفلسطينية: ١/٤٤٥).

القدس في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين المذكورة، ونزل بالجانب الغربيّ، وكان مشحوناً بالمقاتِلة من الخيّالة والرَّجالة حتّى إنّه حَزَر أهلُ الخِبْرة، ممّن كان مع السلطان، مَن كان[١] فيه من المُقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصِّبيان؛ ثم آنتقل السلطان لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب ونَصَب عليها المجانيق وضايق البلدَ بالزَّحْف والقتال حتّى أخذ النَّقْب في السور ممّا يلي وادي جهنمَّ. ولمّا رأى العدوّ ما نزل بهم من الأمر الذي لا مَدْفع لهم عنه، وظهرت لهم أَمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم، وكان قد آشتدّ رَوْعُهم لِما جرى على أبطالهم ما جرى، فآستكانوا إلى طلب الأمان، وسلّموا المدينة في يوم الجمعة السابع[٢] والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المِعْراج المنصوص عليها في القرآن الكريم. فآنظر إلى هذا الاتفاق العظيم، كيف يسر الله تعالى عَوْده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيّهم صلّى الله عليه وسلّم.

قال: وكان فتحاً عظيماً شهِده من العلماء خَلْق، ومن أرباب الحرب[٣] والزُّهد عالَم كثير، وآرتفعت الأصوات بالضَّجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصُلِّيت فيه الجمعة يوم فتحه، ونُكِّس الصليب الذي كان على قُبّة الصخرة، وكان الصليب شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام.

وكان الفرنج قد آستَوْلَوْا على القُدْس ــ بعد فتحه الأوّل في زمن عمر ــ في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة؛ وقيل: في ثاني شعبان وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة (أعني سنة آثنتين وتسعين)، وذلك كان في خلافة المُسْتَعْلِي أبي القاسم أحدِ خلفاء مصر من بني عُبَيْد، وكان من وزارة بَدْر الجَمَالِي بديار مصر. وقد حَكَيْنا طَرَفاً من ذلك في ترجمة المستعلي في هذا الكتاب. قلت: وعلى هذا الحساب يكون القدس أقام بيد

---

(١) عبارة الأصل مضطربة السياق. وقد أثبتنا عبارة ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «السادس والعشرين». وما أثبتناه عن خلكان والسيرة والروضتين.

(٣) في ابن خلكان: «أرباب الخِرَق».

الفرنـج نيّفاً وتسعين سنة من يوم أخذوه في خلافة المستعلي إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين في هذه المرّة ثانياً. ولله الحمد.

قال ابن شَدّاد[١]: «وكانت قاعدة الصلـح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلّ رجل عشرين ديناراً، وعن كلّ امرأة خمسةَ دنانير صُوريّة، وعن كلّ صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أَحْضر قطيعتَه نجا بنفسه وإلاّ أُخِذ أسيراً، وأفْرِج عمّن كان بالقدس من أسارَى المسلمين، وكانوا خَلْقاً عظيماً. وأقام السلطان بالقدس يجمـع الأموال ويفرّقها على الأمراء والرجال، ثم رسم[٢] بإيصال من قام بقطيعته من الفرنـج إلى مأْمنه، وهي مدينة صُور، فلم يرحَل السلطان من القدس ومعه من المال الذي جبـي شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار [وعشرين ألفاً][٣]».

ولما فَتَـح القدسَ[٤] حسُنَ عنده فتحُ صُور، وعلم أنّه متى أخّره عسُر عليه

---

(١) النقل عن ابن خلكان الذي ينقل رواية ابن شداد. انظر السيرة: ٨٢.

(٢) في ابن خلكان: «وتقدم بإيصال».

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

(٤) كانت مقاومة الفرنـج في القدس باسلة ولكن قصيرة ومن غير أوهام. فعلـى الرغم من شجاعة «باليان» صاحب الرملة الذي كان ينظم ويقود الفرنجة، فإنه لم يكن قادراً على إزعاج جيش المسلمين بشكل جدّي. وإذا كانت أسوار المدينة متينة وأهلها الفرنـج شديدي التعلق بها، فإن جهاز الدفاع كان ينحصر في حفنة من الفرسان وبضـع مئات من المدنيين الذين لا يملكون أية خبرة عسكرية. ومن جهة ثانية فإن المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس واليعاقبة الذين يعيشون في القدس كانوا في جانب صلاح الدين، ولا سيما رجال الكهنوت الذين طالما أساء إليهم الرهبان اللاتين. حتى إن أحد مستشاري السلطان الرئيسيين كان كاهناً أرثوذكسياً يدعى يوسف بتيت، وهو الذي سيهتم بأمر الاتصالات بالفرنـج والطوائف المسيحية الشرقية. وقبل الحصار بقليل كان رجال الكهنوت الأرثوذكس قد وعدوا «بتيت» بفتـح أبواب المدينة إذا طال عناد الغربيين.

وفي يوم الجمعة الثاني من تشرين الأول ١١٨٧م الموافق للسابـع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ كان دخول صلاح الدين إلى المدينة المقدّسة. وكان أمراؤه وجنوده مزوّدين بأوامر محدّدة وصارمة: عدم التعرّض لأي مسيحي، سواء أكان فرنجياً أم شرقياً. والحق أنه لم يحدث ذبـح ولا نهب. وطالب بعض المتزمتين بهدم كنيسة القيامة عقاباً على التعديات التي ارتكبها الفرنـج، ولكن صلاح الدين أوقفهم عند حدّهم، بل إنه ضاعف من الحراسة على أمكنة العبادة وأعلن أنه في وسـع الفرنـج أنفسهم أن يقدموا للحـجّ إذا شاؤوا. وبينما كان صلاح الدين يطوف في ثلّة من رفاقه من محراب إلى محراب باكياً داعياً ساجداً، كان معظم

فتحُه، فسار نحوها حتى أتى عَكّا فنزل عليها ونظر في أمورها؛ ثم رحل عنها متوجِّهاً إلى صُور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين المذكورة، فنزل قريباً منها، وأرسل لإحضار آلات القتال حتّى تكاملت عنده؛ نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتل أهلَها قتالاً شديداً وضايقها، وآستدعى أسطولَ مصر، وكان السلطان يضايقها في البّر والبحر[ثمّ سيَّر من حاصر هونين فسلّمت في الثالث والعشرين من شوّال من السنة][1]؛ وخرج أسطول صُور في الليل فكبس أسطول المسلمين في البحر، وأخذوا المقدّم والرئيس وخمس قِطَع للمسلمين، وقتلوا خَلْقاً كثيراً من الرجال، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور؛ وعظُم ذلك على السلطان وضاق صدره؛ وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الأمطار وآمتنع الناس من القتال لكثرة الأمطار، فجمع السلطان الأمراء وآستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال، فرحل عنها في يوم الأحد ثاني ذي القعدة وتفرّقت العساكر، وأعطى كلّ طائفة منها دُستوراً؛ فسار كلُّ قوم إلى بلادهم، وأقام هو في جماعة من خواصّه بمدينة عَكّا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة. فرحل ونزل على كَوْكَب في أوّل المحرّم، ولم يبق معه من العسكر إلّا القليل؛ وكان كوكب حصناً حصيناً فيه الرجال [والأقوات][1]، فعلم السلطان أنّه لا يؤخذ إلّا بقتال شديد. فرحل إلى دمشق فدخلها في سادس عشرين[2] شهر ربيع الأوّل من السنة؛ وأقام بدمشق خمسة أيّام. وبلغه أنّ الفرنج قصدوا جَبَلَة[3] وآغتالوها، فخرج مسرعاً وقد سيَّر يستدعي العساكرَ من جميع البلاد، وسار يطلب جَبَلَة؛ فلمّا علِم الفرنجُ بخروجه كفُّوا عن ذلك. وكان السلطان بلَغه وصولُ عِماد الدين صاحب سِنْجار ومظفَّر الدين بن زَيْن الدين صاحب إِرْبِل وعسكر

= الفرنج لا يزالون في المدينة. وكان الأغنياء منهم مشغولين ببيع منازلهم أو محلات تجارتهم أو رياشهم قبل خروجهم؛ وكان الشارون بصورة عامة من المسيحيين الأرثوذكس أو اليعاقبة الذين سيبقون في أمكنتهم. ولسوف تباع أملاك أخرى بعد ذلك إلى العائلات اليهودية التي سيقيمها صلاح الدين في المدينة المقدسة. (الحروب الصليبية كما رآها العرب: ٢٤٦ ـ ٢٤٩).

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في ابن خلكان: «في سادس عشر».

(٣) في ابن خلكان والسيرة: «جبيل».

المَوْصِل إلى حلب قاصدين خدمتَه والغَزاة معه؛ فسار السلطانُ نحو حِصْن الأكراد حتى آجتمع بالمذكورين وتقوّى بهم للغاية». إنتهى كلام آبن شدّاد.

وقال القاضي شمس الدين بن خلّكان[١]: «وفي يوم الجمعة رابع[٢] جمادى الأولى دخل السلطان (يعني صلاحَ الدين) بلادَ العدوّ على تَعْبِئة حسنةٍ ورتّب الأَطْلاب، وسارت المَيْمَنةُ أوّلاً ومقدّمُها عِمادُ الدين زَنْكِي، والقلبُ في الوسط، والمَيْسَرة في الأخير ومقدّمُ المَيْسَرَة مظفّر الدين بن زَيْن الدين صاحب إِرْبِل، فوصل إلى أنطرسوس يومَ الأحد سادسَ جُمَادَى الأولى، فوقف قُبالَتها ينظرُ إليها فإنّ قصدَه [كان]جَبَلة، فآستهان أمرَها وعزم على قتالها فسيَّر مَن ردّ المَيْمَنة، وأمرها بالنزول إلى جانب البحر، والمَيْسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعَه والعساكر مُحدِقة بها من البحر إلى البحر؛ وهي مدينة راكبة على البحر ولها بُرْجان، فركبوا وقاربوا البلد وزحفوا عليها، وآشتدّ القتال فما استتمّ نَصْبُ الخِيام حتّى صعِد المسلمون سورَها وأخذوها بالسيف، وغنِم المسلمون جميعَ ما فيها؛ وأحرق البلدَ وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلَّم أحَد البُرْجين إلى مظفَّر الدين، فما زال يحاربه حتّى أخربه. وحضر إلى السلطان ولده الملك الظاهر بعساكر حلب، لأنّه كان طلبه فجاء بعساكرَ عظيمةٍ. ثم سار السلطان يريد جَبَلة فوصلها في ثاني عشر جمادَى الأولى، وما آستتمّ نزولُ العسكر عليها حتّى أخِذت البلد؛ وكان فيه مسلمون مقيمون وقاضٍ يحكم بينهم، وقُوتلت القلعةُ قِتالاً شديداً ثم سُلِّمت بالأمان[في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى من السنة][٣].

ثم سار السلطان عنها إلى اللاّذِقيّة فنزل عليها يومَ الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان (يعني اللاّذِقيّة) متّصلتان على تلٍّ مُشرِف على البلد، وآشتدّ القتالُ إلى آخر النهار، فأخذ البلد دون القلعتين، وغَنم المسلمون منه

---

(١) ابن خلكان ينقل هنا عن ابن شداد.

(٢) في السيرة: «رابع عشر».

(٣) زيادة عن ابن خلكان والسيرة.

غنيمة عظيمةً لأنّه كان بلد التجّار؛ ثم جدّوا في أمر القلعتين بالنُّقُوب حتّى بلغ طول النَّقْب ستين ذراعاً وعرضُه أربعَ أذرع. فلمّا رأى أهلُ القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان، وذلك في عشيّة يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، وآلتمسوا الصلح على سلامة أنفسهم وذَرَارِيهم ونسائهم وأموالهم ما خلا الغِلالَ والذخائرَ والسلاح وآلاتِ الحرب، فأجاب السلطانُ إلى ذلك، ورُفع العلم الإسلاميّ عليها في يوم السبت وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر.

ثم رحل عنها ونزل صِهْيَوْن[١] وقاتلهم أشدّ قتال حتّى أخذ البلدَ يومَ ثاني عشر جمادى الآخرة؛ ثم تقدّموا إلى القلعة وصَدقُوا القتال، فلمّا عاينوا الهلاك طلبوا الأمانَ فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرةُ دنانير، ومن المرأة خمسةُ دنانير، ومن كل صغير ديناران، الذكر والأنثى سواء.

وأقام السلطان صلاح الدين بهذه الجهات حتّى أخذ عِدّة قِلَاع منها بِلَاطُنُس[٢] وغيرُها من الحصون المتعلّقة بصِهْيَوْن.

ثم رحل عنها وأتى بَكَاسَ، وهي قلعة حصينة على العاصي[٣] ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها في يوم الثلاثاء سادس عشر[٤] جُمادى الآخرة، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر ففتحها عَنْوةً، فقُتِل أكثر مَن بها وأُسِر الباقون، وغَنم المسلمون جميعَ ما كان فيها؛ ولها قلعة تسمى الشُّغْرَ[٥]، وهي في غاية المَنَعةُ يعبر إليها بجسر وليس عليها طريق، فسلِّطت المجانيق عليها من جميع

(١) صهيون: حصن منيع من أعمال سواحل بحر الشام (البحر المتوسط) من أعمال حمص. قال ياقوت: كانت بيد الفرنج منذ دهر حتى استرجعها الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ. وقال ابن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠هـ: وهي الآن من أعمال طرابلس.

(٢) يعرف الآن هذا الحصن في جبل النصيرية باسم قلعة المهيلبة. واسم بلاطنس مشتق من اللفظة الفرنجية Platanus. (الدرّ المنتخب: ص ٢٢٦٧حاشية).

(٣) ويعرف هذا النهر بأسماء متعددة بحسب الأماكن التي يمر فيها. فيقال له في جهة بعلبك: الميماس، فإذا وصل إلى حماة قيل له: العاصي، فإذا صار إلى أنطاكية قيل له: الأرند. (ابن الشحنة: ١٧٦).

(٤) في ابن خلكان والسيرة: «في سادس جمادى الآخرة».

(٥) الشُّغر وبكاس قلعتان قريبتان يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسر. ولـذلك يقترن اسماهما عادة ببعضهما البعض. (الدرّ المنتخب: ١٧٥).

الجوانب، فرأَوْا أن لا ناصر لهم فطلبوا الأمان في يوم الثلاثاء ثالثَ عشرَ الشهر.

ثم سار السلطان إلى بُرْزَيْه[١]، وهي أيضاً من الحصون المنيعة في غاية القوّة يُضرب بها المثل، ويحيط بها أودية من جميع جوانبها، وعلّوها خَمْسُمائة ونَيِّفٌ وسبعون ذراعاً؛ وكان نزوله عليها يومَ السبت الرابع والعشرين من الشهر، فقاتلوها حتّى أخذوها عنوة في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

ثم سار السلطان إلى دَرْبَسَاك[٢] فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة فقاتلها قتالاً شديداً حتى أخذها وترقّى العلمُ الإسلاميّ عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب، وأعطاها للأمير عَلَم الدين سليمان بن جَنْدَر.

وسار عنها بُكْرَةَ يوم السبت الثالث والعشرين من رجب ونزل على بَغْرَاس، وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكِيَة، وقاتلها قتالاً شديداً حتّى صعِد العلم الإسلامي عليها في ثاني شعبان؛ وراسله أهلُ أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدّة ضَجَر العسكر؛ فكان الصلح بينهم على أن يُطْلِقوا كلَّ أسير عندهم لا غير، والصلح إلى سبعة أشهر؛ فإن جاءهم مَن ينصرهم وإلاّ سلّموا البلد.

ثم رَحَل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحبُ حلب أن يجتاز به فأجابه إلى ذلك، فوصل إلى حلب في حادي عشر شعبان، وأقام بالقلعة ثلاثة أيام، وولدُه يقوم بالضِّيافة حقّ القيام.

ثم سار من حَلَب فٱعترضه تقيُّ الدين عمر ٱبن أخيه، وأصعده إلى قلعة حَمَاة، وصنع له طعاماً وأحضر له سَمَاعاً من جنس ما يَعْمَل الصُّوفيّة، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جَبَلة واللاذقية.

---

(١) برزيه: قلعة صغيرة مستطيلة منيعة في ذيل الجبل المعروف بالخيط من شرقيه مطلة على بحيرات فامية. (تقويم البلدان) وأثبته ياقوت باسم: برزويه. ويؤثر الكتاب المحدثون أن يطلقوا عليه اسم بورزي Bourzey، ويطلق عليه الأهالي اسم قلعة مَرْزَة. ولا تزال أطلال هذه القلعة تقوم على المنحدر الشرقي لجبل العلويين وتشرف على منخفض الغاب المتبطح. (دائرة المعارف الإسلامية).

(٢) في الأصل: «درسال». والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة وتقويم البلدان.

ثم سار السلطان على طريق بَعْلَبَكّ، ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيّام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صَفَد، فنزل عليها ولم يزل القتال عَمّالاً في كلّ يوم حتّى تسلّمها بالأمان في رابع عشر شوّال.

وفي شهر رمضان المذكور سُلِّمت الكَرَك، سلّمها نوّاب صاحبها وخلصوا صاحبَها[١] بذلك، فإنّه كان في الأَسْر من نَوْبة حِطِّين.

ثم نزل السلطان بالغَوْر[٢]، وأقام بقيّة الشهر، فأعطى الجماعةَ دستوراً.

وسار السلطان مع أخيه العادل يريد زيارة القُدْس ووَدَاعَ أخيه العادل المذكور، لأنّ العادل المذكور كان متوجِّهاً إلى مصر، فدخل السلطانُ القدسَ في ثامن ذي الحجة وصلّى به العيدَ.

وتوجّه في حادي عشر ذي الحجّة إلى عَسْقَلانَ لينظر في أمورها، فتوجّه إليها وأخذها من أخيه، وعوّضه عنها الكَرَك. ثم مرّ على بلاد الساحل يتفقّد أحوالها.

ثم سار فدخل عَكّا وأقام بها معظَم المحرَّم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة يصلح أحوالها، ورتب فيها الأمير بهاء الدين قَراقُوش، وأمره بعمارتها وعِمارة سورها.

ودخل السلطانُ دِمَشق في مستهل صفر من السنة، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة.

ثم خرج إلى شَقِيف أَرْنُون[٣]، وهو موضع حصين، فخيّم في مَرْج عُيُون

---

(١) صاحبها هو البرنس أرناط. قال ابن خلكان معلقاً على سياق هذا الخبر: وهذا لا ينتظم مع ما قبله؛ فقد تقدّم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين، ثم قتله السلطان بيده. ـ راجع أيضاً ص ٣١ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: «الثغور». والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة. والمراد به: غور الأردن.

(٣) شقيف أرنون: قرب بلدة النبطية بجنوب لبنان. ويعرف الحصن اختصاراً بقلعة الشقيف. ويعرف سياحياً باسم «قلعة بوفور» Beaufort وهو الاسم الذي أطلقه عليه الفرنجة في زمانهم.

بالقرب من الشَّقِيف في سابع عشرين[١] شهر ربيع الأوّل فأقام أيّاماً على قتاله، والعسكر تتواصل إليه؛ فلمّا تحقّق صاحبُ الشَّقِيف أنّه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه، فلم يشعر به إلّا وهو قائم على باب خَيْمته، فأَذِن له في الدخول وأكرمه السلطان وآحترمه،وكان من أكبر الفرنج قَدْراً، وكان يَعرِف بالعربية، وعنده آطّلاع على بعض التواريخ والأحاديث، وكان حسنَ التأتّي لَمّا حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنّه مملوكه وتحت طاعته، وأنّه يسلم إليه المكان من غير تعب، وآشترط عليه أن يُعْطَى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنّه بعد ذلك لا يقدر على مُسَاكنةِ الفرنج، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وشروطاً غير ذلك، فأجابه إلى ذلك.

وفي أثناء شهر ربيع الأوّل وصل إلى السلطان [الخبرُ][٢] بتسليم الشُّوبَك، وكان قد أقام عليه جَمْعاً يحاصرونه مدّة كاملة إلى أن نَفِدَ زاد مَن كان فيه فسلّموه بالأمان.

ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أنّ جميع ما قاله صاحب شَقِيف كان خديعةً، فرسم عليه.

ثم بلغه أنّ الفرنج قصدوا عَكّا ونزلوا عليها في ثالث عشر شهر رجب من سنة خمس وثمانين المذكورة. وفي ذلك اليوم سيّر السلطانُ صاحبَ الشَّقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة.[٣] ثم سار السلطان وأتى عَكّا ودخلها بَغْتَةً ليقوّي قلوب مَن بها، وآستدعى العساكر من كلّ ناحية؛ وكان العدوّ مقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل. وتكاثر الفرنجُ وآستفحل أمرُهم، وأحاطوا بعَكّا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج، وذلك في يوم الخميس سَلْخ رجب، فضاق صدرُ السلطان لذلك، ثم

---

(١) في ابن خلكان والسيرة: «سابع عشر».

(٢) زيادة عن ابن خلكان والسيرة.

(٣) كان قائد حصن الشقيف يسمى رينالد الصيداوي. وقد أرسله صلاح الدين إلى دمشق مصفداً، ثم فك الحصار عن الحصن ليتفرّغ لمراقبة جيش الإفرنج. ثم عاد لمحاصرته فسلم له في نيسان من السنة التالية بشرط إطلاق سراح رينالد وتسهيل انسحاب الحامية. (الصليبيون وآثارهم في جبل عامل: ١٢٧) وفي حاشية ص ١٥٩ من شفاء القلوب عن الفتح القسي أن اسم صاحب الحصن «أرناط».

آجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالمِيرة والنَّجْدة، وشاور الأمراءَ فاتّفقوا على مضايقة العدوّ لفتح الطريق، ففعلوا ذلك وآنفتح الطريق وسلَكه المسلمون؛ ودخل السلطان عَكّا فأشرف على أمورها؛ ثم جرى بين الفريقين مناوشاتٌ في عِدّة أيام، وتأخّر الناس إلى تَلّ العياضية وهو مُشرِف على عَكّا. وفي هذه المنزلة تُوُفِّي الأمير حُسام الدين طُمان المقدَّم ذكُره، وذلك في نصف شعبان من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وكان من الشُّجعان».

قال آبن خلّكان: «قال شيخنا آبن شدّاد: وسمعت[١] السلطان يُنْشِد ــ وقد قيل له إنّ الوَخَم قد عظُم بعَكّا، وإن الموت قد فشا بين الطائفتين ــ: [مجزوء الخفيف]

أُقتلاني ومالكاً وآقتلا مالكاً معي

ــ قلت: وهذا الشعر له سبب ذكرناه في ترجمة الأَشْتر النَّخَعِيّ، آسمه مالك، في أوائل هذا الكتاب فإنّه مَلَك مصر، وكان الأشتر من أصحاب عليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ والحكاية مطوّلة تُنظر في ترجمة مالك (أعني الأشتر النَّخَعِيّ من هذا الكتاب) ــ.

قال آبن شدّاد: ثم إنّ الفرنج جاءهم الإمداد من البحر، وآستظهروا على الجماعة الإسلاميَّة بعَكّا، وكان فيهم الأمير سيف الدين عليّ بن أحمد الهَكّارِيّ المعروف بالمشطوب، والأمير بهاء الدين قَرَاقُوش الخادم الصَّلاحِيّ، وضايقُوهم أشدّ مضايقة إلى أن غُلِبوا عن حفظ البلد. فلمّا كان يومُ الجمعة سابعَ عشرَ جُمادَى الآخرة [سنة سبع وثمانين وخمسمائة][٢] خرج من عَكّا رجل عَوّام في البحر، ومعه كتبٌ إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنّهم تيقّنوا الهلاك، ومتى أَخذوا البلد عنوةً ضُرِبت رِقابُهم، وأنّهم صالحوا على أن يسلِّموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب، ومائتي ألف دينار وخمسمائة أسير مجاهيلَ

(١) المعلوم أن ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين كان مرافقاً له في أكثر تلك الغزوات والفتوحات.
(٢) زيادة عن ابن خلكان.

ومائةِ أسيرٍ معينين من جماعتهم، وصليب الصلبوت، على أن يَخْرُجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصَّة بهم وذَراريهم ونسائهم، وضَمِنوا للمركيس ــ لأنه كان الواسطةَ في هذا الأمر ــ أربعةَ آلاف دينار. فلمّا وقف السلطان على الكتب المشار إليها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظُم عليه هذا الأمر، وجمع[1] أهلَ الرأي من أكابر دولته، وشاورهم فيما يصنع، وآضطربتْ آراؤه، وتقسّم فكره وتشوّش حاله، وعزم أن تُكتب في تلك الليلة كتبٌ مع الرجل العوام الذي قدِم عليه بهذا الخبر يُنكر المصالحة على هذا الوجه؛ وبينما هو يتردّد في هذا فلم يشعر إلّا وقد آرتفعتْ أعلام العدوّ وصُلبانُه[2] ونارُه على سور البلد؛ وذلك في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة؛ وصاح الفرنجُ صيحةً واحدة، وعظُمت المصيبةُ على المسلمين، وآشتدّ حزنُهم، ووقع من الصياح والعويل والبكاء ما لا يُذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عَكّا قاصدين عَسْقَلان ليأخذوها أيضاً من المسلمين، وساروا على الساحل والسلطانُ وعساكره قُبالتهم إلى أن وصلوا إلى أَرْسُوف، فكان بينهما قتال عظيم، ونال المسلمين وَهْنٌ شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة تَتِمَّةَ عشرِ منازل من سيرهم من عكّا، فأتى السلطانُ الرّملةَ، فأتاه مَن أخبر بأنّ القوم على عَزْمِ عِمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطانُ أرباب مشورته، وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب خرابها أو بقاؤها؟ فآتّفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قُبالة العدوّ، ويتوجّه السلطان بنفسه ويُخْرِبها خوفاً من أن يصل العدوّ إليها ويستولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريق مصر، وآمتنع العسكر من الدخول وخافوا ممّا جرى على المسلمين بعَكّا. فلا قوّة إلّا بالله. ورأَوْا أنّ حفظ القدس أولى، فتعيّن خرابها من عدّة جهات؛ وكان هذا الآجتماع يومَ الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فسار إليها السلطان في سَحَر يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور. قال آبن شَدّاد: وتحدّث معي في معنى خرابها (يعني عَسْقلان) بعد أن تحدّث مع ولده

(١) في الأصل: «ورجع» وما أثبتناه عن ابن خلكان والسيرة.

(٢) في الأصل: «وفرسانه» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة.

الملك الأفضل أيضاً في أمرها، ثم قال السلطان: لأن أَفْقِد ولدي جميعَهم أحبّ إليّ من أن أهدِم منها حَجَراً واحداً، ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك، وكان فيه مصلحة للمسلمين، فما الحيلة في ذلك! فلمّا آتّفق الرأيّ على خرابها أَوْقع الله ذلك في نفسه، وأنّ المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها. وشَرع في إخرابها في سحر يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة، وقسّم السور على الناس وجعل لكلّ أمير وطائفة من العسكر بدنةً معلومة وبُرْجاً معلوماً يخربه؛ ودخل الناسُ البلدَ ووقع فيهم الضَّجيج والبكاء لفُرْقة بلدهم وأوطانهم؛ وكان بلداً خفيفاً على القلب مُحْكَم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه، فلحق الناسَ على خرابه حُزْنٌ عظيم. وشرع أهل البلد في بيع ما لا يقدرون على حمله، فباعوا ما يساوي عشرةَ دراهم بدرهم واحد، حتّى باعوا آثْنَيْ عشر طيرَ دَجَاج بدرهم، وآختبط أهلُ البلد وخرجوا بأولادهم وأهليهم إلى الخِيَم وتشتّتوا، فذهب منهم قوم إلى مصر وقوم إلى الشام، وجرت عليهم أمور عظيمة. وآجتهد السلطان وأولاده في خراب البلد كي لا يَسْمَع العدوّ فيسرعَ إليه فلا يمكن إخرابه؛ وكانت الناس على أصعب حال، وآشتدّ تعب الناس مما قاسوه في خرابها.

وفي تلك الليلة وصل [من جانب]الملك العادل من حَلَب من أخبر أنّ الفرنج تحدّثوا معه في الصلح، وطلبوا جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطانُ أنّ ذلك مصلحةٌ لِمَا علم من نفوس الناس والعساكر من الضَّجَر من القتال وكثرة ما عليه من الديون؛ فكتب السلطان إلى أخيه الملك العادل يَأذَن له في ذلك، وفوَّض الأمر إلى رأيه؛ وأصبح السلطان يومَ الجمعة وهو مصرٌّ على الخراب، ويستعجل الناسَ عليه ويَحُثُّهم على العَجَلة فيه؛ وأباحهم ما في الْهُرْي[1] الذي كان مدخراً للميرة خوفاً من أن يهجُمَ العدوّ والعجزِ عن نقله. ثمّ أمر السلطانُ بإحراق البلد فأضرمتِ النيرانُ في بيوته، ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سَلْخ شعبان المذكور؛ ثم أصبح

---

(١) الهري: وتجمع على أهراء؛ وهي حواصل لخزن أنواع الغلال المتنوعة وتحمل إليها من جهات مختلفة ولا تفتح إلا عند الضرورة. وكان للأهراء ديوان، وله ناظر يسمى ناظر الأهراء. وتعرف الأهراء في مصطلحنا الحديث بالشونة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٥٢).

السلطان يومَ الاثنين مستهلَّ شهر رمضان، أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر خراب البلد بنفسه وخواصِّه.

قال ابن شَدّاد، ولقد رأيته يحمل الخشب بنفسه (يعني الملك الأفضل). وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى السلطانُ الرَّمْلَة وأشرف عليها، وأمر أيضاً بإحراقها وإخراب قلعتها (يعني الرملة) فأُحرِقت قلعتها خوفاً أيضاً من الفرنـج. وفي يوم السبت ثالث عشر رمضان تأخّر السلطانُ والعسكر إلى جهة الجبل ليتمكّن الناس من تسيير دوابّهم لإحضار ما يحتاجون إليه. ثم شرع السلطان أيضاً في خراب قلعة النَّطرون، وكانت قلعةً منيعةً فشرع الناسُ في ذلك.

ثم ذكر ابن شَدّاد فصلاً طويلاً يتضمّن الصلح بين الأنْكِلْتِير[١] ملك الفرنـج وبين السلطان صلاح الدين المذكور إلى أن قال: وحاصل الأمر أنه تمّ الصلحُ بينهم، وكانت الأيمان يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة؛ ونادى المنادي بانتظام الصلـح[٢]، وأنّ البلاد الإسلامية والنَّصرانيةَ واحدة في الأمن والمسالمة، فمن شاء من كلّ طائفة أن يتردد إلى بلاد الطائفة

(١) كذا في الروضتين؛ ولعلّه الأقرب إلى اللفظ الأجنبي: L'Angleterre أي انكلترا أو بريطانيا. ويرد في أكثر المصادر «الأنكتار». والمراد به ملك انكلترا ريكاردوس الأول المعروف بـ «قلب الأسد» Richard Coeur-de-Lion. وقد تضمن الصلـح أن تكون البلاد الجبلية للمسلمين والساحلية للفرنجة، فيما عدا صيدا وبيروت وجبيل (من الساحل اللبناني) وأصبحت عكا بالتالي قاعدة مملكة أورشليم، وبقيت المقدس (وهي أورشليم بالذات) في أيدي المسلمين. وعاد الملك ريكاردوس إلى بلاده على الفور. وتوفي صلاح الدين في العام التالي وتجزأت المملكة الأيوبية بعد ذلك بين أبنائه. وانتهت مدة الهدنة بين المسلمين والفرنجة عام ١١٩٥م فاستغل ملوك أورشليم في عكا الخلاف القائم بين أبناء صلاح الدين وعادوا إلى احتلال المدن الساحلية الباقية في أيدي المسلمين. (منطلق تاريخ لبنان: ١٠٨ ـ ١٠٩) وكان حرياً بأبي المحاسن أن يشير إلى اشتراك ملكي فرنسا وألمانيا فيليب أوغسطوس وفردريك بربروسّا في هذه الحملة الصليبية التي اصطلح على تسميتها بالحملة الثالثة. (انظر الحروب الصليبية لسيّد علي الحريري: ١٧١ ـ ١٩٦) بالإضافة إلى المراجع السابقة الذكر.

(٢) وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات، وقيل ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وقيل ثلاث سنوات وثمانية أشهر، وقيل خمس سنوات ـ انظر: السيرة: ١٩٣ وما بعدها، والسلوك: ١/١/١٣٧، وشفاء القلوب: ١٧٧، والحروب الصليبية كما رآها العرب: ٢٩٨ وفيه بسط جيّد للملابسات التي سبقت تلك الهدنة وتحليل جيّد للأسباب التي أدّت إليها.

الأخرى من غير خوف ولا محذور [فليفعل]. وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من السرور ما لا يعلمه إلّا الله تعالى؛ وقد علِمَ الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مَرْضاة السلطان، لكنّه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر من القتال، ومظاهرتهم للمخالفة. وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنّه آتّفقتْ وفاته بعد الصلح، فلو آتّفق ذلك في أثناء وَقَعاته كان الإسلام على خَطَر.

ثم إنّ السلطان أعطى العساكر الوافدةَ عليه من البلاد البعيدة برسم الغَزَاة والنَّجْدة دُسْتوراً، فساروا عنه. وعزم السلطان على الحجّ لمّا فَرغ بالُه من هذه الجهة، وأمِنَ الناس وتردّد المسلمون إلى بلاد الفرنج، وجاؤوا هم أيضاً إلى بلاد المسلمين، وحُمِلت البضائع والمتاجر إلى البلاد؛ وتوجّه السلطان إلى القُدْس ليتفقّد أحوالَه، وتوجّه أخوه الملك العادل إلى الكَرَك، وآبنُه الملك الظاهر إلى حلب، وابنُه الملك الأفضل إلى دِمَشق. ثم تأهّب السلطان إلى المسير إلى الديار المصريّة، ولم يزل كذلك إلى أن صحّ عنده سير مَرْكَب الأَنْكِلْتِير ملك الفرنج إلى بلاده في مستهلّ شوّال، فعند ذلك قوِي عزمُه على أن يُدْخِل الساحلَ جَرِيدةً يتفقّد أحواله وأحوال القِلاع البَحريّة إلى بانياس. ثم يدخل دمشق فيقيم بها قليلاً، ثم يعود إلى القدس ومنه إلى الديار المصريّة.

قال آبن شَدّاد: وأمرني بالمُقام بالقُدْس إلى حين عَوْده إليه لعمارة بِيمَارِسْتَانٍ أنشأه به، وتكميل المدرسة[1] التي أنشأها به، وسار ضاحي نهار الخميس السادس من شوّال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة. فلمّا فرغ السلطان من آفتقاد أحوال القِلاع وإزاحة خَلَلها دخل دمشق بكرة يوم الأربعاء سادس عشر[2] شوّال، وفيها أولاده: الملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك الظافر مظَفّر الدِّين الخضر المعروف

---

(١) هي مدرسة للشافعية أنشأها صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ؛ كانت من أجلّ ما بناه من المدارس، وفوض أمر تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد. قال الحنبلي في شفاء القلوب: وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بـ «صَنْد حنَّة» يذكرون بأن فيها قبر حنَّة أم مريم. ثم صارت في الإسلام دار علم. فلما ملك الإفرنج بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ أعادوها كنيسة. فلما فتحه السلطان صيَّرها مدرسة. (شفاء القلوب: ١٧٧، والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: ص ٧٢).

(٢) كذا أيضاً في ابن خلكان. وفي السيرة والروضتين: «سادس عشرين شوال»

بالمشمّر[١] وأولاده الصغار؛ وكان السلطان يحبّ البلد (يعني دمشق) ويُؤثر الإقامة به على سائر البلاد؛ وجلس للناس في بُكْرة يوم الخميس السابع والعشرين منه، وحضروا عنده وبَلُّوا أشواقهم منه، وأنشده الشعراءُ، ولم يتخلّف عنه أحد من الخاصّ والعامّ؛ وأقام ينشُر جَنَاح عدله بدِمَشق إلى أن كان يومُ الاثنين[٢] مستهلّ ذي القعدة، عمِل الملك الأفضلُ دعوةً للملك الظاهر أخيه لأنّه لمّا وصل إلى دمشق وبلغه حركة السلطان أقام بها [ليتملّى بالنظر إليه ثانياً][٣]. ولمّا عمِل الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهِمَم العالية ما يليق بهمّته، وكان أراد بذلك مجازَاته لِمَا خدمه [به][٣] حين وصوله إلى بلده، وحضر الدعوةَ المذكورة أربابُ الدنيا والآخرة، وسأل الأفضل والده السلطان في الحضور فحضر [جبراً لقلبه][٣]، وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني.

قال: ولمّا أصلح الملك العادل الكَرَكَ سار قاصداً الديار الفُراتيّة[٤]، وأحبّ أن يدخل دمشق، فوصل إليها وخرج السلطان إلى لقائه. وأقام يتصيّد حول غَبَاغِب[٥] إلى الكُسْوة حتّى لَقِيَ أخاه الملك العادل وسارا جميعاً يتصيّدان، ثم عادا إلى دمشق؛ فكان دخولهما دمشق آخر نهار يوم الأحد حادي عشرين[٦] ذي القعدة سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة. وأقام السلطان بدمشق يتصيّد هو وأخوه الملك العادل وأولاده ويتفرَّجون في أراضي دمشق، وكأنه وَجَد راحةً ممّا كان فيه من ملازمة التعب والنَّصَب وسَهَر الليل، فكان ذلك كالوَدَاع لأولاده، ونَسِيَ عزمَه إلى مصر، وعَرَضت له أمور أُخَر وعَزَماتٌ غيرُ ما تقدم.

---

(١) في الأصل: «المستمر» وهو تحريف. والتصحيح عن ابن خلكان. وإنما قيل له المشمّر لأن أباه لما قسّم البلاد بين أولاده الكبار قال: وأنا مشمّر، فغلب عليه هذا اللقب (ابن خلكان).

(٢) في الأصل: «يوم الخميس» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة.

(٣) زيادة عن ابن خلكان والسيرة والروضتين.

(٤) في الأصل: «المصرية» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة والروضتين وشفاء القلوب.

(٥) غباغب: قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق. والكسوة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. (معجم البلدان).

(٦) كذا في السيرة والروضتين. وفي الأصل: «حادي عشر ذي العقدة» وفي ابن خلكان: «حادي عشر ذي الحجة» وكلاهما خطأ.

قال آبن شَدّاد: ووصلني كتابُه إلى القُدْس يستدعيني لخدمته، فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرَّم سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكان الوصول إلى دمشق يومَ الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة. وركب السلطان ليتلقى الحاجَ في يوم الجمعة خامس عشر صفر، وكان ذلك آخر ركوبه.

ولمّا كانت ليلة السبت وجد كَسَلاً عظيماً، وما آنتصَف الليلُ حتّى غشِيَتْه حُمَّى صَفْراوية، وكانت في باطنه أكثرَ ممّا في ظاهره. وأصبح يومَ السبت متكسِّلاً، عليه أثر الحُمّى. ولم يُظْهِر ذلك للناس، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، فدخل ولدُه الملك الأفضل وطال جلوسُنا عنده وأخذ يشكو قَلَقَه بالليل، وطاب له الحديث إلى وقت الظهر، ثم آنصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الأفضل، ولم يكن للقاضي الفاضل في ذلك عادةٌ فآنصرف. ودخلت إلى الإيوان القبليّ وقد مُدّ السِّماط، وآبنه الملك الأفضل قد جلس موضِعَه، فآنصرفتُ وما كانت لي قوّة للجلوس آستيحاشاً له. وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده الأفضل موضعَه. ثمّ أخذ المرضُ يتزايد به من حينئذ، ونحن نلازم التردّد له طَرَفَي النهار، وكان مرضه في رأسه. وكان من أَمارات آنتهاء العُمُر غَيْبَةُ طبيبه الذي كان قد عرف مزاجَه سَفَراً وحَضَراً، ورأى الأطباء فَصْدَه ففصدوه في الرابع، فآشتدّ مرضُه وقلّت[1] رطوبات بدنه، وكان يغلب على مزاجه اليُبْس، فلم يزل المرض يتزايد به حتّى آنتهى إلى غاية الضعف. وآشتدّ مرضُه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنُه؛ ولمّا كان التاسع حدثت له غَشْيَةٌ وآمتنع من تناول المشروب. وآشتدّ الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتَهم من الأسواق، وعلا الناسَ من الكآبَة والحزن ما لا يمكن حكايته. ولمّا كان اليوم العاشر من مرضه أَيِسَ منه الأطباء. ثم شرع ولده الملك الأفضل في تحليف الناس له.

ثم إنّه تُوُفّي ــ إلى رحمة الله تعالى ــ بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء

(١) في الأصل: «وحلّت» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة. وكان يوم موته يوماً لم يُصَب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ وغشِيَ القلعةَ والمُلْك والدنيا وحشةٌ لا يعلمها إلّا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنّهم يَتَمَنَّوْن فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهّم أنّ هذا على ضَرْب من التجوّز والترخّص إلى ذلك اليوم، فإنّي علمت من نفسي ومن غيري أنّه لو قُبِل الفِداء لفدي بالأنفس. ثم جلس ولدُه الملك الأفضل للعَزاء وغسّله أبو القاسم ضياء الدِّين عبد الملك بن زيد الدَّوْلَعِيّ خطيب دمشق، وأُخْرج تابوت السلطان ـ رحمه الله تعالى ـ بعد صلاة الظهر مسجًّى بثوب فُوَطٍ، فآرتفعت الأصواتُ عند مشاهدته، وعظم الضَّجيج وأخذ الناسُ في البكاء والعويل، وصَلّوا عليه أَرْسَالاً، ثم أُعِيد إلى داره التي في البستان، وهي التي كان متمرّضاً بها، ودُفِن في الصُفَّة الغربيّة منها. وكان نزوله في حُفْرته قريباً من صلاة العصر. ثم أطال آبن شَدّاد القول في هذا المعنى إلى أن أنشد في آخر السيرة بيتَ أبـي تمّام الطائيّ، وهو قوله: [الكامل]

ثمّ آنقضتْ تلك السِّنُون وأهلُها   فكـأنّهـا وكـأنّـهـم أحـلامُ

ولقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ من محاسن الدنيا وغرائبها.

ثم ذكر آبن شَدّاد أنّه مات ولم يخلِّف في خزائنه من الذهب والفضّة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصريّة وجرماً واحداً ذهباً صُورِيّاً، ولم يخلِّف مِلْكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بُستاناً ولا قرية ولا مَزْرَعةً. وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقةً مضمونها:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسْوةٌ حسنةٌ﴾(١). ﴿إنّ زَلْزَلَةَ الساعة شيء عظيم﴾(٢). كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عَزاءه وجَبَر مُصابَه، وجعل فيه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١.
(٢) سورة الحج، الآية: ١.

الخَلَف في الساعة المذكورة، وقد زُلزِل المسلمون زِلْزَالاً شديداً؛ [وقد حفَرت الدموعُ المحاجر، وبلغت القلوبُ الحناجر؛ وقد وَدّعتُ أباك ومخدومي وَدَاعاً لا تلاقيَ بعده][(١)]؛ وقد قبّلت وجهَه عنّي وعنك، وأسلمتُه إلى الله تعالى مغلوبَ الحِيلة، ضعيفَ القوّة، راضياً عن الله، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله؛ وبالباب من الجنود المجنَّدة، والأسلحة المُغْمَدة، ما لا يدفع البلاء، ولا مُلْك يردّ القضاء؛ وتدمَعُ العين ويخشع القلب، ولا نقول إلّا ما يُرضي الربّ، وإنّا عليك يا يوسُف لمحزونون. وأمّا الوصايا فما يُحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المُصاب عنها؛ وأمّا لائح الأمر فإنّه إن وقع آتّفاق فما عدمتم إلا شخصَه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موتُه، وهو الهول العظيم، والسلام». اِنتهى كلام القاضي الفاضل بما كتبه للملك الظاهر.

قال آبن خلّكان: «وآستمرّ السلطان صلاح الدين مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بُنِيت له قُبّة شماليّ الكَلاَّسَة[(٢)] التي هي شماليّ جامع دمشق، ولها بابان، أحدهما إلى الكُلاَّسَة والآخر في زُقاق غير نافذ؛ وهو مجاور المدرسة العزيزيّة[(٣)]. ثم نُقِل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القُبّة في يوم عاشوراء في يوم الخميس من سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة. ثم إنّ ولده الملك العزيز عثمان لمّا ملك دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القُبّة المدرسة العزيزيّة».

قلت: في أيّامه بَنَى الخَصِيّ بهاء الدين قَرَاقُوش قَلْعة[(٤)] الجبل ثم قلعة

---

(١) زيادة عن ابن خلكان وشفاء القلوب.

(٢) في الأصل: «الكناسة» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة وشفاء القلوب. والكلاّسة: مدرسة بجوار الجامع الأموي من شمال ولها باب إليه. عمَّرها نور الدين الشهيد سنة ٥٥٥هـ وسميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع. ولما ملك صلاح الدين دمشق أمر بتجديدها. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/٣٤٠).

(٣) المدرسة العزيزية: أول من أسسها الملك الأفضل، ثم أتمّها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/٢٩٠).

(٤) قلعة الجبل: هذه القلعة لا تزال موجودة إلى اليوم قائمة بأسوارها العالية على قطعة مرتفعة منفصلة من جبل المقطم شرقي القاهرة تشرف على ميدان صلاح الدين بل على القاهرة كلها؛ أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٢هـ. وكان يقيم بها بعض الأيام. وسكنها ابنه الملك العزيز عثمان =

المَقْس[١] ثم سُورَ القاهرة، وذَرْعُ السور المذكور سبعة[٢] وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع.

قال آبن خلّكان: «وكان السلطان صلاح الدين لمّا ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإنّ الدولة المصريّة كان مذهبها مذهب الإماميّة، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعمّر السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة[٣] المجاورة للإمام الشافعيّ ــ رضي الله عنه ــ وبنى مدرسة[٤] مجاورة للمشهد

= في أيام أبيه مدّة ثم انتقل منها إلى دار الوزارة. ولما تولى الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سلطنة مصر أتم بناء القلعة في سنة ٦٠٤هـ، وأنشأ بها الدور السلطانية. وقد استمرت من ذلك الوقت دار مملكة مصر حيث كان بها الدور السلطانية ودور دواوين الحكومة إلى زمن الأسرة المحمدية العلوية. وفي عهد الخديوي إسماعيل نقل ما كان باقياً بها من تلك الدور والدواوين إلى دور أخرى بالمدينة. وقد أنشأ محمد علي باشا الكبير والي مصر في هذه القلعة أبنية كثيرة في مقدّمتها جامعه الفخم الذي يشرف على المدينة وضواحيها، ثم سراي الجوهرة وأبنية الدواوين القديمة وثكنات العسكر وغيرها من المباني التي لها علاقة بالأعمال الحربية. ولا تزال القلعة إلى اليوم يسكنها العسكر وبها من الآثار بئر يوسف التي أنشأها الملك الناصر يوسف صلاح الدين ومسجد قديم أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٨هـ، ولا يزال قائماً بجوار جامع محمد علي باشا. ويوجد في الزاوية البحرية الشرقية من القلعة جامع قديم يعرف باسم سيدي سارية أنشاه فخر الدين أبو منصور قسطة الأرمني في سنة ٥٣٥هـ. ثم جدده سليمان باشا الخادم والي مصر سنة ٩٣٥هـ أثناء ولايته الأولى على مصر (محمد رمزي) وانظر خطط المقريزي: ٢/٢٠٢.

(١) قلعة المقس: راجع الحاشية رقم ٤ ص ٣٩ من الجزء الرابع من هذه الطبعة.

(٢) الذي تقدم في الجزء الرابع ص ٤٠ من هذه الطبعة أن طول السور تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان.

(٣) نص الجبرتي بصريح اللفظ في الجزء الثاني من كتابه عجائب الآثار في ترجمة الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلي: أن الأمير المذكور عمر المسجد المجاور لضريح الإمام الشافعي في مكان المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٧٢هـ. ومن هذا يعلم أن مدرسة صلاح الدين التي تعرف بالمدرسة الصلاحية بجوار قبة الامام الشافعي ــ وكانت تاج المدارس بل أعظمها قدراً بجوار الامام الشافعي ــ محلها اليوم جامع الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ. ويؤيد الجبرتي في ذلك ما ذكره المقريزي في الجزء الثاني من خططه عند الكلام على المدرسة الناصرية بالقرافة، وما ذكره السخاوي في كتاب التبر المسبوك، وما ذكره جلال الدين السيوطي في الجزء الثاني من كتاب حسن المحاضرة في كلامه على المدرسة الصلاحية. (محمد رمزي).

(٤) وقد أصبحت هذه المدرسة اليوم ضمن المسجد الحسيني الشهير باسم جامع سيدنا الحسين. ومحلها الإيوان الشرقي عند المحراب الحالي للجامع (محمد رمزي) وأنظر خطط المقريزي: ١/٤٢٧.

المنسوب للحسين بن عليّ ــ رضي الله عنهما ــ بالقاهرة. وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريّين خانقاه[١]، ووقف عليها وقفاً هائلاً؛ وكذلك وقف على كلّ مدرسة عمّرها وقفاً جيّداً، وجعل دار عبّاس الوزير العُبَيْدي مدرسة[٢] للحنفيّة، وأوقف عليها وقفاً جيّداً أيضاً وهي بالقاهرة، وبنى المدرسة التي بمصر المعروفة [بآبن][٣] زين التجّار للشافعيّة، ووقف عليها وقفاً جيّداً، وبنى بالقصر داخل القاهرة بيمَارِسْتَاناً[٤]، وأوقف له وقفاً جيداً؛ وله بالقُدْس مدرسة وخانقاه.

قال آبن خلّكان: «ولقد فكّرت في نفسي في أمور هذا الرجل، وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنّه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتّب هذه الأوقاف العظيمة، وليس شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإنّ المدرسة التي بالقرافة ما يسمّونها الناس إلّا بالشافعيّ، والمجاورة للمشهد لا يقولون إلّا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلّا سعيد السعداء، والمدرسة الحنفيّة لا يقولون إلا السيوفيّة، والتي بمصر لا يقولون إلّا مدرسة زَيْن التّجار، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكيّة؛ وهذه صدقة السِّرّ على الحقيقة. والعجب أنّ له بدمشق في جانب البِيمَارِسْتَان النُّورِيّ مدرسة أيضاً، ويقال لها الصلاحيّة، وهي منسوبة إليه وليس لها وقف. قال: وكان مع هذه المملكة المتّسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللّطف، قريباً من الناس، رحيمَ القلب، كثير الاحتمال والمداراة؛ وكان يحبّ العلماء وأهل الخير ويقرّبهم ويُحسن إليهم؛ وكان يميل إلى الفضائل، ويستحسن الأشعار الجيّدة ويردّدها في مجالسه، حتّى قيل: إنّه كان كثيراً ما يُنشِد قول أبي المنصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحِمْيَريّ[٥]، وهو قوله: [البسيط]

---

(١) راجع الجزء الرابع، ص ٥٠.

(٢) راجع الجزء الخامس، ص ٢٩٠، حاشية (١).

(٣) زيادة عن المقريزي: ٣٦٣/٢. وهذه المدرسة هي بذاتها المدرسة الشريفية التي سبق الكلام عليها في الجزء الخامس، ص ٣٨٥، باسم مدرسة للشافعية. وابن زين التجار هو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي المعروف بابن زين التجار، أحد علماء الشافعية المتوفى سنة ٥٩١هـ.

(٤) هو البيمارستان العتيق. راجع الجزء الرابع، ص ١٠١، حاشية (٣).

(٥) وقيل إن هذا الشعر لابن خيران، أمير المريّة. (شفاء القلوب: ١٩٠).

وزارني طَيْفُ مَنْ أهوى على حَذَرٍ من الوُشاة وداعِي الصبح قد هَتَفا
فكدتُ أوقِظ مَنْ حولي به فَرَحاً وكاد يَهْتِك سِتْر الحبِّ بي شَغَفا
ثم آنتبهتُ وآمالي تخيِّل لي نَيْلَ المنى فآستحالت غِبْطتي أَسَفا

وقيل: إنّه كان يُعجبه قول نَشْو المُلك أبي الحسن عليّ بن مفرّج المعروف بآبن المنجّم المغربيّ[1] الأصل المصريّ الدار والوفاة، وهو في خِضاب الشَّيْب وأجاد: [الطويل]

وما خضبَ الناسُ البياضَ لقُبْحِهِ وأقبحُ منه حين يظهر ناصِلُه
ولكنّه مات الشبابُ فَسُوِّدت على الرسم من حُزْنٍ عليه منازله

قالوا: فكان [إذا قال: مات الشباب][2] يُمسِك كريمته وينظر إليها ويقول: إي واللّهِ مات الشباب!.

وذكر العِماد الكاتب الأصبهانيّ في كتابه «الخريدة» أنّ السلطان صلاح الدين في أوّل ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق: [الرمل]

أيُّها الغائبونَ عَنّا وإن كنـ ـتم لقلبي بذكركم جِيرانَا
إنّني مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندي عِيانَا

قال آبن خلّكان: وأمّا القصيدتان اللتان ذكرتُ أنّ سِبْط بن التّعاوِيذِيّ أنفذهما إليه من بغداد، وأنّ إحداهما وازَنَ بها قصيدة صَرّدرّ[3] الشاعر، وقد ذكرت منها أبياتاً في ترجمة الكُنْدُرِيّ[4] وأوّلها: [الكامل]

أكذا يُجازَى ودّ كُلِّ قرينِ أم هذه شِيمُ الظِّباءِ العِينِ

ثم ذكر قصيدة سبط [بن] التّعاوِيذِيّ. وهي على هذا الوزن أضربتُ عن

(١) في ابن خلكان: «المعري الأصل».
(٢) زيادة عن ابن خلكان.
(٣) راجع وفيات سنة ٤٦٥هـ.
(٤) في الأصل: «الكندي». والتصحيح عن ابن خلكان. وانظر وفيات سنة ٤٥٧هـ في الجزء الخامس.

ذكرها لطولها[١]. ثم قال آبن خلّكان: وأمّا القصيدة الثانية (يعني التي كتبها إليه الخليفة في أوائل أمر صلاح الدين) قال: فمنها قوله: [الكامل]

حتّامَ أَرْضَى في هواكَ وتغضبُ ... وإلى متى تَجْنِي عليَّ وتَعْتِبُ
ما كان لي لولا مَلالُك زلّةٌ ... لمّا مَلِلتَ زعمتُ أنّي مذنبُ
خذ في أفانين الصدود فإنّ لي ... قلباً على العِلّات لا يتقلّب
أتظنّني أضمرتُ بعدك سَلْوةً ... هيهات عطفُك من سُلُوّي أقربُ
لي فيك نارُ جوانحٍ ما تنطفي ... حزناً، وماءُ مدامعٍ ما يَنْضُبُ
أَنَسِيتَ أيّاماً لنا ولياليا ... للّهو فيها والبَطالة مَلْعَبُ
أيامَ لا الواشي يَعُدّ ضلالةً ... وَلَهِي عليك ولا العذولُ يُؤنِّبُ
قد كنْتَ تُنْصِفُني المودّةَ راكباً ... في الحبّ من أخطاره ما أركبُ
واليوم أقنع أن يمرّ بمَضْجَعِي ... في النوم طَيْفُ خيالكَ المتأوِّبُ
ما خلتُ أنّ جديد أيّام الصِّبا ... يَبْلَى ولا ثوبَ الشَّبيبة يُسْلَبُ
حتّى آنجلى ليلُ الغَواية وآهتدى ... ساري الدجى وآنجاب[٢] ذاك الغَيْهَبُ
وتنافر البِيضُ الحِسان فأعرضتْ ... عنّي سُعادُ وأنكرتْني زينبُ
قالت وريعتْ من بياض مَفَارِقي ... ونحولِ جسمي بان منك الأطيب
إن تُنْكِري سُقْمِي فخصرُكِ ناحلٌ ... أو تُنْكِري شيبي فثغرُكِ أشنبُ[٣]
يا طالباً بعد المشيب غَضَارةً ... من عيشه ذَهَب الزمانُ المُذْهَبُ
أتروم بعد الأربعين تَعُدُّها ... وصلَ الدُّمَى هيهات عزّ المطلبُ

والقصيدة طويلة ذكرها آبن خلّكان، وقد نقلتها من خط عَسِر.

ثم قال آبن خلّكان: وقد مدحه جميع شعراء عصره، فمنهم العَلَم

(١) انظر ابن خلكان: ٢٠٨/٧. وأورد منها ابن خلكان ١٩ بيتاً.

(٢) في الأصل: «وانساب» والتصحيح عن ابن خلكان.

(٣) وقع الشاعر هنا في خطأ حين ظن أن الشنب بياض الثغر، وعليه بنى هذا المعنى. وليس الأمر كذلك. فالشنب في اللغة ليس البياض، وإنما هو حدّة الأسنان. (ابن خلكان: ٢١٠/٧) والشنب أيضاً: جمال الثغر، وصفاء الأسنان. والمحدثون استعاروا الشنب للشارب واستعملوه فيه حتى تناسوا الأصل. (المعجم الوسيط: شنب).

الشَّاتَانِيّ(١)، وآسمه الحسن ـ رحمه الله ـ مدحه بقصيدة أوّلها: [الطويل]

أَرَى النصر مقروناً برايتك الصَّفْرَا فسِر وآمْلِك الدنيا فأنت بها أحرى

ومدحه المهذَّب أبو حفص عمر بن محمد بن عليّ بن أبي نصر المعروف بآبن الشِّحْنَة(٢) الموصليّ الشاعر المشهور بقصيدته التي أوّلها: [الطويل]

سلام مَشُوقٍ قد بَرَاه التشوُّقُ على جِيرة الحيّ الذين تفرَّقوا

وعدد أبياتها مائة وثلاثةَ عشَرَ بيتاً، وفيها البيتان السائران، أحدهما:

وإنّي آمرُؤ أحببتُكم لمكارمٍ سمعت بها والأُذْنُ كالعين تَعْشَقُ

وقد أخذ هذا المعنى من قول بَشَّار بن بُرْد، وهو: [البسيط]

يا قوم أذْني لبعض الحيِّ عاشقةٌ والأُذْنُ تَعْشَقُ قبل العَيْن أحيانا

والبيت الثاني من قول آبن الشِّحْنَة المذكور: [الطويل]

وقالت لي الآمال إن كنتَ لاحقاً بأبناء أيُّوب فأنت الموفَّقُ

قال: ومدحه آبن قَلاقِس(٣) وآبن الذِّرْوِيّ(٤) وآبن المنجّم(٥)

---

(١) الشاتاني: نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر. وهو الحسن بن علي بن سعيد بن عبد الله، أبو الحسن علم الدين. كان أديباً شاعراً فاضلاً. توفي سنة ٥٩٩هـ (وفيات الأعيان: ٢/١١٣) وفي معجم البلدان أن وفاته سنة ٥٧٩هـ.

(٢) في الأعلام: ٥/٦٠ أنه: عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصلي، أبو حفص، معين الدين المعروف بالملّاء. ووفاته سنة ٥٧٠هـ.

(٣) هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف، القاضي الأعز المتوفى سنة ٥٦٧هـ. (وفيات الأعيان: ٥/٣٨٥) وفي حسن المحاضرة: ١/٣٢٤ أن وفاته سنة ٦٠٧هـ وهو خطأ.

(٤) هو وجيه الدين، علي بن الحسين بن الذروي. من مشاهير الشعراء بمصر. (حسن المحاضرة: ١/٣٢٦، ولم يذكر سنة وفاته).

(٥) هو نشو الملك علي بن مفرّج المعروف بابن المنجم المتوفى سنة ٦١٦هـ (حسن المحاضرة: ١/٣٢٦).

وآبن سناء الملك[١] وآبن الساعاتي[٢] والإِرْبِليّ[٣] ومحمد بن إسماعيل بن حمدان [الحيزاني][٤]. اِنتهى ما أوردته من كلام آبن خلّكان ومن كلام آبن شدّاد وآبن الأثير وآبن الجوزيّ وغيرهم بآختصار.

وقال العلاَّمة أبو المظفَّر في تاريخه مرآة الزمان: «ولمّا كان في سادس عشر صفر وجد السلطان كَسَلاً وحُمَّ حُمّى صفراويّة؛ ثم ذكر نحواً ممّا ذكره آبن شدّاد إلى أن قال: وأحضَر الأفضلُ (يعني ولده) الأمراءَ: سعد الدين مسعوداً أخا بدر الدين مودود شِحْنة دِمَشق، وناصر الدِّين صاحب صِهْيَوْن، وسابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر آبن الداية، وميموناً القَصْرِيّ، والبكي الفارسي، وأَيْبَك فُطَيس، وحُسام الدين بِشَارة، وأسامة الحلبيّ وغيرهم، فاستحلفهم لنفسه. وكان عند السلطان أبو جعفر إمامُ الكَلاَّسَة يقرأ القرآن، فلمّا آنتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾[٥]، وكان قد غاب ذهنه فتح عينيه، وقال: صحيح. ثم قال أبو المظفَّر: وغسّله آبنُ الدَّوْلَعِيّ، وصلّى عليه القاضي محيي الدّين بن الزَّكِيّ. وبعث القاضي الفاضل له الأكفان والحنوط من أجلِّ الجهات. ثم قال: «وقال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، ومرضه في زيادة؛ وفي كلّ يوم تضعف القلوب، وتتضاعف الكروب؛ ثم آنتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، سَحَر يوم الأربعاء؛ ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال. ورثاه الشعراء؛ فمن ذلك قول بعضهم[٦]: [الكامل]

---

(١) هو أبو القاسم القاضي السعيد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨هـ، كما في الشذرات وابن خلكان. وفي حسن المحاضرة أن وفاته سنة ٦٥٨هـ. وهو خطأ.

(٢) هو بهاء الدين علي بن محمد بن رستم، المعروف بابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٠٤هـ. (ابن خلكان والشذرات).

(٣) هو محمد بن يوسف بن محمد المتوفى سنة ٥٨٥هـ. (وفيات الأعيان: ٩/٥).

(٤) زيادة عن ابن خلكان.

(٥) سورة الحشر، الآية ٢٢.

(٦) هو العماد الكاتب الأصبهاني، ختم بها مؤلفه «البرق الشامي» كما جاء في حسن المحاضرة. والقصيدة في مائتين وثلاثين بيتاً. ـــ وفي شفاء القلوب أنها في مائتين وعشرين بيتاً.

شَمْلُ الهُدَى والملكِ عمّ شتاتُه — والدهرُ ساء وأقلعت حسناتُهُ[١]
باللهِ أين الناصر الملك الذي — لله خالصةً صَفَتْ نِيّاتُهُ
أين الذي [مذ][٢] لم يزل مخشِيّةً — مرجوَّةً رَهَبَاتُه وهِبَاتُهُ
أين الذي كانت له طاعاتُنا — مبذولةً ولربِّه طاعاتُهُ
أين الذي ما زال سلطاناً لنا — يُرْجَى نَداهُ وتُتَّقَى سَطَواتُهُ
أين الذي شَرُفَ الزمان بفضله — وسَمَتْ على الفضلاء تشريفاتُهُ
لا تحسبوه مات شخصاً واحداً — قد[٣] عَمّ كلَّ العالمين مماتُهُ
ملِكٌ عن الإسلام كان محامياً — أبداً لماذا[٤] أسلمتْه حُمَاتُهُ
قد أظلمتْ مذ غاب عنّا[٥] دُورُه — لمّا خلتْ من بَدْرِه داراتُهُ
دُفِن السماح فليس تُنْشَرُ بعدما — أَوْدَى إلى يوم النشور رُفَاتُهُ
الدين بعد أبي المظفَّر يُوسفٍ — أقوت قُواه وأقفرتْ ساحاتُهُ
بحر خلا من ورديه ولم تزل — محفوفةً بوروده حافاتُهُ
مَن لليتامى والأرامل راحمٌ — متعطِّفٌ مفضوضةٌ صدقاتُهُ
لو كان في عصر النبيّ لأُنْزِلت — في ذِكْره من ذكْره آياتُهُ
بكت الصوارم والصواهل إذ خلتْ — من سَلِّها[٦] وركوبها عَزَماتُهُ
يا وحشةَ الإسلام حين تمكَّنت — من[٧] كلّ قلب مؤمن روعاتُهُ
يا راعياً للدين حين تمكنت — منه الذئاب وأسلمتْهُ رُعاتُهُ

---

(١) رواية البيت في الأصل:

شمل الهوى والملك عمّ شتاته — والدهر ساء وقلّت حسناته

وما أثبتناه عن حسن المحاضرة والروضتين.

(٢) رواية الأصل:

أين الذي لم تزل مخشوّة — مرجوة هباته وهباته

والتصحيح عن الروضتين.

(٣) في شفاء القلوب: «بل عمَّ». وفي الروضتين: «فممات كل العالمين مماته».

(٤) في الروضتين: «إذا ما أسلمته. . .».

(٥) في الروضتين: «عنها».

(٦) في الأصل: «من سهلها وركوبها عزماته» وفي الروضتين: «غزواته».

(٧) في الروضتين: «يوم تمكنت. . . في».

ما كان ضرّك لو أقمتَ مراعياً ... ديناً تولّى مُذْ رحلت وُلَاتُهُ
فارقتَ مُلكاً غيرَ باقٍ متعباً ... ووصلتَ مُلْكاً باقياً راحاتُهُ
فعلى صلاح الدينِ يوسفَ دائماً ... رِضْوانُ ربِّ العرِش بل صلواتُهُ[١]

ذكر أولاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب ــ رحمه الله ــ .

كانوا ستة[٢] عشر ذكراً وآبنة واحدة؛ أكبرُهم الأفضل عليّ، وُلِد بمصر سنة خمس وستين يوم عيد الفطر. وأخوه لأبيه وأمّه الملك الظافر خِضر، ولِد بمصر سنة ثمان وستين. وأخوهما أيضاً لأبيهما وأمّهما قطب الدين موسى، ولِد بمصر سنة ثلاث وسبعين. فهؤلاء الثلاثة أشقّاء. ثم الملك العزيز عثمان الذي ملك مصر بعد أبيه، ولِد بها سنة سبع[٣] وستين. وأخوه لأبيه وأمّه الأعز يعقوب، ولد بمصر سنة آثنتين وسبعين. والملك الظاهر غازي صاحب حلب، ولِد بمصر سنة ثمان وستين. وأخوه لأبيه وأمّه الملك الزاهر داود، ولِد بمصر سنة ثلاث وسبعين. والملك المعز إسحاق، ولِد سنة سبعين. والملك المؤيّد مسعود، ولِد بدمشق سنة إحدى وسبعين. والملك الأشرف محمد، ولِد بالشام سنة خمس وسبعين. وأخوه أيضاً لأبيه وأمّه الملك المحسن أحمد، ولِد بمصر سنة سبع وسبعين. وأخوه أيضاً لأبيه وأمّه الملك الغالب ملكشاه، ولِد بالشام سنة ثمان وسبعين. وأخوهم أيضاً لأبيهم وأمّهم أبو بكر النصر[٤]، ولد بحَرّان بعد وفاة أبيه سنة تسع وثمانين. والبنت مؤنسة خاتون تزوّجها آبن عمّها الملك الكامل ــ الآتي ذكره ــ ابن الملك العادل وماتت عنده.

(١) في شفاء القلوب: «بل وصلاته».
(٢) في الروضتين والسيرة: «سبعة عشر ذكراً وبنتاً». وفي شفاء القلوب: «ثمانية عشر وبنتاً». وعدّ أبو المحاسن هنا ثلاثة عشر ذكراً. وبقيتهم كما في الروضتين: الجواد أبوسعيد أيوب ركن الدين، والأشرف المعظم أبومنصور توران شاه فخر الدين، وعماد الدين شادي، ونصرة الدين مروان. ــ وزاد عليهم في شفاء القلوب: الصالح معين الدين حسن، وقد مات في حياة أبيه، وهو الثامن عشر.
(٣) في الأصل: «سنة تسع وستين». وما أثبتناه رواية ابن خلكان والروضتين وشفاء القلوب.
(٤) في الروضتين: «المنصور أبوبكر». وفي شفاء القلوب: «المنصور نصرة الدين، وقيل سيف الدين، أبو بكر. وقيل إنهما اثنان. فأبو بكر هو سيف الدين، ونصرة الدين هو مروان.

وملك بعد السلطان صلاح الدين مصرَ آبنُه الملك العزيزُ عثمان الآتي ذكره، إن شاء الله تعالى، وملك دمشقَ بعده آبنُه الملك الأفضل عليّ، وملك حلبَ آبنه الظاهر غازي كما كانوا أيام أبيهم. ثم وقع بين الملك العزيز والأفضل أمور نذكرها فيما يأتي إن شاء الله تعالى. انتهت ترجمة السلطان صلاح الدين ــ رحمه الله ــ.

ونذكر الآن ما وقع في أيامه من الحوادث، ومن تُوُفِّي من الأعيان في زمانه على سبيل الاختصار على عادة هذا الكتاب. وبالله المستعان.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبع وستين وخمسمائة.

(أعني سلطنته بعد موت العاضد العُبَيْديّ آخر خلفاء الفاطميّين بمصر).

وأمّا وزارته فكانت قبل ذلك بمدّة من يوم مات عمّه الملك المنصور أسد الدين شِيرِكُوه بن أيّوب في يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. وقد ذكرنا حوادث وزارته فيما مضى، ونذكر الآن من يوم سلطنته بعد الخليفة العاضد (أعني حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة).

فيها خطَب لبني العباس بمصر وأبطل الخطبة لبني عُبَيْد، حسب ما تقدّم ذكره في ترجمة العاضِد، وفي ترجمة صلاح الدين أيضاً؛ ولمّا وقع ذلك كتب العِماد الكاتب عن السلطان صلاح الدين لنور الدين الشهيد يُخبِره بذلك: [الخفيف]

قد خَطَبْنا للمستضيء بمصرِ ... نائبِ المصطفى إمامِ العصرِ
ولدينا تضاعفتْ نِعَمُ اللّـ ... ـهِ وجلّت عن كلّ عدٍّ وحَصْرِ
وآستنارت عزائمُ الملك العا ... دِل نورِ الدين الهُمَامِ الأغرِّ

وفيها بعث الملك العادل نور الدين محمود المذكور بالبشارة للخليفة المستضيء، على يد الشيخ شهاب الدين المطهّر بن شرف الدين بن أبي عَصْرُون؛

فلمّا وصل شهاب الدين المذكور للخليفة، قال في المعنى آبن الحَرَسْتَانِيّ الشاعر المشهور قصيدة أوّلها: [البسيط]

جاء البشير فَسُرَّ الناس وآبتهجوا فما على ذي سرورٍ بعدها حَرَجُ

وخلَع الخليفةُ على شهاب الدين المذكور. ثم بعث جواب الملك العادل على يد الخادم صَنْدَل وعلى يديه الخِلَعُ والتقاليدُ له، وفي الخِلعة الطَّوْقُ وفيه ألف دينار، والفرجيّة والعِمامة؛ ثم أرسل مع الخادم المذكور لصلاح الدين صاحب الترجمة خِلعاً دون خِلع نور الدين. وبعث أيضاً لنور الدين سيفاً قلّده للشام، ثم سيفاً آخر قلّده بمصر، ويكون صلاح الدين نائبه بمصر. وزُيِّنت بغداد وضُرِبت القِبابُ لذلك.

وفيها وقعت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين. هذا الأمر ذكرناه في أوائل ترجمة صلاح الدين، ثم سكن ذلك.

وفيها تُوُفّي حَسّان بن نُمَيْر الكلبيّ، أبو النَّدَى الشاعر المشهور المعروف بعَرْقَلة الدمشقيّ، ويقال له عرقلة من حاضرة دمشق؛ كان شيخاً خليعاً أعورَ مطبوعاً لطيفاً ظريفاً؛ كان آختصّ بالسلطان صلاح الدين وله فيه مدائح، وله شعر رائق كثير. من ذلك قصيدته المشهورة: [الكامل]

كتَم الهوى فَوَشَتْ عليه دموعُهُ من حَرِّ نارٍ تَحْتَويه ضلُوعُهُ
صبٌّ تشاغَل بالربيع وزهره قومٌ[1] وفي وجه الحبيب ربيعُهُ
يا لائمي فيمَن تمنَّع وصلُه عن بُغيتي[2] أحلى الهوى ممنوعهُ
كيف التخلُّصُ إن تَجَنَّى أو جَنَى والحسنُ شيءٌ ما يُرَدُّ شفيعُهُ
شمسٌ ولكن في فؤادي حرُّها بَدْرٌ ولكن في القَباءِ طلوعُهُ
قال العواذل ما الذي آستحسنتَهُ منه وما يَسْبِيك قلتُ جميعُهُ

(١) في فوات الوفيات: «زمناً».
(٢) في فوات الوفيات: «عن صبّه».

وفيها تُوفّي عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد العلّامة أبو محمد المعروف بآبن الخَشّاب النحويّ اللغويّ حُجّة العرب؛ بَرَع في فنون العلوم وآنفرد بعلم النحو والعربيّة حتّى فاق أهلَ عصره.

وفيها تُوفّي عبد الله بن أحمد بن الحسين [بن أحمد بن الحسين][1] بن إسحاق، أبو محمد الحِمْيَرِيّ ويعرف بآبن النَّقَّار[2] الكاتب. وُلِد بطرابُلس سنة تسع وسبعين وأربعمائة. ولمّا آستولى الفرنج على طرابلس آنتقل منها إلى دِمشق؛ وكان شاعراً ماهراً. ومن شعره ــ رحمه الله ــ القصيدة المشهورة التي أوّلها: [السريع]

بادِر إلى اللَّذاتِ في أزمانها ... وآرْكُضْ خيولَ اللَّهو في مَيْدَانِها
وآستقبِل الدنيا بصدرٍ واسع ... ما أوسعتْ لك من رحيبِ مكانها

وله: [الكامل]

اللَّهُ يعلم أنَّني ما خِلْتُهُ ... يصبو إلى الهِجْران حين وصلْتُهُ
مَنْ مُنْصِفِي من ظالمٍ مُتَعتِّبٍ ... يزداد ظلماً كلّما حَكّمْتُهُ
ملّكتُه رُوحي ليحفظ مِلْكَهُ ... فأضاعني وأضاع ما ملّكتُهُ
لا ذنبَ لي إلّا هواه لأنّه ... لمّا دعاني للسَّقام أجبتهُ

وفيها توفّي العاضد خليفةُ مصر، حسب ما ذكرناه في ترجمته.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو عليّ أحمد بن محمد بن عليّ الرَّحْبِيِّ الحرميّ[3] في صفر. وأبو محمد عبد الله بن منصور بن المَوْصِليّ. وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد [بن أحمد][4] بن الخشّاب النحويّ. والعاضد عبد الله بن يوسف بن الحافظ العُبَيْديّ في المحرّم، وآنقضت دولة الرَّفْض عن مصر. وأبو الحسن عليّ بن عبد الله بن خَلَف بن النِّعْمَة الأندلُسيّ

(١) زيادة عن تهذيب تاريخ ابن عساكر.
(٢) في الأصل: «ابن النيار». والتصحيح عن تهذيب ابن عساكر والأعلام.
(٣) في الشذرات: «الحريمي».
(٤) زيادة عما تقدم ذكره للمؤلف.

بِسَبْتَة في رمضان. وأبو المطهَّر القاسم بن الفضل بن عبد الواحد الصَّيْدَلانِي بأَصبهان في جمادى الأولى، وقد نيّف على التسعين. وأبو المظفّر محمد بن أسعد بن حَكِيم العِرَاقِيّ الواعظ شيخ الحنفيّة بدمشق. وأبو المكارم المبارَك بن محمد بن المُعَمّر البَادَرَايِيّ. وأبو العلاء وجيه بن عبد الله السَّقَطِيّ. وأبو بكر يحيى بن سَعْدُون القُرْطُبيّ الأَزْدِيّ[1] ونزيل الموصل يوم الفطر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وسبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمان وستين وخمسمائة:

فيها سار الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق إلى الموصل، وصلّى بالجامع الذي بناه وسط المَوْصِل وتصدّق بمال عظيم. ولمّا علِم صلاح الدين صاحب الترجمة بتوجّهه إلى الموصل خرج بعساكره من مصر إلى الشام، وحصر الكَرَك والشُّوبَك ونَهب أعمالهما؛ ثم عاد لمّا بلغه عَوْد نور الدين إلى الشام. وهذه أوّل غزوات صلاح الدين.

وفيها تُوُفّي الأمير نجم الدين أيّوب بن شادِي بن مَرْوَان، والد صلاح الدين المذكور. كان أميراً عاقلاً حازماً شجاعاً جَوَاداً عاطفاً على الفقراء والمساكين مُحبّاً للصالحين، قليل الكلام جدّاً لا يتكلّم إلّا لضرورة. ولمّا قدِم مصرَ سأله ولدُه السلطان صلاحُ الدين صاحبُ الترجمة أن يكون هو السلطان، فقال: أنت أولى. وكان سبب موته أنّه ركِب يوماً وخرج من باب النّصر يريد الميدان[2]، فشبّ به فرسه

(١) في الأصل: «النمري» وما أثبتناه عن الشذرات ومعجم البلدان.

(٢) هو ميدان العيد، حيث كان يوجد مصلّى العيد، خارج باب النصر (انظر المقريزي: ٢/٤٦٤). ومحله اليوم المنطقة الواقعة بين باب النصر وباب الحسينية المشغولة بمقابر جبانة باب النصر. (محمد رمزي).

فوقع على رأسه، فأقام ثمانية أيام ومات في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجّة، ودُفِن إلى جانب أخيه أسد الدين شِيركُوه بن أيوب في الدار السلطانية[١] ثم نقلا بعد سنين إلى مدينة[٢] النبيّ صلى الله عليه وسلم. وكان آبنه السلطان، صلاح الدين قد عاد من الكَرَك فبلغه خبرُ موته في الطريق، فوجِدَ عليه وتأسّف حيث لم يحضُره. وخلّف من الذكور ستة: السلطان صلاح الدين يوسف، وأبا بكر العادل الآتي ذكره في ملوك مصر، وشمس الدولة تُوران شاه وهو أكبر الجميع، وشاهِنْشَاه، وسيف الإسلام طُغْتِكِين، وتاج الملوك بُورِي وهو الأصغر[٣].

وفيها تُوفّي الحسن بن أبي الحسن صافي، مِلِك النحاة، مولى الحسين بن الأرْمَويّ التاجر البغداديّ؛ قرأ النحو وأصول الدين والفقه والخلاف والحديث وبَرَع في النحو وفاق أهلَ زمانه، وسافر البلاد وصنّف الكتب في فنون العلوم، من ذلك «المقامات» التي من جنس «مقامات الحَرِيريّ»؛ وكان يقول: مقاماتي جِدٌّ وصدق، ومقامات الحَرِيريّ هَزْل وكذِب. قلت: ولكن بين ذلك أهوال. ومن مصنّفاته كتاب أربعُمائة كراسة، سمّاها «التذكرة السفريّة».

وفيها توفي سعد الدين بن عليّ بن القاسم بن عليّ، أبو المعالي الكُتْبيّ الحَظِيريّ الحنفيّ؛ كان شاعراً فاضلاً. والحَظِيرة: قرية فوق بغداد وهي (بفتح الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء) وإلى هذه القرية يُنسب كثير من العلماء. ومن شعر الحَظِيريّ ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه ـ: [المنسرح]

صُبحُ مَشِيبي بدا وفارقني ... ليلُ شبابي فصِحْتُ وَا قَلَقي
وصِرتُ أبكي دماً عليه ولا ... بُدّ لصُبْح المَشِيبِ من شَفَقِ

---

(١) هذه الدار كانت ضمن القصر الكبير الشرقي الذي نزل به صلاح الدين عند توليته سلطنة مصر بعد موت الخليفة العاضد. وكان دفن أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين في التربة التي كانت بقرب المشهد الحسيني. (محمد رمزي).

(٢) ونقل صاحب شفاء القلوب عن تاريخ بيبرس بن عبد الله المنصوري الدوادار أنهما دفنا بمكة.

(٣) وخلّف من الإناث: ستّ الشام، وربيعة خاتون.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي نجم الدين أيّوب بن شادي والد الملوك. وملِك النحاة أبو نِـزار الحسن بن صافي البغـداديّ بدمشق. وأبو جعفر محمد بن الحسن الصَّيْدَلانيّ بأصبهان، وله خمس وتسعون سنة. وصالح ابن إسماعيل أبو طالب آبن بنت مُعَافَى المالكيّ مفتي الإسكندرية ـ رحمه الله ـ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة تسـع وستّين وخمسمائة:

فيها كتب صلاح الدين صاحب الترجمة لنور الدين يستأذِنه في إنفاذ جيش إلى اليمن فأذِن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة تُوران شاه بن أيّوب، فسار إليها، وكان فيها عبد النبيّ بن مَهْديّ من أصحاب المصريّين[١]، وكان ظالماً فاتكاً، فحصَرَه شمس الدولة تُوران شاه في قصره بزَبِيد مدّة، حتّى طلَب الأمان فأمّنه؛ فلمّا نزل إليه قيّده ووكّل به، وفتـح صَنْعَاء وحصون اليمن والمدائن، يقال: إنّه فتـح ثمانين حصناً ومدينة وآستولى على أموالها وذخائرها، وقَتَل عبد النبـيّ المذكور. وَوَلّى على زَبِيد سيف الدولة مبارك بن مُنْقِذ[٢]، وعزّ الدِّين عثمان بن الزَّنْجيليّ على باقي البلاد[٣].

وفيها قَبَض صلاحُ الدين على جماعة من أعيان الدولة العُبَيْدِيّة: مثل داعي

---

(١) أي الفاطميين.

(٢) في الأصل: «سنقر» والتصحيح عن الروضتين وابن الأثير.

(٣) في الروضتين وابن الأثير: «على عدن».

الدُّعاة(١)، وعُمَارة اليَمَنِيّ وغيرِهما(٢)، بلغه أنّهم يجتمعون على إثارة الفِتَن، وٱتّفقوا مع السُّودَان وكاتبوا الفرنج، فقتل داعي الدعاة، وصلب عُمَارة اليمنيّ. قال القاضي شمس الدين ابن خلكان: هو أبو محمد عُمَارة بن أبي الحسن علي بن زَيْدَان(٣) بن أحمد بن محمد الحَكَمِيّ ٱليَمَنِيّ، الملقّب نجم الدين الشاعر؛ وهو من جبال اليمن من مدينة مَرْطان(٤)، بينها وبين مكّة من جهة الجنوب أحد عشر يوماً. وكان فقيهاً فصيحاً، أقام بزَبِيد مدّة يُقرأ عليه مذهب الشافعيّ، وله في الفرائض مصنّف مشهور باليمن، ومدح خلفاءَ مصر، فقرّبوه وأعطَوْه الأموال، فكان عندهم بمنزلة الوزير، وكان أيضاً معظّماً قبل ذلك في اليمن؛ ثم ظهرت أمور ٱقتضت خروجه منها، فقدِم إلى مصر في سنة خمسين وخمسمائة. وقيل: إنّ سبب قتله أنّه مدح تُوران شاه، وحرّضه على أخذ اليمن بقصيدة أوّلها: [الطويل]

العِلمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وشَفْرةُ السيف تَسْتَغْنِي عن القَلَمِ

إلى أن قال:

هذا ٱبنُ تُومَرْتَ قد كانت بدايتُهُ ... كما يقول الوَرَى لَحْماً على وَضَمِ

وكان أوّلُ هذا الدِّين من رجل ... سعى إلى أن دَعَوْه سيِّدَ الأمَمِ

قال العِماد الكاتب: ٱتّفقت لعُمَارة ٱتّفاقات: منها أنّه نُسِب إليه قولُ هذا البيت(٥) فكان أحدَ أسباب قتله؛ وأفتى قضاةُ مصر بقتله، وقيل: إنّه لمّا أمَر صلاحُ الدين بصلبه، مرُّوا به على دار القاضي الفاضل، فَرَمَى بنفسه على بابه

---

(١) هو داعي الدعاة الفاطميين عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي. (السلوك: ١/٧٥).

(٢) وزاد المقريزي في السلوك: اجتمعوا على إقامة رجل من أولاد العاضد. ومنهم: القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن كامل، والشريف الجليس، ونجاح الحمامي، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي الأعزّ سلامة العوريس متولي ديوان النظر ثم القضاء، والواعظ زين الدين بن نجا.

(٣) في الأصل: «.. بن زيد بن بدران بن أحمد بن محمد الحلبي اليمني». وما أثبتناه عن ابن خلكان في ترجمة عمارة اليمني.

(٤) جاء في مقدمة «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» لعمارة اليمني أن ولادته في قرية الزرائب التي تطل عليها العكوتان وعكاد. قال المحقق: «ولا أدري ممن أخذ ابن خلكان؛ ولكن عمارة اليمني نفسه يؤكد ما ذهبنا إليه».

(٥) وقال العماد الكاتب: «.. ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه».

وطلب الدخول إليه ليستجيرَ به فلم يُؤذَن له، فقال: [مجزوء الكامل]

عبدُ الرحيم قد احتجبْ إنّ الخلاصَ من العجب

فصُلِب وهو صائم في شهر رمضان.

وفيها تُوفِّي السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زَنْكِي بن آق سُنْقُر صاحب الشام ومصر المعروف بنور الدين الشهيد. قال ابن عساكر: «وُلِد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان معتدل القامة أسمر اللّون واسع الجَبْهَة حسن الصورة، لحيتُه شَعَرَاتٌ خفيفة في حَنَكِه، ونشأ على الخير والصلاح. وكان زَنْكِي يقدّمه على أولاده، ويرى فيه مخايلَ النَّجابة. وفتح في أيام سلطنته نيِّفاً وخمسين حِصْناً».

قلت: ومصر أيضاً من جملة فتوحاته، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الأجر والثواب، ولولاه إيش كان صلاح الدين! حتّى ملك مصر من أيدي تلك الرافضة من بني عُبَيْد خلفاء مصر وقوّة بأسهم!. قلت: وترجمة الملك العادل طويلة، يضيق هذا المحلّ عن ذكرها، وأحواله أشهر من أن تُذكر. غير أنّنا نذكر مرض موته ووفاته. وكان ابتداء مرضه أنّه خَتَنَ ولدَه الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، فهُنِّىء بالعيد والطهور، فقال العِمَاد الكاتب ــ رحمه الله ــ: [المجتثّ]

عِيدَانِ فِطْرٌ وطُهْرُ فتحٌ قريب ونصرُ
كلاهما لك فيه حقًّا هَنَاءٌ وأَجْرُ

فمرِض بعد عَوْده من صلاة العيد بالخوانيق؛ وما كان يرى الطبَّ، على قاعدة الأتراك؛ فأُشير عليه بالفَصْد في أوّل مرضه فامتنع؛ وكان مَهيباً فما رُوجِع؛ فمات يوم الأربعاء حادي عشر شوّال، ودُفِن بالقلعة، ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها[1]

(١) قال ابن شداد: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة ٥٦٣هـ. ــ قال النعيمي: وفيه نظر، إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ودفنه بها. وهي بعض دار هشام بن عبد الملك بن مروان، وكانت قديماً دار معاوية بن أبي سفيان. (الدارس في تاريخ المدارس: ٤٦٦/١).

مجاورة الخوّاصين بدمشق. وعاش ثمانياً وخمسين سنة. وكانت سلطنته ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر. ورثاه العماد الكاتب بعِدّة مَراثٍ؛ من ذلك قوله: [السريع]

يا ملِكاً أيّامُهُ لم تَزَلْ لفضله فاضلةً فاخِره
ملكتَ دنياك وخلّفتَهَا وسرتَ حتّى تملِكَ الآخرهْ

قال أبو اليسر[١] شاكر بن عبد الله [التَّنُوخيّ المَعَرِّيّ][٢]: تَعَدّى بعض أمراء صلاح الدين بن أيّوب [على رجل] وأخذ ماله، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد؛ فجاء إلى قبر نور الدين وشَقّ ثيابه، وحثا الترابَ على رأسه، وجعل يستغيث: يا نور الدين أين أيّامك! ويبكي. فبلغ صلاحَ الدين فآستدعاه وأعطاه ماله، فازداد بكاؤه؛ فقال له صلاح الدين: ما يُبْكِيك وقد أنصفناك؟ فقال: إنّما أبكي على مَلِك أنصِفتُ ببركاته وبعد موته، كيف يأكله التراب ويفقده المسلمون!. وتسلطن بعده ولده الملك الصالح إسماعيل ولم يبلغ الحُلُم. وقد مرّ من أخباره نبذةٌ كبيرة في ترجمة صلاح الدين.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي النقيب أبو عبد الله أحمد [بن عليّ][٣] بن المعمَّر العَلَوِيّ ببغداد في جُمادى الأولى. والحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد الهَمَذَانِيّ العطّار المقرىء في جُمادى الأولى، وله إحدى وثمانون سنة. ودَهْبَل بن عليّ [بن منصور بن إبراهيم بن عبد الله المعروف بآ][٤] بن كَارَةَ الحنبليّ. وناصح الدين سعيد بن المبارك بن الدهّان النحويّ ببغداد، وله خمس وسبعون سنة. وأبو تميم سَلْمان بن عليّ الرَّحْبيّ الخبّاز بدمشق. وعبد النبي بن المَهْدِيّ صاحب اليمن، وكان باطنيًّا آستأصله أخو صلاح الدين. وأبو الحسن عليّ بن أحمد الكِنَانِيّ القُرْطُبيّ بفاس، وله ثلاث وتسعون سنة. والفقيه عُمَارة بن

(١) في الأصل: «أبو القاسم». وما أثبتناه عن الروضتين.
(٢) زيادة عن الروضتين.
(٣) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.
(٤) زيادة عن الشذرات.

عليّ بن زَيْدان اليمنيّ الشاعر؛ شُنِق في جماعة سَعَوْا في إعادة الدولة العُبَيْدِيّة.
والسلطان نور الدين محمود بن زَنْكِي الأتَابكيّ بن آق سُنْقُر التركيّ المَلِكْشَاهِيّ في شوّال، وله ثمان وخمسون سنة.

أمر النيـل في هذه السنة:
الماء القديم ستّ أذرع وستّ عشرة إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وعشر أصابـع.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبعين وخمسمائة:

فيها ملك السلطان صلاح الدين دِمَشقَ من الملك الصالـح آبن الملك العادل نور الدين محمود، حسب ما ذكرناه في ترجمته. وكان أخذه لدمشق بمكاتبة القاضي كمال الدين الشَّهْرُزُورِيّ وآبن الجاوليّ والأعيان، وكان بالقلعة رَيْحان الخادم، فعزم على قتاله، فجهّز إليه عسكر دمشق، وركب صلاح الدين من الجسور، فآلتقاه أهل دمشق بأسرهم وأحدقوا به، فنَثَر عليهم الدراهم والدنانير، ودخل دمشق فلم يُغلق في وجهه باب ولا منعه مانـع، فملكها عِنايةً لا عَنْوَةً.

وفيها آستخدم صلاحُ الدين العِمَادَ الكاتب الأصبهانيّ؛ وسببه أنـه آلتقى بالقاضي الفاضل ومدحه بأبيات منها: [الكامل]

عاينتُ طَوْدَ سكينةٍ ورأيتُ شمـ ـسَ فضيلةٍ ووردتُ بَحْرَ فضائـل
ورأيتُ سَحْبَان البـلاغـة ساحبـاً ببيـانـه ذيـلَ الفخـار لـوائِـل
حِلْفُ[الحَصَافةِ][1]والفصاحةوالسما حـة والحمـاسـة والتُّقى والنَّـائِـل
بحرٌ من الفضل[2] الغزيرِ خضَمُّهُ طامِي العُباب وما له من سـاحلِ

(٢) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.

(١) في الأصل: «بحر من البحر الخضمّ خضمه» وما أثبتناه عن الروضتين.

في كفّـه قلمٌ يعـجِّـل جـريــه ... مـا كان من أجلٍ ورزقٍ آجلِ
أبصرتُ قُسًّا في الفصاحة معجزاً ... فعـرفتُ أنِّي في فَهَاهـة بـاقِـلِ

فدخل القاضي الفاضل على السلطان صلاح الدين وقال: غداً تأتيك تراجمُ الأعاجم، وما يحلّها مثل العِماد الكاتب. فقال: ما لي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيتُ على وجهك البَرَكَة، فإذا آستكتبتُ غيرَك تحدّث الناس؛ فقال الفاضل: هذا يحلُّ التراجم، وربَّما أَغِيبُ أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غِبْتُ قام العِمادُ مُقامي، وقد عرفتَ فضل العِماد، وخدمته للدولة النورية، فآستكتبه.

وفيها تُوفِّي السلطان أَرْسلان شاه بن طُغْرِل [بن محمد](١) بن مَلِكشاه بن أَلْب أَرْسلان بـن داود بن ميكائيل بن سَلْجوق بن دُقْماق السَّلْجُوقيّ. وقام بعده في الملك آبنه طُغْرِل شاه، وكان صغير السِّن، فتولّى تدبير ملكه محمد بن إيلْدِكز الأَتَابك وكان يلقّب بالبَهْلَوان.

وفيها تُوُفِّي يحيـى بن جعفر أبو الفضل زعيم الدِّين، صاحب مخزن الخلفاء: المقتفي والمستنجد والمستضيء، وناب في الوزارة، وتقلّب في الأعمال نيِّفـاً وعشرين سنة، وكان حافظاً للقرآن فاضلاً عارفاً منصفاً، مُحِبًّا للعلماء والصالحين؛ ومات في شهر ربيـع الأوّل، وكانت جنازته مشهودةً. قال العِماد الكاتب: جلس يوماً في ديوان الوزارة فقام شهاب(٢) الدين بن الصَّيْفِيّ فأنشده: [الطويل]

لكـلِّ زمـانٍ من أمـاثـل أهلِهِ ... بـرامِكـةٌ يمتارهم كـلُّ مُعْسِـرِ(٣)
أبو الفضل يحيـى مثل يحيى بنِ خالدٍ ... يـداً(٤) وأبوه جعفـر مثـل جعفـر

ثم قام ثابت(٥) الواعظ ـ رحمه الله ـ فأنشد بديهاً: [الطويل]

(١) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.
(٢) في الأصل: «جمال الدين» والتصحيح عن ابن خلكان.
(٣) في الشذرات: «كل معشر».
(٤) في الشذرات: «ندىً».
(٥) في الشذرات: «ناشب الواعظ».

وفي الجانب الشرقيّ يحيى بنُ جعفر ـــ وفي الجانب الغربـيّ موسى بن جعفرِ
فـذاك إلى الله الكـريم شفيعُنـا ـــ وهذا إلى المولى الإمامِ المُطَهَّرِ

(يعني ساكن الجانب الشرقيّ صاحب الترجمة، وبالجانب الغربـيّ موسى بن جعفر الصادق).

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي قاضي القضاة أبو طالب رَوْح بن أحمد الحَدِيثِيّ، وله ثمانٍ وستّون سنة. وفَخْرُ النساء خديجةُ بنت أحمد النَّهْرَوَانِيّة في شهر رمضان. وعبد الله بن عبد الصمد بن عبد الرزّاق السُّلَمِيّ العَطّار. وأبو بكـر محمد بن عليّ بن محمـد الطُّوسيّ. وأبـو عبد الله محمـد بن عبد الله بن خليل القَيْسِيّ مسند المغرب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وتسـع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة:

فيها عزل الخليفةُ المستضيءُ بالله الحسنُ صندلَ[1] الخادم عن الأستادارية، وضيّق على ولده الأمير أبـي العباس أحمد، لأمر بلغه عنهما، وولّى [آبنَ][2] الصاحب الأستادارية عوضاً عن صندل المذكور.

وفيها وثبت الإسماعيليّة على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب وهو على أعزاز؛ جاءه ثلاثة في زِيّ الأجناد، فضربه واحد بسكّين في رأسه فلم يَجْرَحْه وخدشت السكّين خدَّه وقُتِل الثلاثة، فرحل صلاح الدين إلى حلب، فلمّا نزل عليها

---

(١) في ابن الأثير: «سنجر المقتفوي».
(٢) زيادة عن ابن الأثير. وهو فيه: أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصامت.

بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود أخته خاتون بنت نور الدين في اللّيل، فدخلت عليه فقام قائماً وقبّل الأرض لها وبكى على نور الدين؛ فسألته أن يَرُدّ عليهم أعزاز، فأعطاها إيّاها، وقدّم لها من الجواهر والتُّحَف شيئاً كثيراً؛ واتّفق مع الملك الصالح أنّ مِن حَمْاة وما فتحه إلى مصر له، وباقي البلاد الحلبيّة للصالح.

وفيها قدِم شمس الدولة تُوران شاه بن أيّوب أخو صلاح الدين من اليمن إلى دِمشق في سَلْخ ذي الحجّة.

وفيها فوّض سيفُ الدولة غازي أمرَ الموصل إلى مجاهد الدين قَيْماز الخادم.

وفيها تُوُفّي عليّ بن الحسن بن هِبة الله بن عبد الله بن الحسين، الحافظ أبو القاسم الدمشقي المعروف بآبن عساكر؛ مولده في أوّل المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة. كان أحد أئمة الحديث المشهورين، والعلماء المذكورين؛ سمع الكثير وسافر، وصنّف تاريخاً لدمشق، وصنّف كتباً كثيرة؛ وكان إماماً في الفنون، فقيهاً محدّثاً حافظاً مؤرّخاً. قال العِماد الكاتب: أنشدني لنفسه بالمِزّة[1]: [المتقارب].

أيا نفسُ ويحَكِ جاء المشيبُ ... فمـاذا التَّصابِي ومـاذَا الغَـزَلْ
تـولّى شبابي كـأنْ لَمْ يكنْ ... وجـاء مَشِيبـي كـأنْ لم يَـزَلْ
[كـأنّي بنفسي على غِـرةٍ ... وخَطْبُ المنونِ بها قد نَزَلْ][2]
فيـا ليت شِعْرِيَ ممّن أكـون ... ومـا قـدّر الله لي في الأزل

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الحافظ ثِقَةُ الدِّين أبو القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عساكر في رجب، وله ثلاث وسبعون سنة

(١) المِزّة (وأهل الشام يفتحون الميم): قرية كبيرة وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ (معجم البلدان).

(٢) زيادة عن وفيات الأعيان.

إلا شهراً. ومَجْدُ الدين أبو منصور محمد بن أسعد بن [محمد المعروف بـ][١] حَفَدَة الطُّوسِيّ العَطَّارِيّ الشافعيّ الواعظ. وأبـو حنيفة محمـد بن عُبَيْد الله الأصبهـانيّ الخَطِيبِيّ في صفر. وأبو جعفر هبة الله بن يحيى بن البُوقِيّ[٢] الشافعِيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وست عشرة إصبعاً. مبلـغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وعشر أصابـع.

* * *

السنة السادسة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة آثنتين وسبعين وخمسمائة:

فيها تزوج السلطان صلاح الدين يوسف بالخاتون عِصْمة الدِّين بنت الأمير مُعِين الدين أُنُر زوجة الملك العادل نور الدين محمود، وكانت بقلعة دمشق.

وفيها كانت فتنة مقدّم السُّودان من صَعِيد مصر؛ سار من الصعيد إلى مصر في مائة ألف أسْوَد، ليُعِيد الدولة المصريّة الفاطميّة، فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبو بكر، وأبو الهيجاء الهَكَّارِيّ، وعزّ الدين مُوسَك بمَنْ معهم من عساكر مصر؛ وآلتَقَوْا مـع السُّودان، فكانت بينهم وقعة هائلة، قُتِل كبير السودان المذكور ومَن معه. قال الشيـخ شمس الدين يوسف في مرآة الزمان: «يقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً وعادوا إلى القاهرة».

وفيها خرج السلطان صلاح من دمشق إلى مصر، وآستناب أخاه شمس الدولة تُوران شاه على الشام. وجاءت الفرنـج إلى دَارَيَّا[٣]، فأحرقوا ونهبوا وعادوا.

---

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

(٢) في الأصل: «ابن البوني». وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية. والبوقي: نسبة إلى «بوقة» من قرى أنطاكية.

(٣) من قرى دمشق بالغوطة.

وفيها أمر السلطان صلاح الدين قَرَاقُوش الخادم بعمارة سور[١] القاهرة ومصر، وضيّع فيه أموالاً كثيرة ولم ينتفع به أحد.

وفيها أبطل صلاح الدين المُكوسَ التي كانت تُؤخذ من الحاج بجُدَّة، ممّا يُحمل في البحر؛ وعوّضَ صاحب مكّة عنها في كلّ سنة ثمانية آلاف إردبٍّ قمحاً تُحمل إليه في البحر، فتفرّق في أهل الحرمين[٢].

وفيها عَمَّرَ صلاح الدين مدرسة الشافعيّ[٣] بالقرافة، وتولّى الشيخ نجم الدين الخُبُوشَانِيّ عِمارتها. وعَمَّرَ البِيمَارِسْتَان[٤] في القصر، ووقف عليه الأوقاف.

وفيها حجَّ بالناس من الشام قَيْمَاز النَّجْمِيّ.

وفيها تُوفّي عليّ بن منصور، أبو الحسن السَّرُوجِيّ الأديب، مؤدِّب أولاد الأَتَابك زَنْكِي بن آق سُنْقُر؛ كان يأخذ الماء بفِيه ويكتب به على الحائط كتابةً حسنة كأنّها كُتِبت بقلم الطومار[٥]، وينقط ما يكتب ويشكله. ومن شعره في فصل الربيع وفضلِ دمشق، ومَدْح نور الدين قصيدة طَنّانة أوّلها: [البسيط]

---

(١) في هذه السنة بدأ صلاح الدين بعمارة السور والقلعة. وقصد صلاح الدين أن يكون السور محيطاً بالقاهرة والقلعة ومصر، فمات قبل أن يتمّ ذلك. وقد أقام على بناء القلعة والسور الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي. وكان غرضه من بناء القلعة الاعتصام من أعدائه شيعة الفاطميين. وقد أهمل العمل بعد وفاة صلاح الدين إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فأتمّه. (انظر السلوك: ١/٨٥ وخطط علي مبارك: ١/٦٩).

(٢) في السلوك: ١/٨٦: «وعوّض أمير مكة عن هذا المكس بألفي دينار، وألف إدرب قمح، سوى إقطاعات بصعيد مصر واليمن؛ وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية آلاف إردب قمح تحمل إليه إلى جدّة». وكانت قيمة المكس المأخوذ سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان. وكانوا يؤدون ذلك بعيذاب أو بجدّة.

(٣) راجع ص ٥١ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٤) راجع الجزء الرابع، ص ١٠١، حاشية (٣).

(٥) قلم الطومار: بإضافة «قلم» إلى «الطومار»؛ والمراد بالطومار الكاملُ من مقادير قطع الورق، وهو المعبّر عنه في العصر المملوكي بالفرخة، فأضيف هذا القلم إليه لمناسبة الكتابة به فيه. وهو قلم جليل مساحة عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون؛ وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم. (صبح الأعشى: ٣/٥٤. وفيه وصف مسهب لهذا القلم وطريقة الكتابة به).

فصلُ الربيع زمانٌ نَوْرُه نُورُ أنفاسُ أشجاره مِسْكٌ وكافورُ

وفيها تُوفّي محمد بن مسعود أبو المعالي؛ خرج إلى الحجّ في هذه السنة فتُوُفّي بفَنْد[1]؛ كان أديباً فاضلاً. ومن شعره هَجْوٌ في قاض ولِيَ القضاء: [الوافر]

ولمّا [أن][2] تولّيتَ القضايا وفاض الجَوْرُ من كَفَّيْكَ فيضا
ذُبحتُ بغير سِكّينٍ وإنّي لأرجو الذبح بالسِّكِّين أيضا

وفيها توفّي محمد بن عبد الله بن القاسم أبو الفضل كمال الدين الشهْرُزُوريّ قاضي دمشق. مولده في سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة؛ كان إماماً فاضلاً فقيهاً مُفْتِناً؛ كان إليه في أيّام نور الدين الشهيد مع القضاء أمرُ المساجد والمدارس والأوقاف والحِسْبَة، والأمور الدينيّة والشرعيّة. وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شَحْنَجِيَة دمشق إليه، ولّى فيها بعض غِلمانه؛ ثم ولّاها نورُ الدين بعد ذلك لصلاح الدين يوسف بن أيّوب قبل قدومه إلى مصر. وكان مع فضلهِ ودينه له الشعر الجيّد، وكان بينه وبين صلاح الدين يوسف بن أيّوب، صاحب الترجمة، في أيام نور الدين مضاغنة. ومن شعره: [الطويل]

وجاؤوا عِشَاءً يُهْرَعُون وقد بدا بجسميَ من داء الصبابة ألوانُ
فقالوا وكلٌّ مُعْظِمٌ بعضَ ما رأى أصابتك عينٌ قلت عَيْنٌ وأجفان

قلت: وهذا شبه قول القائل ولم أدرِ من السابق: [الطويل]

ولمّا رَأَوْني العاذلون متيّماً كئيباً بمن أهوى وعقليَ ذاهبُ
رَثَوْا لي وقالوا كنتَ بالأمس عاقلاً أصابتْك عين قلت عينٌ وحاجبُ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو [محمد][3] صالح بن المبارك بن الرِّخْلة القزّاز. والمحدّث أبو [محمد][4] عبد الله بن

(١) فَنْد: اسم جبل بين مكة والمدينة (معجم البلدان).
(٢) في الأصل: «ولما توليت القضاء» والزيادة والتصحيح عن شذرات الذهب.
(٣) زيادة عن آلشذرات.
(٤) زيادة عن الشذرات وحسن المحاضرة.

عبد الرحمن الأَمَوِيّ الدِّيباجِيّ الأصبهانيّ العثمانيّ الإسكندرانيّ. وأبو الحسن عليّ بن عساكر. وأبو بكر محمد بن أحمد بن ماه شاده الأصبهانيّ المقرىء، آخر من روى عن سليمان الحافظ. وقاضي الشام كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفَّر الشَّهْرُزُورِيّ في المحرّم. والقاضي أبو الفتح نصر بن سَيّار بن صاعد الكَتّانِيّ الهَرَوِيّ الحنفيّ مُسْنِد خُراسان يوم عاشوراء، وله سبع وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

فيها توفّي صَدَقة بن الحسين بن الحسن أبو الفرج[١] الناسخ الحنبليّ؛ كان يعُرف بابن الحَدّد؛ كان فقيهاً مُفْتّنًا مناظِراً. قال أبو المظفَّر: لكنّه قرأ «الشفاء»[٢] وكتب الفلاسفة، فتغيّر آعتقاده؛ وكان يبدو من فلتات لسانه ما يدّل على ذلك. ومن شعره ـ رحمه الله تعالى ـ: [الرمل]

لا تَـوَطَّنهـا فليست بمُـقـامْ وآجتنبْهـا فهي دار الانـتـقـامْ
أتُــراهـا صنعـةً من صـانـعٍ أم تُـراها رميـةً من غيـر رامْ

وفيها توفّي كُمُشْتِكِين خادم السلطان نور الدين الشهيد. كان من أكابر خدّامه (أعني مماليكه)، وكان ولّاه المَوْصِلَ نيابةً عنه. فلمّا مات نور الدين هرَب إلى حلب، وخدم شمس الدين آبن الداية، ثم جاء إلى الملك الصالح آبن نور الدين

---

(١) كذا في الشذرات والمنتظم والبداية والنهاية. وفي الأصل: «أبو الفتح».

(٢) هو كتاب «الشفاء» في المنطق لابن سينا.

الشهيد فأعطاه حارِم، ثم غضِب عليه لأمر وطلب منه قلعة حارم بعد أن قبض عليه، فامتنعوا أصحابه من تسليمها، فعلّقه الملك الصالح مُنَكَّساً، ودخّن تحت أنفه حتّى مات.

وفيها توفّي محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفَّر، الوزير أبو الفرج آبن رئيس الرؤساء، ولقبُه عضد الدولة. وكان أبوه أستادار المقتفي وأقرّه المستنجد. فلما ولِي المستضيء آستوزره، فشرع ظهير الدين[1] أبو بكر صاحب المخزن في عداوته، حتّى غيّر قلبَ الخليفة عليه، فطلب الحجّ فأذِن له، فتجهّز جهازاً عظيماً وآشترى سِتّمائة جمل لحَمْل المنقطعين وزادِهم، وحمَل معه جماعة من العلماء والزهّاد، وأخذ معه بيمَارِسْتَاناً فيه جميع ما يحتاج إليه، وسافر بتجمّل زائد. فلمّا وصل إلى باب قَطُفْتَا[2] خرج إليه رجل صوفيّ بيِده قِصّة، فقال: مظلوم! فقال الغِلمان: هاتِ قِصّتك. فقال: ما أسلّمها إلّا للوزير. فلمّا دنا منه ضربه بسكّين في خاصرته، فصاح: قتَلتني، وسقط من دابته، وبقِي على قارعة الطريق مُلقًى، وتفرّق من كان معه إلّا حاجب الباب، فإنّه رمَى بنفسه عليه، فضربه الباطنيّ بسكّين فجرحه، وظهر للباطنيّ رفيقان فقتِلوا وأحْرِقوا. ثم حُمل الوزير إلى داره فمات بها. وكان مشكور السِّيرة مُحبّباً إلى الرعيّة، غير أنّ القاضي الفاضل لمّا بلغه خبرُ قتله، أنشد: [الطويل]

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياةٌ تُريه مَصْرَعَ الوزراءِ

وما ربّك بظلّام للعبيد. كان ـ عفا الله عنه ـ قد قتل وَلَدَي الوزير آبن هُبَيْرة وخلقاً كثيراً.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الوزير أبو الفرج محمد بن عبد الله آبن رئيس الرؤساء، وثَبَتْ عليه الإسماعلية في ذي القعدة.

---

(١) سيأتي ذكره في وفيات سنة ٥٧٥هـ.

(٢) قطفتا: محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد مجاورة لمقبرة الدير. (معجم البلدان).

وهارون بن العبّاس أبو محمد بن المأمونيّ صاحب التاريخ(١). وأبو شاكر يحيى بن يوسف السَّقْلَاطُونيّ(٢).

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وثلاث أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

فيها جرى بحث في مجلس ظَهير الدين بن العطّار في قتال عائشة لعليّ. فقال ابن البغداديّ الحنفيّ: كانت عائشة باغيةً على عليّ، فصاح عليه ابن العطّار وأقامه من مكانه وأخبر الخليفة، فجمع الفقهاء وسأل: ما يجب عليه؟ فقالوا: يُعزَّر. فقال ابن الجَوْزِيّ: لا يجب عليه التعزير، لأنّه رجل ليس له علم بالنَّقل، وقد سمع أنّه جرى قتال ولم يعلم أنّ السفهاء أثاروه بغير رضا الفريقين، وتأديبه العفو عنه، فأطلق.

وفيها توفّي سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس شِهاب الدين [بن](٣) الصَّيْفِيّ التَّميميّ، المعروف بالحَيْص بَيْص؛ كان شاعراً فاضلاً؛ مدح الخلفاء والوزراء والأكابر؛ وله ديوان شعر؛ وكانت وفاته ببغداد في شعبان. وسبب تسميته بالحَيْص بَيْص أنّه رأى الناس في يوم حركة فقال: ما للناس في حَيْص بَيْص! فغلب عليه هذا اللّقب. ومعنى هاتين الكلمتين: الشدّة والاختلاط. تقول العرب: وقع الناس في

---

(١) قال ابن قاضي شهبة: «صنَّف تاريخاً على السنين من أخبار الأوائل والحوادث والدول في مجلدين» (الأعلام: ٨/٦١).

(٢) نسبة إلى سقلاطون، من بلاد الروم.

(٣) الزيادة عن ابن خلكان والشذرات.

حيص بيص [أي في شدّة وآختلاط][(١)]. ومن شعـر الحيص بيص ـ رحمه الله وعفا عنه ـ: [البسيط]

لم أَلْقَ مُسْتَكْبِـراً إلّا تحـوّل لي عنـد اللقاء لـه الكِبْرُ الـذي فيـهِ
ولا حَـلاَ لِي من الـدنيـا ولذّتهـا إلّا مقـابلتـي للتّيــه بـالتّيـه

وكان الحَيْص بَيْص يلبَس زِيّ العرب، ويتقلّد سيفاً، فعمِل فيه أبو القاسم[(٢)] ابن الفضل: [الخفيف]

كم تَبادَى[(٣)] وكم تطوِّل طُرْطُو رَك مـا فيـك شعـرةٌ من تميم
فكُلِ الضَّبَّ وآقْرِضِ الحَنْظَل [اليا بس][(٤)] وآشرب ما شئتَ بول الظلِيم
لـيس ذا وجـه من يُـضِيف ولا يَقْرِي ولا يدفعُ الأذى عن حريم

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تـوفّي أبو أحمـد أسعد بن بلدرك الجِبْرِيلِيّ البوّاب. والحَيْص بَيْص الشاعر شهاب الدين أبو الفوارس سعد بـن محمد بن سعد بن صَيْفِيّ التَّميميّ في شوّال. وفخر النساء شُهدة بنت أحمد بـن الفرج الإبَرِي في المحرّم، وقد جاوزت التسعين. وأبو رشيد عبد الله بن عمر الأصبَهانيّ في شهـر ربيـع الآخر. وأبـو نصر عبـد الرحيم بن عبـد الخالق اليوسُفِيّ. وأبو الخطّاب عمر بن محمد التاجر بدمشق. وأبو عبد الله محمد بن نَسِيم العَيْشُونِيّ.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم أربـع أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلـغ الزيادة ستّ عشرةَ ذراعاً وتسـع عشرةَ إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن ابن خلكان.
(٢) هو هبة الله بن الفضل، المعروف بابن القطان، الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٥٥٨هـ.
(٣) في الأصل «كم تنادي» والتصحيح عن ابن خلكان.
(٤) زيادة عن ابن خلكان.

السنة التاسعة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

فيها ختن السلطان صلاح الدين ولَده الملك العزيز عثمان.

وفيها توفّي الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجِد بن المقتفي محمد العباسيّ الهاشميّ البغداديّ. كان أحسنَ الخلفاء سيرة؛ كان إماماً عادلاً شريفَ النفس حسنَ السيرة ليس للمال عنده قدر، حليماً شفيقاً على الرعيّة؛ أَسْقط المكوسَ والضرائبَ في أيّام خلافته؛ وكانت وفاته ببغداد في ثاني ذي القعدة عن ست[1] وثلاثين سنة، وكانت خلافته تسع سنين. وهو الذي عادت الخطبةُ باسمه في الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والثغور، وآجتمعت الأمّة على خليفة واحد، وآنقطعت في أيّامه دولةُ بني عُبَيْد الفاطميّين الرافضة من مصر وأعمالها. ولله الحمد. وأمّه أمّ ولد مولّدة[2].

وفيها توفيت الزاهدة العابدة علم بنت عبد الله بن المبارك. كانت تضاهِي رابعة العدويّة في زمانها؛ مرِض ولدها أحمد بن الزَّبِيديّ فآحتُضِر، وجاء وقت الصلاة، فقالت: يا بُنَي، اُدخل في الصلاة، فدخل وكبّر ومات، فخرجت إلى النساء وقالت: هنينني! قلن ماذا؟ قالت: ولدي مات في الصلاة. فتعجّب الناسُ من ذلك. وكانت وفاتها ببغداد، وعمرها مائة سنة وستّ سنين، ولم يتغيّر لها شيء من حواسّها.

وفيها توفّي منصور بن نصر بن الحسين الرئيس ظهير الدين صاحب المخزن للخلفاء، ونائب الوزارة. نال من الوجاهة والرياسة ما لم ينله غيره من أطباقه، إلى أن قبض عليه الخليفة الناصر لدين الله، وعلى أصحابه وحواشيه، وصادره وأجرى عليه العقوبة إلى أن مات.

---

(١) في تاريخ الخلفاء للسيوطي وابن الأثير والبداية والنهاية أن ولادته كانت سنة ٥٣٦هـ. وعليه يكون عمره حين وفاته تسعاً وثلاثين سنة.

(٢) في تاريخ الخلفاء أن أمه أم ولد أرمنية اسمها «غضّة».

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة قال: وفيها توفّي أبو الفتح أحمد بن أبـي الوفاء الحنبلي بحَـرّان. والمستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن المستنجد يوسف بـن المقتفي في شوّال. وأبو الحسين عبد الحقّ بن عبد الخالق اليوسُفيّ في جمادى الأولى. وأبو الفضل عبد المحسن بن تُرَيْك الأَزَجِيّ. وأبو الحسن عليّ بن أحمد الزَّيْدِيّ المحدِّث الزاهد. وأبو المعالي عليّ بن هبة الله بن خَلْدُون. والقاضي أبو المحاسن عمر بن عليّ القُرَشِي عمّ كَريمة. وأبو هاشم عيسى بن أحمد الهاشميّ الدُّوشَابِـيّ[1].

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع وستّ أصابـع. مبلـغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وسبـع أصابـع.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة ستّ وسبعين وخمسمائة.

فيها قدِمت آمرأة إلى القاهرة عديمةَ اليدين، وكانت تكتب برجليها كتابةً حسنة، فحصل لها القبول التام، ونالها مال جزيل.

وفيها حـجّ من العراق الأمير طاشتِكِين، ومن الشام الأمير سيف الدين عليّ بن المشطوب.

وفيها توفّي أحمد بن محمد بن أحمد الحافظ أبو طاهر السِّلَفِيّ الأصبهانيّ؛ ولد سنةَ سبعين وأربعمائة، وكان طاف الدنيا ولقِي المشايـخ؛ وكان يمشي حافياً لطلب العلم والحديث، وقدم دمشقَ وغيرَها، وسمِـع بعدّة بلاد، ثم دخل مصرَ وسمـع بها، وآستوطن الإسكندرية حتى مات بها في يوم الجمعة خامس شهر ربيـع

(١) في الأصل: «الدستاني». وما أثبتناه عن الشذرات واللبـاب. والدوشـابي: نسبة إلى الـدوشاب وهو الدبس بالعربية.

الآخر، ودفِن داخل الإسكندرية وقد جاوز المائة بخمس سنين. ومن شعره في معنى كِبَر سنّه: [الرمل]

أنَا إنْ بانَ شبابي ومضى ... فلربِّي الحمدُ ذهني حاضرُ
ولئن خَفَّتْ وجَفَّتْ أعظمي ... كِبَراً غصنُ علومي ناضرُ

وفيها توفّي الملك المعظّم فخر الدين شمس الدولة تُوران شاه بن أيّوب أخو السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة لأبيه. كان أكبَر من صلاح الدين في السنّ، وكان يرى في نفسه أنّه أحقّ بالملك من صلاح الدين يوسف المذكور، وكان تبدو منه كلمات في سكره في حقّ صلاح الدين، ويبلغ صلاح الدين، فأبعده وبعثه إلى اليمن، فسفَك الدماء وقتل الأماثل وأخذ الأموال. ولم يَطِبْ له اليمن فعاد إلى الشام على مضض من صلاح الدين، فأعطاه بعْلَبَكّ، فبلغه عنه أشياءُ فأبعده إلى الإسكندريّة، فتوجّه إليها وأقام بها معتكفاً على اللهو، ولم يحضُر حروب أخيه صلاح الدين ولا غَزَواته؛ ومات بالإسكندريّة، فأرسلت أختُه شقيقتُه ستُّ الشام، فحملتْه في تابوت إلى دمشق فدفنته في تربتها التي أنشأتْها بدمشق. وكان تُوران شاه المذكور جواداً ممدَّحاً حسن الأخلاق؛ إلّا أنّه كان أسوأ بني أيّوبَ سيرةً وأقبحهم طريقة.

وفيها توفِّي الملك غازي بن مودود بن زَنْكِي بن آق سُنْقُر التركي سيف الدين صاحب الموصل وابن أخي السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. كان غازي من أحسن الناس صورةً، وكان وَقوراً عاقلاً غيوراً، ما يدع خادماً بالغاً يدخل دارَه على حُرَمه؛ وكان طاهر اللّسان عفيفاً عن أموال الناس، قليل السفك للدماء، مع شُحٍّ كان فيه.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفِيّ في شهر ربيع الآخر، وقد جاوز المائة بيقين. وشمس الدولة تُوران شاه بن أيّوب بن شادِي صاحب اليمن بالإسكندرية في صفر. وأبو المعالي عبد الله بن عبد الرحمن [بن أحمد بن عليّ][1] بن صابر السلمِيّ في

(١) زيادة عن الشذرات.

رجب. وأبو المَفَاخِر سعيد بن الحسين المأمونيّ. وأبو الفَهْم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد الأَزْديّ آبن أبي العجائز في جمادى الآخرة. وأبو الحسين عليّ بن عبد الرحيم بن العَصَّار السُّلَمِيّ البَغْداديّ اللغويّ في المحرّم. وصاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن أتابَك في صفر، وله ثلاثون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرةَ ذراعاً وستّ عشرةَ إصبعاً.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

فيها عاد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب صاحب الترجمة من دمشق إلى القاهرة، وآستناب على الشام [آبن](١) أخيه عزّ الدين فرخشاه.

وفيها أَمَر السلطان صلاح الدين أخاه سيفَ الإسلام طُغْتِكِين بالمسير إلى اليمن، فأخذ يتجهّز للمسير.

وفيها بعَث السلطانُ صلاحُ الدين الخادمَ بهاء الدين قَرَاقُوش إلى اليمن، فتوجّه وقبض على سيف الدولة مبارك بن كامل بن مُنْقِذ، وطلب منه المال؛ وكان نائب أخيه تُوران شاه.

وفيها بُنِيت قلعة(٢) الجبل بالقاهرة.

وفيها توفّي الملك الصالح إسماعيل آبن الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر صاحب حلب بمرض القُولَنج؛ وكان لمّا آشتدّ به مرض

---

(١) زيادة عن ابن خلكان وابن الأثير.

(٢) راجع ص ٤٩ من هذا الجزء، حاشية (٤).

القولنج وصف له الحكماء قليلَ خمر، فقال: لا أفعل حتّى أسأل الفقهاء. فسأل الشافعيّة فأفتَوْه بالجواز فلم يقبل، وقال: إن الله تعالى قرَّب أجلي، أيؤخّره شرب الخمر! قالوا: لا. قال: فوالله لا لَقِيتُ الله وقد فعلتُ ما حرّم عليّ، فمات ولم يشربه. ولمّا أشرف على الموت أحضر الأمراء وآستحلفهم لآبن عمّه عزّ الدين [مسعود بن مودود][1] صاحب الموصل؛ فقيل له: لو أوصيت لابن عمك عِماد الدين صاحب سِنْجار! فإنّه صُعْلوك ليس له غيُر سِنْجار، وهو تربية أبيك وزوج أختك، وشجاع كريم، وعزّ الدين له من الفرات إلى همذان؛ فقال: هذا لم يَخْفَ عني، ولكن قد علمتم آستيلاء صلاح الدين على الشام [سوى ما بيدي][2]، ومصر واليمن، وعمادُ الدين لا يثبت له إذا أراد أخذ البلاد؛ وعزّ الدين له العساكر والأموال فهو أقدر على حفظ حَلَب وأثبت من عماد الدين، ومتى ذهبتْ حلبُ ذهب الجميع؛ فآستحسنوا قوله.

قلت: ولم يخطُر ببال أحد أخذ صلاح الدين بن أيّوب الشام من الملك الصالح هذا قبل تاريخه، فإنّه كان غَرْسَ نعمة أبيه الملك العادل، فلم يلتفت صلاح الدين للأيادي السالفة، وآنتهز الفرصةَ حيث أمكنته، وقاتل الملك الصالح هذا حتّى أخذ منه دمشق، فلهذا صار عند الصالح كَمِينٌ من صلاح الدين.

وفيها توفّي عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سَعيد[3] أبو البركات الأنباريّ النحوي، مصنّف كتاب «الأسرار[4] في علم العربيّة» وكتاب «هداية الذاهب في معرفة المذاهب». كان إماماً ف فنون كثيرة مع الزهد والورع والعبادة، وكانت وفاته في شعبان.

وفيها توفّي عمر بن حمويه عِماد الدين والد شيخ الشيوخ صدر الدين وتاج الدين، وهو من ولد حمويه بن عليّ الحاكم على خراسان إمام السامانيّة.

---

(١) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.

(٢) زيادة عن ابن الأثير والروضتين.

(٣) في الأصل: «محمد بن أبي السعادات». وما أثبتناه عن ابن خلكان وابن الأثير.

(٤) في الأصل: «كتاب الأنوار» والتصحيح عن ابن خلكان والشذرات وكشف الظنون.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة في كتاب الإشارة، قال: وفيها توفّي الملك الصالح إسماعيل آبن السلطان نور الدين بحلب في رجب، وله ثماني عشرة سنة. والكمال أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباريّ النحويّ العبد الصالح. وشيخ الشيوخ أبو الفتوح عمر بن عليّ الجُوَينِيّ.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمسُ أذرع وعشرُ أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرةَ ذراعاً وخمس أصابع.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

فيها سار سيف الإسلام طُغْتكين أخو صلاح الدين من مصر إلى اليمن إلى أن نزل زَبِيد، وبها حِطّان[١]، فأمره أن يسير إلى الشام، فجمع أمواله وذخائره ونزل بظاهر زَبيد فقبض عليه سيف الإسلام، وأخذ جميع ما كان معه، وقيمته ألف ألف دينار، ثم قتله بعد ذلك. وكان عثمان الزنجبيليّ بعَدَن، فلمّا بلغه ذلك سافر إلى الشام بعد أن أثّر باليمن آثاراً كبيرة ووقف الأوقاف؛ وله مدرسة أيضاً بمكّة، ورباط بالمدينة وغيرها.

وفيها في خامس المحرّم خرج صلاح الدين من مصر فنزل البِركة[٢] قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوَداعه، وأنشده الشعراءُ أبياتاً في الوداع، فسمِع قائلاً يقول في ظاهر المخيَّم: [الوافر]

---

(١) هو حطّان بن منقذ الكناني، كما في ابن الأثير.
(٢) المراد: بركة الحجاج. راجع الجزء الخامس، ص ١٨، حاشية (١).

تمتَّعْ من شَميم عـرارِ نـجـدٍ   فمـا بعـد العشيّـة من عَـرَار[1]

فطلب القائل فلم يجده. فوجَم الناس وتطيّر الحاضرون، فكان كما قال.

قلت: وقول من قال «فكان كما قال» ليس بشيء، فإنّ صلاح الدين عاش بعد ذلك نحو العشر سنين، غير أنّه ما دخل مصر بعدها فيما أظنّ، فإنّه آشتغل بفتح الساحل وقتال الفرنج، كما تقدّم ذكره في ترجمته.

وفيها توفّي أحمد بن عليّ بن أحمد الشيخ أبو العبّاس المعروف بآبن الرِّفاعيّ، إمام وقته في الزهد والصلاح والعلم والعبادة. كان من الأفراد الذين أجمع الناس على علمه وفضله وصلاحه. كان يسكن أمّ عَبِيدة بالعراق، وكان شيخ البطائحية[2] وكان له كرامات ومقامات، وأصحابه يركبون السِّباع ويلعبون بالحيّات، ويتعلّق أحدهم في أطول النخل ثم يُلقِي نفسه إلى الأرض ولا يتألّم؛ وكان يجتمع عنده كلّ سنة في المواسم خلقٌ عظيم. قال الشيخ شمس الدين يوسف في تاريخه مرآة الزمان: «حَكى لي بعض أشياخنا قال: حضرتُ عنده ليلة نصف شعبان، وعنده نحو من مائة ألف إنسان قال: فقلت له: هذا جمع عظيم، فقال لي: حُشِرتُ مَحْشَر هامان إن خطر ببالي أنّي مقدّم هذا الجمع. قال: وكان متواضعاً سليم الصدر مجرّداً من الدنيا ما آدّخر شيئاً قطّ». اِنتهى.

قلت: وعلْم الشيخ أحمد بن الرفاعيّ وفضله وورعه أشهر من أن يذكر؛ وهو أكثر الفقراء أتباعاً شرقاً وغرباً، والأعاجم يسمونه: سيّدي أحمد الكبير، وقيل: إنّ سبب مرضه الذي مات منه، أنّ عبد الغنيّ بن محمد بن نُقْطَة الزاهد مضى إلى زيارته، فأنشد أبياتاً منها: [الطويل]

إذا جَنّ ليلي هام قلبي بذكركمْ   أنوح كما ناح الحَمَام المُطوَّقُ

(١) الشعر للصمّة بن عبد الله القشيري. وهو شاعر بدوي غزل من شعراء العصر الأموي. توفي نحو سنة ٩٥هـ.

(٢) في الأصل: «البطائحة». والتصحيح عن ابن خلكان. قال: والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة إليه. والبطائحية سكان البطائح، وهي عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة، ولها شهرة بالعراق. (وفيات الأعيان: ١/ ١٧٢).

وفوقي سحاب يُمطر الهمّ والأسَى ... وتحتي بِحارٌ بالأسى تَتَدفّق
«سلوا أمَّ عمرو كيف بات أسيرها ... تُفكّ الأسارى دونه وهو موثَق
فلا هو مقتولٌ ففي القتل راحةٌ ... ولا هو ممنونٌ عليه فيُعْتَقُ»[1]

وكانت وفاة الشيخ أحمد في يوم الخميس ثاني عشر[2] جمادى الأولى، وقد جاوز سبعين سنة.

وفيها توفّي الأمير فرخشاه بن شاهِنشاه بن أيّوب أبو سعد عزّ الدين. كان من الأماثل الأفاضل؛ كان متواضعاً سخيّاً جواداً شجاعاً مِقْداماً؛ وكان عمّه صلاح الدين قد استنابه بالشام، وكان فصيحاً شاعراً. مات بدمشق في جُمادى الأولى. ومن شعره ــ رحمه الله تعالى ــ: [الرمل]

أقْرَضُوني زمناً قربهمُ ... وآستعادوا بالنَّوَى ما أقرضوا
أنا راضٍ بالذي يرضيهمُ ... ليت شعري بالتلاقي هل رَضُوا؟

وفيها توفّي الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ أبو يعقوب صاحب المغرب، أمير الموحِّدين. كان حسن السيرة عادلاً ديِّناً ملازماً للصلوات الخمس، لابساً للصوف، مجاهداً في سبيل الله تعالى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الشيخ الكبير أبو العبّاس أحمد بن عليّ بن أحمد الرفاعيّ بالبطائح. وأبو طالب الخِضْر بن هبة الله بن أحمد بن طاوس في شوّال. والحافظ أبو القاسم خَلَف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بَشْكُوَال الأنصاري القُرْطُبيّ في شهر رمضان، وله أربع وثمانون سنة. وأبو طالب أحمد بن المسلم بن رَجَاء اللَّخْمِيّ التنوخيّ في شهر رمضان بالإسكندريّة. وخطيبُ الموصل أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد الطُّوسِيّ في شهر رمضان عن آثنتين وتسعين سنة. وعزّ الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيّوب نائب

---

(١) في رواية ابن خلكان: «فيطلق». ويبدو أن ابن الرفاعي ضمّن البيتين الأخيرين، فهما من قديم الشعر لشبيب بن البرصاء، كما في الأغاني: ١٢/٢٥٤، ٢٧٢.

(٢) في ابن خلكان: «الثاني والعشرين من جمادى الأولى».

دمشق في جمادى الأولى. والقطب النَّيْسابُوريّ أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود شيخ الشافعيّة في آخر شهر رمضان. وأبو محمد هبة الله بن محمد بن هبة الله الشِّيرازيّ بدمشق في شهر ربيع الأول.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سِتُّ أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبعَ عشرةَ ذراعاً وإصبعاً.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة تسع وسبعين وخمسمائة.

فيها في يوم الأحد عاشر المحرّم تسلّم السلطانُ صلاحُ الدين آمِد من ديار بكر، ودخل إليها وجلس في دار الإمارة، ثم سلّمها وأعمالَها إلى نور الدين محمد بن قرا أرْسلان صاحب حِصن كَيْفَا، وكان قد وعده بها لمّا جاء إلى خدمته. ثم عاد إلى حلب وحاصرها حتى أخذها من عماد الدين زَنْكِي آبن أخي نور الدين الشهيد، وبذَل له عِوضَها سِنْجار، وعَمِل الناسُ في ذلك أشعاراً كثيرة، منها: [المتقارب]

وبِعتَ بسِنْجارَ خيرَ القلاع[1] ثَكَلْتُكَ من بائعٍ مشترِي

وكان في أيام حصار حلب أصاب تاجَ الملوك بُورِيّ بن أيّوب سهمٌ في عينه فمات بعد أيّام، فحزِن أخوه السلطان صلاح الدين عليه حزناً شديداً، وكان يبكي ويقول: «ما وَفَتْ حلبُ بشعرة من أخي تاج الملوك بُورِي».

وخرج عِماد الدين من حلب وسار إلى سِنجار. ولمّا طلع صلاح الدين إلى

(١) في شفاء القلوب: «خير البقاع» قال: وغنوا بها في الأسواق؛ وجعلوا ينادون: يا حمار! بعت حلب بسنجار!.

قلعة حلب في سلخ صفر [أنشد][١] القاضي [محيي الدين بن][٢] زكيّ الدين محمد بن عليّ القرشيّ قاضيّ دمشق أبياتاً منها:

وفتحُه[٣] حلباً بالسيف في صفرٍ مبشِّرٌ بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال، لكن بعد سنين[٤]؛ وهو الذي [خطب][٥] بالقدس لمّا فتحه صلاح الدين في رجب.

وفيها توفّي محمد بن بَخْتِيَار الأديب، أبو عبد الله المولّد المعروف بالأَبْلَه البَغْداديّ الشاعر المشهور؛ كان شاعراً ماهراً، جمع في شعره بين الصناعة والرقّة.

ومن شعره: [المديد]

زار مَن أحيا بَزوْرَتِه والدُّجى في لَوْن طُرّتِه
قمرٌ يَثْنِي معاطفَه بانة في ثِنِيْ بُرْدته
بِتُّ أسْتجلي المُدام على غِرّة الواشي وغُرّتِه
يا لها من زَوْرةٍ قصُرت فأماتت طولَ جَفْوَته
يا لَهُ في الحسن من صنم كلُّنا في جاهليّته

وله قصيدة طنّانة أولها: [الكامل]

دعنِي أُكابد لَوْعتِي وأعاني أين الطَّلِيقُ من الأسير العاني

وفيها توفّي الملك تاج الملوك بُورِي بن أيّوب بن شادي أبو سعيد أخو السلطان صلاح الدين من سهم أصابه في حصار حَلَب كما تقدّم ذكره. كان مولد تاج الملوك في ذي الحِجّة سنة ستّ وخمسين وخمسمائة، وكان قد جُمِع فيه محاسن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة عن السيرة وابن خلكان وشفاء القلوب.

(٣) رواية ابن خلكان: «وفتحك القلعة الشهباء في صفر». ورواية شفاء القلوب: «وفتحكم حلباً بالسيف في صفر».

(٤) كان ذلك بعد أربع سنين.

(٥) زيادة عما سبق من المراجع. وانظر نسخة الخطبة في شفاء القلوب: ١٣٠، والروضتين: ٢/١١٠، ومفرج الكروب: ٢/٢١٩، ووفيات الأعيان: ٣/٣٦٤، وكنز الدرر: ٨٧.

الأخلاق: من مكارمَ وشيمٍ ولُطف طباع، مع شجاعة وفضل وفصاحة، وكان شاعراً بليغاً. ومن شعره: [الكامل]

رمضان بل مرضان إلّا أنّهم غَلِطوا إذاً في قولهم وأساؤوا
مَرَضان فيه تحالفا، فَنهارُه سلٌّ وأما ليله آستسقاء[١]

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي إسماعيل بن قاسم الزيات بمصر. وتقيّة بنت [غيث بن][٢] عليّ الأَرْمَنَازِيّة[٣] الشاعرة. وأبو الفتح عبد الله بن أحمد الأصبهانيّ الخِرَقِيّ في رجب، وله تسع وثمانون سنة. ومحمد بن بَخْتِيَار البغداديّ الشاعر المعروف بالأَبْلَه. وأبو العلاء محمد بن جعفر بن عقيل، وله ثلاث وتسعون سنة. وأبو طالب محمد بن عليّ الكتّانِيّ المُحْتَسِب. والعلّامة رضيّ الدين يونس بن محمد بن مَنَعَة فقيه الموصل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمانين وخمسمائة:

فيها حجّ بالناس من العراق طاشتِكِين.

وفيها توفّي إيلغازي بن أَلْبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أُرْتُق قطب الدين

---

(١) رواية شفاء القلوب:

مرضان فيه تحالفا، فنهارُهُ عَطَشٌ وسائر ليله استسقاء

(٢) زيادة عن ابن خلكان والشذرات.

(٣) في الأصل: «الأرمناوية» والتصحيح عن الشذرات وابن خلكان. والأرمنازية: نسبة إلى أرمناز، من نواحي حلب.

صاحب مارِدِين؛ كانت وفاته في جمادى الآخرة. وخلّف ولدين[١] صغيرين. وكان مِلِكاً شجاعاً عادلاً مُنْصِفاً عاقلاً.

وفيها توفّي عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد شيخُ الشيوخ صدر الدين وآبن شيخ الشيوخ النَّيْسابوريّ. وُلد سنة ثمانٍ وخمسمائة، وكان فاضلاً رسولاً بين الخليفة[٢] وصلاح الدين، وكان يَلْبَس الثياب الفاخرة، ويتخصّص بالأطعمة الطيّبة، فكان أهل بغداد يَعِيبون عليه حيثُ لم يسلُك طريق المشايخ في التعفّف عن الدنيا، ولمّا مات رثاه آبن المنجِّم[٣] المصريّ: [المديد]

يـا أخـلّائـي وحَـقِّـكُـمُ ما بَقِي من بعـدِكمْ فَـرَحُ
أيُّ صـدرٍ في الزمـان لنـا بعـدَ صدر الـدين ينشـرِح

وتولّى مشيخةَ الرِّباط بعده الشيخ صفيّ الدين إسماعيل.

وفيها توفّي محمد بن قرا أَرْسلان نور الدين صاحب حصن كَيْفَا، الذي كان أعطاه السلطان صلاح الدين آمِد. وترك آبنَه ظهيرَ الدين سُكْمان صغيراً، عمره عشرُ سنين.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد شيخ الشيوخ في رجب بالرَّحْبة راجعاً في الرسليّة[٤]. وأبو عبد الله محمد بن حمزة بن أبي الصَّقْر القرشيّ. وأبو الوفا محمود بن أبي القاسم [محمد][٥] الأَصْبَهانيّ في شهر ربيع الآخر، وله إحدى

---

(١) وهما حسام الدين يولق ارسلان وقطب الدين ـ أو ناصر الدين ـ أرتق آرسلان. وقد خلفا والدهما على ماردين، غير أنهما كانا صغيرين، وكان الحكم بيد مملوك أبيهما نظام الدين ألبقش ومملوكه لؤلؤ. (انظر الأعلاق الخطيرة: ٣/٥٥٦ ـ ٥٥٧، ومعجم زامباور: ٣٤٥).

(٢) في الأصل مترسلاً، وهو تحريف. والتصحيح عن ابن الأثير.

(٣) راجع ص ٥٤، حاشية (٥).

(٤) أي راجعاً في مهمته كرسول بين صلاح الدين والخليفة. ولعلّه أراد بلفظ «الرسلية» جمع رسول؛ وهي صيغة للجمع كثيرة الاستعمال في العصور العباسية المتأخرة.

(٥) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

وسبعون سنة. أجاز له طَرّاد [الزَّيْنبي النَّقيب][١] وسمع من أبي الفتح [أحمد بن محمد][١] البيودرحانيّ. وصاحب المغرب أبو يعقوب يوسف[٢] بن عبد المؤمن شهيداً على حصار شَنْتَرِين[٣] بالأندلس في رجب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

فيها قطع السلطان صلاح الدين الفرات ونزل على الموصل وآفتتح عدّة بلاد.

وفيها توفّي عبد السلام بن يوسف بن محمد الأديب أبو الفتوح الجُماهِريّ[٤]. كان فاضلاً شاعراً. ومن شعره من قصيدة: [الطويل]

على ساكِني بطن العقيق سَلامُ ... وإنْ أسهروني بالفِراق وناموا
حرمتمْ عَليّ النومَ وهو محلّلٌ ... وحلّلْتُمُ التعذيبَ وهو حرام
ألَا يا حماماتِ الأراك إليكُمُ ... فما لِيَ في تغريدكُنّ مَرَامُ
فَوجْدِي وشوقي مُسْعِدٌ ومؤانِسٌ ... ونَوْحِي ودَمْعِي مُطْرِبٌ ومُدَام

وفيها توفِّيت عصمة الدين خاتون بنت مُعين الدين أُنُر زوجةُ السلطان صلاح الدين صاحِب الترجمة، تزوّجها بعد زوجها الملكِ العادل نورِ الدين الشهيد.

---

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) ذكر المؤلف وفاته في سنة ٥٧٨هـ.

(٣) شنترين Santarem مدينة في غربي الأندلس. وهي في البرتغال الحالية، تقع على ٦٧ كلم شمالي الأشبونة. (الحلة السيراء: ١٠٥/٢ ــ حاشية، والروض المعطار: ٣٤٦).

(٤) في الأصل: «أبو الفتح الجماهور». والتصحيح عن طبعة دار الكتب المصرية.

كانت من أعفّ الناس وأكرمهنّ، كان لها صدقات كثيرة وبِرّ عظِيم؛ بَنَتْ بدمشق مدرسة للحنفيّة في حَجَر الذهب، ورِبَاطاً للصوفيّة، وبَنَتْ تربة بقَاسِيُون على نهر بَرَدَى[١]، وبها دُفِنت؛ وأوقفت على هذه الأماكن أوقافاً كثيرة. وماتت في رجب، فبلـغ صلاحَ الدين موتُها وهو مريض بحَرّان فتزايد مرضه لموتها ولحزنه عليها. ثم مات بعدها أخوها سعد الدين مسعود بن أُنُر في هذه السنة، وكان من أكابر الأمراء، زوّجه صلاحُ الدين أختَه ربيعةَ خاتون. فلمّا توفّي تزوّجها بعده الأمير مظفَّرُ الدين بن زَيْن الدين.

وفيها توفّي محمد آبن الملك المنصور أسد الدين شِيرِكُوه بن شادي الأمير ناصر الدين آبن عمّ السلطان صلاح الدين. كان السلطان صلاح الدين يخافه لأنّه كان يَدَّعي أنّه أحقّ بالملك منه. وكان السلطان صلاح الدين يبلغه عنه هذا، وكان زوجَ أخت السلطان صلاح الدين ستّ الشام بنت أيّوب. ومات بحمص في يوم عَرَفة، وتناثر لحمه حتّى قيل إنّه سُمّ، وقيل: مات فَجْأة، فنقلتْه زوجتُه ستّ الشام إلى تربتها، ودفنتْه عند أخيها الملك المعظَّم تُوران شاه بن أيّوب المقدّم ذكره. ولمّا بلَـغ صلاح الدين مَوته أبقى على ولده أسدِ الدين شِيرِكُوه بن محمد المذكور ما كان بيد والده: حِمْصَ وتَدْمُرَ والرَّحْبَة وسَلَمْيَة، وخلَـع عليه وكتب منشوراً بذلك.

وفيها توفّي محمد بن أحمد بن فتـح الدين البَغْداديّ الحنفيّ؛ كان فقيهاً شاعراً أديباً. ومن شعره في مليـح عليه قَبَاءٌ كُمّه مطرّز: [الوافر]

ضَمَمْتُ مُعـذِّبـي لمّـا أتـانِي ... ورَقْمُ طِـرازِه قـد راق عينِي
فيـا طَرْزَيـه هل يُدني زماني ... ليـاليَ وصلِنـا بـالـرَّقْمَتَيْـنِ

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو الـطاهر إسماعيل بن مكّيّ [بن إسماعيل بن عيسى][٢] بن عَوْف الزُّهْريّ شيـخ المالكيّة بالثغر في شعبان. وصاحب أَذْرَبِيجان البَهْلَوان [محمد][٢] بن إيلدكز. والشيـخ حياة بن

(١) كذا بالأصل. وصوابه: «على نهر يزيد» لأن نهر بردى لا يمر بقاسيون، وإنما يمر به نهر يزيد. ولا تزال هذه التربة حتى اليوم على حافة نهر يزيد. (انظر شذرات الذهب: حوادث سنة ٥٨١هـ).

(٢) زيادة عن شذرات الذهب.

قَيْس الحَرّانِيّ العابد في جُمادى الأولى. وأبو اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد التَّنوخيّ كاتب نور الدين. والمهذّب عبد الله بن أسعد [بن عليّ][1] بن الدهّان الموصليّ الشافعيّ النحويّ الشاعر في شعبان بحِمْص. والحافظ أبو محمد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأَزْدِيّ الإشْبِيلِيّ في شهر ربيع الآخر بِبجَايَة[2]، وله سبعون سنة. والحافظ أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله السُّهَيْلِيّ المالقِيّ الأديب في شعبان. وعبد الرزاق بن نصر بن المسلم النجّار الدمشقيّ. وأبو الفتح [عُبيد الله ابن][3] عبد الله [بن محمد بن نجا][3] بن شاتيل الدبّاس في رجب، وله تسعون سنة. وأبو الجيوش عساكر بن عليّ المُقْرىء بمصر. وأبو حفص عمر بن عبد المجيد المَيَانِشِيّ[4] بمكّة. وأبو المجد الفضل بن الحسين البانْياسِيّ في شوّال. وصاحب حِمْص ناصر الدين محمد بن أسد الدين شِيرِكُوه. والحافظ أبو سعد محمد بن عبد الواحد الصائغ بأصبهان في ذي القعدة. والحافظ العلّامة أبو موسى محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى المَدِينيّ في جمادى الأولى، وله ثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وتسع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة آثنتين وثمانين وخمسمائة.

فيها حكَم المنجِّمون في الآفاق بخراب العالم في جُمادى الآخرة، وقالوا: تَقْتَرِن الكواكب السيّارةُ: الشمسُ والقمر وزُحل والمَرِّيخ [والزُّهرَة][5] وعُطَارِد

---

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

(٢) بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب (معجم البلدان).

(٣) زيادة عن الشذرات.

(٤) الميانشي: نسبة إلى ميانش، قرية من قرى المهدية بأفريقية (معجم البلدان).

(٥) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية نقلاً عن مرآة الزمان وعقد الجمان.

والمُشْتَرِي في برج المِيزان أو السَّرطان، فتُؤَثِّر تأثيراً يضمَحِلّ به العالم، وتَهُبّ سموم مُحْرِقة تحمِل رملاً أحمر، فآستعدّ الناسُ وحفَروا السراديب وجمعوا فيها الزاد. وآنقضت المدّة المعينة، وظهَر كذِب المنجِّمين. فقال [أبو الغنائم محمد][1] بن المعلِّم في أبي الفضل[2] المنجِّم قصيدة طنّانة: [مخلّع البسيط]

قُلْ لأبِي الفضل قولَ مُعْتَرِفٍ ... مضى جُمادى وجاءنا رَجَبُ
وما جَرَت زَعْزَعٌ كما حكَموا ... ولا بَدَا كَوْكَبٌ له ذَنَبُ

ومنها:

مُدَبِّر الأمر واحدٌ ليس للسبْـ ... ـعَة في كلّ حادثٍ سَبَبُ
لا المُشْتَرِي سالمٌ ولا زُحلٌ ... باقٍ ولا زُهْرَةٌ ولا قُطُبُ

ومنها:

فليُبْطِل المدّعون ما وضَعُوا ... في كُتْبهم ولْتُحْرَقِ الكُتُبُ

قلت: وهذا الكذِب متداوَل بين القوم إلى زماننا هذا، حتّى إنّه لا يمضِي شهر إلّا وقد أوعدوا الناسَ بشيء لا حقيقةَ له. والعجب أنّ الشخص من العامة إذا كذَب مرّة على رجل يَسْتَحِي ولا يعود إلى مثلها، وهؤلاء القوم لا عِرْض لهم ولا دينَ ولا مُرُوءَة، ولله درّ القائل ولم أدرِ لمن هو: [البسيط]

دعِ النجومَ لصوفيٍّ يعيشُ بها ... وبالعزائم فانهَض أيُّها الملِكُ
إنّ النبيّ وأصحابَ النبي نَهَوْا ... عن النجوم وقد أبصرتَ ما مَلَكوا

وفيها عاد السلطان صلاح الدين إلى الشام وتلقّاه شِيرِكُوه بن محمد بن شِيرِكُوه وأختُه سفري خاتون أولاد آبن عمّه محمد بن أسد الدين شِيرِكوه وزوجتُه ستّ الشام، وهي أخت السلطان صلاح الدين؛ فقال السلطان لأخيه العادل أبي بكر بن أيّوب:

(١) الزيادة مما سيأتي للمؤلف في وفيات سنة ٥٩٢هـ.
(٢) هو أبو الفضل الخازمي المنجم نزيل بغداد. كان منجماً ببغداد يتكلم في الأحكام النجومية ويقلده الناس فيما يقول، ويدعي أكثر مما يعلم. (تاريخ الحكماء: ٤٢٦).

اِقسم التركة بينهم على فرائض الله تعالى. وكان محمد قد خلّف أموالاً عظيمة، فكان مبلـغ التركة ألف ألف دينار.

وفيها دخل سيف الإسلام أخو صلاح الدين إلى مكّة، ومنـع من الأذان في الحَرم بـ «حيَّ على خير العمل».

وفيها قسّم السلطان صلاح الدين يوسف البلادَ بين أهله وولده برأي القاضي الفاضل، فأعطى مصر لولده العزيز عثمان؛ والشامَ لولده الأفضل؛ وحلبَ لولده الظاهر؛ وأعطى أخاه العادل أبا بكر إقطاعات كثيرة بمصر، وجعله أتابَكَ العزيز؛ وأعطى لابن أخيه تقيّ الدين حَماةَ والمَعَرّة ومَنْبِـج وأضاف إليه مَيّافارِقِين.

وفيها توفّي الحسن بن عليّ بن بَرَكة أبو محمد المُقْرِىء النحويّ؛ كان إماماً فاضلاً ٱنْتَفَـعَ بعلمه خلائقُ كثيرة؛ وكان أديباً بارعاً ومات في شوّال. ومن شعره: [الطويل]

وما شَنَآنُ الشَّيْبِ من أجـل لونـه ولكنّـه حـادٍ إلى المـوت مُسْـرِعُ
إذا مـا بَدَتْ منـه الطَّليعةُ آذنتْ بـأنّ المنـايـا بعـدهـا تَتَـطَلَّـع

وفيها توفّي عبد الله [بن بَرِّيّ][1] بن عبد الجبّار المعروف بٱبن بَرِّيّ النحويّ بمصر؛ كان إماماً أديباً فاضلاً بارعاً في علم النحو والعربيّة، وٱنْتَفَـعَ به خلق كثير، ومات بمصر في شوّال. وكان حُجّة ثِقَة. ومن شعره ــ رحمه الله ــ: [مخلّـع البسيط]

خَـدٌّ وثـغـرٌ فَجـلّ ربٌّ بمُبْـدع الحسن قـد تَـفَـرّدْ
فـذا عن الـواقِـدِيّ يَـرْوِي وذاك يَـرْوِي عن المبـرِّد

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو محمد عبد الله ٱبن بَرِّي النحويّ بمصر في شوّال، وله ثلاث وثمانون سنة. وأبو محمد عبد الله بن

(١) زيادة عن ابن خلكان والشذرات وابن الأثير.

محمد بن جَرير القرشيّ الناسخ ببغداد. وأبو محمد الحسن بن عليّ [بن بَرَكة][١] بن عَبِيدة الكوفيّ النحويّ المقرىء في شوّال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وآثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبعَ عشرةَ ذراعاً وإصبع واحدة.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

فيها فتح السلطان صلاحُ الدين بيت المقدس وعكّا وحصوناً كثيرة بالساحل، بعد أمور وحروب ذكرناها في ترجمته.

وفيها توفّي عليّ بن أحمد بن عليّ بن محمد قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغَانيّ الحنفيّ قاضي قضاة بغداد. قال أبو المظفَّر: قاضٍ آبن قاضٍ آبن قاضٍ آبن قاضٍ آبن قاضٍ آبن قاضٍ. وُلِد سنة ثلاث عشرة[٢] وخمسمائة، وولّاه الخليفة المقتفي القضاءَ بمدينة السلام وسائرِ البلاد مشرقاً ومغرباً، وأقرّه المستنجد ثم عزله؛ ثم أعاده المستضيء سنة سبعين وخمسمائة؛ ثم أقرّه الناصر لدين الله تعالى إلى أن توفّي ببغداد في ذي القعدة ودفِن بالشُّونيزِيّة عند جدّه لأمّه أبي الفتح الشاوي. وكان إماماً فقيهاً عالماً نَزِهاً عفيفاً معدوداً من كبار فقهاء السادة الحنفية ــ رحمه الله تعالى ــ.

وفيها توفّي محمد بن عبد الله[٣] بن المقدّم الأمير شمس الدين؛ كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين، ثم صلاح الدين بن أيّوب. وله المواقف المشهودة،

---

(١) زيادة عما تقدم ذكره للمؤلف.

(٢) في الأصل: «سنة عشر وخمسمائة». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب.

(٣) في ابن الأثير والشذرات: «عبد الملك».

وحضر جميعَ فتوحات السلطان صلاح الدين؛ ثم إنّه آستأذن صلاح الدين في الحجّ فأذِن له على كُرْه من مفارقته؛ فلمّا وصل إلى عرفات أراد أنْ يرفع علمَ صلاح الدين ويضرِبَ الطَّبل، فمنعه طاشتِكِين وقال: لا يُرْفَع هنا سوى علم الخليفة. فقال آبنُ المقدّم هذا: والسلطانُ مَمْلُوك الخليفة. فمنعه طاشتِكِين، فأمر آبن المقدّم غِلمانَه فَرُفِع العلم فنكّسوه، فركِب آبن المقدّم ومن معه، وركب طاشتِكِين له، وآقتتلوا فقتل من الفريقين، ورَمَى مملوك طاشتكين آبنَ المقدّم بسهم فوقع في عينه فخرّ صريعاً، وجاء طاشتكِين وحمله إلى خَيْمته فتوفّي في يوم الخميس يوم النحر ودفِن بالمَعْلَى. ثم أرسل الخليفةُ يعتذر لصلاح الدين أنّ آبن المقدّم كان الباغي، فلم يقبل صلاح الدين، وقال: أنا الجواب عن الكتاب. ولولا آشتغاله بالجهاد لكان له وللخليفة شأن.

وفيها توفّي محمد بن عُبيد الله الأديب أبو الفتح البغداديّ، المعروف بسِبْط [آبن] التَّعَاوِيذِيّ، الشاعر المشهور. وله ديوان شعر كبير، الموجود غالبه في المديح. ومن شعره ــ رحمه الله ــ في غير المديح، في الزهد: [مجزوء الكامل]

إِجعلْ همومَك واحداً وتخلَّ عن كلّ الهموم
فعساكَ أنْ تحظَى بما يُغنيك عن كلّ الهموم

وله: [الطويل]

فكمْ ليلةٍ قد بِتُّ أرشُف رِيقَه وجُرْتُ على ذاك الشَّنِيب المُنَضّدِ
وبات كما شاء الغرامُ مُعَانِقي وبِتُّ وإيّاه كحرفٍ مشدَّدِ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي شيخ الفَتْوَى عبد الجبّار بن يوسف ببغداد. والمحدِّث أبو العزّ عبد المُغيث بن زُهير الحَرْبِيّ. وقاضي القضاة أبو الحسن عليّ بن أحمد آبن قاضي القضاة عليّ بن محمد بن الدامغانيّ الحنفيّ. وأبو الفتح محمد بن يحيى بن محمد بن مواهب البَرَدَانِيّ. والأمير الكبير شمس الدين محمد [بن عبد الملك][1] بن المقدّم النُّوريّ، قُتِل

---

(١) الزيادة عما تقدم.

بعرفات. وأبو السعادات نصر الله بن عبد الرحمن بن محمد [المعروف][١] بابن زُرَيْق القَزّاز في شهر ربيع الآخر، وله آثنتان وتسعون سنة. وشيخ الحنابلة ناصح الدين أبو الفتح نصر بن فِتْيَان [بن مطرّف المعروف بآ][٢] بن المَنِّي في رمضان عن إحدى وثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وثماني أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

فيها توفّي الأمير أسَامة بن مُرْشِد بن عليّ بن المقلّد بن نصر بن مُنْقِذ الأمير أبو الحارث مؤيّد الدولة مجد الدين الكِنانِيّ. مولده بشَيْزَر في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة؛ وكانت له اليد الطُّولى في الأدب والكتابة والشعر؛ وكان فارساً شجاعاً عاقلاً مدبِّراً؛ كان يحفَظ عشرين ألف بيت من شعر العرب الجاهليّة، وطاف البلاد ثم آستوطن حَمَاة فتوفّي فيها[٣] في شهر رمضان، وقد بلغ ستّاً وتسعين سنة. وله ديوان شعر مشهور، وكان السلطان صلاح الدين مُغْرًى بشعره. ومن شعره في قلع الضِّرْس: [البسيط]

وصاحب[٤] لا أَمَلُّ الدهرَ صُحْبَتَه يَشْقَى لنَفْعِي ويسعَى سعيَ مُجْتَهِدِ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة عن ابن الأثير.

(٣) في ابن خلكان والبداية والنهاية أنه توفي بدمشق.

(٤) في الأصل: «لم أملّ» وما أثبتناه رواية الشذرات وابن خلكان والبداية والنهاية.

لم أَلْقَه مُذْ تصاحبْنا فمُذْ[١] وقعتْ عيني عليه ٱفترقنا فُرْقَةَ الأبدِ

وقال في أيّام الملك العادل نور الدين الشهيد: [البسيط]

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهِدوا له فكلٌّ على الخيرات مُنكمِشُ
أيّامهُ مثلُ شهرِ الصَّوْمِ طاهرةٌ من المعاصي وفيها الجوع والعطشُ

وفيها توفّي مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصِريّ خادم الخليفة الناصر لدين الله؛ كان قريباً من الخليفة، سلَّم إليه مماليكَه الخواص؛ وكان سليم الباطن ديّناً، صلى به إمامُه صلاة الفجر فقرأ الإمام فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[٢] فلمّا سمِع خالصٌ ذلك رفَع صوته وهو في الصلاة وقال: صلّى الله عليك يا رسولَ الله. فضحِك القوم وقطَعوا الصلاة. فقال لهم خالصٌ المذكور: مجانينُ أنتم! يقول الله: (صلُّوا عليه وسلّموا تسليماً) وأَسكتُ أنا!

وفيها تُوفّي محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفَّر بن عليّ؛ أبو حامد محيي الدين[٣] الشَّهْرُزُورِيّ الإمام الفقيه؛ ولي القضاءَ بالمَوْصِل، وقدم بغداد رسولاً من صاحب الموصل، فأكرمه الخليفة وخلَع عليه. ثم عاد فمات في جمادَى الأولى. ومن شعره: [الوافر]

ولمّا شاب رأسُ الدهر غَيْظاً لِما قاساه من فَقْد الكرامِ
أقام يُمِيط عنه الشيْبَ عَمْداً وينشُر ما أماط على الأنام

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الأمير مؤيّد الدولة أبو المظفر أسامَة بن مُرْشِد بن عليّ بن مُقلّد بن نصر بن مُنْقِذ الكِنانِيّ في شهر رمضان عن سبع وتسعين سنة. وظاعن بن محمد الزُّبَيْرِيّ الخيّاط. وأبو القاسم

(١) في الأصل: «فمذ نظرت». وما أثبتناه رواية الشذرات. ورواية ابن خلكان وابن كثير: «... فحين بدا... لناظري افترقنا...».
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.
(٣) في الأصل: «كمال الدين». وما أثبتناه عن ابن خلكان والشذرات وابن الأثير وابن كثير. ووفاته في هذه المصادر جميعها سنة ٥٨٦هـ.

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله [بن يوسف بن أبي عيسى القاضي][(١)] بن حُبَيْش الأنصاريّ بمُرْسِيَة[(٢)]، وكان خطيبَها وقاضيَها ومحدِّثَها ومسندَها، توفّي في صفر. وأبو القبائل[(٣)] بن عليّ عن مائة سنة وزيادة. والعلّامة شمس الأئمّة عِماد الدين عمر بن شمس الأئمّة بكر بن محمد الزَّرَنْجَرِيّ البخاريّ شيخ الحنفيّة في شوّال، وله خمس وستون سنة. وأبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد بن الحسن بن صَدَقَة الحَرَّانِيّ التاجر، وله سبع وتسعون سنة. والحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازِمِيّ الهَمَذَانِيّ في جُمادى الأولى شابًّا، وله خمس وثلاثون سنة. وأبو الفرج يحيى بن محمود الثَّقَفِيّ الصُّوفِيّ في نواحي هَمَذَان غريباً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وآثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبعَ عشرةَ ذراعاً وثلاثَ عشرة إصبعاً.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وثمانين وخمسمائة.

فيها ولّى السلطان صلاحُ الدين على عَكَّة حُسَامَ الدين بِشَارة، وولّى على عِمارة سورها الخادم بهاءَ الدين قراقوش.

وفيها توفّي الأمير طُمان بن عبد الله النُّورِيّ صاحب الرَّقة؛ كان شجاعاً جواداً محبّاً للخير كثير الصدقات يُحِبّ الفقهاء والعلماء، بنى مدرسة بحلب للحنفيّة. وكانت وفاته في ليلة نصف شعبان؛ وحزِن السلطان صلاح الدين عليه والمسلمون لحرصه على الجِهاد ولمواقفه المشهودة.

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن بغية الوعاة للسيوطي وتاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) مرسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير.

(٣) هو عشير بن علي بن أحمد بن الفتح أبو القبائل، كما في تاريخ الإسلام للذهبي. (طبعة دار الكتب: ١٠٨/٦).

وفيها توفّي عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهَّر بن عليّ أبو سعد بن أبي السَّرِيّ التَّمِيمِيّ الموصليّ القاضي شرف الدين بن أبي عَصْرُون. كان إماماً فاضلاً مصنِّفاً، وكان خَصِيصاً بالملك العادل نور الدين، ثم آقتضى[1] به السلطان صلاح الدين، وولي القضاء بعِدّة بلاد وضُرّ قبل وفاته بعشر سنين. ومن شعره قوله: [الخفيف]

كلُّ جمعٍ إلى الشتاتِ يصيرُ أيُّ صَفْوٍ ما شانَه التكديرُ
أنت في اللَّهو والأماني مقيمٌ والمنايا في كلّ وقت تسير

وفيها توفّي الفقيه عيسى الهَكّاريّ ضياءُ الدين؛ حضر فتح مصر مع أسد الدين شِيرِكُوه، وهو الذي مشَى بين الأمراء وبين السلطان صلاح الدين لمّا ولِي وزارة العاضد بعد موت عمّه أسد الدين شِيرِكُوه، حسب ما تقدّم ذكره حتّى تَمّ أمره. ثمّ حضر مع السلطان صلاح الدين فتحَ القُدْس والغزوات، وكان صلاح الدين يَمِيل إليه ويستشيره، وكأنّ الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس والتفريج عن المكروبين مع الوَرَع والعِفّة والدين ــ رحمه الله ــ.

وفيها تُوفّي الأمير مُوسَك بن جَكُو [آبن][2] خال صلاح الدين. كان حافظاً للقرآن سامعاً للحديث، وكان محسناً إلى الناس ملازماً للسلطان في غزواته، وكان ديِّناً صالحاً جَوَاداً؛ مرِض بمَرْج عَكّا فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق ليتطبّب بها، فتوجّه إلى دِمشق ومات بها ــ رحمة الله ــ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو العبّاس التُّرْك أحمد بن أحمد بن محمد بن ينال شيخ الصوفية بأصبهان ومسندها في شعبان. وأبو الحسين أحمد بن حمزة المَوَازِينِيّ في المحرّم. وقاضي القضاة شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون التميمي الموصلي في رمضان. وأبو الفضل عبد المجيد بن [الحُصَيْنِيّ بن يوسف بن الحسن بن أحمد بن][3] دَلِيل

(١) أي ولّاه القضاء.
(٢) زيادة عن الروضتين.
(٣) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

الإسكندرانيّ المعدّل. وشيخ الشافعيَّة أبو طالب المبَارك بن المبارك [بن المبارك][1] الكَرْخِيّ صاحب آبن الخلّ. وأبو المعالي [وأبو النجاح][1] مُنْجِب بن عبد الله المُرْشِدِيّ الخادم في المحرّم. والحافظ يوسف بن أحمد الشِّيرازيّ ثم البغداديّ الصوفيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وخمس عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة العشرون من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة ستّ وثمانين وخمسمائة.

فيها ملَك سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين صنعاء من بلاد اليمن.

وفيها حجّ بالناس من العراق طاشتِكِين المذكور في السنة الماضية.

وفيها توفّي مسعود [بن عليّ][1] بن عُبَيْد الله أبو الفضل بن النادر الصفّار الأديب الشاعر؛ كان بارعاً في الأدب، وكتب خطّاً حسناً نحواً من مائة ربعة. ومن شعره قوله: [الطويل]

تولَّوْا فأولوا الجسمَ من بعدهمْ ضَناً ... وحرًّا شديداً في الحَشا يتزايدُ
وزاد بلائي بالذين أُحِبّهمْ ... وللناس فيما يَذْهَبُون مقاصد

وفيها توفّي يوسف بن عليّ بن بُكْتِكِين الأمير زين الدين صاحب إرْبِل. كان قدِم إلى السلطان صلاح الدين نَجْدَةً فمرِض ومات، وفرِح بموته أخوه مُظَفَّر الدين[2]، وتولّى إرْبِل مكانَه من قِبَل السلطان صلاح الدين. وكان زين الدين أميراً كبيراً شجاعاً مِقداماً مدبراً.

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام.

(٢) هو مظفّر الدين كُكُبْري. وكان بيده حرّان. (الأعلاق الخطيرة: ٣/٥٧).

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الحافظ أبو المواهب الحسن بن هِبة الله بن محفوظ بن صَصْرَى[١] التَّغْلَبيّ الدمشقيّ، وله تسع وأربعون سنة. وأبو الطيّب عبد المنعم بن يحيى [بن خُلُف بن نفِيس][٢] بن الخُلُوف الغِرْناطِيّ المقرىء. وأبو عبد الله محمد بن سعيد [بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد البرّ بن مجاهد المعروف بـ][٣] ـابن زَرْقُون الإشْبِيلِيّ المالكيّ المسنِد. وأبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الفَرَح بن الجَدّ الفِهْرِيّ الحافظ بإشْبِيلِيَة. وقاضي القضاة محيي الدين[٤] أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة كمال الدين بن الشَّهْرُزُورِيّ، وله اثنتان وستون سنة؛ ولِي حلب ثم المَوْصِل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وخمس وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وأربع أصابع.

* * *

السنة الحادية والعشرون من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

فيها كان استيلاء الفرنج على عَكّا، كما تقدّم في ترجمة السلطان صلاح الدين من هذا الكتاب.

وفيها توفّي الموفّق أسعد بن [إلياس بن جرجس المعروف بابن][٥] المَطْرَان

---

(١) سيذكره المؤلف في وفيات سنة ٦٢٦هـ من هذا الجزء. وانظر الخلاف في ضبط اسم «صصرى» في الأعلام: ٢/٢٢٥.

(٢) زيادة عن طبعة دار الكتب.

(٣) زيادة عن الذهبي.

(٤) تقدمت وفاته سنة ٥٨٤هـ.

(٥) زيادة عن عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة: ٢/١٧٥ وعلماء النصرانية: ٨٤، ٨٥ ــ وفي كشف الظنون أن وفاته سنة ٥٨٥هـ.

الطبيب. كان نصرانيّاً فأسلم على يد السلطان، وكان غزير المُرُوءة حسنَ الأخلاق كريم العِشرة. وكان يصْحَبُه صبيّي حسن الصورة آسمه عمر. وكان الموفق يحبّ أهل البيت ويبغض آبن عُنَيْن[١] الشاعر لخبث لسانه، وكان يحرّض السلطان صلاح الدين عليه ويقول له: أليس هذا هو القائل: [مخلّع البسيط]

سُلْطانُنا أعرجٌ وكاتبهُ أَعْمَشٌ والوزير منحدبُ

فَهجاه آبن عُنَيْن بقوله: [البسيط]

قالوا الموفّق شِيعيٌّ فقلت لهم هذا خلاف الذي للناس منه ظَهَرْ
فكيف يَجْعَل دينَ الرَّفْض مَذْهبه وما دعاه إلى الإسلام غيرُ عُمرْ

وفيها توفّي سليمان بن جَنْدَر؛ كان من أكابر أمراء حلب، ومشائخ الدولتين: النُّوريّة والصلاحيّة؛ شَهِد مع السلطان صلاح الدين حروبه كلّها، وهو الذي أشار بخراب عَسْقَلَان مصلحة للمسلمين. ومات في أواخر ذي الحجة.

وفيها توفّي عمر بن شاهِنشاه بن أيّوب الملك المظفّر تقيّ الدين. قد ذكرنا من أمره: أنّ عمّه السلطان صلاح الدين كان أعطاه حَمَاة، وعدّة بلاد من حماة إلى ديار بكر، فطمِع في مملكة الشرق فنفرت عنه وعن عمّه صلاح الدين القلوبُ لعِظَم طمعهما. ووقع لتقي الدين هذا مع بكتمر [بن عبد الله مملوك شاه أرمن][٢] صاحب خِلاط وقائع وحروب، فمات تقيّ الدين بتلك البلاد، فكتم محمد ولدُه موته، وحمله إلى ميّافارِقين، فدُفِن بها. وكانت وفاته يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، ثم بنِيت له مدرسة بظاهر حَمَاة، فنُقِل إليها. وكان السلطان صلاح الدين يكره آبنه محمداً فأخذ منه بلاد أبيه، وأبقى معه حماة لا غير. ولقّب محمد هذا بالملك المنصور. وهو أبو ملوك حَمَاة من بني أيّوب الآتي ذكرهم. وكان تقّي الدين شجاعاً مِقداماً شاعراً فاضلاً، عاشَر العلماء والأدباء وتخلّق بأخلاقهم، وله ديوان شعر. ومن شعره: [مجزوء الكامل]

(١) هو محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين الأنصاري الشاعر المشهور المتوفى سنة ٦٣٠هـ. (ابن خلكان: ٥/١٤).

(٢) زيادة عما سيأتي للمؤلف في حوادث سنة ٥٨٩هـ.

يـا نـاظِـرَيْـهِ تَـرَفَّـقَـا ما في الوَرَى لكما مُبارِزْ
هَـبْـكُـمْ حَـجَـبْـتُـمْ أنْ أرا هُ فهل لقلب الصَّب حاجِزْ

وفيها توفّي يحيى[١] السُّهْرَوَرْدِيّ المقتول بحَلَب؛ كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب النِّيرَنْجِيَّات[٢]، فآستمال بذلك خلقاً كثيراً وتبعوه؛ وله تصانيف في هذه العلوم. وآجتمع بالملك الظاهر آبن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، فأعجب الظاهرَ كلامُهُ ومال إليه. فكتب أهل حلب إلى السلطان صلاح الدين: أدْرِكْ ولدكَ وإلاّ تتلف عقيدتُه؛ فكتب إليه أبوه صلاح الدين بإبعاده فلم يُبْعِده، فكتب بمناظرته، فناظره العلماء فظهَر عليهم بعبارته، فقالوا: إنّك قلت في بعض تصانيفك: إنّ الله قادر على أن يخْلُق نبياً، وهذا مستحيل. فقال: ما وجه آستحالته؟ فإنّ الله القادر هو الذي لا يمتنِع عليه شيء. فتعصّبوا عليه، فحبسه الظاهر وجرت بسببه خُطُوب وشَنَاعات. وكان السُّهْرَوَرْدِيّ رديء الهيئة، زَرِي الخِلقة، دنس الثياب، وسِخ البَدَن، لا يَغْسِل له ثوباً ولا جسماً، ولا يقصّ ظفراً ولا شعراً، فكان القمل يتناثر على وجهه، وكان مَن رآه يهرُب منه لسوء منظره، وقبح زِيّه. وطال أمره إلى أن أمر السلطان بقتله فقتِل في يوم الجمعة منسلَخ ذي الحِجّة من هذه السنة، أُخرِج من الحبس ميّتاً. وممّا يُنسب إليه من الشعر القصيدة[٣] التي أوّلها: [الكامل]

أبـداً تـحِنّ إليـكُـم الأرواحُ وَوِصـالُـكم رَيْحـانُهـا والـراحُ
وقلوبُ أهـلِ ودادكم تشتاقكمْ وإلى كمـال جمـالِكم تـرتـاحُ

وقال السيف الآمِديّ: اِجتمعتُ بالسُّهْرَوَرَدِيّ بحلب، فقال لي: لا بدّ أن أَملِك الأرض. فقلت: مِن أين لك هذا؟ فقال رأيت في المنام أنّي شَرِبت ماء

(١) في الأصل: «محمد». والتصحيح عن ابن خلكان والشذرات.
(٢) النيرنجيات: أُخَذٌ كالسحر وليست به. جمع نيرنـج. والسيمياء: علم أسرار الحروف. (انظر في ذلك مقدمة ابن خلدون: ص ٩٣٦ وما بعدها).
(٣) انظر ابن خلكان: ٦/٢٦٨ ـ ٢٧٤.

البحر؛ فقلت: لعلّ ذلك يكون آشتهارَ العلم فلم يرجع؛ فرأيته كثيرَ العلم قليل العقل. ويقال: إنّه لمّا تحقّق القتل كان كثيراً ما يُنْشِد: [الهزج]

أرى قَـدَمِـي أراق دمِـي وهـان دمي فهـا نَـدَمِي

والأوّل قول أبـي الفتـح البُسْتِي وهو قوله: [الهزج]

إلى حَتْفِي سعىَ قـدمِي أرى قـدمـي أراق دمِـي
فـلا أنـفـكّ من نَـدَمٍ وليس بنـافـعي نـدمِي

وفيها تُوفّي الشيخ نجم الدين الخُبُوشانِيّ. قال صاحب المرآة: «قدِم إلى الديار المصريّة وأظهر الناموس وتزهّد، وكان يركب الحِمار فيقف على السلطان صلاح الدين وأهله. وأعطاه السلطان مالاً فبَنَى به المدرسة[1] التي بجانب الشافعيّ ــ رحمة الله عليه ــ وكان كثير الفتن ــ منذ دخل مصر إلى أن مات ــ ما زالت الفتنة قائمة بينه وبين الحنابلة [و] آبن الصابونيّ وزين الدين بن نُجَيَّة[2]، يكفّرونه ويكفرهم؛ وكان طائشاً مُتهوّراً، نَبَش على آبن الكِيزانِيّ وأخرج عظامَه من عند الشافعيّ، وقد تقدّم ذلك. وكان يصوم ويُفطِر على خبز الشعير، فلمّا مات وُجِد له ألوف الدنانير، وبلغ صلاحَ الدين فقال: يا خيبة المَسْعَى! ومات في صفر. وتولّى بعده ــ تدريس مدرسة الشافعيّ التي بناها ــ شيخُ الشيوخ صدر الدين آبن حَمّويه[3]». إنتهى كلام صاحبِ المرآة بآختصار بعد أن ثَلب الخُبُوشَانِيّ المذكور بمساوىء أضربتُ عن ذكرها ــ رحمه الله تعالى ــ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن عليّ الخِرَقِي اللّخميّ في ذي القعدة، وله ثمانٍ وثمانون سنة. وأبو المعالي عبد المنعم بن عبد الله بن محمد الفراوي في شعبان. وصاحب حماة

(١) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء، حاشية (٣).
(٢) كذا في الشذرات وابن خلكان. وفي الأصل: «ابن عشة». وانظر ما سيأتي ذكره للمؤلف في وفيات سنة ٥٩٩هـ.
(٣) سيأتي ذكره في وفيات سنة ٦١٧هـ.

المظفّر عمر بن شاهنشاه بن أيّوب. ونجم الدين محمد بن الموفّق الخبوشَانيّ الشافعي الزاهد. والشهاب السُّهْرَوَرْدِيّ الفيلسوف. ويعقوب بن يوسف الحَرْبِيّ المقرىء.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وأربع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية والعشرون من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

فيها توفّي سِنَان بن سليمان، صاحب الدعوة[1] بِقلاع الشام. كان أصله من البصرة من حصن أَلَموت[2]، فرأى منه صاحب الأمر بتلك البلاد نجابةً وشهامة وعقلاً وتدبيراً، فسيّره إلى حصون الشام، فسار حتّى وصل إلى البلاد الشاميّة، وكان فيه معرفة وسياسة. وجَدّ في إقامة الدعوة وآستجلاب القلوب، وكان مجيئُه إلى الشام في أيّام السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. فجَرت له معه حروب وخطوب، وآستولَى سِنَان هذا على عِدّة قلاع وأقام والياً ثلاثين سنة والبعوث تَرِد عليه في كلّ قليل من قِبَل نور الدين. ثم إنّ السلطان نورَ الدين عزم على قصده فتوفّي. وأقام سنان على ذلك إلى أن توفّي ببلاد الشام في هذه السنة.

وفيها توفّي عليّ بن أحمد الأمير سيف الدين بن المَشْطُوب ملك الهَكّارِيّة[3]. وكان أميراً شجاعاً صابراً في الحروب مُطاعاً في قبيلته؛ دخل مع أسد الدين شِيرِكُوه

---

(١) أي الدعوة الإسماعيلية. وتسمى تلك القلاع بقلاع الدعوة. وهي قلاع: العلّيقة، والمينقة، والكهف، والخوابي، والمرقب، والقدموس، والرصافة، ومصياف. (التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري: ٢٣٦).

(٢) تقع أطلال قلعة ألموت على قمة صخرة شاهقة يكاد يتعذر ارتقاؤها في قلب جبال ألبرز على مسيرة يومين من شمالي الشمال الشرقي لقزوين. (دائرة المعارف الإسلامية: ٣٧٢/٤).

(٣) الهكارية: جنس من الأكراد.

إلى مصر في مرّاته الثلاث، ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى البلاد الشاميّة، فدام بها إلى أنْ مات في آخر شوّال. وقال آبن شدّاد: مات بالقدس وصُلّي عليه بالجامع الأقصى.

وفيها توفّي السلطان قِلِيج أَرْسلان بن مسعود بن قليج أَرْسلان بن سليمان بن قُتُلْمِش بن إسرائيل بن سَلْجُوق، الملك عِزّ الدين السلجوقيّ صاحب بلاد الروم. طالت أيّامه وآتّسعت ممالكه. ولمّا أسنّ أصابه الفالج فتعطّلت حركتُه، وتنافس أولادُه في الملك، وحكم عليه ولده قُطْبُ الدين مَلِكشاه، وقَتَل كثيراً من خواصّه في حياة أبيه. وكان قطب الدين مُقيماً بسِيوَاس وأبوه بقُونِيَةَ. ثم جاء إلى أبيه يقاتله فأخرج إليه العساكر، فآلتقاهم قطب الدين وكسرهم وبدّد شمل أصحاب أبيه، ثم ظفِر بأبيه فأخذه مُكْرَهاً وحمله إلى قَيْساريّة، ووقع له معه أمور أُخَر. وآخر الأمر أنّه عهِد إلى ولده غِياث الدين بالملك ولم يَعْهَد لقطب الدين. وكانت وفاته في نصف شعبان.

وفيها تُوفّي نصر بن منصور أبو المرهف النُّميريّ الشاعر المشهور، منسوب إلى نُمير بن عامر بن صَعْصَعَة. وَلِد بَرقّة الشام، وأمّه بنت سالم بن مالك صاحب الرحبةَ، ورُبِّيَ بالشام وعاشر الأدباء وقال الشعر وهو آبن ثلاث عشرة سنة. وقلّ بصره بالجُدَرِيّ وله أربع عشرة سنة. وقدِم بغداد ليداوِيَ عَيْنَيْه فآيسه الأطبّاء، فحفِظ القرآن وتفقّه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ـــ رضي الله عنه ـــ وكان طاهر اللسان عفيفاً ديّناً. وله مدائح في صلاح الدين وغيره. ومن شعره ـــ رحمه الله تعالى ـــ: [الوافر]

تُرَى يتألّف الشمْلُ الصديعُ	وآمنُ مِن زمانٍ ما يرُوعُ
وتأنس بعد وحشتنا بنَجْدٍ	منازلُنا القديمةُ والرُّبُوعُ
ذكرتُ بأَيْمنَ العلمَيْن عَصْراً	مضى والشمل مُلْتئِمٌ جميعُ
فلم أملِكْ لدمعي ردّ غَرْب	وعند الشوق تَعْصِيكَ الدموعُ
ينازعني إلى خَنْساء قلبي	ودونَ لقائها بلدٌ شَسوعُ
وأَخْوَفُ ما أخاف على فؤادي	إذا ما أَنْجَد البرقُ اللموعُ

لقد حُمِّلتُ من طول التنائِي عن الأحباب ما لا أستطيع

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الفقيه أحمد ابن الحسين بن عليّ العراقي الحنبليّ بدمشق. والمحدّث أبو الفضل إسماعيل بن عليّ الجَنْزوِيّ الشُّرُوطِيّ بدمشق في سلخ جُمادى الأولى. وأبو ياسر عبد الوهاب [بن هبة الله بن عبد الوهاب][1] بن أبي حَبّة الدقاق بحرّان في شهر ربيع الأول. وأبو جعفر عبيد الله بن أحمد [بن عليّ بن عليّ][1] بن السَّمِين. والأمير الكبير سيف الدين عليّ بن أحمد الهَكّاريّ المشطوب في شوّال بالقدس. وصاحب الروم قِلِيج أَرْسلان بن مسعود السلجوقيّ. والنّسابة أبو عليّ محمد بن أسعد الحسينيّ الجَوّانيّ بمصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وثلاث وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

(١) زيادة عن الذهبي في تاريخ الإسلام.

ذكر سلطنة الملك العزيز عثمان[1] على مصر

هو الملك العزيز عِمَاد الدين أبو الفتح عثمان سلطان الديار المصريّة وآبن سلطانها الملك الناصر صلاح الدين يوسف آبن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادِي بن مَرْوَان الأيّوبيّ الكُرْدِيّ الأصل المصريّ.

ولي سلطنة مصر في حياة والده صورةً؛ ثم تسلطن بعد وفاته آستقلالاً بآتّفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر، لأنه كان نائباً عن أبيه صلاح الدين بها لما كان أبوه مشتغلاً بفتح السواحل بالبلاد الشاميّة وتمّ أمره. وكان مولده بالقاهرة في ثامن جُمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان الملك العزيز هذا أصغر من أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وأصغر من أخيه الأفضل صاحب دمشق. وكان الأفضل هو أكبر الإخوة، وهو المشار إليه[2] في أيّام أبيه صلاح الدين ومن بعده، وهو الذي جلس للعَزَاء بعد موت صلاح الدين، وصار هو السلطان الأكبر إلى أنْ ظهر منه أمور، منها: أنّه كان آستوزر ضِياءَ الدين[3] الجَزَرِيّ، فأساء ضِياءُ الدين السِّيرة[4]؛ وشغف قلوب الجند إلى مصر، وساروا إليها فآلتقاهم الملك العزيز

---

(١) أخباره في: وفيات الأعيان: ٣/٢٥١، وذيل الروضتين: ١٦، ومفرج الكروب: ٣/٨٢، والبداية والنهاية: ١٣/١٨، والدارس في تاريخ المدارس: ١/٣٧٨، وشذرات الذهب: ٤/٣١٩، وبدائع الزهور: ١/٢٥٠، والسلوك: ١/١٤٢، والخطط: ٢/٢٣٥، وشفاء القلوب: ٢٣٥.

(٢) أي كانت ولاية العهد له.

(٣) هو ضياء الدين ابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٧هـ، صاحب المثل السائر. وهو غير عز الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ وصاحب التاريخ الكامل. وابن الأثير الثالث هو أبو السعادات مجد الدين صاحب كتاب النهاية في غريب الحديث. والثلاثة إخوة.

(٤) أي إنه حسَّن له إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه.

وأكرمهم، وكانوا مُعْظَمَ الصلاحيّة. وآشتغل الأفضل بلهوه. وكان القُدْس في يده فعجز عنه وسلّمه إلى نواب الملك العزيز هذا، فبان للناس عجزُ الأفضل. ثم وقعت الوحشة بين العزيز هذا وبين أخيه الأفضل المذكور. وبلغ الفرنج ذلك، فطمِعوا في البلاد وحاصروا جَبَلَة[١]، وكان بها جماعة من الأكراد فباعوها للفرنج. وبرزَ الملك العزيز من مصر يريد قتال الفرنج في الظاهر، وفي الباطن أخذ دمشق من أخيه الأفضل؛ وعلِم الأفضل بذلك فكتب إلى عمّه العادل أبي بكر بن أيّوب، وللمشارقة[٢] بالنجدة، فأجابوه إلى ما يريد؛ وكان مع العادل عدّة بلاد بالشرق، وكان لما توفّي أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بالكَرَك قدم دمشق معزّياً للأفضل وأقام عنده أيّاماً؛ ثم رحل إلى محلّ ولايته بالجزيرة والرُّها وسُمَيْساط والرّقة وقلعة جَعْبَر وديار بكْر ومَيافارِقين؛ وهي البلاد التي كان أعطاها له أخوه صلاح الدين في حياته، وكان له أيضاً مع ذلك بالبلاد الشاميّة الكَرَك والشُّوبَك.

والمقصود أنّ الملك العزيز هذا لمّا رحل من مصر إلى نحو دمشق، سار حتى نزل بظاهر دمشق، وقيل بعقبة الشُّحُورَة[٣]؛ وجاء العادلُ بعساكر الشرق ونزل بمرج عَذْواء[٤]. فأرسل إليه العزيز يقول: أريد الاجتماع بالعادل؛ فآجتمعا على ظهور خيلهما وتفاوضا؛ فقال له العادل: لا تخرّب البيت وتدخل عليه الآفة! والعدوّ وراءنا من كلّ جانب، وقد أخذوا جَبَلَة؛ فآرجع إلى مصر وآحفظ عهد أبيك. وأيضاً فلا تكسر حُرْمة دمشق، وتُطْمِع فيها كل أحد! وعاد الملك العادل عنه إلى دمشق، وأقام العزيز في منزلته. وقدِمت العساكر على الأفضل وبَعث العادل إلى العزيز يقول له: ارحل إلى مرج الصُّفَّر[٥]؛ فرحل وهو مريض. وكان قصد العادل أنْ يُبْعِده

(١) في السلوك للمقريزي: «جبيل». وفيه أنه كان عليها رجل كردي، أقامه صلاح الدين مستحفظاً بها، فأرغبه الفرنج بمال حتى أسلمها لهم.

(٢) وهم الظاهر غازي بحلب، والمنصور محمد بن تقي الدين بحماة، والأمجد مجد الدين بهرام شاه ببعلبك، والمجاهد شيركوه صاحب حمص. (السلوك: ١/١٤٤، وابن الأثير: حوادث سنة ٥٩٠هـ).

(٣) عقبة الشحورة: بلدة بين الكسوة ودمشق في جنوبها. (تقويم البلدان). وفي الأصل: «عقبة سجورا».

(٤) كذا بالاصل. وصوابه: «مرج عذراء». وهو مرج مشهور خارج دمشق قرب قرية يقال لها عذراء.

(٥) مرج الصُّفر: من نواحي دمشق. (معجم البلدان).

عن البلد. فوصل الملك الظاهر غازي من حلب، والملك المنصور من حَمَاة، وشِيرِكُوه بن محمد بن شِيرِكوه من حِمْص، والأمجد من بعلبكّ، والجميع نجدةً للأفضل. فقال لهم العادل: قد تقرّر أنّه يرحل إلى مصر. وآشتدّ مرض العزيز فآحتاج إلى المصالحة، ولولا المرض ما صالح؛ فأرسل الملك العزيز كبراء دولته فخر الدين إياز جِهَارَكس[1] وغيرَه يحلّف الملوك، وطلب مصاهرة عمّه العادل فزوّجه آبنته الخاتون. ورجع كلٌّ واحد إلى بلده، وذلك في شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وقال العِماد الكاتب الأصفهانيّ: خرج الملوك لتوديع الملك العزيز إلى مرج الصُّفَّر واحداً بعد واحد. وأوّل مَن خرج إليه أخوه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فبات عنده ليلةً وعاد، فخرج إليه أخوه الأفضل صاحب الواقعة، فقام إليه وآعتنقا وبكيا، وأقام عنده أيضاً يوماً، وكان قد فارقه منذ تسع سنين، فلمّا عاد كتب إلى العزيز من إنشائه من عدّة أبيات: [الوافر]

نَظَرْتُك نظرةً من بعد تسع تقضَّتْ بالتفرّق مِن سنينِ

ولمّا آنفصل العساكر عن دمشق شرع الأفضل على عادته في اللّهو واللّعب، فآحتجب عن الرعيّة فسُمِّي «الملك النوّام» وفوّض الأمر إلى وزيره ضياء الدين الجَزَرِيّ، وحاجبِه الجمال محاسن بن العجميّ، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سبباً لزوال دولته. وآستمرّ الملك العزيز هذا بمصر وأمرُه ينمو ويزداد إلى سنة تسعين.

وفيها عاد الاختلاف ثانياً بين العزيز والأفضل؛ وسبُبه إغراءُ الجند والوسائط. وكان أكبر المحرّضين للعزيز على أخيه الأفضل أُسامة، حتّى قال له: إنّ الله يسألُك عن الرعيّة، هذا الرجل قد غَرِق في اللهو وشربه، وآستولى عليه الجَزَرِيّ وآبنُ العجمي. ثم قال له القاضي آبن أبي عَصْرون: لا تَسْلم يوم القيامة. وبلغ الأفضلَ قولُ أسامة وآبن أبي عَصْرون فأقلع عمّا كان عليه، وتاب وندم على تفريطه، وعاشر العلماء والصلحاء، وشرَع يكتب مصحفاً بخطّه، وكان خطّه في النهاية، فلم يُغْنِ عنه ذلك.

(١) في الأصل: «سرتكين». وفي ابن الأثير: «أيازجركي» وما أثبتناه عن السلوك.

وتحرّك العزيز يَقْصِده، فسار الأفضل إلى عمّه العادل يستنجد به، فآلتقاه العادل على صِفّين، فسار معه بعساكر الشرق إلى دمشق؛ وكان الأفضل لمّا آجتاز بحلب آتّفق مع أخيه الظاهر غازي وتحالفا، وجاء إلى حماة ففعل كذلك مع آبن عمّه المنصور. وصار العادل يشير عليه بعَزْل الجَزَرِيّ عن الوزارة، ويقول له: هذا يخرّب بيتك. فصار لا يلتفت إليه فحنِق منه. ثم إنّ العادل سأل الملك الظاهر غازي في شيء فلم يُجِبه، فغضب لذلك العادل وآنفرد عنهم[1]، وكتب إلى العزيز يخبره أنّه معه، ويستحثّه على القدوم إلى دمشق؛ فخرج العزيز من مصر مسْرِعاً، ثم علِم العادل أنّه لا طاقة له بالعزيز ولا بالظاهر؛ فراسل الأسديّة الذين كانوا بمصر، وأوعدهم بالأموال والإقطاعات. وكان الملك العزيز قد قدّم عليهم الصلاحيّة مماليكَ أبيه. والأسديّةُ هم مماليك عمّه أسد الدين شِيرِكوه وحواشيه الأكراد؛ ثم دسّ العادل للأسديّة الأموال، وكان مقدّم الأكراد الأسديّة أبو الهيجاء السّمين؛ وكان العزيز قد عزَله عن ولاية القدس، وتقدمت الأسديّة بسيف الدين جُرْدِيك؛ فركب أبو الهيجاء بجموعه، ومعه أزْكُش في الليل، وقصدوا دمشق، فأصبح العزيزُ فلم يَرَ في الخيام من الأسديّة أحداً، فرجع إلى مصر. وشرع أُزْكُش وأبو الهيجاء والأسديّة يحرّضون العادل على أخذ مصر؛ وكانت الأسديّة والأكراد يكرهون العادل، وإنّما دعتهم الضرورة إليه. وآتّفق العادل مع آبن أخيه الأفضل وسارا إلى جهة العزيز نحو مصر. فلمّا وصلوا إلى القُدْس ولَّوْا أبا الهيجاء كما كان، وعزلوا جُرديك عنها؛ ثم ساروا حتّى نزلوا بلبيس وبها جماعة من الصلاحيّة. فتوقّف العادل عن القتال ولم يَرَ آنتزاع مصر من يد العزيز، وظهَرت منه قرائن تدلّ على أنّه لا يؤثر السلطنة للأفضل، ولا يرى بتقدمته على العزيز. فأرسل العادل إلى العزيز يطلب منه القاضي الفاضل، وكان الفاضل قد آعتزلهم وآنقطع إلى داره، فأرسل إليه العزيز يسأله فآمتنع، فتضرّع إليه وأقسم عليه، فخرج إلى العادل، فآحترمه العادل وأكرمه وتحدّث معه بما قرّره، وعاد الفاضل إلى العزيز وتحدّث معه، فأرسل العزيز ولديه الصغيرين مع

---

(١) يعزو ابن الأثير ما حدث في تلك السنة من الوحشة بين الظاهر والعادل إلى عدم وثوق الظاهر صاحب حلب بحسن نيّة عمه العادل نحو أولاد أخيه. (انظر الكامل: ١٠/٢٤٢).

خادم له برسالة ظاهرة، مضمونها: «لا تقاتلوا المسلمين ولا تَسْفِكوا دماءَهم، وقد أنفذت ولديّ يكونان تحت كفالة عمي العادل، وأنا أنزل لكم عن البلاد وأمضي إلى الغرب». وكان ذلك بمشهد من الأمراء، فرقّ العادل وبكى مَن حضَر. فقال العادل: معاذ الله ما وصل الأمرُ إلى هذا الحدّ.

وكان العادل قد قرّر مـع القاضي الفاضل ردّ خبز[١] الأسديّة وإقطاعاتهم وأملاكهم، وأن يبقَى أبو الهيجاء على وِلاية القدس. ثم قال العادل للأفضل: المصلحة أن تمضي إلى أخيك وتصالحه، ما عذرُنا عند الله وعند الناس إذا فعلنا بآبن أخينا ما لا يليق!. وكان العزيز أرسل يقول للعادل مـع الخادم المقدّم ذكرُه: «البلاد بلادك وأنت السلطان ونحن رعيّتك». ففهِم الأفضل أنّ العادل رجـع عن يمينه، وأنّه آتّفق مـع العزيز على أخذ البلاد منه، لكنّه لم يمكنه الكلام، ومضى إلى أخيه الملك العزيز وآصطلحا، وعاد إلى دمشق. ودخل العزيز والعادل والأسديّة إلى القاهرة يوم الخميس رابـع ذي الحجّة. وسلطن العادلُ العزيزَ ومشى بين يديه بالغاشيـة[٢]. ولو أراد العادل مصرَ في هذه المرّة لأخذها؛ وإنّما كان قصـده الإصلاح بين الإخوة.

ثم وقـع بين العزيز هذا والأفضل ثالثاً؛ وهو أنّه لمّا عاد الأفضل إلى دمشق آزداد وزيره الجَزَريّ من الأفعال القبيحة، والأفضل يسمـع منه ولا يخالفه، فكتب قيماز النَّجْمِيّ وأعيان الدولة إلى العادل يشكونه، فأرسل العادل إلى الأفضل: «اِرفـع يد هذا الأحمق السَّيـىء التدبير القليل التوفيق»، فلم يلتفت. فآتّفق العادل مـع آبن أخيه العزيز هذا على التوجّه إلى الشام فسارا. وآستشار الأفضلُ أصحابَه، فكلٌّ

(١) في الأصل: «خير». والخبز بلغة ذلك العصر هو الإقطاع.

(٢) الغاشية: أصل الغاشية السرج أو الغطاء المزركش الذي يوضـع على ظهر الفرس وفوق البرذعة. وكان سلاطين الأيوبيين ـ ومن بعدهم المماليك ـ يخرجون في المواكب وبين أيديهم غاشية. ويقـول القلقشندي: «وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحفلة، ويحملها الركابدار، يلفتها يميناً وشمالاً (صبح الأعشى: ٤/٧، ٤٧).

أشار عليه بأن يلتقي عمَّه العادل وأخاه العزيز ولا يخالفهما إلاّ الجَزَرِيّ، فإنّه أشار بالعصيان، فآستعد الأفضل للقتال والحصار وحلّف الأمراء والمقدّمين، وفرّقهم في الأبراج والأسوار، فراسلوا العزيز والعادل وأصلحوا أمرهم في الباطن؛ وآتفق العادل مـع عزّ الدين الحِمْصِي على فتـح الباب الشرقيّ؛ وكان مُسَلِّماً إليه، فلما كان يوم الأربعاء سادس عشرين شهر رجب ركب العادل والعزيز وجاءا إلى الباب الشرقيّ ففتحه آبن الحِمْصِي فدخلا إلى البلد من غير قتال؛ فنزل العزيز دار عمتّه ستّ الشام، ونزل العادل دار العَقِيقيّ، ونزل الأفضل إليهما وهما بدار العقيقي؛ فدخل عليهما وبكى بكاء شديداً، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صَرْخَد، فأخرَج وزيره الجَزَرِيّ في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل، فأخذ أموالاً عظيمة وهرَب إلى بلاده[1].

وكان العزيز قد قرّر مـع عمّه العادل أن يكون نائبه بمصر، ويقيم العزيز بدمشق. ثم ندِم فأرسل إلى أخيه الأفضل رسالة فيها صلاح حاله. ثم وقعت أمور[2] إلى أن سلّم العزيز بُصْرَى إلى العادل، وكان بها الظافر. وأقام العزيز بعد ذلك بدمشق مدّة، وصلّى الجمعة عند قبر والده بالكَلاّسة وأمر ببناء القبّة والمدرسة إلى جانبها، ثم أمرَ محيـي الدين بن الزَّكِيّ بعمارة المدرسة العزيزيّة، ونَقَل السلطانَ صلاح الدين إلى الكَلاَّسة في سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة. وكان الأفضل قد شرع في بناء تربة عند مشهد[3] القَدَم بوصيّة من السلطان صلاح الدين. وكان الملك العزيز إذا جلس في مجالس لهوه يجلس العادل على بابه، كأنّه بَرْدَداره[4]. فلمّا كان آخر ليلة من مُقام العزيز بدمشق، وكانت ليلة الاثنين تاسع شعبان، قال العادل لولده المعظم عيسى: أُدخل إلى العزيز فقبِّل يده وآطلب منه دِمشق، وكان المعظَّم قد

---

(١) أي إلى جزيرة ابن عمر على الفرات، وهي موطن آل الأثير، ونسبتهم (الجزري) إليها.

(٢) قارن بالسلوك للمقريزي والكامل لابن الأثير.

(٣) مشهد القدم أو مسجد القدم: من الآثار التي في مدينة دمشق وغوطتها مما يرجى فيه إجابة الدعاء. يقال إن هناك قبر موسى بن عمران، ومسجد الباب الشرقي. (تهذيب تاريخ دمشق).

(٤) البردار: هو صاحب الستارة، أو ممسك الستارة؛ كان يقف بباب السلطان. واللفظ فارسي مركب من «فردا» أي الستارة، واستعملت «بردا» و«دار» أي ممسك. (صبح الأعشى: ٥/٤٦٨.

راهق الحُلُم، فدخل إلى آبن عمّه العزيز وقبّل يده وطلب منه دِمَشْق، فدفعها إليه وأعطاه مستحقّه، وقيل: بل آستناب العادلَ فيها، ثم أعطاها للمعظّم في سنة أربع وتسعين. وكان خروج الملك العزيز من دمشق في يوم تاسع شعبان المذكور. وسار إلى مصر ومضى الأفضل إلى صَرْخَد، وآجتاز العزيز بالقدس فعزَل أبا الهيجاء السمين عن نيابتها، وولّاها لسُنْقُر الكبير، ومضى أبو الهيجاء إلى بغداد.

وآستمرّ الملك العزيز بمصر، وآستقامت الأمور في أيّامه، وعدل في الرعيّة، وعفّ عن أموالها حتّى قيل: إنّ آبن البَيْسانِيّ أخا القاضي الفاضل بذَل على قضاء المحلّة[1] أربعين ألف دينار، فعجّل منها عشرين ألفاً، وكان رسوله في ذلك الملك العادل عمّ العزيز المقدّم ذكره، وبذل له عن ترسّله خمسة آلاف دينار، وللحاجب أبي بكر ألف دينار، ولجِهارَكْس ألف دينار. فآجتمعوا على العزيز جميعاً وخاطبوه في ذلك، وألحّ عليه الملك العادل. فقال له العزيز: والله يا عمّ، هذا الرجل بذل لنا هذا البَذْل [لا] عن محبّة لنا، والله إنّه ليأخذ من أموال الرعيّة أضعافَ ذلك، لا ولّيته أبداً! فرجع العادل عن مساعدته، فلمّا آل الأمر إلى العادل صادر آبن البيسانيّ المذكور، وأخذ منه أموالاً كثيرة اِنتهى.

وقال القاضي شمس الدين بن خلّكان في ترجمة الملك العزيز هذا بعد أن ذكر آسمه ولقبه قال: «وكان مَلِكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس معتقداً في أرباب الخير والصلاح؛ وسمع بالإسكندرية الحديث من [الحافظ][2] السِّلَفِيّ، والفقيه أبي طاهر بن عَوْف الزُّهريّ، وسمع [بمصر][2] من العلّامة أبي محمد بن بَرِّيّ النحويّ وغيرهم. ويقال: إنّ والده لمّا كان بالشام والقاضي الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة عند العزيز ولد للعزيز المذكور ولد، فكتب القاضي الفاضل يهنّىء والدَه السلطانَ صلاحَ الدين بولد ولده، فقال: «المملوك يقبّل الأرض بين يدي مولانا الملِك الناصر، دام رُشْدُه وإرشادُه، وزاد سعده وإسعادُه، وكثُر

---

(١) أي مدينة المحلّة الكبرى، إحدى المدن المصرية القديمة؛ وهي اليوم قاعدة مركز المحلة الكبرى. (م. رمزي).

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

أولياؤه وعبيدُه وأحفادُه، وآشتدّ بأعضاده فيهم آعتضادُه، وأنمى الله عددَه حتّى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولادُه؛ وينهي أنّ الله تعالى ـ وله الحمد ـ رزق الملك العزيز ـ عزّ نصرُه ـ ولداً مباركاً عليّاً، ذكراً سَرِيّاً، [برّاً][1] زكيّاً نقيّاً تقياً؛ من ورثةٍ كريمة بعضُها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكُه تكون ملائكةً في السماء، ومماليكه ملوكاً في الأرض». اِنتهى ما كتبه القاضي الفاضل في التهنئة.

قال آبن خلّكان ـ رحمه الله ـ: «وكانت ولادة العزيز بالقاهرة في ثامن جُمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان قد توجّه إلى الفَيّوم، فطَرَد فرسَه وراء صيد فتقَنْطَر به فرسُه، فأصابته الحُمّى من ذلك، وحُمِل إلى القاهرة فتُوفّي بها في الساعة السابعة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من المحرّم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ولمّا مات كتب القاضي الفاضل إلى عمّه العادل رسالة يُعزِّيه، من جملتها:

«فنقول في توديع النِّعمة بالملك العزيز: لا حول ولا قوّة إلا بالله قول الصابرين، ونقول في آستقبالها بالملك العادل: الحمد لله ربّ العالمين قول الشاكرين؛ وقد [كان][1] من أمر هذه الحادثة ما قطّع كلّ قلب، وجلب كلّ كرب، ومثّل وقوع هذه الواقعة لكلّ أحد ولا سيما لأمثال المملوك، ومواعظ الموت بليغة، وأبلغها ما كان في شباب الملوك؛ فرحم الله ذلك الوجه ونضّره، ثمّ السبيلَ إلى الجنة يسّره.

وإذا محاسنُ أوجهٍ بَلِيتْ فعفَا الثرى عن وجهه الحسنِ

والمملوك في حالِ تسطير هذه الخدمة جامع بين مَرَضَيْ قلب وجسد، ووجع أطرافٍ وعليلِ كَبِد؛ فقد فُجع المملوك بهذا المولى، والعهد بوالده غيرُ بعيد، والأَسَى في كلّ يوم جديد؛ وما كان لِيَنْدَمِلَ ذلك القَرْح، حتّى أعقبه هذا الجرح؛ والله تعالى لا يُعدِم المسلمين بسلطانهم الملك العادل [السلوة، كما لم يُعدِمهم بنبيّهم صلّى الله عليه وسلم الأُسوة][1] ـ وأخذ في نعت الملك العادل إلى أن

(١) زيادة عن ابن خلكان.

قال ــ: ودُفِن بالقرافة الصغرى (يعني العزيز) في قُبّة الإمام الشافعيّ ــ رضي الله عنه ــ. وقبره معروف هناك» اِنتهى كلام آبن خلّكان بُرمَّته، ولم يتعرّض لشيء من أحواله، ولا إلى ما كان في بداية أمره.

وقال أبو المظفَّر سِبْط آبن الجَوْزيّ في تاريخه: «وفيها (يعني سنة خمس وتسعين) تُوفّي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر. كان صلاح الدين يُحِبه، وكان جَوَاداً شجاعاً عادلاً منصفاً لطيفاً كثير الخير رفيقاً بالرعيّة حليماً. حكى لي المُبارِز سُنْقُر الحَلَبيّ ــ رحمه الله ــ قال: ضاق ما بيده بمصر (يعني عن العزيز) ولم يبق في الخزانة درهم ولا دينار، فجاء رجل من أهل الصعيد إلى أزْكُش سيف الدين، قال: عندي للسلطان عشرة آلاف دينار ولك ألف دينار، وتوليني قضاء الصعيد؛ فدخل أزْكُش إلى العزيز فأخبره؛ فقال: والله لا بعْتُ دماءَ المسلمين وأموالهم بملك الأرض! وكتب ورقة لأزْكُش بألف دينار. قال: آخرج فآطرُد هذا الدبرَّ، ولولاك لأدّبته.

وقد ذكرنا أنّه وهَب دِمشق [للملك] المعظَّم، وكان يُطْلِق عشرة آلاف دينار وعشرين ألفاً. وكان سبب وفاته أنّه خرج إلى الفيّوم يتصيّد، فلاح له ظَبْيٌ فركَض الفرسَ خلفَه فكبا به الفرس، فدخل قَرَبُوس [السرج] في فؤاده، فحُمِل إلى القاهرة فمات في العشرين من المحرّم، ودفن عند الشافعي ــ رحمه الله ــ عن سبع وعشرين سنة وشهور؛ وقيل: عن ثمان وعشرين سنة. ولمّا مات نَصَّ على ولده ناصر الدين محمد، وهو أكبر أولاده، وكان له عشرة أولاد، ولم يذكر عمَّه العادلَ في الوصيّة. وأوصى للأمير أَزْكُش، وكان مقدَّمَ الأسديّة وكبيرَهم، وعاش بعد العزيز مدّةً طويلة». اِنتهى كلام أبي المظفَّر.

وقال آبن القادسيّ ــ خلاف ما نَقل أبو المظفّر وآبنُ خلّكان وغيرهُما ــ قال: «كان قد رَكب وتبِع غزالةً فوقع فاندقّت عُنُقه، وبقِي أربعة أيّام ومات. ونصّ على ولده الأكبر محمد إن أمضى العادلُ ذلك. وكانت الوصيَّة إلى أمير كبير آسمه أزْكُش فوثَبت الأسديّة عليه فقتلته». اِنتهى.

وقال الشيخ شمس الدين يوسف بن قَزَأُوغْلي في تارِيخه: «ولمّا مات العزيز كان لابنه محمد عشرُ سنين، وكان مقدّمُ الصَّلاحيّة فخر الدين جِهَارَكْس، وأَسَد الدين سَرَا سُنْقُر، وزَيْن الدين قراجا؛ فآتّفقوا على ناصر الدين محمد (يعني آبن العزيز)، وحلَّفوا له الأمراء. وكان سيف الدين أُزْكُش مقدّمُ الأَسدية غائباً بأَسْوَان، فقدِم فصوَّب رأيَهم وما فعلوه، إلّا أنّه قال: هو صغيرُ السِّن لا ينهَض بأعباء الملك، ولا بدَّ من تدبير كبير يَحْسِم الموادّ ويقيم الأمور؛ والعادل مشغول في الشرق بمارِدِين، وما ثَمّ أقربُ من الأفضل نجعلُه أَتابَكَ العساكر. فلم يمكن الصَّلاحيّة مخالفته. وقالوا: اِفعل، فكتب أُزْكُش إلى الأفضل يستدعيه وهو بَصَرْخَد، وكتبت الصلاحيّة إلى مَن بدمشق من أصحابهم يقولون: قد آتّفقت الأسديّة على الأفضل، وإن ملكوا حكموا علينا، فآمنعوه من المجيء؛ فركب عسكرُ دمشق ليمنعوه ففاتهم؛ وكان الأفضل قد آلتقى نجّاباً[1] من جِهَارَكْس إلى مَن بدمشق بهذا المعنى، ومعه كُتُب فأخذها منه وقال: آرجع فرجع إلى مصر. ولمّا وصل الأفضل إلى مصر آلتقاه الأسدّية ــ نحكي ذلك كلّه في أوّل ترجمة الملك المنصور بن العزيز هذا، إن شاء الله ــ.

وكان الملك العزيز قويّاً ذا بطشٍ وخِفّة حركةٍ، كريماً مُحسِناً عفيفاً لم يردّ سائلاً؛ وبلغ من كرمه أنّه لم يبقَ له خِزانة ولا خاصٌّ ولا تَرْك ولا فَرْش. وأمّا عفته فإنّه كان له غلام تركيّ آشتراه بألف دينار يقال له: أبو شامة، فوقف يوماً على رأسه في خَلْوة ليس معهما ثالث، فنظر العزيز إلى جَماله، وأمره أن ينزِعَ ثيابه، وقعد العزيز منه مكان الفاحشة؛ فأدركه التوفيق ونهَض مُسرعاً إلى بعض سراريه فقضى وَطَرَه، وخرج إلى الغلام وأمره بالخروج عنه». اِنتهى.

ويُحكى عن عفّته عن الأموال: أنّ عَرَب المحلّة قتلوا بعضَ أمرائه، وكان والي المحلة آبنَ بَهْرَام، فجباهم عشرةَ آلاف دينار، وجاء بها إلى القاهرة؛ فصادف في الدِّهْلِيز غلاماً خارجاً من عند السلطان؛ فقال آبنُ بَهْرام: آرجع إلى السلطان وآستأذِنْه لي؛ فقال الغلام: دعني، أنا في أمرٍ مُهِمٍّ للسلطان، قد وهب لشيخ صيّاد

(١) النجاب: هو حامل البريد.

دينارين، وقد سيّرني إلى الجهات كلِّها فلم أجد فيها شيئاً، وقد تعذّر عليه هذا المبلغ اليسير؛ فقال: اِرجع إليه، معي مالٌ عظيم. فلمّا دخل آبن بَهْرام إلى العزيز فضّ المالَ بين يديه وقال: هذا دِيَةَ فلان؛ فقال: أخذتَها من القاتل؟ قال: لا، بل من القبيلة؛ فقال العزيز: لا أستجيز أخذَه، رُدّه على أربابه، فراجعه فآكفهرّ؛ فخرج آبنُ بَهْرام بالمال وهو يقول: ما يَرُدُّ هذا مع شدّة الحاجة إلّا مجنون!. فرحم الله هذه الشِّيَم. اِنتهت ترجمة الملك العزيز من عِدّة أقوال. رحمه الله تعالى وعفا عنه وعن جميع المسلمين والحمد لله رب العالمين.

* * *

السنة الأولى من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، على أنّ والده السلطان صلاح الدين يوسف حكم منها المحرّم وصفراً.

فيها كانت وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب حسب ما تقدّم ذكره في ترجمته.

وفيها تُوفّي الأمير بُكْتُمُر [بن عبد الله مملوك][1] شاه أرمن. وعزّ الدين صاحب المَوْصِل كما سيأتي.

وفيها بَنى الخليفة الناصر لدين الله العبّاسيّ دار الكتب بالمدرسة النظاميّة ببغداد، ونقل إليها عشرة آلاف مجلد، فيها الخطوط المنسوبة وغيرها.

وفيها تُوُفّي أسعد بن نصر بن أسعد النحويّ؛ كان إماماً فاضلاً أديباً شاعراً. ومن شعره قوله: [الخفيف]

يجمع المرءُ ثم يترك ما جَمَّـ ـعَ مِن كسبِـهِ لِغيـرِ شَكُـور
ليس يَحْظَى إلّا بذكر جميلٍ أو بعلمٍ من بعده مأثور

(١) زيادة عما سيأتي.

وفيها توفّي الأمير بُكْتُمُر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سُكْمان صاحِب خِلاط؛ مات شاه أرمن ولم يخلّف ولداً، فآتّفق خواصه على بُكْتُمر فولّي، وضبَط الأمور وأحسن للرعيّة، وصاحَب العلماء؛ وكان حسن السِّيرة متصدِّقاً ديّناً صالحاً؛ جاءه أربعة على زِيّ الصوفيّة فتقدّم إليه واحد منهم فمنعه الجانداريّة[١]. فقال: دعوه، فتقدّم وبيده قِصّة فأخذها منه، فضربه بسكّين في جوفه فمات في ساعته. فأخذوا الأربعة وقُرِّروا، فقالوا: نحن إسماعيلية؛ فقُتِلوا وأحْـرِقوا؛ وذلك في جُمادَى الأولى.

وفيها تُوُفّي السلطان مسعود بن مَوْدُود بن زَنْكِي بن آق سُنْقُر عِزّ الدِّين صاحب المَوْصِل وآبن أخي السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. كان خفيفَ العارضَيْن أسمرَ مليحَ اللَّون، عادلاً عاقلاً محسناً إلى الرعيّة شجاعاً؛ صبرَ على حِصار السلطان صلاح الدين يوسف بن أيُّوب له بالموصل ثلاثَ مرّات، وحَفِظ البلد وفرّق الأموال العظيمة. وكان ديّناً صالحاً؛ خرج من الموصل لقتال الملك العادل أبـي بكر ابن أيُّوب، وكان العادل على حَرَّان بعد موت صلاح الدين. فعاد مريضاً ومات في شهر رمضان؛ وكانت أيّامه ثلاثَ عشرةَ[٢] سنة وستّة أشهر. وأوصى بالمُلْك من بعده لولده الأكبر نور الدين أَرْسلان شاه، وكان أخوه شرف الدين مَوْدُود يروم السلطنة، فصُرِفت عنه لنور الدين هذا فعزّ ذلك عليه.

الذين ذكر الـذهبـيّ وفَاتَهم في هـذه السنة، قـال: وفيها تـوفّي الشيـخ سِنان[٣] بن سليمان البَصْريّ زعيم الإسماعيليّة. وأبو منصور عبد الله بن محمد [بن عليّ بن هبة الله][٤] ابن عبد السلام الكاتب. والقـاضي أبو عبـد الله محمد بن عبد الرحمن الحَضرَميّ بالإسْكَنْدرِيّة. وصاحب المَوْصِل عِزّ الدين مسعود بن قطب

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية. وهي مركبة من لفظين فارسيين أحدهما «جان» ومعناه سلاح، والثاني «دار» ومعناه ممسك. ووظيفة الجاندار أنه يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان. (صبح الأعشى: ٤/٢).

(٢) في الأصل: «ثلاثاً وعشرين سنة» والتصحيح عن معجم زامباور والبداية والنهاية.

(٣) ذكر المؤلف وفاته في السنة الماضية.

(٤) زيادة عن الذهبي.

الدين مَوْدُود بن زَنْكِي. والمكرم بن هبة الله بن المكرم الصُّوفيّ. والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بـن أيّوب في صفر بقلعة دمشق، وله سبـع وخمسون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستُّ أذرع وثلاثُ أصابـع. مبلـغ الزيادة ثمانيَ عشرةَ ذراعاً وثماني أصابـع.

* * *

السنة الثانية من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة تسعين وخمسمائة.

فيها تُوُفّي أحمد بن إسماعيل بن يوسف الشيخ الإمام أبو الخير القزوِينيّ الشافعيّ. كان إماماً عالماً بالتفسير والفقه، وكان متعبِّداً يَخْتِم القرآنَ في كلّ يوم وليلة. ومولده بقَزْوِين في سنة آثنتي عشرة وخمسمائة. وقدِم بغدادَ ووعَظ ومال إلى الأشعريّ، فوقعت الفِتَنُ. وجلس يوم عاشوراء في النظامية فقيل له: اِلعن يزيد بن معاوية؛ فقال: ذاك إمام مجتهد، فجاءه الرَّجْم حتّى كاد يُقتل، وسقط عن المنبر فأدخل إلى بيت في النظاميّة، وأُخِذت فتاوى الفقهاء بتعزيره؛ فقال بعضهم يُضرب عشرين سَوْطاً: قيل له: من أين لك هذا. فقال: عن عمر بـن عبد العزيز، سَمِـع قائلاً يقول: أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فضربه عشرين سوطـاً. ثم خُلّص القزوينيّ بعد ذلك وأخرج من بغداد إلى قَزْوِين.

وفيها توفي السلطان طُغْرُلْبَك شاه بن أرسلان شاه بن طُغْرِل شاه بن محمد بن مَلِكْشَاه بن أَلْب أَرْسَلان بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق السَّلجُوقيّ آخر ملوك السَّلْجُوقيّة بالعراق سوى صاحب الروم. وكان مبدأ أمره ـ عند وفاة والده ـ سنة ثلاث[1] وسبعين وخمسمائة، وكان صغير السّنّ فكَفَله البهلوان[2] إلى أن مات في سنة آثنتين

---

(١) كذا في ابن الأثير. وفي الأصل: «سنة إحدى وسبعين».

(٢) هو محمد بن إلدكز شمس الدين صاحب بلاد الجبل والري وأصفهان وأذربيجان (ابن الأثير).

وثمانين، فكَفَله بعده أخوه[١] البهلوان لأبيه حتّى أَنِف من الْحَجْر وخرج عن يده، وآنضاف إليه جماعةٌ من الأمراء، وكسَر عسكر الخليفة وأَسَرَ آبن يونس [٢] وهابته الملوك. وكان طُغْرُلْبَك هذا سَفّاكاً للدماء، قَتَل وزيره رَضِيّ الدين الغَزْنَوِيّ، وفخر الدين العَلَوِيّ رئيس هَمَذان. ثم وقـع له أمور ومِحَنٌ وأخِذ وحُبِس. وقد تقدّم أن طُغْرُلْبَك هذا آخر ملوك السَّلْجُوقِيّة، وعِدّتُهم نيّف وعشرون ملِكاً، ومدّة مُلْكهم مائة وستون سنة. وأوّل مَن ملك منهم طُغرلْبَك في سنة آثنتين وثلاثين[٣] وأربعمائة؛ ثم أَلْب أَرْسلان بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق بن دُقْماق، وهو آبن أخي طُغْرلْبَك؛ ثم بعده ولده مِلِكشاه؛ ثم ولده محمود؛ ثم أخوه بَرْكْيارُوق؛ ثم أخوه محمد شاه؛ ثم ولده محمود؛ ثم واحد بعد واحد. حسب ما ذكرناهم في هذا الكتاب كلّ واحد في محلّه. وطغريلبك (بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وبعدها ياء ولام ساكنتان). وهو آسم باللغة التركيّة لطائر معروف عِندهم. وبَك: هو الأمير، واضـح لا يحتاج إلى تفسير.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي العلّامة رَضِيّ الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل الطَّالَقَانِيّ القَزْوِينيّ الشافعيّ الواعظ في المحرّم، وله ثمان وثمانون سنة. وطُغْرُلْبَك شاه السلطان آبن أَرْسلان بن طُغْرِل بن محمد بن ملكْشـاه السَّلْجُوقيّ؛ قتله [في] المصـاف خُوَارَزْم شـاه تُكُش. وأبـو المـظفّـر عبد الخالق بن فَيْرُوز الجَوْهَرِيّ. والإمام أبو محمد القـاسم بن فِيُّره[٤] الـرُّعيني الشّاطِبِيّ المقرىء في جمادى الآخرة، ولـه آثنتان وخمسـون سنة. والحـافظ محمـد بن إبراهيم بن خَلفَ المـالِقِيّ أبو عبـد الله بن الفَخّار بمَـرَّاكُش. والفخر محمد بن عليّ بن شُعَيْب بن الدّهّان الأديب المؤرخ فَجْأة بالحِلّة.

أمر النيل في هذه السنة:

(١) هو قزل أرسلان عثمان بن إلدكز (ابن الأثير).

(٢) هو وزير الخليفة الناصر لدين الله، كما سيذكر المؤلف في وفيات سنة ٥٩٣هـ.

(٣) في الأصل: «سنة اثنتين وأربعين» وما أثبتناه عن زامباور.

(٤) ضبطـه ابن خلكان بالعبارة، قال: «بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وتشديد الراء وضمها».

الماء القديم ست أذرع وخمس أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة إحدى وتسعين وخمسمائة.

فيها أقطع الملك العزيز فارسَ الدين ميمون القَصْريّ نابُلُسَ في سبعمائة فارس من مُقَاتِلة[١] الفرنج.

وفيها كانت وقعة الزَّلَّاقة[٢] بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين أَلْفَنَش الفرنجيّ ملك طُلَيْطُلَة[٣]، وكان قد آستولى على جزيرة الأندلس وقهر وُلاتَها، ويعقوب المذكور مشغول بقتال الخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زُقاقُ[٤] سَبْتَة، وعرضه ثلاثُ فراسخ، فجمع يعقوبُ العساكرَ وعَرَضَ جنده، وكانوا مائتي ألف [مقاتل: مائة ألف][٥] يأكلون الأرزاق، ومائة ألف مُطَّوِّعة، وعبرَ الزُّقاقَ إلى مكان يقال له الزَّلَّاقة[٦]؛ وآلتقَوْا فجرى بينهم قتال لم يجر في جاهلية ولا إسلام حتّى أنزل الله نصرَه على المسلمين. فوَلَّى أَلْفَنَش هارباً في نفريسير إلى طُلَيطلة، وغنِم المسلمون ماكان في عسكره. وكان عِدّة من قُتِل من الفرنج مائة[٧] ألف وستة

(١) في الأصل: «في مقابلة». والتصحيح من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.
(٢) هذا خطأ. وصوابه «وقعة الأرك» (Alarcos). أما وقعة الزلّاقة الشهيرة فقد حدثت سنة ٤٧٩هـ بين عظيم الجلالقة الأذفونش بن فرذلند (ألفونسو بن فرنادندو الأول ملك ليون) ويعرف بألفونسو السادس. ويكرر أبو المحاسن هذا الخطأ مرتين أيضاً: في السنة التالية وهي سنة ٥٩٢هـ وعند ذكره لوفاة يعقوب المنصور في حوادث سنة ٥٩٥هـ. (انظر الحلة السيراء: ١٤٢/٢، والروض المعطار: ٢٧).
(٣) في الروض المعطار: «ملك قشتالة».
(٤) أي مضيق سبتة.
(٥) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.
(٦) كما أشرنا سابقاً أن تلك الوقعة كانت عند حصن الأرك Alarcos، ويسمى اليوم: Santa Maria de Alarcos، وهو حصن منيع بمقربة من قلعة رباح أول حصون أذفونش بالأندلس. (الروض المعطار).
(٧) في الروض المعطار أن قتلى الفرنج بلغ زهاء ثلاثين ألفاً، واستشهد من المسلمين دون الخمسمائة.

وأربعين ألفاً، وعِدّة الأسَارى ثلاثين ألفاً؛ ومن الخيام: مائة ألف خَيْمة وخمسين ألفاً؛ ومن الخيل ثمانين ألفاً؛ ومن البغال والأموال والجواهر والثياب ما لا يُحَدُّ ولا يُحْصَى. وبيع الأسير من الفرنج بدرهم؛ والسيف بنصف درهم، والحِصان بخمسة دراهم، والحِمار بدرهم. وقسم الملك يعقوب هذه الغنائمَ بين المسلمين على مقتضى الشريعة، فآستَغْنَوْا إلى الأبد. ووصل أَلْفَنْش إلى طُلَيْطُلَة على أقبح وجه، فحلَق رأسَه ولحيتَه، ونكّس صليبَه وآلى أنّه لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرساً حتّى يأخذ بالثأر.

وفيها آعتنى الخليفة الناصر لدين الله العباسيّ بَحَمَام البِطَاقة[١] آعتناء زائداً، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر أنّه من ولد الطير الفلانيّ؛ وقيل: إنّه باع طيراً بألف دينار.

وفيها حجّ بالناس من بغداد سِنْجَر الناصريّ، ومن الشام سَرَا سُنْقُر وأَيْبَك فُطَيْس الصلاحيّان، ومن مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفريّ الطالبيّ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال. وفيها تُوُفّي أبو القاسم ذاكر بن كامل الخَفّاف. والفقيه أبو محمد عبد الله الزاهد آبن محمد بن عليّ الأندلسيّ في المحرّم عن بضع وثمانين سنة. وأبو الحسن[٢] نَجَبة بن يحيى [بن خَلَف][٢] بن نَجَبَة الإشْبِيليّ المقرىء النحويّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

(١) أي الحمام الرسائلي الذي يحمل الرسائل.

(٢) في الأصل: «أبو المحاسن» والتصحيح والزيادة من طبعة دار الكتب عن غاية النهاية وبغية الوعاة وتكملة الصلة.

السنة الرابعة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة.

فيها بعد خروج الحاجّ من مكّة هَبّت ريحٌ سوداءُ عمّت الدنيا، ووقع على الناس رَمْل أحمر، ووقع من الركن اليمانيّ قطعة، وتحرك البيت الحرام مراراً. وهذا شيء لم يُعهد منذ بناه عبد الله بن الزُّبَيْر ــ رضي الله عنهما ــ.

وفيها أيضاً كانت الوقعة الثانية بين السلطان يعقوب وبين أَلْفَنْش ملك الفرنج بعد أن حشد أَلْفَنْش جمعاً كبيراً وآلْتَقَوْا، فكان بينهم قتلة عظيمة؛ ونصر الله المسلمين. وهزمه يعقوب وتَبِعه وحصره على الزَّلَّاقة[1] وبُطلَيْطُلَة ونصب عليها المجانيق وضيّق عليها، ولم يبق إلّا أخذُها. فخرجت إليه والدة[2] أَلْفَنْش وبناته ونساؤه وبَكَيْنَ بين يديه، وسألنه إبقاءَ البلد عليهنّ، فرقَّ لهنّ ومنّ عليهنّ بها، ولو فتح طُلَيْطُلَة لفتح إلى مدينة النُّحاس. ثم عاد يعقوب إلى قرطبة فأقام بها شهراً يقسم الغنائم، وجاءته رسل أَلْفَنْش أيضاً تسأل الصلح، فصالحه على مدّة معيّنة.

وفيها تُوُفّي محمد بن عليّ بن أحمد، الوزير أبو الفضل مؤيّد الدِّين بن القَصّاب. أصله من شِيراز، وقَدِم بغداد وآسْتُخْدِم في الديوان، ثم ترقى إلى أن ولي الوزارة وقرأ الأدب والنحو. وكان داهية رديء الاعتقاد إلّا أنّه كان له خِبْرَة بالأمور والحروب وفَتْحِ البلاد؛ وكان الخليفة الناصر لدين الله يُثْنِي عليه ويقول: لو قبلوا من رأيه ما جرى ما جرى، ولقد أتْعِب الوزراء من بعده.

وفيها تُوُفّي محمد بن عليّ بن شُعَيْب، الشيخ أبو شجاع الفَرَضِيّ الحاسب البغدادي المعروف بابن الدّهان. كان فاضلاً عالماً وصنّف تاريخاً من عشر وخمسمائة إلى اثنتين وتسعين وخمسمائة.

وفيها تُوُفّي محمد بن عليّ بن فارس الشيخ أبو الغنائم [المعروف[3] بـ] ـابن

---

(١) راجع ص ١٢٣ حاشية (٢).

(٢) في الأصل: «فخرج إليه ولد ألفنش» وما أثبتناه عن الشذرات.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

المعلّم الهُرْثِيّ الشاعر المشهور. وهُرْثُ: قرية تحت واسط. كان رقيقَ الشعر، لطيفَ المعاني، وله ديوان شعر. ومن شعره القصيدة التي أوّلها: [الرمل]

لو قَضَى من أهل نجدٍ أَرَبَهْ ... لم يَهِجْ نشرُ الخُزَامَى طَرَبَهْ
علّلوا الصبَّ بأنفاس الصَّبَا ... إنّها تَشْفِي النفوسَ الوَصِبَهْ
فهي إن مرّتْ عليه نشرتْ ... ما آنطوى عنه وجلّت كُرَبَهْ
كَلَفِي فيكم قديمٌ عهدُهُ ... ما صباباتي بكم مكتسَبَهْ
أين وُرْقُ الجِزْعِ مَنْ لي أن أَرَى ... عُجْمَه إن لم أشاهد عَرَبَهْ

ومنها:

عن جفُوني النومَ مَن بَعّدَهُ ... وإلى جسمِي الضَّنَا مَن قرّبَهْ
وصِلوا الطَّيْفَ إذا لم تصلوا ... مستهاماً قد قطعتُم سَبَبَهْ
وإلى أن تُحسنُوا صُنْعاً بنا ... قد أساء الحبُّ فينا أَدَبَهْ

وهي أطول من هذا.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي المحدِّث أبو الرِّضا أحمد بن طارق الكَرْكيّ في ذي الحجّة ببغداد. وعبد الخالق بن عبد الوهّاب بن محمد المَالِكيّ الصابونيّ الخَفّاف. وأبو الغنائم محمد بن عليّ بن فارس [المعروف بـ]ـابن المعلّم الواسطيّ شاعر العراق عن إحدى وتسعين سنة. والوزير مؤيّد الدِّين محمد بن عليّ بن القَصَّاب. والعلّامة مُجِير الدين محمود بن المبارك البغداديّ الشافعيّ عن خمس وسبعين سنة. ويوسف بن معالي الكَتّانيّ المقرىء بدمشق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وست وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

فيها قَدِم حُسام الدِّين أبو الهَيْجاء السَّمِين بغداد وخرج الموكِب للقائه، ودخل أبو الهيجاء في زِيّ عظيم [و] رتَّب الأطلاب على ترتيب أهل الشام، وكان في خدمته عدّة من الأمراء؛ وأوّل ما تقدّم من الأمراء طُلب آبن أخيه المعروف بكور الغرس ثم أمير أمير؛ وجاء هو بعد الكلّ في العُدّة الكاملة والسلاح التامّ، وخرج أيضاً أهل بغداد للقائه، وكان رأسه صغيراً وبطنه كبيراً جدّاً، بحيث كان بطنه على رقبة البغلة؛ فرآه رجل كَوّاز فعمِل في الساعة كوزاً من طِين على هيئته، وسبقه فعلّقه في السوق؛ فلمّا آجتاز به ضَحِك. ثم عَمِل بعد ذلك أهلُ بغداد كِيزاناً سمّوْها: أبا الهيجاء. وأكرمه الخليفة وأقام له بالضِّيَافات.

قلت: أبو الهيجاء هذا هو الذي عَزَله الملك العزيز هذا عن نيابة القُدْس بجُردِيك في أوائل أمره. حسب ما تقدّم ذكره في ترجمة العزيز.

وفيها توفِّي الأمير طُغْتِكِين بن أيّوب أخو السلطان صلاح الدين بن أيوب، ولَقَبُه سيف الإسلام. كان والي اليمن، ملَكها من زَبِيد إلى حَضْرَمَوْت؛ وكان شجاعاً مِقداماً شهماً. وتُوُفّي بِزَبِيد. ووَلِي اليمن بعده ولده شمس الملوك إسماعيل وآدَّعى الخلافة.

وفيها تُوُفّي عبد الله بن منصور بن عِمْران الشيخ أبو بكر الباقِلّانِيّ. ومولده في سنة خمسمائة. وآنفرد بالرِّواية في القراءات العشر، وكان حسنَ التلاوة. وقدِم بغداد ومات بواسِط في سَلْخ شهر ربيع الآخر.

وفيها تُوفّي عُبَيْد الله بن يونس بن أحمد الوزير جلال الدين أبو المظفَّر الحَنْبَلِيّ، وَلِيَ حِجَابةَ الديوان ثم آستوزره الخليفة؛ وكان إماماً عالماً في الأصلين والحساب والهندسة والجبر والمقابلة، غير أنّه شان أمره بأمور فعلها، منها: أنّه

أخرب بيت الشيخ عبد القادر [الجِيلانيّ][١] وشتَّت أولادَه، ويقال: إنّه بعث في الليل من نَبَشَ على الشيخ عبد القادر وَرَمى بعظامه في اللّجة، وقال: هذا وقف ما يحلّ أن يـدْفَن فيه أحد.

قلت: وما فعله هو بعظام الشيخ أقبحُ من أن يُدْفَن بعضُ المسلمين في بعض أوقاف المسلمين، وما ذاك إلاّ الحسدُ داخله من الشيخ عبد القادر وعِظَمُ شهرته حتّى وقـع منه ما وقـع؛ ولهذا كان موته على أقبـح وجهٍ، بعد أن قاسَى خطوباً ومِحناً وحُبِس سنين، حتى أخرِج من الحبس ميتاً؛ وهذا ما وقـع له في الدنيا، وأمّا الأُخرى فأمره إلى الله تعالى. وبالجملة فإنّه كان من مساوىء الدهر.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي سيفُ الإسلام طُغْتِكِين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن في شوّال، وولى بعده آبنه إسماعيل. ومقرىء العراق أبو عبد الله بن منصور الرَّبَعِي الباقِلانِيّ بواسط في شهر ربيـع الأول عن ثلاث وتسعين سنة. والوزير جـلال الدين عبيـد اللّه بن يـونس، مات في المَطْمُورَة[٢]. وعذْرَاءُ بنت شَاهِنْشَاه بن أيّوب ودُفِنت بالعَذْرَاوِيّة[٣]. وقاضي القضاة أبو طالب عليّ بن عليّ بن أبـي البركات البُخارِيّ الشافعيّ ببغداد. وأبو المُعَمَّـر محمـد بـن حَيْدرة بن عمـر بن إبراهيم العَلَوِيّ الـزَّيْديّ الـرافضيّ. وأبو الفتـح الأصبَهانيّ ناصر الدين بن محمد الوترح في ذي الحجة. وأبو القاسم يحيـى بن أسعد بن بَوْش الخَبّاز في ذي القعدة، غُصَّ بلقمة، وعاش بضعاً وثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وخمس وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) المطمورة: بلد في ثغور بلاد الروم بناحية طرسوس (معجم البلدان).

(٣) أي التربة التي بالعذراوية. وفيها المدرسة العذراوية، وهي التي بنتها الست عذراء بنت شاهنشاه أخي صلاح الدين. وهي بحارة الغرباء بدمشق داخل باب النصر المسمى بباب دار السعادة. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/ ٢٨٣).

السنة السادسة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

فيها تُوفّي الأمير جُرْدِيك بن عبد الله النُّوريّ. كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين محمود الشهيد؛ ثم خدَم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في جميع غزواته وحروبه من يوم قتَل شاوَر بمصر وآبنَ الخَشّاب بحلب. وكان أميراً شجاعاً مَهِيباً جَوَاداً؛ ولّاه صلاح الدين نيابة القُدْس إلى أن أخذها منه الأفضل.

وفيها توفي زَنْكِي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر عماد الدين صاحب سِنجار، وآبن أخي نور الدين الشهيد. كان عاقلاً جَوَاداً لم يزل مع السلطان صلاح الدين؛ وكان السلطان صلاح الدين يحترمه مثل ما كان يحترم نور الدين، ويعطيه الأموال والهدايا، وكانت وفاته بسِنْجار. ولمّا آحْتُضِر أوصى إلى أكبر أولاده قطب الدين محمد، ولُقِّبَ بالملك المنصور.

وفيها تُوُفّي قَيْماز بن عبد الله مجاهد الدين الخادم الروميّ الحاكم على المَوْصِل، وهو الذي بنى الجامع المجاهديّ والمدرسة والرِّباط والبِيمارِسْتَان بظاهر الموصل على دِجلة ووقف عليها الأوقاف. وكان عليه رواتب بحيث إنّه لم يدع [بالموصل بيتَ][1] فقيرٍ إلّا أغنى أهله؛ وكان ديّناً صالحاً عابداً عادلاً كريماً، يتصدّق كلّ يوم خارجاً عن الرواتب بمائة دينار. ولمّا مات عزّ الدين مسعود وولي آبنه أرْسلان شاه حَبَس قيماز هذا وضيّق عليه وآذاه إلى أن مات في حبسه.

وفيها تُوفّي يحيى بن سعيد بن هبة الله العلّامة أبو طالب قِوام الدِّين الشَّيْباني المنشىء الكاتب الواسطيّ الأصل، البغداديّ المولد والدار والوفاة. مولده في سنة آثنتين وعشرين وخمسمائة. وآشتغل بالأدب وبَرَع في الإنشاء وفنون من العلوم كالفقه وعلم الكلام والأصول والحساب والشعر، وجالس أبا منصور بن الجَوَاليقيّ وقرأ عليه، وسمع أبا القاسم بن الصائغ وغيرَه؛ وولي للخليفة عدّةَ خِدَم: حِجْبَة

(١) زيادة عن الشذرات.

الباب، ثم الأستادارية، ثم كتابة الإنشاء آخر عمرِه ومات في ذي الحجّة. ومن شعره ــ وأحسن فيما قال ــ: [الخفيف]

بآضطراب الزمان ترتفع الأنـ ـذالُ فيه حتى يعمّ البلاءُ
وكذا الماءُ ساكناً فإذا حُـرِّك ثارت من قعره الأقذاءُ

قلت: وفي هذين البيتين شرح حال زماننا هذا لكثرة من ترقّى فيه من الأوباش إلى الرُّتَب السنية من كلّ طائفة؛ وقد أذكرني ذلك واقعة جرت في أوّل سلطنة الملك الأشرف إينال[1]، وهي أنّ بعض أوباش الخاصكيّة ممّن ليس له ذات ولا أدوات وقف إلى السلطان وطلب منه إمْرة عشرة، وقال له: يا مولانا السلطان، إمّا أن تُنْعِم عليّ بإمرة عشرة وإلّا وَسِّطْنِي هنا؛ وقيل: إنّه تمدّد ونام بين يديه حتّى أخذ إمرة عشرة؛ وهو معروف لا يحتاج إلى تسميته. ومن هذه المقولة شيء كثير، ومع ذلك خرج الزمان وللدولة أعيان، فلا قوّة إلّا بالله.

وفيها تُوُفّي أبو الهَيْجاء السَّمِين الأميرُ حُسام الدين الكُرْدِيّ المقدَّم ذكرُه في عدّة أماكن، وذكرنا أيضاً دخوله إلى بغداد، وأنّه صار من جملة أمراء الخليفة حتى سيّره إلى هَمَذَان، فلم يتمّ له أمر، وآختلف أصحابه عليه فآستحيا أن يعود إلى بغداد، فسار إلى الشام ومرِض بها ومات بعد أيّام. وكان أميراً شجاعاً مِقداماً عارفاً متجمّلاً سَيُوساً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبعان.

(١) حكم من سنة ٨٥٧هـ إلى سنة ٨٦٤هـ.

ذكر سلطنة الملك المنصور محمد[١] على مصر

إختلف المؤرّخون فيمَن ولي مُلك مصر بعد موت الملك العزيز عثمان آبن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب. فمن الناس مَن قال: أخوه الأفضل نور الدين عليّ بن صلاح الدين يوسف بن أيّوب؛ ومنهم مَن قال: ولده الملك المنصور محمد هذا. والصواب المقالة الثانية، فإنّه كان ولّاه والدُه العزيز من بعده، وإليه أوصى العزيزُ بالمُلك؛ وأيضاً ممّا يُقوّي المقالة الثانية أنّ المنصور كان تحت كَنَف والده العزيز بمصر، وكان الأفضل بصَرْخَد، ولم يحضُر إلى مصر، حتّى تمّ أمر المنصور وتسلطن بعد موت أبيه. وبيان ذلك أيضاً يأتي فيما نذكره الآن في سياق ترجمة الملك المنصور، فيُعرف بهذا السياق مَن كان في هذه المدّة السلطان بمصر إلى حين ملك المَلِك العادل أبو بكر بن أيّوب؛ فنقول:

لما مات الملك العزيز عثمان بديار مصر في العشرين من المحرّم أوصى بالمُلك لأكبر أولاده وهو ناصر الدين محمد المذكور، ونَصَّ عليه في الوصيّة؛ وكان للعزيز عشرة[٢] أولاد، ولم يذكر في الوصيّة عمّه العادل؛ وجعل وصيّـه الأمير أُزْكُش[٣] مقدّم الأسديّة.

---

(١) أخباره وترجمته في: مفرج الكروب: ٨٧/٣، والسلوك: ١٧٦/١، وشفاء القلوب: ٣٤٠، وبدائع الزهور: ٢٥٢/١، وخطط المقريزي: ٢٣٥/٢، والبداية والنهاية: ٢٠/١٣، وابن الأثير: أخبار سنتي ٥٩٥و٥٩٦هـ، ومعجم زامباور: ١٥٠.

(٢) في شفاء القلوب: ص ٢٥٠ أنه خلّف من الأولاد أحد عشر هم: المنصور محمد، وعلي وعمر وإبراهيم، وعيسى، ومحمود، وفرخشاه، ويوسف، ويونس، وأخوان صغيران؛ وخلّف ثلاث إناث.

(٣) في السلوك للمقريزي أن والده العزيز عثمان أوصى أن يكون مدبر أمر ابنه الأمير بهاء الدين قراقوش، فأُجلس على سرير الملك في غد وفاة أبيه وجُعل قراقوش أتابكاً.

قال أبو المظفّر سِبط ٱبن الجَوْزِيّ في تاريخه: «كان لابنه محمد عشر سنين وكان مقدَّمُ الصلاحيّة فخرَ الدين جِهَارَكْس، وأسد الدين سَرَا سُنْقُر، وزَيْن الدين قراجا؛ فٱتّفقوا على ناصر الدين محمد وحلّفوا له الأمراء؛ وكان سيف الدين أُزْكُش مقدّمُ الأسديّة غائباً بأُسْوَان، فقدِم وصوّب رأيهم وما فعلوه، إلّا أنّه قال: هو صغير السن لا يَنْهَض بأعباء المُلك، ولا بدّ من تدبيرٍ كبيرٍ يَحْسِم الموادّ ويُقيم الأمور، والعادل مشغول في الشرق بمَارِدِين، وما ثَمَّ أقرب من الأفضل نجعله أَتَابَك[1] العساكر، فلم يمكن الصلاحيّة مخالفة الأسديّة وقالوا: ٱفعلوا ففعلوا. فكتب أزْكُش إلى الأفضل يَستدعيه وهو بصَرْخَد. وكتبت الصلاحيّة إلى مَنْ بدمشق من أصحابهم يقولون: قد ٱتّفقت الأسديّة على الأفضل، وإنْ مَلَك الأفضل الديار المصريّة حكموا علينا، فٱمنعوا الأفضل من المجيء؛ فركِب عسكر دِمَشق ليمنعوه ففاتهم؛ وكان الأفضل قد ٱلتقى النَّجّاب المتوجِّه إلى دِمشق ثانياً من قِبَل الصلاحيّة، وعلى يده الكُتُب التي تتضمّن ما ذكرناه من منع الأفضل من المجيء إلى الديار المصريّة، فأخذ الأفضل النَّجّاب وعاد به إلى مصر؛ ولمّا وصل الأفضل إلى مصر ٱلتقاه الأسديّة والصلاحيّة، ورأى جِهَارَكْس النَّجّاب الذي أرسله، فقال له: ما أسرعَ ما عُدتَ! فأخبره الخبرَ، فساق هو وقراجا بمَن معهما من وقتهما إلى القُدْس وتحصّنا به. فلمّا وقع ذلك أشارت الأسديّة على الأفضل بقَصْد دِمشق، وأنّ العادل مشغول بمَارِدِين. فكتب الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حَلَب يستنجده، فأجابه وقال: اقْدم حتّى أساعِدَك. فسار الأفضل بالعساكر المصرية إلى الشام وٱستناب بمصر سيفَ الدين أُزْكُش، ووصل الأفضل إلى دمشق في شعبان من السنة فأَحدق بها.

وبلغ هذا الخبرُ الملكَ العادلَ وهو على مَارِدِين، وقد أقام عليها عشرة أشهر،

---

(١) يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين، أولهما «أطا» بمعنى أب، و«بك» بمعنى أمير. وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ ــ ٤٨٥هـ) كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير من أمرائهم، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير. وكثيراً ما تزوج الأطابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيّه شبه أبوية. ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام. (السلوك: ١/١٧٧، حاشية؛ والألقاب الإسلامية: ١٢٢).

ولم يبقَ إلّا تسليمُها وصَعِدتْ أعلامُه على القلعة؛ فلمّا سَمِعوا بوفاة العزيز توقَّفُوا عن تسليمها؛ فرحل الملك العادلُ أبو بكر عنها، وترك على حصارها ولَدَه الكاملَ محمداً الآتي ذكره في سلاطين مصر ــ إن شاء الله تعالى ــ وسار العادل إلى نحو الشام فوصلها ومعه جماعة من الأمراء؛ وكان الأفضل نازلاً في المَيْدان الأخضر فأشار عليه جماعةٌ من الأمراء أن يتأخّر إلى مشهد القَدَم [حتى يصل الظاهر وصاحبُ حِمْص والأمراء][1].

ودخل العادلُ ومَن معه إلى دمشق، وجاء الظاهر بعسكر حلب، وجاء عسكر حَماة وحِمْص، وبِشَارة من بَانْيَاس، وعسكرُ الحصون، وسعدُ الدين مسعود صاحب صَفَد، وضايقوا دمشق وبها العادل، وكسروا باب السلامة[2]؛ وجاء آخرون إلى باب الفراديس[3]، وكان العادل في القلعة وقد آستأمن إليه جماعةٌ من المصريّين مثل آبن كهدان ومِثْقال الخادم وغيرهما. فلمّا بلغه أنّ آبن الحنبليّ وأخاه شهاب الدين وأصحابهما قد كسروا باب الفراديس ركب من وقته وخرج إليهم وجاء إلى جَيْرُون[4] والمجدُ أخو الفقيه عيسى قائم على فرسه يشرب الفُقَّاع[5]، ثم صاح العادل: يا فَعَلة يا صَنَعة إلى ها هنا! فلمّا سمعوا كلامه آنهزموا وخرجوا؛ فأغلق العادلُ بابَ السلامة، وجاء إلى باب الفراديس فوجدهم قد كسروا الأقفال بالمرْزَبّات؛ فقال: مَن فعل هذا؟ قالوا: الحنابلة؛ فسكت ولم يقُل شيئاً. وقال أبو المظفّر: وحَكَى لي المعظَّم عيسى ــ رحمه الله ــ قال: [لمّا][6] رَجَعْنا من باب الفراديس [و][6] وصلنا إلى باب مدرسة الحنابلة رُمِيَ على رأس أبي (يعني العادل) حُبُّ[7] الزَّيْت فأخطأه فوقع في رَقَبة الفرس فوقع ميتاً، فنزل أبي ورَكِب غيره ولم ينطق بكلمة، وجاء

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) باب السلامة: من أبواب دمشق إلى جهة الشمال.

(٣) باب الفراديس: شمالي دمشق أيضاً. منسوب إلى محلة كانت خارج الباب تسمى الفراديس.

(٤) جيرون: هي مدينة دمشق.

(٥) الفقّاع: شراب يتخذ من الشعير، مسكر.

(٦) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٧) أي جرّة الزيت.

جِهَارَكْس وقَرَاجا في اللّيل من جَبَل سَنِير[١] فدخلا دمشق. وأمّا المَوَاصِلة فساقوا على الكامل محمد فرحَّلُوه عن مَارِدين، فجاء أيضاً يَقْصِد دِمشق، وجمع التُّرْكُمان وغيرَهم.

وأمّا أمر دِمَشق فإنّه لمّا آشتدّ الحِصار عليها، وقطعوا أشجارها ومياهها الداخلة إليها، آنقطعت عن أهلها المِيرَةُ وضجُّوا، فبعث العادل إلى آبن أخيه الظاهر غازي صاحب حَلَب يقول له: أنا أُسَلِّم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان، وتكون دمشق لك لا للأفضل. فطَمِع الظاهر وأرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مصر فآثرني بدمشق، فقال الأفضل: دمشق لي من أبي، وإنّما أُخِذتْ منّي غَصْباً، فلا أُعطيها لأحد؛ فوقع الخُلْف بينهما ووقع التّباعُد، وخرجت السَّنَةُ على هذا.

ثمّ دخلت السنة السادسة والتسعون، والحِصار على دمشق. وكان أَتَابَك أَرْسلان شاه صاحب الموصل قد رَحَّل الكاملَ من مَارِدِين كما تقدّم ذكره. فقدِم الكامل دمشق ومعه خَلْق كثير من التُّرْكُمان وعسكر حَرّان والرُّهَا، فتأخّر الأفضل بالعساكر إلى عَقَبَة الشُّحُورَة[٢] في سابع عشر صفر. ووصل الكامل في تاسع عشره فنزل بجَوْسَق[٣] أبيه على الشرف[٤]، ثم رحل الأفضل إلى مَرْج الصُّفَّر[٥]، ورَحَل الظاهر إلى حلب، وأحرقوا ما عَجزوا عن حمله.

وسار الأفضل إلى مصر. وأحضر العادل بني الحنبليّ: الناصح وأخاه شهاب الدين وغيرهما، وكان الأفضل قد وعد الناصحَ بقضاء دمشق، والشهاب بالحِسْبَة، فقال لهم العادل: ما الذي دعاكم إلى كسر باب الفراديس، ومظاهرة

---

(١) جبل سنير: جبل بين حمص وبعلبك (معجم البلدان).

(٢)راجع ص ١١٠، حاشية (٣).

(٣) الجوسق: القصر.

(٤) الشرف: مكانان مرتفعان يطلّان على دمشق. أحدهما الشرف الأعلى والثاني الشرف الأدنى. وفي كل منهما عدة من المدارس والمساجد. (عن طبعة دار الكتب، ص ١٤٩، حاشية ــ وانظر الدارس في تاريخ المدارس: ١/١٢٦، ١٣٢، ٣٤٨، ٣٨٦) ويستعمل الاسم بصيغة التثنية فيقال: «الشرفين». (انظر السلوك: ١/١٧٩).

(٥) مرج الصفر: موضع بين دمشق والجولان (معجم البلدان).

أعدائي عليّ، وسفك دمي؟ فقال له الناصح: أخطأنا وما ثَمّ إلاّ عَفْو السلطان.
ــ ثم ساق أبو المظفّر كلاماً طويلاً محصوله العفو عن الحنابلة، إلى أن قال ــ:

وأمّا الأفضل فإنّه سار إلى مصر، فأرسل العادل وراءه[1] [أبا محمد] نجيب الدين إليه بالزَّبَدَانِيّ[2] يقول [له]: ترفّق، فأنا لك مثل الوالد، وعندي كلّ ما تريد. فقال الأفضل: قل له: إن صحّت مقاتلك فأبعدْ عنك أعدائي الصَّلاحيّة. وبلغ ذلك الصلاحيّةَ، فقالوا للعادل: إيش قعودنا هنا؟ قم بنا، وساروا خلف الأفضل مَرْحَلَةً مرحلة؛ فنزل الأفضل بلبيس ونزل العادل السائح[3]؛ فرجع الأفضل وضرب معهم المَصَافّ، وتقاتلوا فآنكسر الأفضل وتفرّق عنه أصحابه؛ ورَحَل إلى القاهرة وأغلق أبوابها. وجاء العادل فنزل البِرْكة[4]، ودخل سيفُ الدين أزْكُش بين العادل والأفضل، وآتّفقوا أن يعطيه العادلُ ميّافَارِقِين وجَبَلَ جُور[5] وديار بكر، ويأخذ منه مصر؛ فآتّفق الأمر على ذلك.

ورَحل الأفضل من مصر في شهر ربيع الآخر، ودخل العادل إلى القاهرة، وأحسن إلى أزْكُش، وقال للأفضل: جميعُ مَن كان معك كاتَبَني إلاّ سيفَ الدين أُزْكُش. ثمّ قدَّم العادلُ أُزْكُشَ المذكور وحكَّمه في البلاد، وردّ القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن دِرْباس الكُرْدِيّ، وولّى شيخَ الشيوخ آبن حَمويه التدريسَ بالشافعيّ ومَشْهَد الحُسَين والنَّظَر في خانقاه الصُّوفيّة، وجلس الوزير صفيّ الدين عبد الله بن عليّ بن شُكْر في دار السلطنة في حُجْرة القاضي الفاضل، ونظر في الدواوين. وسار الأفضل إلى مَيّافارِقين. وآستدعى العادلُ ولدَه الكاملَ إلى مصر فخرج من دمشق في ثالث عشرين شعبان وودّعه أخوه الملك المعظَّم عيسى

---

(١) في الأصل: «ولده». والتصحيح والزيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) الزبداني: كورة بين دمشق وبعلبك. ويمرّ فيها نهر الزبداني.

(٣) السائح: هذا الاسم كان يطلق على منطقة الأراضي الواقعة على جانبي الترعة السعيدية في المسافة الواقعة بين سوادة والصالحية بمركز فاقوس بمديرية الشرقية. (محمد رمزي).

(٤) أي بركة الحجاج. وقد سبق التعريف بها.

(٥) جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية. (معجم البلدان).

إلى رأس الماء[١]. قال العِمَاد الكاتب: وسرتُ معه إلى مصر وأنشدتُه: [البسيط]

دعتْك مصرُ إلى سلطانها فأَجِبْ   دعاءَها فهو حَقٌّ غيرُ مكذوبِ
قد كان يهضمني دهري فأدركني   محمدُ بن أبي بكر بن أيّوب

ووصل الكامل إلى مصر في عاشر شهر رمضان، وآلتقاه أبوه العادل من العَبّاسة[٢]، وأنزله في دار الوزارة. وكان قد زوّجه بنت أخيه صلاح الدين فدخل بها. ولم يقطع العادلُ الخطبة لولد العزيز.

قلت: وهذا ممّا يدلُّ أيضاً على أنّ الأفضل كان عند الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بمنزلة الأَتَابَك. والظاهر أنّه كان ظنُّ الأفضل إذا تَمّ أمره مع عمّه العادل هذا استقلّ بالمُلك، فلم يقع له ذلك؛ ولهذا لم نذكره في ملوك مصر، وما ذكرناه هنا إلاّ في ضمن ترجمة المنصور صاحب الترجمة.

قال: ثم إنّه جمع الفقهاء (يعني الملك العادل) وقال لهم: هل يجوز ولاية الصغير على الكبير؟ فقالوا: الصغير مولًى عليه. قال: فهل يجوز للكبير أن ينوب عن الصغير؟ قالوا: لا، لأنّ الولاية من الأصل إذا كانت غيرَ صحيحة فكيف تصحّ النيابة! فعند ذلك قطع خطبةَ آبنِ العزيز (يعني عن المنصور صاحب الترجمة) وخطب لنفسه ولولده الكامل من بعده[٣]. ونقَصَ النيلُ في هذه السنة ولم يبلغ ثلاث عشرة ذراعاً. ووقع الغلاء بديار مصر».

قلت: وعلى هذا يكون أوّل سلطنة العادل على مصر في يوم خُطِب له بمصر؛ وهو يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوّال سنة ست وتسعين وخمسمائة.

---

(١) رأس الماء: موضع بالقرب من حوران (ابن الأثير: ١٠/٢٦٥).

(٢) العبّاسة: قرية بين بلبيس والصالحية. وهي أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية. وسميت باسم العباسة بنت أحمد بن طولون، فإنها خرجت إلى هذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حملت إلى الخليفة المعتضد العباسي. وقد ضربت هناك فساطيطها، ثم بنيت هناك قرية فسميت باسمها. (خطط المقريزي: ٢/٢٣٢).

(٣) قارن بالسلوك: ١/١٨٣ باختلاف عما هنا.

قال آبن المُسْتَوْفِي[١] في تاريخ إرْبِل: فتكون أوّل سلطنة الملك العادل من هذا اليوم، ولا عِبْرَة بآستيلائه على مصر قبل ذلك. وعلى هذا أيضاً تكون مدّة الملك المنصور محمد صاحب الترجمة على سلطنة مصر سنة واحدة وتسعة أشهر سواء، فإنّ والده العزيز عثمان مات في عشرين المحرّم من سنة خمس وتسعين وخمسمائة فتسلطن من يوم موت أبيه، وخُلِع في العشرين من شوّال سنة ست وتسعين وخمسمائة. اِنتهى. ولم أقف على وفاته[٢] الآن.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور محمد آبن الملك العزيز عثمان آبن الملك الناصر يوسف على مصر

وهي سنة خمس وتسعين وخمسمائة؛ على أنّ الملك العزيز والدَه حَكَم منها نحو العشرين يوماً من المحرّم كما تقدّم ذكره.

فيها حجّ بالناس من بغداد مظفَّر الدين وجهُ السَّبُع.

وفيها كانت وفاة الملك العزيز عثمان حسب ما تقدّم ذكره في ترجمته.

وفيها تُوفِّي يحيى بن عليّ بن الفضل أبو القاسم بن فَضْلان مدرّس النِّظَاميّة؛ كان فقيهاً بارعاً؛ قدِم بغداد وناظر وأفتى ودرّس، وكان مقطوعَ اليد؛ وقع من الجمل فعمِلت عليه يده فخِيف عليه فقُطِعت. وكانت وفاته في شعبان. ومن شعره: ـ رحمه الله تعالى ـ: [الكامل]

وإذا أردت منازلَ الأشرافِ فعليك بالإسعاف والإنصافِ
وإذا بغى باغٍ عليك فَخَلِّهِ والدهرَ فهو له مُكافٍ كافِ

---

(١) هو أبو البركات المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب، شرف الدين المعروف بابن المستوفي الإربلي. توفي سنة ٦٣٧هـ. (وفيات الأعيان: ٤/١٤٧).

(٢) بعد أن خلعه العادل، أرسله إلى دمشق مع إخوته واخواته وأمهم، ومنها إلى الرها، فهربوا إلى حلب؛ ونشأ المنصور بها، وجعله صاحبها الملك الظاهر في جملة أمرائه. واستمر على حاله إلى أن توفي سنة ٦٢٠هـ. (الأعلام: ٦/٢٦١) وانظر السلوك: ١/١٨٤.

وفيها تُوفّي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملك المنصور أبو يوسف صاحب المغرب. كان مَلِكاً مُغازِياً مجاهداً، وهو الذي كَسَرَ أَلْفَنْش ملك الفرنج المقدّم ذكره على الزّلّاقة[1]، وهو أعظم ملوك المغرب وأحسنهم سِيرةً لِمَا كان جمع من المحاسن: الدِّين والصلاح والشجاعة والكرم والحزم والعزم، ودام في مُلكه إلى أن مات في شهر ربيع الأوّل بعد أن أوصى بالمُلك إلى ولده أبي عبد الله محمد. وكانت مدّة أيامه خمس عشرة سنة. وفيه يقول شاعره أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مُجِير الأَنْدَلُسِيّ المُرْسِيّ قصيدته المطوّلة، وعِدّة أبياتها مائة وسبعة أبيات. أوّلها: [المديد]

أتُراه يترُك الغَزَلا وعليه شَبّ وآكتهلا

ومدحه أيضاً إبراهيم بن يعقوب الشاعر المشهور بقصيدة طَنّانة أوّلها: [الوافر]

أزال حِجابَه عني وعيني تَراه من المهابة في حِجابِ
وقرّبَني تفضُّله ولكن بعُدتُ مهابةً عند آقترابي

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيّوب صاحب مصر في المحرّم، وله ثمان وعشرون سنة. والحفيد آبن رُشْد العلّامة أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي الوليد محمد بن أحمد بن رُشْد القُرْطُبِيّ المتكلّم. وأبو جعفر محمد بن إسماعيل الطَّرَسُوسِيّ بأصبهان في جمادى الآخرة. وأبو الحسن مسعود بن أبي مسعود[2] الأصبهانيّ الخيّاط الجمّال في شوّال. وأبو الفضل منصور بن أبي الحسن الطَّبَرِيّ الصوفيّ الواعظ. والعلّامة جَمال الدِّين يحيى بن عليّ بن فَضْلان البغداديّ الشافعيّ في شعبان. وصاحب المغرب المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن القَيْسِيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

(١) الصواب: «وقعة الأرك». راجع ص ١٢٣ من هذا الجزء، حاشية (٢) و (٦).
(٢) في الشذرات: «مسعود بن أبي منصور».

الماء القديم ثلاث أذرع وأربع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وستّ عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور محمد آبن الملك العزيز عثمان على مصر

على أنّه حكم في آخرها من شهر رمضان إلى آخر السنة عمُّ أبيه الملكُ العادلُ أبو بكر بن أيّوب؛ وهي سنة ستّ وتسعين وخمسمائة.

فيها تُوفِّي تُكُش بن أَرْسلان شاه بن آتسز[1] الملك علاء الدين خُوَارَزْم شاه؛ هو من ولد طاهر بن الحسين. كان شجاعاً مِقْداماً جوداً؛ مَلَك الدنيا من الصِّين والهند وما وراء النهر إلى خُراسان إلى باب بغداد، وكان نوّابه في حُلْوان، وكان في ديوانه مائة ألف مقاتل، وهو الذي أزال دولة بني سلجوق؛ وكان عارفاً بعلم المُوسِيقى؛ ولم يكن في زمانه أعرف منه بضرب العودُ، وكان يُباشر الحروب بنفسه حتّى ذهبتْ إحدى عينيه في الحرب؛ وكان قد عزم على أخذ بغداد وسار إليها؛ فلمّا وصل إلى دِهِسْتان تُوفِّي بها في شهر رمضان. ووقع له في مسيره إلى أخذ بغداد في هذه المرّة طريفة: وهو أنّ الباطنيّة جهّزوا إليه رجلاً ليقتلَه، وكان قويَّ الاحتراس، فجلس تلك الليلة يلعب بالعُود، وقد شَرَّع الخَيْمَةَ وغَنَّى بيتاً بالعجميّة، وفيه «بَبِيتَم» ومعناه بالعجميّ: أبصرتك؛ وكرّر هذه اللفظة؛ فلمّا سمع الباطنيّ ذلك خاف وظنّ أنه رآه فهرب، فأُخذ وحُمِل إليه فعزّره وأمر بقتله. فكان ذلك من الطرائف.

وفيها تُوفِّي إمام عصره ووحيد دهره، القاضي الفاضل عبد الرحيم آبن القاضي الأشرف أبي المجد[2] عليّ [آبن القاضي السعيد أبي محمد محمد][3] بن الحسن بن الحسين بن أحمد [بن المفرّج بن أحمد][3] اللَّخْمِيّ العَسْقَلانِيّ المولد،

---

(١) في الأصل: «أبر». وما أثبتناه عن معجم زامباور.

(٢) في الأصل: «أبي الحسن». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

المصريّ [الدار][١]، المعروف بالقاضي الفاضل الملقّب محيي[٢] الدين؛ وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

قال ابن خلّكان ــ رحمه الله ــ: «تمكّن منه غاية التمكّن (يعني من صلاح الدين) وبَرَزَ في صناعة الإنشاء وفاق المتقدِّمين، وله فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرني أحد الفضلاء الثِّقات المُطَّلِعين على حقيقة أمره أنّ مسودات رسائله في المجلّدات والتعليقات في الأوراق إذا جُمِعت ما تقصر عن مائة مجلد، وهو مجيد في أكثرها.

قال[٣] العِماد الكاتب الأصبهانيّ في كتاب الخَريدة في حقِّه: «ربّ القَلَم والبيان، واللَّسَن واللِّسان؛ والقريحة الوقَّادة، والبصيرة النقّادة؛ والبديهة المعجزة، والبديعة المطرّزة، والفضل الذي ما سُمِع في الأوائل بمن[٤] لو عاش في زمانه لتعلّق في غُباره، أو جرى في مِضْماره؛ فهو كالشريعة المحمّدية التي نسخَت الشرائع، ورَسَخَت بها الصنائع؛ يخترع الأفكار، ويفترِع الأبكار، ويُطلِعُ الأنوار، ويُبدِع الأزهار؛ وهو ضابط المُلك بآرائه، ورابط السلك بآلائه؛ إن شاء أنشأ في اليوم الواحد بل في الساعة، ما لو دُوِّن لكان لأهل الصناعة، خير بِضاعة[٥]» اِنتهى كلام العِماد بآختصار.

وقال غيره: وكان مع فضله كثيرَ العبادة تالياً للقرآن العزيز ديِّناً خيِّراً، وكان السلطان صلاح الدين يقول: لا تظنُّوا أنّي ملكتُ البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل. وكان بين الفاضل وبين الملك العادل أبي بكر بن أيّوب وَحْشة، فلمّا بلغ الفاضلَ مجيءُ العادل إلى مصر دعا الله على نفسه بالموت، فمات قبل دخوله. وقيل: إنّ العادل كان داخلاً من باب النصر، وجنازة الفاضل خارجة من باب زوِيلة. اِنتهى.

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في ابن خلكان: «مجير الدين».

(٣) يتابع المؤلف النقل عن ابن خلكان.

(٤) في الأصل: «من لو عاش». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٥) في الأصل: «لكان لأهل الصناعة كفاية» وما أثبتناه عن ابن خلكان. قارن أيضاً بالخريدة (قسم مصر): ٣٥/١.

قلت: وفضل الفاضل وبلاغته وفصاحته أشهر من أن يذكر. ومن شعره: قوله: [الكامل]

وإذا السعادة أحرسَتْكَ عيونَها نَمْ فالمخاوفُ كلُّهنّ أمانُ
وآصطدْ[1] بها العَنْقَاءَ فهي حبائلٌ وآقتد بها الجَوْزاء فهي عِنَانُ

وقد آستشهد علماءُ البدِيع بكثير من شعره في أنواع كثيرة، فمما ذكره الشيخ تقيّ[2] الدين أبو بكر بن حِجّة في شرح[3] بديعيّته في نوع «تجاهل العارف» قوله من قصيدة: [الوافر]

أهذِي كَفُّه أم غَوْثُ غَيْثٍ ولا بلغ السحابُ ولا كرامَهْ
وهذا بشرُه أم لَمْعُ بَرْقٍ ومَن للبرق فينا بالإقامهْ
وهذا الجيش أم صَرْفُ اللّيالي ولا سبقت حوادثها زِحامهْ
وهذا الدهر أم عبدٌ لديه يُصَرِّف عن عزيمته زِمامهْ
وهذا فِعْلُ[4] غِمْد أم هلالٌ إذا أمسى كنُونٍ أم قُلامهْ
وهذا التُّرْبُ أم خدٌّ لثمنا فآثار الشِّفاه عليه شامهْ

ومنها وهو غير تجاهل العارف [ولكنّه من المُرْقِص والمُطْرِب][5]: [الوافر]

وهذا الدرُّ منثورٌ ولكن أروني غيرَ أقلامِي نِظامَهْ
وهذي روضةٌ تندى وسطري بها غصنٌ وقافيتي حَمَامَهْ
وهذا الكأسُ رُوِّق من بَنَانِي وذكرُك كان من مسك ختامَهْ

وذكر أيضاً في «تجاهل العارف» قوله من قصيدة: [البسيط]

---

(١) في الأصل: «واصعد» وما أثبتناه عن ابن خلكان.
(٢) انظر ما سيأتي للمؤلف في حوادث سنة ٨٣٧هـ.
(٣) نظم ابن حجة بديعية في مدح الرسول الكريم، وعدَّ فيها من أنواع البديع مائة واثنتين وأربعين نوعاً. وقد استهلها بقوله:
لي في ابتدا مدحكم يا عُربَ ذي سلم براعة تستهل الدمع في الديم
وقد سمى ابن حجة بديعيته تلك «تقديم أبي بكر» وحاول فيها أن ينسج على منوال عز الدين الموصلي في بديعيته المشهورة. ثم وضع ابن حجة شرحاً لبديعيته سمّاه «خزانة الأدب وغاية الأرب».
(٤) كذا بالأصل. وفي خزانة الأدب لابن حجة الحموي: «نصل».
(٥) زيادة عن خزانة الأدب: ٢٧٧/١.

أهذه سِيَرٌ في المجد أم سُوَرُ وهذه أنجمٌ في السعد أم غُرَرُ
وأنملٌ أم بِحار والسيوف لها موجٌ وإفرندها في لجّها دُرَرُ
وأنت في الأرض أم فوق السماء وفي يمينك البحر أم في وجهك القمرُ

وفيها تُوفِّي عليّ بن نصر بن عَقِيل المعروف بالهُمَام البغداديّ العَبْدِيّ الشاعر المشهور؛ قَدِم الشامَ ومدح الملكَ العادلَ، والملكَ الأمجد صاحب بَعْلبك. ومن شعره: [الطويل]

وما الناسُ إلّا كاملُ الحظِّ ناقصٌ وآخرُ منهم ناقصُ الحظِّ كامِلُ
وإنّي لمُثْرٍ من حَيَاءٍ وعِفّةٍ وإن لم يكن عندي من المالِ طائلُ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو جعفر أحمد بن عليّ القُرْطُبيّ المقرىء إمام الكَلاَّسَة. وإسماعيل بن صالح بن يّس بمصر في ذي الحِجّة. وأبو سعيد خليل بن أبي الرجاء الرَّارَانِيّ(١) الصوفيّ في شهر ربيع الآخر، وله ست وتسعون سنة. والسلطان علاء الدين خُوَارَزْم شاه تُكُش بن خُوَارَزْم شاه أَرْسلان بن أَتْسِزْ بن محمد في رمضان بالخوانيق، وتملّك بعده ابنه علاء الدين محمد. والقاضي الفاضل أبو عليّ عبد الرحيم بن عليّ [بن محمد](٢) بن حسن اللَّخْميّ البَيْساني(٣) الوزير في شهر ربيع الآخر، وله سبع وستون سنة. وأبو الحسن عبد اللطيف بن إسماعيل بن [أبي](٢) سعد الصُّوفيّ في ذي الحجّة بدمشق. وأبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب [بن سعد بن صَدَقَة بن الخِضْر](٤) بن كُلَيْب في شهر ربيع الأول، وله ست وتسعون سنة وشهر. والأثير أبو الفضل محمد بن محمد بن بيان الأنباريّ ثم المصريّ الكاتب في شهر ربيع الآخر. والعلّامة شهاب الدين محمد بن محمود الطُّوسيّ بمصر. وأبو جعفر المبارك بن المبارك بن أحمد بن زُرَيْق الواسِطيّ الحَدّاد المقرىء.

(١) نسبة إلى «راران» برائين مهملتين؛ وهي قرية بأصبهان.
(٢) زيادة عما تقدّم.
(٣) في الأصل: «النيسابوري» وهو خطأ. والبيساني: نسبة إلى بيسان، بالأردن.
(٤) زيادة عن الشذرات.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يُذكر لقلّته. وكان مبلـغ الزيادة في هذه السنة آثنتي عشرة ذراعاً وإحدى وعشرين إصبعاً. وشَرِقت الأراضي، وعمّ البلاء والغـلاء الديـار المصريّة وأعمالها[1].

(١) قال المقريزي في وصف ذلك الجوع والغلاء بسبب توقف النيل عن الزيادة: «. . . فتكاثر مجيء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع. ودخل فصل الربيـع، فهبَّ هواء أعقبه وباء وفناء؛ وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع. فكان الأب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً، والمرأة تأكل ولدها. فعوقب جماعة بسبب ذلك. ثم فشا الأمر وأعيا الحكـام. فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذه أو شيء من لحمه. . . . ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم بحيث ألفوه. . . وكان أهل القرى قد فنوا، حتى إن القرية التي كان فيها خمسمائة نفس لـم يتأخر (؟) بها سوى اثنين أو ثلاثة. . . (إغاثة الأمة: ٦٥ ــ ٦٦).

ذكر سلطنة الملك العادل[1] على مصر

هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد آبن الأمير أبـي الشكر نجم الدين أيّوب بن شادي بن مَرْوَان الدُّوِينِيّ التَّكْرِيتيّ ثم الدمشقيّ. وقد تقدّم ذكر نسبه وأصله في ترجمة أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب. وقد ذكرنا أيضاً من أحوال العادل هذا نبذة كبيرة في ترجمة أخيه صلاح الدين المذكور، وأيضاً في ترجمة أولاده، ثم في ترجمة حفيده الملك المنصور محمد آبن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، الذي خلعه العادل هذا وتسلطن مكانه في العشرين من شوّال سنة ستّ وتسعين وخمسمائة. وقد تقدّم ذلك كلّه في ترجمة المنصور محمد المخلوع عن السلطنة. ولا بدّ من ذكر شيء من أحوال العادل هنا على حِدته، وإيراد قطعة جيّدة من أقوال الناس في ترجمته ــ إن شاء الله تعالى ــ.

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبـيّ في تاريخه: «وُلِد بِبعلبكّ في سنة أربـع وثلاثين، وأبوه نائب عليها للأَتَابَك زَنْكِي والد نور الدين محمود، وهو أصغر من أخيه صلاح الدين بسنتين؛ وقيل: وُلِد في سنة ثمانٍ وثلاثين؛ وقيل: وُلِد في أوائل سنة أربعين. قال أبو شامة: تُوفِّي الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد، وهو بكنيته أشهر. ومولده ببعلبكّ، وعاش ستّاً وسبعين سنة. ونشأ في خدمة نور الدين مـع أبيه وإخوته؛ [وحضر مـع أخيه صلاح الدين فتوحاته وقام أحسن قيام

---

(١) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان: ٧٤/٥، والسلوك: ١٨٣/١، والخطط المقريزية: ٢٣٥/٢، وذيل الروضتين: ١١١، والشذرات: ٦٥/٥، والوافي بالوفيات: ٢٣٥/٢، وبدائع الزهور: ٢٥٣/١، وشفاء القلوب: ٢٠٠، وابن الأثير: ٢٦٥/١٠ وما بعدها، والدارس في تاريخ المدارس: ٢٠٢/٢ وما بعدها.

في الهدنة مع الأَنْكِلِتِيز ملك الفرنج بعد أخذهم عكّا][1]، وكان صلاح الدين يعوِّل عليه كثيراً، واستنابه بمصر مدّة، ثم أعطاه حلب، ثم أخذها منه وأعطاها لولده الظاهر، وأعطاه الكَرَك عوضها، ثم حَرّان». انتهى كلام الذهبيّ.

وقال الشيخ شمس الدين أحمد بن خلّكان ـ رحمه الله ـ في وفيات الأعيان: «كان الملك العادل قد وَصَل إلى مصر صحبة أخيه وعمّه أسد الدين شِيرِكُوه المقدّم ذكره. وكان يقول: لمّا عزمنا على المسير إلى مصر آحتجتُ إلى جِرْمدان[2] فطلبتُه من والدي فأعطاني، وقال: يا أبا بكر، إذا ملكتم مصر أعطوني ملأة ذهباً. فلمّا جاء إلى مصر، قال: يا أبا بكر، [أين][1] الجِرْمدان؟ فُرحْتُ وملأتُه له من الدّراهم السُّود[3]، وجعلت على أعلاها شيئاً من الذهب وأحضرتُه إليه، فلمّا رآه آعتقده ذهباً، فقلبه فظهرت الفِضّة السوداء، فقال: يا أبا بكر، تعلمتَ زَغَلَ المصريّين! قال: ولمّا ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب مصر كان ينوب عنه في حال غَيْبته بالشام، ويستدعي منه الأموال للإنفاق في الجند وغيرهم. قال: ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أنّ الحُمول تأخّرت مدّة فتقدّم السلطان صلاح الدين إلى العِماد الأصبهانيّ أن يكتب إلى أخيه العادل يستحِثّه على إنفاذها حتّى قال: يسير [لنا][4] الحملُ من مالنا أو من ماله! فلمّا وصل الكتاب إليه، ووقف على هذا الفصل شقّ عليه، وكَتَب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك. فكتب القاضي الفاضل جوابه، وفي جملته: «وأمّا ما ذكره المولى من قوله: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة ما المقصود منها من الملك النُّجعَة، وإنّما المقصود من الكاتب السَّجْعَة. وكم من لفظةٍ فَظّة، وكلمة فيها غِلْظة؛

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) الجرمدان: كلمة فارسية مركبة من لفظين: «جرم» ومعناه الجلد، و«دان» ومعناه الظرف. والمراد بها كيس من الجلد. (طبعة دار الكتب، حاشية) وفي الطبعة التي بين أيدينا من ابن خلكان: «الحرمدان» بالحاء المهملة.

(٣) الدراهم السود: وتسمى أيضاً السوداء أو المسوّدة. وكانت تصنع من نحاس فيه يسير من الفضة. وسميت بالسوداء لظلمتها. (صبح الأعشى: ٣/٤٣٩، وإغاثة الأمة: ١٠٤).

(٤) زيادة عن ابن خلكان.

حيّرت[١] عيـيَّ الأقلام، فسدّت خلل الكلام. وعلى المملوك الضمان في هذه النُّكْتة، وقد فات لسان القلم منها أيّ سكتة». قال: ولمّا ملك السلطان (يعني صلاح الدين) مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة كما تقدّم ذكره، [أعطاها لولده الملك الظاهر غازي ثم أخذها منهو][٢] أعطاها للملك العادل فآنتقل إليها [وقصد قلعتها يوم الجمعة الثاني والعشرين][٢] من شهر رمضان من السنة المذكورة؛ ثم نزل عنها للملك الظاهر غازي آبن السلطان صلاح الدين؛ ثم أعطاه السلطان قلعة الكَرَك، وتنقّل في الممالك في حياة السلطان صلاح الدين وبعد وفاته. وقضاياه مشهورة مـع الملك الأفضل والملك العزيز والملك المنصور فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها. وآخر الأمر أنّه آستقلّ بمملكة الديار المصريّة. وكان دخوله إلى القاهرة لثلاثَ عشرةَ ليلة خلت[٣] من شهر ربيـع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة، وآستقرّت له القواعد.

وقال أبو البركات ابن المُسْتَوفِي في تاريـخ إربِل»، في ترجمة ضِيَاء الدين أبـي الفتـح نصر الله المعروف بآبن الأثير [الوزير][٢] الجَزَرِيّ ما مثاله: وجدت بخطّه «خُطِب للملك العادل أبـي بكر بن أيّوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوّال سنة ست وتسعين وخمسمائة، وخطب له بحلب يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة» ــ والله أعلم بالصواب ــ هذا ما ذكره آبن خلّكان وهو بخلاف ما ذكرناه من أنّه خُطِب له في عاشر شهر رمضان من السنة؛ ويمكن الجمـع بين القولين، لأنّنا قلنا في شهر رمضان تخميناً، لأنّ الآتّفاق كان في شهر رمضان، ولعل الخطبة كانت في شوّال ــ إنتهى.

قال: «وملك مـع ذلك البلاد الشاميّة والمشرقيّة، وصفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة آثنتي عشرة وستمائة [و][٢] سيّر إليها ولَدَ ولده الملك المسعود

(١) في ابن خلكان: «جبرت».
(٢) زيادة عن ابن خلكان.
(٣) في ابن خلكان: «بقيت».

صلاح الدين أبا المظفر يوسف آبن الملك الكامل محمد الآتي ذكره. وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيّوب ينوب عنه في ميّافارقين وتلك النواحي، فاستولى[١] على مدينة خِلاط و[بلاد][٢] أَرْمِينِيَة، وآتّسعت مملكته، وذلك في سنة أربع وستمائة.

ولمّا تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل محمداً الديار المصريّة، وأعطى الملك المعظّم عيسى البلاد الشاميّة، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية، والأوحد في المواضع التي ذكرناها.

وكانَ مِلكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامّة قد حنّكتْه التجارب، حسنَ السِّيرة جميلَ الطويّة وافرَ العقل، حازماً في الأمور، صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متّبعاً لأرباب السُّنّة مائلاً إلى العلماء. صنّف له فخر الدين الرازيّ «كتاب تأسيس التقديس»، وذكر آسمه في خطبته، وسيره إليه من بلاد خُراسان. وبالجملة فإنّه كان رجلاً مسعوداً، ومن سعادته أنّه كان خلّف أولاداً لم يخلّف أحد من الملوك أمثالهم، في نجابتهم [وبسالتهم][٢] ومعرفتهم وعلوّ همتهم، ودان لهم العِبادُ وملكوا [خيار]البلاد. ولمّا مدحه آبن عُنَيْن[٣] بقصيدته الرائية ذكر منها في مديح أولاده المذكورين، فقال: [الكامل]

وله البنون[٤] بكلِّ أرضٍ منهمُ ... مَلِكٌ يقود[٥] إلى الأعادي عَسْكَرَا
من كلِّ وَضّاحِ الجَبين تَخالُهُ ... بَدْراً وإن شهِد الوَغى فغَضَنْفَرا
متقدِّمٌ حتّى إذا النَّقْعُ آنجلى ... بالبِيض عن سَبْيِ الحَريم تأخّرا
قوم زَكَوْا أصلاً وطابوا مَحْتِداً ... وتدفّقوا جُوداً وراقوا منظَرا

(١) في الأصل: «فاستناب» وما أثبتناه عن ابن خلكان.
(٢) زيادة عن ابن خلكان.
(٣) هو أبو المحاسن، محمد بن نصر الله بن مكارم، المعروف بابن عنين. أعظم شعراء عصره. توفي بدمشق سنة ٦٣٠هـ. (الأعلام: ١٢٥/٧).
(٤) كذا أيضاً في ابن خلكان. وفي شفاء القلوب: «الملوك».
(٥) في شفاء القلوب: «يجرّ».

قال: ومن جملة هذه القصيدة في مدح الملك العادل هذا قولُه، ولقد أحسن فيها:

[العادلُ الملكُ الذي أسماؤه ... في كلّ ناحيةٍ تُشرِّف مِنْبَرا[1]]

وبكلّ أرضٍ جنّةٌ من عدله الصّـ ... ـافي أسَال [نداه][1] فيها كَوْثَرا

عَدْلٌ يَبيت الذئبُ منه على الطَّوَى ... غَرْثان وهو يَرَى الغزالَ الأعْفَرَا

ما في أبي بكرٍ لمُعْتقد الهدى ... شَكٌّ مُريبٌ أنّه خيرُ الورَى

سيفٌ صِقَال المجد[2] أُخْلِص متنُه ... وأبان طِيبُ الأصل منه الجَوْهَرا

ما مَدْحُه بالمستعار له ولا ... آياتُ سُؤْدُدِه حديثٌ يُفْتَرى

بين الملوك الغابرين وبينه ... في الفضل ما بين الثُّرَيّا والثَّرَى

نسختْ خلائقهُ الحميدةُ ما أتى ... في الكُتْب عن كِسْرى الملوك وقَيْصَرَا

مَلِك إذا خفّت حلومُ ذوي النُّهَى ... في الرَّوْعِ زاد رصانَةً وتوقُّرا

ثَبْتُ الجَنان تُراع من وَثَباتِهِ ... وثَباتِه يوم الوغى أُسْد الشَّرَى

يَقظٌ يكاد يقول عمّا في غدٍ ... ببديهةٍ أَغْنَتْهُ أن يتفكرا

حلم تَخفُّ له الحلوم وراءه ... رأيٌ وعزمٌ يحقر[3] الإسكندرا

يعفو عن الذنب العظيم تَكَرُّماً ... ويصُدُّ عن قِيل الخَنا مُتَكَبِّرا

لا تسمعنَّ حديثَ مَلْكٍ غيرِه ... يُرْوَى فكلُّ الصَّيْد في جَوْفِ الفَرَا

قال: ولمّا قسم البلاد بين أولاده كان يتردّد بينهم، ويتنقّل من مملكة إلى أُخرى؛ وكان يَصِيف بالشام لأجل الفواكه والمياه الباردة، ويُشَتِّي بالديار المصريّة لاعتدال الوقت فيها وقلّة البرودة؛ وعاش في أرغد عيشٍ. وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد، حتّى يقال إنّه كان يأكل وحده خَرُوفاً لطيفاً مشوياً؛ وكان له في النكاح نصيبٌ وافر. وحاصل الأمر أنّه كان مُمَتَّعاً في دنياه. وكانت ولادته بدِمَشق في المحرّم سنة أربعين؛ وقيل: ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة.

(١) زيادة عن ابن خلكان.
(٢) في الأصل: «المتن» وما أثبتناه عن ابن خلكان.
(٣) كذا في ابن خلكان. وفي الأصل: «يخفر».

قلت: وافق الذهبي في مولده في السنة، مع خلاف ذكره الذهبيُّ فيه، وخالفه في المكان الذي وُلِد فيه، فإنّ الذهبيّ قال: كانت ولادته ببعلبكّ كما تقدّم ذكره. قال: وتُوُفِّي في سابع جُمَادَى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعالِقِين. ونُقل إلى دِمَشق، ودُفِن بالقلعة ثاني يوم وفاته، ثمّ نُقِل إلى مدرسته المعروفة به، ودفِن بالتُّربة[١] التي بها؛ [وقبْره][٢] على الطريق يراه المجتاز من الشُّبَّاك المركَّب هناك. وعَالِقِين (بفتح العين المهملة وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضاً وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون) وهي قرية بظاهر دمشق». اِنتهى كلام آبن خلّكان ــ رحمه الله تعالى ــ بتمامه.

وقال غيره: ولمّا آفتتح ولدُه الكاملُ إقليمَ أَرْمِينِيَة فَرِح العادل فرحاً شديداً، وسيّر أستاداره إِيْلدكز[٣] وقاضي العسكر نجم الدين خليل إلى الخليفة يطلب التقليدَ بمصر والشام وخِلاط وبلاد الجزيرة، فأكرمهما الخليفة وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين أبا حَفْص عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدِيّ بالتشريف، ومرّ بحَلَب ووعَظ بها؛ وآحترمه الظاهر غازي صاحب حلب، وبعث معه بَهاء الدِّين بن شَدَاد بثلاثة آلاف دينار لينثرَها على عمِّه العادل، إذا لَبِس خِلْعَةَ الخليفة. ولمّا وصل السُّهْرَوَرْدِيّ إلى دِمَشق[٤] فَرِح العادل وتلقّاه من القُصَيْر[٥]، وكان يوماً مشهوداً، ثمّ من الغد أُفِيضَتْ عليه الخِلَعُ؛ وهي: جُبَّةٌ سوداء بطِراز ذهب، وعِمامةٌ سوداء بِطِراز ذهب، وطوق ذهب فيه جَوْهَر، وقُلِّدَ سَيْفاً محلًّى جميع قِرَابه بالذهب، وحِصانٌ أشهبُ بَمرْكَب ذهب، وعَلَمٌ أسود مكتوب فيه بالبياض ألقابُ الناصر لدين الله. ثمّ خَلَعَ السُّهْرَوَرْدِيّ على وَلَدَي العادل: المعظّم عيسى والأشرف موسى، لكلّ واحد عِمَامةً سوداء، وثوباً أسود واسع الكُمّ؛ وخَلَع على الصاحب آبن شكر كذلك. وُنثر الذهبُ على رأس العادل من رسل صاحب حلب وحَمَاة وحِمْص وغيرهم. وركب

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس: ٢/٢٠٢. وهي التربة العادلية الجوانية بالمدرسة العادلية الكبرى.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) في السلوك: «ألدكُر».

(٤) في الأصل: «إلى مصر». وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٥) القصير: ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق.

الأربعةُ (أعني العادل وولديه وآبن شكر الوزير) بالخلَـع، ثم عادوا إلى القلعة؛ وقرأ آبنُ شكر التقليدَ على كرسيّ، وخُوطِب العادل: بشاهِنْشاه[١] ملك الملوك خليل أمير المؤمنين. ثمّ قَدِم السُّهْرَوَرْدِيّ إلى مصر وخَلَـع على الملك الكامل بن العادل. وهو يومَ ذاك صاحبُ مصر نيابةً عن أبيه العادل كما تقدّم ذكره.

وقال الموَّفق[٢] عبد اللطيف في سِيرة الملك العادل: «كان أصغرَ الإخوة وأطوَلَهم عمراً وأعمقَهم فِكْراً وأبصرَهم في العـواقب وأشدهم إمسـاكاً وأحبَّهم للدرهم؛ وكان فيه حِلْمٌ وأناةٌ وصبرٌ على الشدائد؛ وكان سعيدَ الجدّ عاليَ الكعب مظفَّراً بالأعداء من قِبَلِ السماء، وكان نَهِماً أكُولاً يحبّ الطعام وآختلاف ألوانه، وكان أكثر أكله باللّيل كالخيل، وله عندما ينام رضيـعٌ، ويأكل رِطلاً بالدِّمشقيّ خَبِيصَ السُّكّر، يجعل هذا كالجُوَارِش[٣]؛ وكان كثير الصلاة ويصوم الخميس؛ وله صدقات في كثير من الأوقات، وخاصّة عندما تَنزِل به الآفات؛ وكان كريماً على الطعام يحب من يؤاكله، وكان قليلَ الأمراض. قال لي طبيبه بمصر: إنِّي آكلُ خيرَ هذا السلطان سنين كثيرة ولم يَحْتَج إليَّ سوى يوم واحد؛ أُحْضِر إليه من البطِّيـخ أربعون حِملاً فكَسَر الجميـع بيده، وبالـغ في الأكل منه ومن الفواكه والأطعمة، فعَرَض له تُخَمَةٌ، فأصبح، فأشرتُ عليه بشرب الماء الحارّ، وأن يركَب طويلاً ففعل، وآخر النهار تعشّى وعاد إلى صحّته. وكان نَكّاحاً يُكثِر من آقتناء السَّرَارِي،

---

(١) في الأصل: «شاه أرمن» وما أثبتناه عن السلوك والألقاب الإسلامية.
واللقب «شاهنشاه» لفظ فارسي معناه ملك الملوك. ويلاحظ في هذا التقليد استعمال مترادفين أحدهما فارسي والآخر عربي.
أما لقب «شاه أرمن» فكان يطلق على من تملك بلد خلاط وأعمالها، وكانت تسمى أرمينية الكبرى. ولقب «شاه أرمن» أطلق على أحد أولاد العادل أبي بكر وهو الملك الأشرف موسى صاحب حلب. (الألقاب الإسلامية: ٣٥٢ ــ ٣٥٣).

(٢) هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، موفق الدين، ويعرف بابن اللبّاد، وبابن نقطة. توفي سنة ٦٢٩هـ. (الأعلام: ٤/٦١) ولم نجد في مؤلفاته ما يسمى «سيرة الملك العادل». ولعل المراد ما ذكره من سيرة الملك العادل في كتابه «الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار».

(٣) الجوارش: القُميحة (نوع من الحلوى). وهي كالسفوف يتخذ للهضم. ويقال أيضاً: الجوارشن. (معجم متن اللغة).

وكان غيوراً لا يَدخل في داره خَصِيٌّ إلّا دون البلوغ، وكان يُحبّ أن يطبُخ لنفسه مع أنّ في كلّ دارٍ من دور حَظَاياه مطبخاً [دائراً](١)، وكان عفيفَ الفَرْج لا يُعرف له نظرٌ إلى غير حلائله. نَجُبَ له أولاد من الذكور والإناث، سلطن الذكور وزوّج البنات بملوك الأطراف.

وكان العادل قد أوقع الله تعالى بِغضتَه في قلوب رعاياه، والمخامرةَ عليه في قلوب جنده؛ وعَمِلوا في قتله أصنافاً من الحِيَل الدقيقة مرّاتٍ كثيرة؛ وعند ما يقال إنّ الحِيلة تمّت تَنفِسح وتنكشِف وتُحْسَم موادّها، ولولا أولاده يَتَولَّوْن بلاده لَمَا ثَبَتَ مُلْكُه، بخلاف أخيه صلاح الدين فإنّه إنّما حفِظ ملكه بالمحبّة له وحسن الطاعة؛ ولم يكن ــ رحمه الله ــ بالمنزلة المكروهة؛ وإنّما كان الناس قد أَلِفوا دولة صلاح الدين وأولاده، فتغيّرت عليهم العادة دفعةً واحدة. ثم إنّ وزيره آبن شُكْر بالغ في الظّلم.

قال: وكان العادلُ يُواظِب على خدمة أخيه صلاح الدين، يكون أوّلَ داخل وآخر خارج، وبهذا جلبه، وكان يُشاوِره في أمور الدولة، لِمَا جرَّب من نفوذ رأيه. ولمّا تسلطن الأفضل بدِمَشق والعزيز بمصر قصد العزيز دمشق، ووقع له ما حكيناه إلى أن ملكها.

قال: ثم أخذ العادل يُدبِّر الحِيلة حتى يَسْتَنيبه العزيزُ على مصر، ويُقيمَ العزيزُ بدِمَشق، ففَطِن بعض أصحاب العزيز فرَمَى قَلنسوَتَه بين يديه، وقال: ألم يكفِك أنّك أعطيتَه دمشق حتّى تُعطيَه مصر! فنهَضَ العزيز لوقته على غِرَّة ولحِقَ بمصر.

قال المُوَفّق: ومات الملك الظاهر غازي قبله بسنتين فلم يتَهَنّ العادل بالملك من بعده؛ وكان كلّ واحد منهما ينتظر موتَ الآخر، فلم يَصْفُ للعادل العيشُ بعد موته، لأمراض لَزِمتْه بعد طول الصّحّة، والخوف من الفرنج بعد طول الأمن.

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام.

وخرجوا (يعني الفرنـج) إلى عكّا وتجمعوا على الغَوْر[١]، فنزل العادل قُبالَتَهم على بَيْسَان[٢]، وخَفِي عليه أن ينزل على عَقَبة أَفِيق[٣]، وكانوا قد هدموا قلعة كَوْكَب، وكانت ظهرَهم، ولم يقبل من الجَوَاسِيس ما أخبروه بما عزم عليه الفرنـج من الغارة، فاغتّر بما عوّدتْه المقادير من طول السلامة، فَغَشِيت الفرنـج عسكره على غِرّة، وكان قد آوى إليه خَلْقٌ من البلاد يَعتصمون به، فركب مُجِداً؛ وماج الفرنـج في أثره حتّى وصل دمشق على شفاً وهَم؛ فدخل إليها فمنعه المعتمد وشجّعه، وقال له: المصلحة أن تُقيم بظاهر دمشق. وأما الفرنـج فاعتقدوا أنّ هزيمته مكيدة فرجعوا من قرب دمشق بعد ما عاثوا في البلاد قَتْلاً وأَسْراً وعادوا إلى بلادهم، وقصدوا دِمياط في البحر فنازلوها.

وكان قد عَرَضَ له قبل ذلك ضعفٌ وصار يعتريه وَرَمُ الأنثيين. فلمّا هزّته[٤] الحِيَل على خلاف العادة ودخله الرُّعب، لم يبق إلاّ مدّةً يسيرةً ومات بظاهر دمشق. وكان مـع حِرْصه يُهين المال عند الشدائد غايةَ الإهانة ببذله. وشرع في بناء قلعة دِمشق فقسم أرضها على أمرائه وأولاده، وكان الحفَّارون يَحْفِرون الخَنْدَق ويقطعون الحجارة، فخرج من تحته خَرَزَةُ بئرٍ فيها ماءٌ مَعِين.

قال: ودعا مرة فقال: اللّهمّ حاسِبْني حِساباً يسيراً؛ فقال له رجلٌ ماجِنٌ من خواصّه: يا مولانا، إنّ الله قد يسَّر حِسابك؛ قال: ويلك! وكيف ذلك؟ قال: إذا حاسبك قل له: المالُ كلُّه في قلعة جَعْبَر لم أُفَرِّط فيه في قليل ولا كثير. وكانت خزائنه بالكَرَك ثمّ نقلها إلى قلعة جَعْبَر وبها ولده الملك الحافظ، فسوَّل له بعضُ أصحابه الطمَـعَ فيها، فأتاها الملك العادل ونَقَل ما فيها إلى قلعة دمشق، فحصلَتْ في قبضة ولده الملك المعظَّم عيسى، فلم ينازعه فيها إخـوته؛ وقيل: إنّ الذي سوّلَ

(١) المراد غور الأردن، بين بيت المقدس ودمشق. وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس، ولذلك سمي الغور (معجم البلدان). والمراد هنا الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة، وذلك سنة ٦١٤هـ.

(٢) بيسان: مدينة بالأردن، بالغور الشامي، بين حوران وفلسطين (معجم البلدان).

(٣) أفيق: قرية من قرى حوران في طريق الغور في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيـق. والعامة تقول: فيق. (معجم البلدان).

(٤) كذا في الأصل والذهبي. ولعل المراد: «أعيته الحيل».

للحافظ الطَمـع والِعصيانَ هو المعظَّم ففعل ذلك الحافظ، وكانت مَكِيدةً من المعظَّم حتّى رجـع إليه المال». اِنتهى كلام الموفَّق باختصار.

وقال أبو المظفّر شمس الدين يوسف بن قزأُوغْلِي في تاريخه: « سألته عن مولده فقال: فتوح الرُّهَا (يعني سنة تسع وثلاثين وخمسمائة) ـ وهذا نَقْلٌ آخر في مولده ـ قال: وقد ذكرنا أحواله في السنين إلى أن آستقرّ له الملك وآمتدّ من بلاد الكُرْج[١] إلى هَمَذَان والجزيرة والشام ومصر والحجاز ومكّة والمدينة واليمن إلى حَضْرَمَوت؛ وكان ثَبتاً خليقاً بالمُلك حسن التدبير، حليماً صَفُوحاً مدبّراً للملك على وجه الرضا، عادلاً مجاهداً ديّناً عفيفاً متصدّقاً، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، طهّر جميـع ولاياتِه من الخمور والخواطىء والِقمار والمكوس والمظالم. وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائةَ ألف دينار، فأبطل الجميـع لله تعالى. وكان واليه على دمشق المُبَارز والمعتمد، أعانه المبارز على ذلك، أقام رجالاً على عِقَاب قاسِيون[٢] وجبل الثَّلْـج وحوالى دمشق بالجامكِية[٣] والجراية يَحْرِمُون أحداً يدخل دمشق بُمنْكر. بلغني أنّ بعض المغاني دخلت على العادل في عُرْس فقال لها: أين كنت؟ فقالت: ما قدرت أجيء حتّى وفيتُ ما عليّ للضامن. فقال: وأيّ ضامن؟ قالت ضامن القِيَان، فقامت عليه القِيامة، وطلب المعتمد [وعَمِل به ما لا يليق][٤]، وقال: والله لئن عاد بلغني مثل هذا لأفعلنّ ولأصنعنّ.

ولقد فعل العادل في غلاء مصر عَقِيبَ موت العزيز ما لم يفعله غيرُه؛ كان يخرج في الليل بنفسه ويُفرِّق الأموال في ذوي البيوتات والمساكين، وكفَّن تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغُرَباء، وكان إذا مَرِض أو تشوَّش مِزاجُه خلـع جميـع ما عليه وباعه حتى فرسَه وتصدّق به.

---

(١) الأصل غير واضح. وفي طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان: «الكرخ». وما أثبتناه عن الذهبي. وبلاد الكُرْج: هي بلاد ما بين بلاد الروم وبلاد أرمينية. وقاعدتها مدينة تفليس. (التعريف بالمصطلح الشريف: ٧٨).

(٢) قاسيون: هو الجبل المشرف على دمشق.

(٣) الجامكية: وتجمع على جوامك وجامكيات. وهي الرواتب عامة. (صبح الأعشى: ٣/٤٥٧).

(٤) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

قال أبو المظفَّر: وقد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ إليه بخبر بُرْج[١] دِمْياط، وأنّه آنزعج وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن جُمَادى الآخرة وتوفّي بعالِقِين. وكان المعظَّم قد كَسَر الفرنج على القَيْمُون[٢] يوم الخميس خامس جُمادى الآخرة، وقيل يوم الأربعاء. ولمّا تُوفّي العادل لم يعلم بموته غيرُ كَرِيم الدِّين الخِلاطِيّ، فأرسل الطير إلى نابُلُس إلى المعظم، فجاء يوم السبت إلى عالِقين فآحتاط على الخزائن، وصبَّر العادل وجعله في مِحَفَّة وعنده خادمٌ يُرَوِّح عليه وقد رَفَعَ طَرَفَ سجافها وأظهر أنّه مريض؛ ودخلوا بـه دمشق يوم الأحد والناس يُسلِّمون على الخادم، وهو يُومىء إلى ناحية العادل وَيُردّ السلام؛ ودخلوا به القلعة وكتموا موته؛ و[من العجائب أنهم][٣] طلبوا له كفناً فلم يقدروا عليه، فأخذوا عِمامة الفقيه آبن فارس فكفّنوه بها، وأخرجوا قطناً من مِخدّة فلفّوه به، وصَلّى عليه [وزيره] آبن فارس ودفنوه في القلعة.

قال أبو المظّفر: وكنت قاعداً إلى جانب المعظّم عند باب الدار التي فيها الإيوان وهو واجمٌ ولم أعلم بحاله؛ فلما دُفِن أبوه قام قائماً وشقّ ثيابه ولطم رأسه ووجهه، وكان يوماً عظيماً، وعَمِل له العزاء ثلاثة أيام بالإيوان الشمالي، وعُمِل له العزاء في الدنيا كلّها، ونُودي ببغداد: من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامـع القصر، فحضر الناس ولـم يتخلّف سوى الخليفة؛ وصلّوا عليه صلاة الغائب وترحَّمُوا عليه. وتقدّموا إلى خطباء الجوامـع بأسْرهم، ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة. وبقي العادل بالقلعة إلى سنة تسع عشرة وستمائة، [ثم] نُقِل إلى تربته التي أنشأها عند دار العَقِيقِيّ ومدرسته.

---

(١) برج دمياط: برج منيـع في غاية القوة؛ كان فيه سلاسل من حديد عظام القدرة والغلظ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر. (السلوك: ٢٢٣/١). وقال أبو شامة في الروضتين: ١٦٧ ــ ١٦٨: «هو قفل الديار المصرية. وهو برج عال، مبني في وسط النيل، ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه. وفي ناحيته سلسلتان، تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى البحيرة. فإذا أوثقت السلسلتان امتنـع على المراكب العبور» ــ وانظر ابن الأثير: حوادث سنة ٦١٤هـ . والمقريزي ينقل عنه حرفياً تقريباً في وصف حصار الفرنـج لدمياط.

(٢) القيمون: حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين. (معجم البلدان).

(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

ـ قلت: لا أعلم ما كان السبب في عدم وجود الكَفَن القطن للملك العادل مع همة ولده الملك المعظّم عيسى وأخذِه من عَالِقين ميتاً في محفّة ولم يَفْطُن به أحد. وهذا أعظم وأكثر كُلفةً وأصعب من شراء ثوب بَعْلبَكّي، وما يحتاج إليه الميت من الحَنُوط والقطن وغيره «فلعلّ لها عذراً وأنت تلوم» ـ.

قال: وكان له عِدّة أولاد: منهم شمس الدين مَوْدُود(١) والد الملك الجَوَاد [يونس](٢). والكامل محمد(٣). والأشرف موسى(٤). والمعظّم عيسى(٥). والأوحد أيّوب(٦). والفائز إبراهيم(٧). وشهاب الدين غازي(٨). والعزيز عثمان(٩). والأمجد حسن(١٠). والحافظ أَرْسلان(١١). والصالح إسماعيل(١٢). والمغيث عمر(١٣). ومُجير الدين يعقوب(١٤). وتقِيّ الدين عبّاس(١٥). وقُطْب الدين أحمد(١٦). والقاهر إسحاق(١٧). وخليل(١٨). أصغرهم(١٩). وكان له عِدّة بنات أفضلهنّ صَفِيّة خاتون

---

(١) توفي في حياة أبيه. (السلوك).
(٢) زيادة عن السلوك. والحواشي الآتية مأخوذة عن نفس المصدر.
(٣) الملك الكامل ناصر الدين محمد صاحب مصر.
(٤) الملك الأشرف مظفر الدين موسى، صاحب الشرق وخلاط بعد أخيه الملك الأوحد.
(٥) الملك المعظم شرف الدين أبو العزائم عيسى، صاحب دمشق.
(٦) الملك الأوحد نجم الدين أيوب، صاحب خلاط. مات في حياة أبيه.
(٧) مات في حياة أبيه.
(٨) الملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين.
(٩) الملك العزيز عماد الدين عثمان، صاحب بانياس.
(١٠) الملك الأمجد مجد الدين حسن. مات في حياة أبيه بالقدس.
(١١) الملك الحافظ نور الدين أرسلان، صاحب قلعة جعبر.
(١٢) الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى ثم دمشق.
(١٣) توفي في حياة أبيه. وترك عمر ابناً سمي بالملك المغيث شهاب الدين محمود، رباه عمه الملك المعظم عيسى.
(١٤) الملك المعز مجير الدين يعقوب.
(١٥) الملك الأمجد تقي الدين عباس، وهو أصغرهم. ومات آخرهم بدمشق سنة ٦٦٩هـ في أيام الظاهر بيبرس.
(١٦) الملك المفضل قطب الدين أحمد. مات بمصر في أيام أخيه الكامل بالفيوم سنة ٦١٨هـ.
(١٧) الملك القاهر بهاء الدين تاج الملوك إسحاق.
(١٨) الملك الناصر صلاح الدين خليل.
(١٩) راجع الحاشية (١٥).

صاحبة حلب أم الملك العزيز». اِنتهت ترجمة الملك العادل ـ رحمه الله تعالى ـ.

ولمّا مات العادل آستقرّ كلّ واحد من أولاده في مملكته، فإنه كان قسم ممالكه في أولاده حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه في صدر هذه الترجمة؛ فالذي كان بمصر الملك الكامل محمد، وبالشام المعظّم عيسى، وبالشرق الأشرف شاه أرمن، وباقي أولاده كلّ واحد في مملكة، أو في خدمة أخ من إخوته. اِنتهى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

فيها كان هبوط النيل، ولم يُعهد ذلك في الإسلام إلّا مرّة واحدة في دولة الفاطميّين[١]، ولم يبق منه إلّا شيء يسير؛ وآشتدّ الغلاء والوباء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام وتفرّقوا وتمزّقوا كلّ ممزَّق.

قال أبو المظّفر: «كان الرجل يَذْبح ولَده الصغير وتساعده أمّه على طبخه وشيّه؛ وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا. وكان الرجل يدعو صديقَه وأحبّ الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبَحه ويأكلَه، وفعلوا بالأطبّاء كذلك، [فكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم][٢] وفُقِدت الميتات والجيَف [من كثرة ما أكلوها][٢]. وكانوا يختطفون الصِّبيان من الشوارع فيأكلونهم. وكفن السلطان في مدّة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفاً؛ وامتلأت طرقات المغرب والمشرق والحجاز والشام برِمَم الناس، وصَلّى إمام جامع الإسكندريّة في يوم على سبعمائة جنازة. وقال العِماد الكاتب الأصبهانيّ: « في سنة سبع وتسعين وخمسمائة: اشتدّ الغلاء، وآمتدّ البلاء؛ وتحقّقت المجاعة، وتفرّقت الجماعة؛ وهَلكَ القويّ فكيف الضعيف! ونَحُف السمين فكيف العَجيف! وخرج الناس حذَر

---

(١) وقع ذلك في أيام المستنصر الفاطمي، واستمرت المحنة سبع سنين ابتداءً من سنة ٤٥٧هـ.
(٢) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

الموت من الديار، وتفرّق فريقُ مصر في الأمصار؛ ولقد رأيتُ الأرامل على الرمال، والجمال باركةً تحت الأحمال، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللَّقَم، تسترقُّ الجِياع باللُّقَم». اَنتهى.

قال: وجاءت [في شعبان](١) زَلْزلَة هائلة من الصَّعيد هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهَدْمَ خَلْقٌ كثير، ثم آمتدّت إلى الشام والساحل فهدمت مدينة نابُلُس، فلم تُبق فيها جداراً قائماً إلّا حارة السَّمُرة؛ ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً، وهُدمت عكّا وصور وجميع قِلاع الساحل؛ وآمتدّت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقيّة بجامع دمشق، وأكثرَ الكَلّاسة والبيمارسْتان النُّوريّ، وعامّة دور دِمشق إلّا القليل؛ فهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ستّ عشرة شَرَفَة، وتشقّقت قُبّة النَّسْرِ». اِنتهى كلام صاحب المرآة باختصار، فإنّه أمعن وذكر أشياء مهولة من هذا النَّمُوذَج.

وفيها تُوفّي عبد الرحمن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن عُبَيْد الله بن عبد الله بن حُمادَى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجَوْزِيّ بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أبو الفرج بن أبي قُحافة، الشيخ الإمام الحافظ الواعظ المفسِّر العلّامة جمال الدين أبو الفرج القُرَشي(٢) التَّيْمِي البكرِي البغدادِيّ الحنبلِيّ المعروف بآبن الجَوْزِيّ؛ صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم: كالتفسير والحديث والفقه والوعظ والزُّهد والتاريخ والطبّ وغير ذلك. مولده ببغداد سنة عشر وخمسمائة تقريباً بدرب حبيب. وتوفي أبوه وله ثلاث سنين.

قلت: وفضل الشيخ جمال الدين وحفظه وغزير علمه أشهر من أن يذكر هنا، والمقصود أنّ وفاته كانت في ليلة الجمعة بين العشاءين في داره بقَطُفْتا(٣) ودُفِن من

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان. وفي شذرات الذهب: «وفي شعبان كانت الزلزلة العظمى التي عمت أكثر الدنيا».

(٢) كذا في ابن خلكان والشذرات. وفي الأصل: «القيسي».

(٣) محلة بالجانب الشرقي من بغداد.

الغد، وكانت جنازته مشهودة، وكثُر أسف الناس عليه، ولم يخلّف بعده مثله.

قال آبن خلّكان: «وبالجملة فكُتبه أكثر من أن تُعَدّ، وكَتَبَ بخطّه كثيراً، والناس يُغالون في ذلك حتّى يقولوا إنّه جُمِعت الكراريس التّي كتبها، وحُسِبت مدّة عمره وقُسمت الكراريس على المدّة، فكان ما خصّ كلّ يوم تسعَ كراريس؛ وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل. ويقال: إنّه جُمعت بُرايَةُ أقلامه التي كَتَبَ بها حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحَصَلَ منها شيء كثير، وأوصى أن يُسَخَّنَ بها الماء الذي يُغسل به بعد موته فَفُعِل ذلك [فكَفَتْ][1]». اِنتهى كلام آبن خلّكان بآختصار. ومن شعره: [السريع]

يا صاحبي إن كنتَ لي أو معي ... فَعُجْ إلى وادي الحِمَى نَرْتَع
وسَلْ عن الوادي وسُكّانِه ... وآنْشُد فؤادي في رُبَا المَجْمَعِ
حيَّ كثيبَ الرَّمْل رملِ الحمَى ... وقفْ وسلّم لي على لَعْلَعِ[2]
وآسمعْ حديثاً قد رَوَتْه الصَّبا ... تُسْنِدُه عن بانة الأجرع
وآبك فما في العين من فَضْلَةٍ ... ونُبْ فدتك النفس عن مدمعي

وله: [الطويل]

رأيتُ خيالَ الظِّلِّ أعظَم عِبرةً ... لمن كان في أَوْج الحقيقة راقِ
شخوصٌ وأشكال تُمرّ وتَنْقضِي ... وتَفْنَى جميعاً والمحرِّك باقِ

وفيها تُوفّي الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش [بن عبد الله][3] الأَسَدِيّ الخادم الخَصِيّ المنسوب إليه حارة[4] بَهاء الدِّين بالقاهرة داخل باب الفتوح، وهو الذي بنى قَلْعة[5]

(١) زيادة عن ابن خلكان.
(٢) لعلع: اسم مجموعة من الأماكن أوردها ياقوت في معجمه.
(٣) زيادة عن ابن خلكان.
(٤) سبق التعريف بها في الجزء الرابع، ص ٣٨، حاشية (٧).
(٥) راجع ص ٤٩ من هذا الجزء.

الجبل بالقاهرة، والسُّور[1] [على مصر والقاهرة] والقنطرة[2] التي عند الأهرام وغير ذلك؛ وكان من أكابر الخُدّام، من خدّام القصر، وقيل إنّ أصله من خدّام العاضِد، وقيل إنّه من خُدّام أسد الدين شِيرِكُوه وهو الأصحّ. وآتّصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وكان صلاح الدِّين يثِق به ويعوِّل عليه في مهمّاته. ولمّا آفتتح عكّا من الفرنج سلّمها إليه؛ ثم لمّا آستولَوْا عليها أُخِذ أسيراً، ففداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار؛ وقيل: بستين ألف دينار.

قال آبن خلّكان: «والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين، حتّى إنّ الأسعد[3] بن مَمَّاتِي له فيه كتاب لطيف سماه: «الفاشوش في أحكام قراقوش». وفيه أشياء يبعُد وقوع مثلها منه، والظاهر أنّها موضوعة؛ فإنّ صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه. وكانت وفاته في مستهلّ رجب».

وفيها تُوُفِّي محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن عليّ بن محمود بن هبة الله أبو عبد الله، الإمام العلّامة عِماد الدِّين الأصبهانيّ المنشىء المعروف بالعِماد الكاتب، وبآبن أخي العزيز. وُلِد بأصبهان سنة تسع عشرة وخمسمائة وبها نشأ. وقَدِم بغداد مع أبيه وبها تفقّه، وآشتغل بالأدب وبَرَع في الإنشاء، وخَدَم الوزير يحيى [بن محمد] بن هُبَيْرة، وكان أحد كُتّابه. ثم قَدِم دِمشق أيّام نور الدين الشهيد وآتّصل به وخدمه. وكان فاضلاً حافظاً لدواوين العرب، وله

---

(١) انظر خطط المقريزي: ١/٣٧٧.
والسور الذي أنشأه صلاح الدين حول مدينة القاهرة لا تزال بعض أجزائه قائمة إلى اليوم. انظر الوصف الدقيق لبقايا السور في تعليقات الاستاذ محمد رمزي على النجوم، طبعة دار الكتب المصرية، الجزء السادس، ص ١٧٧.

(٢) ذكرها المقريزي باسم قناطر الجيزة (خطط: ٢/١٥١) وهذه القنطرة كانت مكونة من جملة عيون أغلبها مسدود تحت شارع الهرم، وبعضها لا يزال مفتوحاً، والجزء المفتوح قد تجدد جملة مرات، وهو الذي يمر منه اليوم مجرور بحر اللبيني الواقع غربي مصرف المحيط تحت شارع الهرم وعلى بعد ألف وخمسمائة متر من الجهة الشرقية للأهرام بأراضي ناحية نزلة السمان بمركز الجيزة. (محمد رمزي).

(٣) هو الأسعد بن مهذّب بن مينا، المعروف بابن مماتي. وزير أديب. كان ناظر الدواوين في الديار المصرية. توفي سنة ٦٠٦هـ. ولعل أهم كتبه كتاب «قوانين الدواوين». (الأعلام: ١/٣٠٢).

عِدّة مصنّفات، منها: «خريدة القصر في شعراء[١] العصر» وغير ذلك وكان القاضي الفاضل يقول: العِماد الكاتب كالزناد الوقّاد (يعني أنّ النّار في باطنه كامنة، وظاهره فيه فَتْرة). وكانت وفاة العِماد بدمشق في يوم الاثنين غُرَّة شهر رمضان. ودُفِن عند مقابر الصوفية عند المُنَيْبِع. وقيل إنّ العِماد اجتمع بالقاضي الفاضل يوماً في مَوْكِب السلطان فسارا جميعاً، وقد آنتشر الغُبار لكثرة الفُرْسان ما سدَّ الفضاء فتعجَّبَا من ذلك، فأنشد العِمَاد في الحال: [مجزوء الكامل]

أمّـا الـغُـبَـارُ فَـإنَّـهُ ... ممّـا أثـارتْـهُ السَّنَـابِـكْ
والـجَـوُّ مِـنْـهُ مُـظْلِمٌ ... لكِنْ أنـار بـه السَّنَـابِـكْ
يـا دهـرُ لي عبـدُ الرحـ ... ـيم فلستُ أخشى مَسَّ نَابِكْ

ومن شعره: [الخفيف]

دارِ غيـرَ اللَّبيبِ إن كـنتَ ذا ... لُبٍّ ولاطِفْهُ حينَ يـأتي بحـذْقِ
فـأخو السُّكْرِ لا يخاطبـه الصّـا ... حِي إلى أن يُـفيـق إلَّا بِـرِفـقِ

وفيها تُوفِّي محمد بن المبارك بن محمد الطَّهير أبو غالب المصريّ[٢]؛ كان فاضلاً أديباً. وُلِد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة؛ ومن شعره ـ رحمه الله تعالى ـ قوله: [الوافر]

تَقَنَّعْ بـالقليـل وعِشْ عَـزِيزاً ... خفيفَ الظَّهْر من كُلَفٍ وإِثْمِ
وإلَّا هَـيِّ نفسَـك للبـلايَـا ... وَهَـمٍّ واردٍ فـي إثْـرِ هَـمِّ

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هـذه السنة، قـال: وفيها تُـوفي القاضي أبو المكارم أحمد بن محمد بن محمد التَّمِيمِيّ الأصبهانيّ المعروف بابن اللّبان العدل في ذي الحجّة. ومُفيد بغداد تميمُ بن أحمد البَنْدَنِيجِيّ في جُمادى الآخرة، أدرك آبنَ الزَّاغُونيّ[٣]. والإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجَوْزِيّ، وقد

---

(١) في كشف الظنون: «خريدة القصر وجريدة أهل العصر».
(٢) الظاهر أنه بغدادي، ويعرف بابن ميمون. (انظر الأعلام: ١٧/٧ ومصادره).
(٣) راجع وفيات سنة ٥٢٦هـ.

ناهز التسعين. وأبو محمد عبد المنعم بن محمد المالِكيّ فقيه الأندلُس. والأمير بَهاء الدين قراقوش الأَسَدِيّ الخادم الأبيض. ومحمد بن أبـي زيد الكَرَّانِيّ الخبّاز بأصبهان في شوّال، وقد كمّل المائة. والعِماد الكاتب العلّامة محمد بن محمد بن حامد الأصبهانيّ في [شهر] رمضان، وله سبع وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وستّ عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة:

فيها بَرَزَ العادل المذكور من ديار مصر طالباً حلب، وكان الملك الأفضل بحِمْص عند شِيرِكُوه، فجاء إلى العادل فأكرمه العادل وعوّضه عن ميّافارِقِين سُمَيْسَاطَ وسَرُوج، ثم سار العادل ونزل على حَمَاة، وصالحه الملك الظاهر صاحب حلب، وعاد الملك العادل إلى حِمْص.

وفيها تُوفّي عبد الملك بن زَيْد بن يَس التَّغْلَبِيّ الـدَّوْلَعِيّ خطيب دمشق؛ والدَّوْلَعِيَّة: قرية من قُرَى الموصل. قدِم دمشق وآستوطنها وصار خطيبها، ودرّس بالزاوية[1] الغربيّة من جامع دمشق؛ وكان مُنَزَّهاً حسن الأثر حميدَ الطريقة. مات في شهر ربيع الأوّل.

وفيها تُوفّي هبة الله بن الحسن بن المظفّر الهَمَذَانِيّ؛ محدّث آبن محدّث ابن محدّث. كانت وفاته بباب المراتب[2] ببغداد في المحرّم. قال أبو المظفّر: أنشدنا لغيره: [البسيط]

---

(١) الزاوية الغربية هي الزاوية الغزالية، نسبة إلى الإمام أبـي حامد الغزالي. وتعرف أيضاً بزاوية الدولعي وبزاوية القطب النيسابوري وبزاوية الشيخ نصر المقدسي. (الدارس: ١/٣١٣).

(٢) باب المراتب: أحد أبواب دار الخلافة ببغداد. كان من أجل أبوابها وأشرفها. وكان حاجبه عظيم القدر ونافذ الأمر (معجم البلدان). وكانت محلته في أرض رأس الساقية وقبر السيد سلطان علي. (في التراث العربي للدكتور مصطفى جواد: ١/٧٠).

إذا الفتى ذمّ عيشاً في شبيبتِهِ فما يقول إذا عَصْرُ الشباب مَضَى
وقد تعوّضتُ عن كلٍّ بمشبِهِهِ فما وجدت لأيّام الصِّبا عِوضَا

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الملك المُعِزّ إسماعيل آبن سيف الإسلام [طُغتِكِين] صاحب اليمن. وأبو طاهر بركات بن إبراهيم الخُشُوعِيّ. والمحدّث حَمّاد بن هبة الله الحَرَّانِيّ التاجر في ذي الحجّة. وعبد الله [بن أحمد](١) بن أبي المجد الحَرْبِيّ الإسكاف في المحرّم بالمَوْصِل. وزَيْنُ القضاة أبو بكر عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى القُرَشِيّ الزَّكَوِيّ في ذي الحجّة، سمع من جَدّه. وأبو الحسن عبد الرحيم بن أبي القاسم [عبد الرحمن](٢) الشَّعَرِي، أخو زينب في المحرّم. وخطيب دمشق الضِّياء عبد الملك بن زَيْد بن يّس الدَّوْلَعِيّ في شهر ربيع الأول، وله إحدى وتسعون سنة. وقاضي القضاة محيي الدين أبو المعالي محمد آبن القاضي الزَّكِي عليّ بن محمد القُرَشيّ، وله ثمانٍ وأربعون سنة، تُوفّي في شعبان. وأبو القاسم هبَة(٣) الله بن عليّ بن مسعود الأنصاريّ البُوصِيرِيّ في صفر، وله آثنتان وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراع واحدة وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة خمس(٤) عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن الشذرات والذهبي.
(٢) زيادة عن الذهبي.
(٣) في الأصل: «أبو القاسم بن هبة الله» وما أثبتناه عن الذهبي والشذرات.
(٤) ما زالت هذه النسبة غير كافية لري الأراضي. وقد استمر الغلاء في هذه السنة، وكان قد بدأ في سنة ٥٩٦هـ. وسوف تستمر الأزمة حتى السنة القادمة حيث سيبلغ المنسوب ١٧ ذراعاً وهو الحدّ الأدنى المطلوب لريّ الأراضي في ذلك الوقت.

السنة الثالثة من سلطنة الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة تسع وتسعين وخمسمائة:

فيها في ليلة السبت سلخ المحرّم ماجت النجوم في السماء شرقاً وغرباً، وتطايرت كالجراد المنتشر يميناً وشمالاً؛ ولم يُرَ هذا إلّا عند مبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكانت هذه السنة أعظم.

وفيها تُوفّي إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الموفّق الفقيه بن الصقّال الحنبلي. وُلِد سنة خمس وعشرين وخمسمائة. وتفقّه على أبـي يَعْلَى الفرّاء، وسمع الحديث الكثير، وكان شيخاً ظريفاً صالحاً زاهداً. مات في ذي الحجّة، ودُفِن بباب حَرْب ببغداد.

وفيها تُوُفِّيت زمرّد خاتون أمّ الخليفة الناصر لدين الله العباسِيّ ببغداد. كانت صالحة كثيرة البِرِّ والصدقات، وحجّت مرّة فأَنْفَقَت ثلاثمائة ألف دينار، وكان معها نحو ألفي جمل، وتصدّقت على أهل الحرمين، وأصلحت البِرَك والمصانع؛ وعمّرت التُّربة عند قبر معروف الكَرْخِيّ والمدرسة إلى جانبها. وماتت في جُمادى الأولى.

وفيها تُوفّي عليّ بن الحسن بن إسماعيل أبو الحسن [العَبْدِيّ] من(١) عبد القَيْس؛ كان فاضلاً بارعاً في الأدب وغيره، وله شعر جيّد؛ من ذلك قوله ـ رحمه الله تعالى ـ: [السريع]

لا تَسْلُكِ الطُّرْقَ إذا أخطرتْ ... لَوَ آنها تُفْضِي إلى المملكه
قد أنزل الله تعالى: ولا ... تُلْقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَه

وفيها تُوفّي القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم أبو الفضائل ضياء الدين الشَّهْرُزُورِيّ، وهو آبن أخي القاضي كمال الدين [محمد](٢) الشَّهْرُزُورِيّ. كان فقيهاً فاضلاً جَوَاداً كريماً أديباً شاعراً. ومن شعره أوّل قصيدة: [البسيط]

(١) في الأصل: «بن عبد القيس» والتصحيح والزيادة عن الذهبي.
(٢) زيادة عن ابن خلكان والذهبي في ترجمة القاضي ابن أبي عصرون.

في كـلّ يـوم تُـرَى للبين آثـارُ   ومـا له في ٱلتِئام الشَّمْـلِ آثـارُ
يسـطو علينـا بتفـريقٍ فـواعجبـا   هـل كـان للبين فيمـا بيننـا ثـارُ

وفيها تُوفِّي يحيـى بن طاهر بن محمد أبو زكرياء الواعظ، ويعرف بٱبن النجار البغداديّ. كان فاضلاً فصيحاً. وكان ينشد في مجلسه ــ رحمه الله تعالى ــ: [البسيط]

عاشر من الناس من تَبْقَى مودَّتُـهُ   فـأكثرُ النـاس جمـعٌ غيرُ مُـؤْتَلِفِ
منهم صـديقٌ بلا قـاف ومعـرفـةٌ   بغيـر فـاءٍ وإخـوانٌ بـلا أَلِفِ

الـذين ذكر الـذهبـيّ وفاتهم في السنـة، قال: وفيهـا تُوفِّي أبـو القـاسم عبد الرحمن بن مَكِّيّ بن حمزة بن موقا الأنصاريّ الإسكندرانيّ التاجر في شهر ربيـع الآخر، وله أربـع وتسعون سنة. وزَيْن الدين أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن نجا[1] الدمشقيّ الحنبليّ الواعظ بمصر في رمضان، وله إحدى وتسعون سنة، وأبو الحسن عليّ بن حمزة بن عليّ بن طلحة البغداديّ الكاتب بمصر في شعبان. وسلطان غَزْنَة غِياث الدين. وقاضي القضاة ضِياء الدين القاسم بن يحيـى بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُورِي الشافعيّ، وله خمس وستون سنة، ولِي القضاء بدمشق بعد عمّه[2]، ثم ٱستعفى لأمر مّا، ثمّ بعد مدّة ولِي قضاء العراق، ثم ٱستعفى وخاف [العواقب][3] ثمّ سكن حَمَاة؛ وولي قضاءها؛ وبها مات في رجب. والزاهد أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشيّ الهاشميّ الأندلسيّ ببيت المقدس. والشهاب أبو الفضل محمد بن يـوسف الغَزْنَـوِيّ الحنفيّ المقرىء بمصـر. وأبو طـاهر المبـارك بن المبارك [بن هِبة الله][3] بن المَعْطُوش في جُمادى الأولى عن ٱثنتين وتسعين سنة ببغداد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان وست وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً.

* * *

(١) في الأصل: «بن نخالة». والتصحيح عن الذهبي والشذرات.
(٢) وهو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله، الملقب بكمال الدين. راجع وفيات سنة ٥٧٢هـ.
(٣) زيادة عن الذهبي والشذرات.

السنة الرابعة من سلطنة الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ستمائة:

فيها وصل إلى بغداد أبو الفتح بن أبـي نصر الغَزْنَوِيّ رسولاً من صاحب غَزْنة وجلس بباب بدر(١)، وقال: هنيئاً لكم يا أهل بغداد، أنتم تَحْظَوْن بأمير المؤمنين، ونحن محرومون! وأنشد ـ رحمه الله ـ: [المتقارب]

أَلاَ قـل لسكَّـان وادي العـقيق هنيئاً لكم [في](٢) الجِنان الخلودُ
أفيضـوا علينا من المـاء فَيْضـاً فـنحـن عِـطاشٌ وأنتـم وُرُودُ

وفيها تُوفّي الحافظ عبد الغنيّ بن عبد الواحد [بن عليّ](٣) بن سرور أبو محمد المقدسيّ. ولد بجَمَّاعِيل، وهي قرية من أعمال نَابُلُس في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وكان أكبر من الشيخ موفّق(٣) الدين بأربعة أشهر [وهما آبنا خالة](٤). وكان إماماً حافظاً متقناً مصنّفاً ثقةً؛ سمع الكثير ورحل إلى البلاد وكتب الكثير، وهو أحد أكابر أهل الحديث وأعيان حُفّاظِهم، ووقع له مِحنٌ ذكرها صاحب مرآة الزمان، ونجّاه الله منها. ومات في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، ودُفِن بالقرافة عند الشيخ أبـي عمرو بن مرزوق، وكان إماماً عابداً زاهداً ورِعاً. قال تاج الدين الكِنْدِيّ: هو أعلم من الدَّارَقُطْنِيّ(٥) والحافظ أبـي موسى(٦).

قال أبو المظفَّر: وفي هذه السنة سافرتُ من بغداد إلى الشام، وهي أوّل رحلتي، فاجتزتُ بَدقُوقَا(٧) وجلست بها (يعني للموعظة) ثم قدِمت إِرْبِل واجتمعتُ

---

(١) باب بدر: هو أحد أبواب دار الخلافة. كان أولاً يسمى باب الخاصة، يدخل منه من سمت منزلته. ثم نسب بعد ذلك إلى «بدر» أحد خواص الخدم. (مراصد الاطلاع: في الكلام على منظرة الريحانيين).

(٢) زيادة يقتضيها السياق والوزن.

(٣) كان مفتي الأمة شيخ الإسلام سيد العلماء الأعلام في عصره. توفي سنة ٦٢٠هـ.

(٤) زيادة عن تذكرة الحفاظ والشذرات وتاريخ الإسلام.

(٥) تقدمت وفاته سنة ٣٨٥هـ.

(٦) تقدمت وفاته سنة ٥٨١هـ.

(٧) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد. (معجم البلدان).

بمحيي الدين الساعاتيّ، وأنشدني مقطعات لغيره. منها ـ رحمه الله ـ: [البسيط]

رجمتُ أَسْودَ هذا الخال حين بدا في جمرة الخدِّ مَرْمِيًّا بأبصارِ
كأنّه بعضُ عُبّاد المجوسِ وقد ألقى بمهجته في لُجَّة النار

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّيْ منتخَب الدين أبو الفتح أسعد بن أبي الفضائل محمود بن خَلَف العجلي الأصبهانيّ شيخ الشافعيّة ببلده في صفر، وله خمس وثمانون سنة. وأبو سعد عبد الله بن عمر بن أحمد النيسابوريّ الصفّار في رمضان، وله ٱثنتان وتسعون سنة. والحافظ تقيّ الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن عليّ الجَمَّاعِيليّ المقدسيّ في شهر ربيع الأوّل، وله تسع وخمسون سنة، وفاطمة بنت سعد الخير الأنصارية في شهر ربيع الأول، ولها ثمانٍ وسبعون سنة. وبهاء الدين أبو محمد القاسم ٱبن الحافظ عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عساكر في صفر، وله ثلاث وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة إحدى وستمائة:

فيها جاءت الفرنج حَمَاة بغتةً وأخذوا النساء الغسّالات من باب البلد على العاصي، وخرج إليهم الملك المنصور بن تقيّ الدين وقاتلهم وثَبَتَ وأبلى بلاءً حسناً، وكسر الفرنجُ عسكَره، فوقف على الساقة، ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحداً.

وفيها حجّ بالناس من العراق وجهُ السبع، ومن الشام صارم الدين برغش العادلي وزَيْن الدين قراجا صاحب صَرْخَد.

وفيها تُوفّي عبد المنعم بن عليّ [بن نصر][١] بن الصَّيْقَلِيّ أبو محمد نجم الدين الحَرَّانِيّ، قدِم بغداد وتفقّه بها؛ وسمع الحديث؛ ثم عاد إلى حَرّان ووعظ بها وحصل له القبول التام، ثم عاد إلى بغداد وآستوطنها. قال أبو المظفّر سبط آبن الجَوْزِيّ في تاريخه: سمعتُه يُنشِد: [الطويل]

وأشتاقكم يا أهلَ ودِّي وبيننا ... كما زعم البينُ المُشِتُّ فراسخُ

فأمّا الكَرَى عن ناظري فمشرَّدٌ ... وأما هواكم في فؤادي فراسخ

وفيها تُوُفِّي محمد بن سعد الله بن نصر[٢] أبو نصر بن الدَّجَاجِيّ الواعظ الحنبليّ. وُلِد سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ومات في شهر ربيع الأوّل، ودُفِن بباب حرب. ومن شعره ــ رحمه الله ــ: [الرجز]

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها ... كان إلى نيل التُّقى أحوى لها

وإن تراها سدّدت أقوالها ... كان على حَمْل العُلا أقوى لها

وفيها تُوُفِّي ملك خِلاط سيف الدين بَكْتُمر[٣]. كان من أحسن الشباب؛ ولم يبلغ عشرين سنة من العمر، قتله الهزار ديناري[٤]؛ قيل: إنّه غرّقه في بحر خِلاط، وقُتِل الهزار ديناري بعده بمدّة يسيرة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي المحدّث أحمد بن سليمان الحَرْبيّ الملقب بالسُّكَّر. وأبو الفضل محمد بن الحسين بن الخَصيب بدمشق. ويوسف بن المبارَك بن كامل الخَفَّاف. وعبد الله بن عبد الرحمن بن أيّوب الحَرْبِي البَقْلِيّ. وشُمَيْم الحِلِّيّ أبو الحسن عليّ بن الحسن بن عَنْتَر الأديب. ومحمد بن أحمد بن حامد أبو عبد الله الأَرْتَاحِيّ الحنبليّ بمصر، وله بضع وتسعون سنة.

---

(١) زيادة عن الذهبي والشذرات.

(٢) في الأصل: «محمد بن سعد بن نصر الله». وما أثبتناه عن الذهبي.

(٣) تقدمت وفاته سنة ٥٨٩هـ.

(٤) راجع ما ذكره المؤلف عن قتله في وفيات سنة ٥٨٩هـ. وقارن بابن الأثير: حوادث نفس السنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثماني أصابع.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة آثنتين وستمائة:

فيها توجّه ناصر الدين صاحب مارِدِين إلى خِلاط بمكاتبة أهلها وملكها، فجاء الملك الأشرف موسى شاه أرمن آبن الملك العادل هذا فنزل على دُنَيْسِر، وأُقطِع بلادَ مارِدِين؛ فلمّا بلغ ذلك ناصرَ الدين عاد إلى مارِدِين بعد أن غَرِم مائة ألف دينار، ولم تُسَلِّم له خِلاط.

وفيها أغار [آبن][1] لاون على حلب وأخذ الجُشَارَ[2] من نواحي حارِم، فبعث إليه الملك الظاهر غازي آبن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب ـ وهو يومَ ذاك صاحب حلب ـ فارس الدين ميموناً القَصْرِيّ، وأَيْبَك فُطَيْس، والأميرَ حُسام الدين [بن أمير تركمان][3] فتقاتلا قتالاً شديداً، وكان ميمون تقدّم ولولاهما لأُخِذ ميمون؛ فلمّا بلغ ذلك الملكَ الظاهرَ خرج من حلب ونزل مَرْج دَابِق[4]، ثمّ جاء إلى حارِم، فهرب آبن لاون إلى بلاده. وكان آبن لاون قد بنى قلعةً فوق دَرْبَسَاك، فأخذها الظاهر وأخربها، ثم عاد الملك الظاهر إلى حلب.

وفيها حجّ بالناس من العراق وجهُ السَّبُع، ومن الشام الشّجاع عليّ بن السّلّار.

---

(١) زيادة عما سيأتي للمؤلف. وفي ابن الأثير: ١٠/٣١٩ «ابن ليون الأرمني صاحب الدروب». «وابن لاون» اسم كان يطلقه العرب على صاحب بلاد الأرمن.

(٢) الجشار: الماشية.

(٣) زيادة عن الذيل على الروضتين.

(٤) مرج دابق: مرج معشب نزه قرب حلب من أعمال أعزاز. (معجم البلدان).

وفيها تُوُفِّي الأمير طَاشْتِكِين بن عبد الله المُقْتَفَوِيّ(١) مُجير الدين أميرُ الحاجّ؛ حجّ بالناس ستّاً وعشرين حِجّة، وكان يسير في طريق الحجّ مثلَ الملوك. شكاه آبن يونس [الوزير] إلى الخليفة أنّه يكاتب السلطان صلاح الدين صاحب مصر [وزوّر عليه كتابة](٢)، فحبسه الخليفة مدّة، ثم تبيّن له أنّه بريء، فأطلقه وأعطاه خُوزِسْتان؛ ثم أعاده إلى إِمْرَة الحاجّ؛ وكانت الحِلّةُ(٣) إقطاعَه. وكان شجاعاً جَوَاداً سَمْحاً قليل الكلام يَمْضِي عليه الأسبوعُ ولا يتكلّم. استغاث إليه رجل يوماً فلم يكلِّمه، فقال الرجل: الله كلّم موسى، فقال: وأنت موسى! [فقال الرجل: وأنت الله! فقضى حاجته. وكان حليماً. آلتقاه رجل فآستغاث إليه من نوّابه فلم يُجبه](٢) فقال الرجل: أنت حمار؟ فقال طاشتِكِين: لا. وفي قلّة كلامه يقول آبن التَّعَاوِيذِيّ الشاعر المشهور: [الخفيف]

وأميـر على البـلاد مـولًى ... لا يُجيب الشاكي بغير السكوتِ
كلّما زاد رِفْعَة حـطّنا اللّـ ... ـهُ بتغفيله إلى البَهَمُوتِ

وفيها تُوفّي مسعود بن سعد الدين صاحب صَفَد. وأخوه بدر الدين ممدود شِحْنة دمشق، وهما آبنا الحاجب مبارك بن عبد الله، وأمّهما أمّ فرخشاه بن شاهِنْشاه بن أيّوب [ففرخشاه أخوهما لأمّهما](٤)، وأختهما لأمّهما أيضاً الستّ عذراء صاحبة المدرسة العَذْرَاوِيّة المجاورة لقلعة دمشق. وكانا أميرين كبيرين (أعني ممدوداً ومسعوداً) صاحبي الترجمة، ولهما مواقف مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، وتقدّمت وفاة ممدود على أخيه مسعود، فإنّه مات بدمشق في يوم الأحد خامس شهر رمضان من هذه السنة. وتُوفّي مسعود هذا بصَفَد في يوم الاثنين خامس شوّال ــ رحمهما الله تعالى ــ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي سلطان غَزْنَة

(١) في الأصل: «الصغدي». وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب.
(٢) زيادة عن طبعة دار الكتب.
(٣) المراد بها حلة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد. (معجم البلدان).
(٤) زيادة عن ذيل الروضتين.

شهاب الدين [أبو المظفر محمد بن سام][1] الغُورِي، قتلتْه الباطنيّة. وأبو عليّ ضياء الدين بن أبي القاسم [أحمد بن الحسن أبي عليّ][2] بن الخُرَيْف. والمفتي أبو المَفَاخر خلف بن أحمد الأصبهانيّ الفرّاء، وله أربع وثمانون سنة. وأبو يعْلَى حمزة بن عليّ [بن حمزة بن فارس][3] بن القُبَّيْطِيّ، قرأ القرآن على سبط الخيّاط وجماعة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثلاث وستمائة:

فيها فارق وجه السَّبُع[4] الحاجَّ، وقصد الشام مُغْضَباً؛ وكان في الحجّ جماعة من الأعيان، فبكَوْا وسألوه العود معهم على العادة، فقال: مولاي أمير المؤمنين محسن إليّ، وما أشكو إلاّ من الوزير ابن مهدي[5]، وما عن التوجّه بُدٌّ؛ ففارقهم وسار إلى الشام، فتلقّاه الملكُ العادل صاحب الترجمة وأولاده، وأحسن العادل إليه وأكرم نُزُلَه. وحَزِن الخليفة على فراقه.

وفيها وَلَّى الخليفةُ[6] عمادَ الدين أبا القاسم عبدَ الله بنَ الدّامَغانيّ الحنفيّ قاضي قضاة بغداد.

---

(١) زيادة عن الذيل على الروضتين وابن الأثير وتاريخ الإسلام.

(٢) زيادة عن الذهبي والشذرات.

(٣) زيادة عن ابن الأثير.

(٤) وهو مظفّر الدين سنقر مملوك الخليفة، المعروف بوجه السبع. (ابن الأثير).

(٥) هو نصير الدين ناصر بن مهدي الرازي، أبو الحسن. تقلدّ الوزارة سنة ٦٠٢هـ. إلا أنه لم يطق تحكم المماليك بدار الخلافة، فجعل يشردهم، فأكثروا من القول فيه، فعزله الخليفة سنة ٦٠٤هـ وأكرمه. فأقام محترماً إلى أن توفي ببغداد سنة٦١٧هـ . (الأعلام: ٧/٣٥٠).

(٦) هو الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله العباسي. أقام في الخلافة ٤٧ سنة: من سنة ٥٧٥هـ إلى سنة ٦٢٢هـ . (تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٤٤٨).

وفيها قبض[١] الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيليّ، وآستأصله حتّى آحتاج إلى الطلب من الناس.

وفيها نزلت الفرنج على حِمْص، وكان الملك الظاهر غازِي صاحب حلب قد بعث المُبَارِز يوسف بن خَطْلُخ الحلبيّ إليها نجدةً لأسد الدين صاحبها، وحصل القتال بينهم وبين الفرنج وأسِر الصَّمْصَام بن العَلائيّ، وخادم صاحب حمص. ورجع الفرنج إلى بلادهم.

وفيها تُوفّي عبد الرزّاق آبن الشيخ عبد القادر الجيليّ المعروف بالكِيلاني ــ رضي الله عنه ــ وكان عبد الرزاق هذا زاهداً ورِعاً عابداً مُقتَنِعاً من الدنيا باليسير صالحاً ثقة، لم يدخل في الدنيا كما دخل فيها غيرُه من إخوته. وكان مولده سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة، ومات في شوّال ببغداد ودُفن بباب حرب.

وفيها تُوفّي أبو القاسم أحمد آبن المقرىء صاحب ديوان الخليفة ببغداد؛ كان شابّاً حسناً يعاشر ابن الأمير أَصْبَه، وكان آبن أصبه شابّاً جميلاً؛ جلسا يوماً فداعب آبنُ المقرىء آبنَ أَصْبَه فرماه بسِكّين صغيرة، فوقعت في فؤاده فقتلتْه، فسلَّم الخليفة آبنَ المقرىء إلى أولاد أَصْبَه، فلمّا خرجوا به ليقتلوه أنشد: [الوافر]

قَدِمتُ على الإلٰه[٢] بغير زادٍ ... من الأعمال بالقلب السليمِ
وسوء الظن أن تعتدّ زاداً ... إذا كان القدوم على كريم

فقتلوه ــ رحمه الله تعالى ــ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الصَّيْدَلانِيّ، وله أربع وتسعون سنة. وأبو عبد الله محمد بن مُعَمَّر [بن عبد الواحد بن رجاء][٣] بن الفاخِر القُرشيّ. وأبو بكر عبد الرزّاق بن عبد القادر بن أبي صالح الجِيليّ الحافظ في شوّال، وله خمس وسبعون سنة.

---

(١) وكان ذلك بسبب فسقه وفجوره، كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير.
(٢) في ابن الأثير وابن كثير: «الكريم».
(٣) زيادة عن الذهبي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وأربع أصابع.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة أربع وستمائة.

فيها ملك الأوحد ابن الملك العادل صاحب الترجمة خِلاط بمكاتبة أهلها بعد قتل ابن بُكْتُمُر والهزار ديناري المقدّم ذكرهما؛ وكانت بنت بكتمر مع صاحب أَرْزَن[1] الروم، ــ فقالت بعد قتل أخيها ــ: لا أرضى حتى تَقتل قاتلَ أخي، وهو الهزار ديناري وتأخذَ بثأره؛ فسار صاحب أَرْزَن إلى خِلاط، وخرج الهزار ديناري للقائه، فضربه صاحب أَرْزَن فأبان رأسه، وعاد إلى أرزن الروم. وبقِيتْ خلاط بغير ملك، وكان الأوحد بن العادل صاحب ميّافارِقين، فكاتبوه أهلُ خلاط فجاء إليهم واستولى عليها[2].

وفيها حجّ بالناس من العراق ياقوت.

وفيها تُوفّي محمود[3] بن هبة الله بن أبي القاسم الحلبيّ أبو الثناء البَزّاز. كان فاضلاً، قرأ القرآن، وسمع الحديث على إسماعيل بن موهوب بن الجَوَالِيقي،

---

(١) أرزن الروم: مدينة في تركيا، من بلاد أرمينية. وقد سماها العرب أرزن الروم، وأرززوم أو أرض الروم. وعرفها الأرمن باسم «كرن» Karin، والروم باسم ثيودوسيوبوليس. وهي المدينة الإسلامية في بلاد قاليقلا. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩، ومراصد الاطلاع: ١/٥٥، وتقويم البلدان: ٣٧٨).

(٢) في رواية ابن الأثير أن صاحب خلاط في ذلك الوقت كان «بلبان» مملوك شاه أرمن بن سكمان. وكان قد استولى عليها بعد عزل ابن بكتمر. ولما طمع بها الملك الأوحد استنجد صاحبها بلبان بمغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم، فحضر واجتمعا على نجم الدين وهزماه. ثم إن ابن قلج أرسلان غدر بصاحب خلاط وقتله طمعاً في البلاد؛ غير أن أهل خلاط امتنعوا عليه وكاتبوا نجم الدين. (انظر ابن الأثير: حوادث سنتي ٦٠٣ و ٦٠٤هـ).

(٣) في الأصل: «محمد». وما أثبتناه عن الشذرات.

وحَكَى عنه قال: كنتُ في حَلْقة والدي بجامع القصر، فوقف عليه شابّ وقال: ما معنى قول القائل: [البسيط]

وَصْلُ الحبيبِ جِنانُ الخُلْدِ أسكُنها ... وهجرُه النارُ يُصْلِيني به النارا
فالشمسُ بالقوس أضحت وهي نازلةٌ ... إن لم يَزُرْني وبالجَوْزاء إن زارا

فقال له والدي: يا بنيّ، هذا شيء يتعلّق بعلم النجوم لا بعلم الأدب. ثم قام والدي وآلَى نفسه ألاّ يعود إلى مكانه حتّى ينظر في علم النجوم، ويعرفَ مسير الشمس والقمر، فنظر فيه وعَلِمه. ومعنى الشعر: أنّ الشمس إذا نزلت القوس يكون الليل في غاية الطول، وإذا كانت في الجَوْزاء كان في غاية القِصَر.

قلت: ومحصول البيتين: أنّه إذا لم يزره محبوبه كان الليل عليه أطول الليالي، وإذا زاره كان عليه أقصر الليالي، فقصد القوس للطُّول، والجوزاء للقِصَر. وهذا يُشبِه قول القائل، وقد تقدّم ذلك في غير هذا المحلّ من هذا الكتاب: [البسيط]

ليلِي ولَيلَى نفى نومي آختلافهما ... بالطُّول يا طوبى لو آعتدلا
يجود بالطُّول ليلِي كلّما بَخِلتْ ... بالطَّوْل لَيْلَى وإن جادت به بَخِلا

ومثل هذا قول شرف الدين أحمد بن نصر بن كامل ـ وقيل هما لغيره ـ: [البسيط]

عهدي بهم ورِداءُ الوصل يجمعنا ... والليلُ أطولُه كاللَّمْح بالبصر
فاليوم ليليَ مذ غابوا فديتهم ... ليلُ الضرير فصبحي غير مُنْتَظَرِ

ويُعجبني قول من قال ـ وهو قريب من هذا المعنى إن لم يكن هو بعينه ـ: [الكامل]

هجم السُّهاد على عيوني في الدُّجَى ... سرق الرقادَ ودمعُ عيني سافحُ
وغداً يسامح للدجى في بيعه ... واللِّصُّ كيف يبيع فهو الرابحُ

وقد آستوعبنا هذا النوع (أعني ما قيل في طول الليل وقصره في كتابنا

المسمّى: بـ«حلية الصفات في الأسماء والصناعات» فلينظُر هناك في حرف الطاء المهملة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي حَنْبل بن عبد الله ابن الفرج بن سُعادة أبو عليّ الرُّصَافيّ المكبِّر الدلّال في المحرّم. وعبد المجيب بن عبد الله بن زُهَيْر الحَرْبِيّ بَحَمَاة. وأبو الفضل عبد الواحد بن عبد السلام بن سلطان المقرىء. وستّ الكَتَبة نعمة بنت عليّ بن يحيى بن محمد بن الطراح[١] بدمشق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وسبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وستمائة.

• فيها زُلْزلت نيسابور زَلْزَلة عظيمة دامت عشرة أيام، فمات تحت الردم خلقٌ كثير.

وفيها[٢] آتّفق الفرنج من طرابلس وحصن[٣] الأكراد على الإغارة على أعمال حِمْص، فتوجّهوا إليها وحاصروها، فعجز صاحب حمص أسد الدين شِيرِكُوه عنهم، ونَجَدَهُ آبن عمّه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فعاد الفرنج إلى طرابُلس. وبلغ السلطان الملك العادل صاحبَ الترجمة، فخرج إليهم من مصر بالجيوش وقصد عَكّا، فصالحه صاحبها، فسار حتّى نزل على بحيرة حمص[٤] وأغار على بلاد طرابُلس وأخذ من أعمالها حصناً صغيراً.

(١) في الأصل: «نعمة بنت علي بن يحيى بن الطوّاح» وما أثبتناه رواية الذهبي.

(٢) ذكر ابن الأثير هذه الواقعة في السنة الماضية.

(٣) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل المقابل لحمص من جهة الغرب. (معجم البلدان).

(٤) في ابن الأثير: «بحيرة قَدَس». وكلاهما صحيح وتعرف أيضاً ببحيرة قطينة. وهي بحيرة اصطناعية، رومانية المنشأ. تقع في الجنوب الغربي من مدينة حمص، على بعد عشرة كيلو مترات. وتغذى بمياه نهر العاصي.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي قاضي القضاة صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن دِرْباس بمصر عن تسع وثمانين سنة. والقاضي أبو الفتح محمد بن أحمد بن بَخْتِيار بواسِط في شعبان، وله ثمانٍ وثمانون سنة. وأبو الجُود غِياثُ بن فارس اللَّخميّ مقرىء ديار مصر. وأبو بكر محمد بن المبارك، آبن مَشِّق محدّث بغداد، وله آثنتان وسبعون سنة. والحسين بن أبي نصر [بن الحسين بن هبة الله بن أبي حَنيفة][1] بن القارص الحريميّ[2] الضرير آخر من رَوَى شيئاً عن المُسْنَد، تُوفِّي في شعبان. وخطيب القُدْس عليّ بن محمد بن عليّ بن جَمِيل المعافِري.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ستٍّ وستمائة.

فيها[3] تُوفّي الحسن بن أحمد [بن محمد] بن حِكِّينا[4] من أهل الحرم الطاهريّ؛ كان فاضلاً رئيساً شاعراً. ومن شعره: [الكامل]

قد بان لي عُذْرُ الكرام وصدُّهم ... عن أكثر الشعراء ليس بعارِ
لم يسأموا بذل النوال وإنّما ... جَمَدَ النَّدَى لبرُودة الأشعار

وفيها تُوفّي محمد بن عمر بن الحسين العلّامة أبو المعالي[5] فخر الدين

(١) زيادة عن الذهبي والشذرات.
(٢) كذا في الذهبي والشذرات. وفي الأصل: «ابن الفارض محمد».
(٣) في الشذرات وفوات الوفيات أن وفاته سنة ٥٢٨هـ.
(٤) في الأصل وفوات الوفيات: «ابن جكينا» بالجيم المعجمة. والتصحيح والزيادة عن الشذرات وتاج العروس.
(٥) في ابن خلكان والشذرات وعيون الأنباء: «أبو عبد الله».

الرازيّ المتكلّم صاحب التصانيف في علم الكلام والمنطق والتفسير. كان إماماً بارعاً في فنون من العلوم، صنّف «التفسير» و «المحصل» و «الأربعين» و «نهاية العقول» وغير ذلك. قال صاحب المرآة: «وآختصّ بكتب آبن سينا في المنطق وشَرَحَها؛ وكان يعِظ وينال من الكَرّامِيّة[١] وينالون منه، ويكفّرهم ويكفّرونه، وقيل: إنهم دسُّوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته؛ وكانوا يرمونه بالكبائر، وكانت وفاتُه في ذي الحِجّة. ثم ذكر عنه صاحب المرآة أشياء، الأليق الإضراب عنها والسّكات عن ذكرها.

وفيها تُوفّي المبارَك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو السعادات مجد الدين بن الأثير المَوْصِليّ الجَزَرِيّ الكاتب؛ وُلِد سنة أربعين وخمسمائة بجزيرة آبن عمر، ثم آنتقل إلى الموصل وكتب لأمرائها، وكانوا يحترمونه، وكان عندهم بمنزلة الوزير الناصح إلّا أنّه كان منقطعاً إلى العلم قليل الملازمة لهم. صنّف الكُتب الحِسان، منها: «جامع الأصول في أحاديث الرسول»، جمع فيه بين الصِّحاح الستة. وكتاب «النهاية في غريب الحديث» في خمسة مجلدات. وكتاب «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشّاف» في تفسير القرآن، أخذه من تفسير الثّعلبيّ والزمخشريّ؛ وله كتاب «المصطفى والمختار في الأدعية والأذكار» وله كتاب لطيف في صناعة الكتابة، وكتاب «البديع في شرح الفصول في النحو لابن الدّهان» وله «ديوان رسائل»، وكتاب «الشافي في شرح مسند الإمام الشافعيّ» ــ رضي الله عنه ــ. ومن شعره ــ رحمه الله ــ ما أنشده لصاحب الموصل، وقد زَلّتْ به بغلته وألقته إلى الأرض: [السريع]

إن زلّتِ البغلةُ من تحته ... فإنّ في زَلّتها عُذْرَا

حمّلها من عِلْمه شاهقاً ... أو من ندى راحته بحرَا

وكانت وفاته بالموصل في يوم الخميس سلخ ذي الحجّة، ودفن برباطه

---

(١) الكرّامية: من فرق الابتداع في الإسلام ينتسبون إلى محمد بن كرّام بن عراق بن حزابة المتوفى سنة ٢٥٥هـ. كان يقول بأن الله تعالى مستقرّ على العرش وأنه جوهر. (الأعلام: ١٤/٧).

بدرب دَرَّاج[١]، وهو أخو أبـي الحسن[٢] عليّ بن الجَزَرِيّ الكاتب.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هـذه السنة، قـال: وفيها تُـوفّي القاضي وجيه الدين أسعـد بن المُنَجَّا التَّنـوخيّ في المحرّم، ولـه سبـع وثمانـون سنة. وأبو مسلم المؤيّد [هشام] بن عبد الرحيم [بن أحمد بن محمد][٣] بن الإخوة العدل بأصبهان في جُمَادى الآخرة. وأبو عبد الله محمود بن أحمد المُضَرِيّ الأصبهانيّ إمام جامـع أصبهان عن تسـع وثمانين سنة. وأبـو القاسم إدريس بن محمـد العطّار بأصبهان، وله نحو مائة سنة. وفخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازيّ المصنّف آبن خطيب الريّ يوم عيد الفطر، وله آثنتان وستون سنة. ومجد الدين يحيـى بن الربيـع الواسطيّ مدرس النظاميّة عن ثمان وسبعين سنة. ومجد الدين أبو السعادات المبارك بن الأثير الجَزَرِيّ الكاتب صاحب «جامـع الأصول» و «النهاية» في سلـخ العام، وله ثلاث وستون سنة. وأمّ هانىء عُفَيْفَة بنت أحمد الفارِفانيَّة[٤] مُسْنِدة أصبهان، ولها ستّ وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبـع وستمائة.

فيها حـجّ بالناس من الشام سيف الدِّين عليّ بن عَلَم الدين سليمان بن جَنْدَر.

وفيها تُوفّي أَرْسلان شاه بن عزّ الدين مسعود الأمير نور الدين الأَتَابَك صاحب

(١) درب درّاج: محلة كبيرة في وسط مدينة الموصل. (معجم البلدان).

(٢) هو المؤرخ الشهير صاحب الكامل في التاريخ. وهو أخو ابن الأثير الأديب الكاتب صاحب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر».

(٣) زيادة عن الذهبي والشذرات.

(٤) نسبة إلى «فارفان» بفائين موحدتين؛ من قرى أصبهان.

الموصل؛ كان متكبِّراً جبّاراً بخيلاً فاتكاً سفّاكاً للدماء؛ حبَسَ أخاه عماد الدين[١] سنين حتّى مات في حبسه، وولّى الموصلَ لرجل ظالم يقال له السراج فأهلك الحَرْث والنَّسْل، وكانت وفاة أرْسلان هذا في صفر. وخلّف ولدين: القاهر مسعوداً وزنكي، وأوصى إلى بدر الدين لؤلؤ[٢] أن يكون مسعودٌ السلطانَ ويكون زنكي في شَهْرُزُور.

وفيها تُوفّي عبد الوهاب بن عليّ الشيخ أبو محمد الصُّوفيّ ضياء الدين المعروف بابن سُكَيْنَة سِبْط شيخ الشيوخ إسماعيل بن أحمد النَّيْسابوريّ. وكان فاضلاً محدِّثاً عابداً زاهداً، وكان يُنشد لمحمد الفارِقِيّ ــ رحمه الله ــ: [المتقارب]

تحمَّلْ أخاك على خُلْقِه فما في آستقامته مَطْمَعُ
وأنّى له خُلُقٌ واحد وفيه طبائعه الأربعُ

وفيها تُوفّي عمر بن محمد بن مُعَمّر بن أحمد بن يحيى بن حَسّان المُسْنِد الكبير رُحْلَة[٣] الآفاق أبو حفص بن أبي بكر البغداديّ الدَّارَقَزِّيّ المؤدِّب المعروف بآبن طَبَرْزَذ، والطَّبَرْزَذ: هو السكّر. وُلد في ذي الحجّة سنة ست عشرة وخمسمائة، وسمع الكثير بإفادة أخيه المحدّث أبي البقاء محمد ثم بنفسه، وحصّل الأصول وحفِظها إلى وقت الحاجة إليه، فلمّا كَبِرتْ سِنُّه حدّث بالكثير، وصار رُحْلَةَ الزمان إلى أن مات في تاسع شهر رجب ببغداد؛ ودُفِن بباب حرب.

وفيها تُوفّي محمد بن أحمد بن محمد بن قُدَامة بن مقدام الإمام القُدْوة الزاهد أبو عمر المقْدِسيّ الجَمَّاعِيليّ. قال آبن أخته الحافظ ضياء الدين: مولده في سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة بجمّاعِيل، وسمِع الكثير بدِمَشق من والده وخَلْقٍ كثير سواه، وروى عنه أخوه الشيخ المُوَفَّق وولداه شرف الدين عبد الله وشمس الدين عبد الرحمن وجماعة كثيرة، وكان إماماً عالماً زاهداً وَرِعاً مُتْقِناً متعبِّداً؛ قال

---

(١) في ابن الأثير: «علاء الدين».

(٢) هو الملك الرحيم الأتابك بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي صاحب الموصل. عاش ما بين ٥٧٠ و ٦٥٧هـ. (الأعلام: ٦/ ١١١).

(٣) الرُّحلة (بضم الراء): من يرتحل إليه لطلب العلم منه.

أبو المظفّر: وكان معتدلَ القامة حسنَ الوجه، عليه أنوار العبادة، لا يزال مبتسماً، نحيلَ الجسم من كثرة الصيام والقيام. ثم قال ــ بعد كلام طويل وبعد أن أورد أشعاراً كثيرة ــ: وأنشدني لغيره: [مجزوء الكامل]

لـي حـيـلةٌ فـيـمَـنْ يـنـمُّ ... ولـيس فـي الـكـذّاب حيـله
مـن كـان يـخـلُق مـا يـقـو ... ل فـحـيـلـتـي فـيـه قـليـله

وفيها توفي الوجيه بن النُّورِيّ المصري الفقيه المقرىء الحنفيّ إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق؛ كان صالحاً ديّنا فقيراً قارئاً للقرآن بالسبع. قال أبو المظفّر: وأنشد لغيره: [الطويل]

ومن عـادة السـادات أن يتفقّـدُوا ... أصـاغرهم والمكْـرُمَـاتُ مصـايـدُ
سليمـانُ ذو ملك تفقـد هُـدْهُـداً ... وإنّ أقـلّ الـطائـرات الهـداهـدُ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو محمد جعفر بن محمد [بن أبي محمد][1] بن آموسان[2] الأصبهانيّ بعد حَجِّه بالمدينة في المحرّم، وله خمس وسبعون سنة. وأبو محمد عبد الوهّاب آبن الأمين عليّ بن سُكَيْنة الصوفيّ مسند العراق وشيخها، وله ثمان وثمانون سنة. مات في شهر ربيع الآخر. والشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدَامة الزاهد شيخ المقادسة في شهر ربيع الآخر، وله تسع وسبعون سنة. وعائشة بنت مُعَمَّر بن الفاخر عن بضع وثمانين سنة. وأبو الفرج محمد بن هبة الله بن كامل الوكيل ببغداد عن خمس وثمانين سنة. وأبو حفص عمر بن محمد بن مُعَمَّر بن طَبَرْزَد عن إحدى وتسعين سنة، كلاهما في رجب. وأبو المجد زاهِر بن أحمد بن أبي غانم الثَّقَفِيّ الأصبهانيّ وقد قارب التسعين في ذي القعدة. وأسعد بن سعيد [بن محمود بن محمد بن أحمد بن جعفر][3] بن رَوْح التاجر بأصبهان في ذي الحجّة، وله تسعون سنة، وختم به حديثُ الطَّبَرَانِيّ في الدنيا.

---

(١) زيادة عن الذهبي.
(٢) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «أبو بيان».
(٣) زيادة عن الذهبي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يوجد له قاعٌ في هذه السنة. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وأربع أصابع، بعد ما توقّف عن الزيادة أيّاماً.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمانٍ وستمائة.

فيها قدِم بغداد رسول جلال الدين حسن صاحب أَلَمُوت[١]، يخبر الخليفة بأنّهم تبرّؤوا من الباطنيّة، وبَنوا الجوامع والمساجد، وأُقيمت الجمعة والجماعات عندهم، وصلُّوا التراويح في شهر رمضان؛ فسرّ الخليفة والناس بذلك. وقَدِمت الخاتون أمّ جلال الدين حاجّةً، وآحْتَفَلَ بها الخليفة، وجهّز لها ما يليق بها.

وفيها بعث الخليفة الناصر لدين الله خاتمه للأمير وجه السَّبُع بالشام، وقد تقدّم ذكره فيما مضى، فتوجّه وجهُ السبع إلى الخليفة ومعه رسول الملك العادل صاحب الترجمة، فأكرم الخليفة وجه السبع، وأعطاه الكوفةَ إقطاعاً.

وفيها تُوفّي عبد الواحد بن عبد الوهّاب بن عليّ بن سُكَيْنَة ويُلَقّب بالمعين. وُلِد سنة آثنتين وخمسين وخمسمائة، وسافر إلى الشام في أيام الأفضل، وبسط لسانه في الدولة، ثم عاد إلى بغداد بأمان من الخليفة؛ ووَلِيَ مشيخة الشيوخ[٢]. ومات غريقاً في البحر، وكان سمِع جدَّه لأمّه شيخ الشيوخ عبد الرحيم[٣] وغيرَه. وأنشد لجَدّه المذكور قوله في الخِضَاب: [الوافر]

---

(١) راجع ص ١٠٦ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) مشيخة الشيوخ: هي وظيفة شيخ الشيوخ الذي يتولى الإشراف على رجال الطرق الصوفية. وفي عصر الأيوبيين والمماليك كان لقب شيخ الشيوخ لقباً فخرياً يطلق على شيخ الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) التي بناها صلاح الدين. (صبح الأعشى: ٣٨/٦ و ٣٧/١١، والألقاب الإسلامية: ٣٦٦، والروضتين: ٩١/١).

(٣) ورد ذكره في حوادث سنة ٥٨٠هـ.

ولم أخْضِب مَشيبِي وهــو زَيْـنٌ لإيثــاري جهــالاتِ الـشـبــابِ
ولكن كـي يَـرَاني مـن أُعــادِي فــأُرْهِبَــه بــوَثْبــات التّصــابِي

وفيها تُوفّي مظفر الماسكِي البغداديّ؛ كان ظريفاً أديباً، وكان يقول من الشعر «كان وكان»(١) وغيره. ومن شعره في «كان وكان» قوله:

ذي زوجها ما شطها وكل من جا حفّها قَصْدُهْ يرى النقش عندهْ في كفّها ألوانْ
إن شندرت فلوجهه تصيب قبلَ كُفُوفْها ما صحّ ذاك النشادرْ إلاّ من الدّخانْ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو المعالي محمد ابن صالح آخر من حدّث عن المَيُورْقِيّ. ويحيى بن البنّاء، وله تسعون سنة. وأبو الفتح منصور بن عبد المنعم بن عبد الله بن محمد الفَرَاوِيّ العدل بنَيْسابور، وله ستّ وثمانون سنة في شعبان. والقاضي أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سَنَاء المُلك بمصر. وأبو عبد الله محمد بن أيّوب بن محمد بن وهب بن محمد بن وهب بن نُوح الغَافِقِيّ بَبَلَنْسِيَة، وله ثمانٍ وسبعون سنة. والخِضْر بن كامل [بن سالم](٢) بن سبيع الدلّال بدِمَشق. وأبو العبّاس أحمد بن الحسن بن أبي البَقَاء العَاقُوليّ في ذي الحِجّة ببغداد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

(١) كان وكان: أحد الأوزان المستحدثة في الشعر. اخترعه البغداديون وسموه بذلك لأنه غالباً ما يشتمل على الحكايات والقصص. (النجوم الزاهرة: ٢٠٤/٦، حاشية (٣) طبعة دار الكتب المصرية).

(٢) زيادة عن الذهبي.

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة تسـع وستمائة.

فيها آجتمـع الملك العادل المذكور وأولاده: الكامل والفائز والمعظَّم على دِمْياط لقتال الفرنـج، وكان الأمير أُسَامة[١] بالقاهرة، فأُتُّهِم بمكاتبة الملك الظاهر غازِي صاحب حلب، ووجدوا كُتُباً إليه وأجوبة؛ فخرج أُسامة المذكور من القاهرة كأنّه يتصيّد وساق إلى الشام في مماليكه يطلب قلعة كَوْكَب وعَجْلُون. وكان ذلك في يوم الاثنين سَلْخ جُمادى الآخرة. فأرسل والي بُلْبَيس الحَمَام إلى دِمْياط بالخبر؛ فقال العادل: من ساق خَلْفَه فله أموالُه وقِلاعه؛ فقال ولده الملك المعظم عيسى: أنا، ورَكِب من دِمْياط يوم الثلاثاء غُرّةَ رجب. قال أبو المظفَّر سبط آبن الجَوْزِيّ: «وكنتُ معه، فقال لي: أنا أريد أن أسوق فأبقَ أنت مـع قُماشي ودفَـع لي بغلة، وساق ومعه نفر يسير وعلى يده حِصان، فكان صباح يوم الجمعةِ بغَزَّة، [ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيّام][٢] فسبق أسامة. [وأمّا أسامة][٢] فتقطّـع عنه مماليكُه وبقي وحدَه؛ وكان به مرض النِّقْرِس (يعني بأسامة)، فجاء إلى بلد الدَّارُوم[٣]؛ وكان المعظّم أَمْسك عليه من البحر إلى الزَّرْقاء[٤]، فرآه بعض الصيّادين في برية الدَّارُوم فعرفه، فقال له: اِنزلْ، فقال: هذه ألف دينار وأوصلْني إلى الشام، فأخذها الصيّاد وجاء إلى رِفاقه، فأخذوه على طريق الخَلِيل[٥] ليحملوه إلى عَجْلُون، فدخلوا به إلى القُدْس في يوم الأحد في سادس رجب بعد وصول المعظَّم بثلاثة أيام، فتسلّمه المعظّم وأنزله بصِهْيَوْن، وبعث إليه بثياب وطعام ولاطفه وقال له: أنت شيـخ كبير وبك نِقْرِس وما تصلُح لك قلعة، سَلِّم إليّ كَوْكَب وعَجْلُون، وأنا أَحْلِف لك على مالك

(١) هو الأمير عز الدين أسامة الصلاحي، نائب كوكب وعجلون. وبه انقرضت الصلاحية. (شفاء القلوب: ٢٢٠، والسلوك: ١/٢٠٨).

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب، عن مرآة الزمان.

(٣) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر، الواقف فيها يرى البحر، إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ. (معجم البلدان).

(٤) الزرقاء: موضع بالشام بناحية معان. (معجم البلدان).

(٥) في الأصل: «الجبل». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

وجميع أسبابك، وتعيش بيننا مثلَ الوالد. فآمتنع وشَتَم المعظَّم، فبعث به المعظَّم إلى الكَرَك فآعتقله بها، وآستولى على قِلاعه وأمواله وذخائِره، فكان قيمةُ ما أخَذ منه ألفَ ألف دينار.

وفيها حجّ بالناس من العراق حُسَام الدين بن أبي فِراس نيابةً عن محمد بن ياقوت، وكان معه مال وخِلَع لقَتَادة صاحب مكّة. وحجّ بالناس من الشام شجاع الدين بن مُحَارِب، من على أَيْلَة[1].

وفيها تُوفّي الملك الأوحد نجم الدين أيّوب آبن السلطان الملك العادل أبي بكر صاحب الترجمة. كان صاحبَ خِلاط وغيرها في أيام أبيه الملك العادل، وقد تقدّم ذكرُ أخذه خِلاطَ وغيرَها؛ وكان قد آبتلي بأمراض مزمنة، وكان يتمنّى الموت، وكان قد استزار أخاه الملك الأشرف موسى من حَرّان، فأقام عنده أياماً، وآشتدّ مرضه فطلب الأشرفُ الرجوع إلى حَرّان لئلا يتخيّل منه الأوحد، فقال له الأوحد: يا أخِي، لِمَ تُلِحّ في الرَّوَاح! والله إنّي ميِّت وأنت تأخذ البلاد من بعدي، فكان كذلك. وملك الأشرفُ بعد موته خِلاطَ وأحبّه أهلها. كلُّ ذلك في حياة أبيهما الملك العادل هذا. فكانت مدّة تملُّك الأوحد خلاطَ أقلّ من خمس سنين، ووجد عليه الملكُ العادل كثيراً.

وفيها تُوفّي محمود بن عثمان بن مكارم أبو الثناء الحنبليّ؛ كان شيخاً زاهداً عابداً صاحب رياضات ومجاهدات يصوم الدهر، وآنتفع بصحبته خَلْق كثير، وكان من الأبدال.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو جعفر أحمد آبن عليّ الأَنْصَاريّ الدَّانِيّ الحَصّار المقرىء ببَلَنْسِيَة؛ آستُشْهِد في وقعة[2] العقاب

(١) أيلة: هي المعروفة اليوم باسم العقبة.

(٢) هي الوقعة المشهورة عند الموضع المعروف اليوم باسم Las Navas de Tolosa بمديرية جيّان الحالية على بعد خمسة كيلومترات شمال شرقي لاكارولينا La Carolina. وكانت تلك الوقعة في ١٥ صفر ٦٠٩هـ/١٧ يوليو ١٢١٢م. وقد كانت تلك الوقعة بين الملك الناصر محمد بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب والأذفونش صاحب طليطلة وقشتيلة. (انظر في ذلك الروض المعطار: ٤١٦، والبيان المغرب: ٣/٢٤٠).

هو وخَلْق من المسلمين. وأبو الفرج محمد بن عليّ بن حَمْزة بن القُبَّيطيّ، وله نيِّف وثمانون سنة. والحافظ أبو نِزار رَبيعة بن الحسن الحَضْرَمِيّ اليَمَنِيّ بمصر عن آثنتين[١] وثمانين سنة. وأبو [شجاع][٢] زاهر بن رُسْتم المقرىء بمكّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة عشر وستمائة.

فيها حجّ بالناس من العراق آبن أبي فِراس نيابةً عن آبن ياقوت. وحجّ بالناس من الشام الغرز صدِّيق بن تمرداش التُّرْكُمانِيّ من على عَقَبة أَيْلَة بحُجَّاج الكَرَك والقُدْس. وحجّ في هذه السنة الملك الظافر خِضْر آبن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب من على تَيْماء[٣]، ومعه حجّ الشام بإذن عمِّه السلطان الملك العادل ــ فيما قيل ــ، فلمّا بلغ الملكَ الكاملَ محمّد بن العادل أنّه توجّه إلى الحجاز خاف على بلاد اليمن منه، فوجّه إليه عسكراً من مصر فلحِقُوه، وقالوا له: اِرجع؛ فقال: قد بقي بيني وبين مكّة مسافة يسيرة، والله ما قصدي اليمن، وإنّما قصدي الحجّ، فقَيَّدوني وآحتاطوا بي حتّى أقضي المناسك وأعودَ إلى الشام؛ فلم يلتفتوا لكلامه؛ فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة، فرجع إلى الشام ولم يحجّ.

وفيها تُوُفِّي الأمير أَيْدُغْمُش صاحب هَمَذَان؛ أرسله الخليفة إلى همذان فسار وآنتظر العسكر وطال عليه الأمر فرحل عن هَمَذان. فآلتقاه عسكر مَنْكِلي بُغا ملك

---

(١) في تاريخ الإسلام: «عن أربع وثمانين سنة».

(٢) زيادة عن الذهبي في تاريخ الإسلام.

(٣) تيماء: بلد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى على طريق حج الشام ودمشق. (معجم البلدان).

التتار، وقاتلوه فقتلوه، وحملوا رأسه إلى مَنْكَلِي بُغا المذكور. وكان أميراً صالحاً كثير الصدقات ديِّناً صائماً عادلاً كثير المحاسن ـ رحمه الله ـ.

وفيها تُوفي الوزير الرئيس سعيد بن عليّ بن أحمد أبو المعالي بن حَدِيدَة من ولد قُطْبَة بن عامر بن حَدِيدَة الأنصاريّ الصحابـيّ. وكان مولده بكَرْخ سَامَرّا سنة ست وثلاثين وخمسمائة؛ وكان له مال كثير، وآستوزره الخليفة الناصر لدين الله، ووقـع له بعد ذلك مِحَنٌ، فهرب وآختفى إلى أن تُوُفّي.

وفيها تُوفّي الأمير سنجر [بن عبد الله][1] الناصِريّ صِهْر طَاشْتِكِين، وكان ذليلاً بخيلاً ساقط النفس مـع كثرة المال. وتولّى إمْرَة الحـاجّ [سنة تسـع وثمـانين وخمسمائة][1] فاعترض الحاجَّ رجل بدويّ في نفر يسير جدّاً، وكان مـع سنجر هذا خمسمائة نفس، فذلّ وجَبُن عن ملاقاته، وجَبَـى له مالاً من الحـجّ؛ فلمّا دخل بغداد رَسَم عليه الخليفة حتّى أخذ منه المال وردّه إلى أصحابه، ثمّ عزله وأخذ إقطاعه.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو الحسن مهذّب الدين عليّ بن أحمد بن عليّ [المعروف بابن هُبَل][2] البغـداديّ الطبيب بالمَوْصِل. وأبو عبد الله الحسين[3] بن سعيد بن الحسين بن شُنَيْف الدَّارَقَزِّيّ الأمين ببغداد، كلاهما في المحرّم. وأمّ النور عين الشمس بنت أحمد بن أبـي الفـرج الثَّقَفِيَّة، ولها ستّ وثمـانون سنـة. وأبو مسعـود عبد الجليـل بن أبـي غالب [بن أبـي المعالي بن محمد بن الحسين][2] بـن منـدويه الصـوفيّ بدمشق عن ثمـانٍ وثمانين سنة، وإنّما سمِـع في كِبره. وتاج الأمناء أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقيّ. والفخر إسماعيل بن عليّ الحنبليّ المتكلّم غلام بن المنّي.

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب.
(٢) زيادة عن الذهبـي.
(٣) في الأصل: «الحسن». وما أثبتناه عن الذهبـي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة إحدى عشرة وستمائة:

قلت: وفي مدّة هذه السنين كلّها كان صاحب مصر ولده الكامل محمد بن العادل، والملك العادل يتنقّل في البلاد، غير أنّه هو الأصل في السلطنة وعليه المعوَّل؛ ولا تحسب سلطنة الكامل على مصر إلّا بعد موت أبيه العادل هذا. كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

فيها مَلَك اليَمن أَضسيس[١] بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر صاحب الترجمة. ولُقب أَضسيس المذكور بالملك المسعود، والعامة يسمُّونه «أقسيس» وغلب عليه مقالة العامّة، والصواب ما قلناه لأنّ والده الملك الكامل ما كان يعيش له ولد، فلمّا وُلِد له هذا أَضْسيس قال له بعض الأتراك: في بلادنا إذا كان الإنسانِ لا يعيش له ولد يسمّونه أَضْسيس. ومعناه باللغة التركية: ما له آسم؛ فسمّاه والده الملكُ الكاملُ بذلك؛ فلمّا كَبِر ثَقُلَ على العامّة لفظُ أَضْسيس؛ فسمُّوه «أقسيس». اِنتهى.

وكان أَقْسيس المذكور شابّاً جبّاراً فاتكاً قتَلَ باليمن نحو ثمانمائة شريف. ودخل إلى مكّة إلى حاشية الطواف راكباً. وقيل إنه كان يَسْكَر وينام بدارٍ على المَسْعَى، فتخرُج أعوانُه تمنع الناس من الصِّياح والضَّجيج في المَسْعَى، ويقولون: الأمير سكران نائم! لا ترفعوا أصواتَكم بالذكر والتَّلْبِيَة! وقَتَل أَقْسيس هذا خَلْقاً كثيراً من الأكابر والعظماء. ولو لم يحجّ عمُّه الملك المعظّم عيسى صاحب

(١) في شفاء القلوب ومعجم زامباور أن اسمه يوسف. وفي طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب أن اسمه «آق سيس».

دمشق ما قدر أَقسيس هذا على أخذ اليمن. كل ذلك في حياة جَدّه الملك العادل صاحب الترجمة.

وفيها أخذ الملك المعظم عيسى آبن الملك العادل هذا قلعة صَرْخَد من الأمير ابن قراجا، وعوّضه مالاً وإقطاعاً.

وفيها حجّ بالناس من العراق آبن أبي فِراس بن وَرَّام نائباً عن محمد بن ياقوت.

وفيها حجّ الملك المعظّم عيسى المقدّم ذكره من دمشق، وحجّ معه عِدّة أمراء من أعيان دمشق، وحجّ على مذهب أبي حنيفة وآستمرّ على المذهب، وكلّمه والده الملك العادل صاحب الترجمة في العَوْد إلى مذهب الشافعيّ فلم يقبل، وجاوبه بكلامٍ السُّكَاتُ عنه أَلْيَق.

وفيها تُوفّي عبد العزيز بن محمود بن المُبارك الشيخ أبو محمد البَزّاز؛ سمِع الحديث وأكثر وصنّف وكتب، وكان فاضلاً ديِّناً صالحاً. مات في شوّال.

الذين ذكر الذهبيُّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الحافظ شرف الدين أبو الحسن عليّ بن المفضَّل بن [عليّ][1] المَقْدِسِيّ الإسكندرانيّ المالكيّ، وله سبع وستون سنة. وفقيه بغداد أبو بكر محمد بن مَعَالِي بن غَنِيمة بن الحلاوي الحنبليّ، وكان من أبناء السبعين. والحافظ عبد العزيز بن محمود بن المبارك بن محمود بن الأخضر، وله سبع وثمانون سنة في شوّال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وأربعَ عشرةَ إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرةَ ذراعاً وثماني عشرةَ إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن الذهبي.

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة آثنتي عشرة وستمائة:

فيها خرج وجهُ السَّبُـع من بغداد بالعساكر إلى هَمَذان للقاء مَنْكَلِي مملوك السلطان أزْبَك خان[١]، وكان قد عَصَى على مولاه وعلى الخليفة وقطع الطريق، فكتب الخليفة إلى آبن زَيْن الدين[٢]، وإلى الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وإلى الملك العادل هذا يطلب العساكر، فجاءته العساكر من كلّ مكان؛ وتوجّه آبن زَيْن الدين مقدّم العساكر، وجاء أزْبَك وجلال الدين مقدّم الإسماعيليّة. وجمع أيضاً مَنْكَلِي جموعاً كثيرة وآلْتَقَوْا قريباً من هَمَذَان، وآقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة على مَنْكَلِي، وقُتِل من أصحابه ستة آلاف، ونهبوا أثْقاله، فحال بينهم اللّيل فصَعِد مَنْكَلِي على جبل، وآبنُ زين الدين والعساكر أسفل، وأوقد مَنْكَلِي ناراً عظيمة وهرب في اللّيل، فأصبح الناس وليس لمَنْكَلِي أثر؛ ثم قُتِـل مَنْكَلِي بعد ذلك. وأزْبك خان هذا هو غير أُزبك[٣] خان التَّتَرِيّ المتأخّر.

وفيها أخذ خُوَارَزْم شاه محمد [بن تُكُش][٤] مدينة غَزْنة من يلدزتاج الدين مملوك شهاب الدين الغورِيّ بغير قتال.

وفيها أخذ آبنُ لاوُن الإفرنجيّ أنطاكِيَة في يوم الأحد رابع عشرين شوّال.

وفيها حجّ بالناس آبن أبي فراس من العراق نيابةً عن محمد بن ياقوت.

وفيها تُوفّي عليّ آبن الخليفة الناصر لدين الله العباسيّ وكنيته أبو الحسن. وكان لَقَّبه أبوه الخليفة بالملك المعظَّم، وكان جليلاً نبيلاً. مات في ذي القعدة وأُخرج تابوته وبين يديه أرباب الدولة. ومن الآتّفاق الغريب أنّه يوم الجمعة دَخَل بغداد رأسُ مَنْكَلِي على رُمْـح، وزُيِّنت بغداد وأظهر الخليفة السرور والفرح، ووافق

---

(١) هو أزبك خان بن البهلوان محمد بن إلدكز صاحب أذربيجان، كما في ابن الأثير.

(٢) هو مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك صاحب إربل (ابن الأثير).

(٣) المراد به أزبك خان بن باتو، من القبيل الأزرق من إيلخانات فارس. (معجم زامباور).

(٤) زيادة عن ابن الأثير.

تلك الساعة وفاةُ آبن الخليفة عليٍّ هذا، ووقع صُرَاخٌ عظيم في دار الخلافة، فآنقلب ذلك الفرح بحزن. وخرجت المخدّرات من خدورهنّ ونشرْنَ شعورهنّ.

قال أبو المظفّر: «ولَطَمْنَ وقام النوائح في كلّ ناحية، وعظُم حُزْنُ الخليفة بحيث إنه آمتنع من الطعام والشراب، وغلّقت الأسواق، وعُطّلت الحمّامات، وبطَل البيع والشِّراء، وجرى ما لم يجر قبله. وكان الخليفة قد رشّحه للخلافة، ففعل الله في مُلكه ما أراد. وخلّف ولدين: أبا عبد الله الحسين ولقّبه جَدُّه «المؤيد» ويحيى ولَقّبه بـ «الموفّق».

وفيها تُوفّي المبارك بن المبارك أبو بكر الواسِطيّ النحويّ. وُلِد سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان حنبليًّا، ثم صار حنفيًّا، ثم صار شافعيًّا لأسباب وقعت له، وكان قرأ الأدب على آبن الخَشّاب وغيره، وكان أديباً فاضلاً شاعراً. ومن شعره ـ رحمه الله ـ قوله: [السريع]

لا خير في الخمر فمن شأنها إفقادُها العقلَ وجلبُ الجنونْ
أو أن تُرِي الأقبحَ مُسْتَحْسَناً وتُظْهِرَ السرَّ الخفيَّ المَصُونْ

قلت: ويُعجبني قولُ القائل، وهو قريب ممّا نحن فيه: [الطويل]

على قدر عقل المرء في حال صَحْوِهِ تُؤَثِّر فيه الخمرُ في حال سُكرِهِ
فتأخذ من عقل كبير أقلَّه وتأتي على العقل اليسير بأسره

الذين ذكر الذهبيّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي الفقيه سليمان بن محمد بن عليّ المَوْصليّ في صفر، وله أربع وثمانون سنة. وأبو العبّاس أحمد بن يحيى بن بَرَكَة الدَّبِيقِيّ[1] البَزّاز في شهر ربيع الأول، وله أربع وثمانون سنة أيضاً. والحافظ عبد القادر [بن عبد الله أبو محمد][2] الرُّهَاوِي بحَرّان، وله ست وسبعون سنة في جُمَادى الأولى. وأبو الفرج [يحيى] بن ياقوت الفَرّاش في جمادى

---

(١) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «الديلمي».

(٢) زيادة عن الذهبي.

الآخرة. والقُدْوَة الزاهد أبو الحسن عليّ بن الصَّبَّاغ بن حُمَيْد الصَّعِيديّ ببلدة قِنَا[١]. وأبو الفتوح[٢] محمد بن عليّ الجُلاَجِليّ التاجر بالقُدْس عن إحدى وسبعين سنة. ومحمد[٣] بن أبي المَعَالي [عبد الله][٤] بن موهوب الصوفيّ آبن البَنّاء في ذي القعدة. وأبو محمد عبد العزيز بن مَعَالي [بن غَنِيمَة بن الحسن المعروف بـ][٤] آبن مَنِينا الأشْنَانِيّ، وله سبع وثمانون سنة. مات في ذي الحجة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثلاث عشرة وستمائة.

فيها جهّز الخليفة الناصر لدين الله وَلَدي ولده المقدّم ذكرهما إلى تُسْتَر، وضمّهما، إلى بدر الدين محمد سبط العقاب، وخرج أرباب الدولة بين يديهما، وضرب لهما خيمة الأطلس بأطناب خُضْرٍ إبْرِيسَم[٥]، وعلى رؤوسهما الشمسيّة والبنود والأعلام، وخلفهما الكوسات، وسار معهما نجاح[٦] الشَّرَّابيّ والمَكِين[٧] القُمِّيّ بالعساكر في سابع المحرّم، فأقاما بتُسْتَر شهرين فلم تَطِب لهما، فعادَا إلى بغداد عند جَدّهما الخليفة في شهر ربيع الآخر.

---

(١) قِنا: مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى، واقعة على الشاطىء الشرقي للنيل.

(٢) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «أبو الفتح».

(٣) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «أحمد».

(٤) زيادة عن الذهبي.

(٥) الإبريسم: الحرير.

(٦) هو عز الدين نجاح بن عبد الله الشرابي. (ابن الأثير).

(٧) هو مكين الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم بن برز القمّي. كان كاتب ديوان الإنشاء، ورشح للوزارة للإمام الناصر. (ابن الأثير).

وفيها تُوفّي الملك الظاهر غازي ــ على ما يأتي ذكره ــ في هذه السنة. وتوجّه الشيخ أبو العبّاس عبد السلام بن [أَبِي][١] عَصْرون رسولاً من الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي المذكور إلى الخليفة الناصر لدين الله يطلب تقريره بسلطنة حَلَب على ما كان أبوه عليها.

وفيها قصد الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق الاجتماع بأخيه الملك الأشرف موسى، فآجتمعا بنواحي الرقّة، وفاوض المعظَّمُ الأشرفَ في أمر حلب.

وفيها حجّ بالناس من العراق آبن أبي فِراس، ومن الشام الشيخ عَلَم الدين الجَعْبَرِيّ.

وفيها تُوفِّي زَيْد بن الحسن بن زيد بن الحسن [بن زيد بن الحسن][٢] بن سعيد بن عِصْمة بن حِمْيَر[٣] العلامة تاج الدين أبو اليمن الكِندي البغداديّ المقرىء النحويّ اللغويّ. مولده في شعبان سنة عشرين وخمسمائة، وحفظ القرآن وهو آبن سبع سنين، وكمّل القراءات العشر وله عشر سنين.

قال الذهبيّ: «وكان أعلى أهل الأرض إسناداً في القراءات، فإنّي لا أعلم أحداً من الأئمة عاش بعد ما قرأ القراءات [ثلاثاً و][٤] ثمانين سنة غيرَه. هذا مع أنّه قرأ على أسنّ شيوخ العصر بالعراق، ولم يبقَ أحد ممّن قرأ عليه مثل بقائه ولا قريباً منه، بل آخِرُ من قرأ عليه الكمال [بن][٤] فارس، وعاش بعده نيّفاً وستين سنة. ثم إنّه سمِع الحديث على الكبار، وبَقِيَ مسنِد الزمان في القراءات والحديث». انتهى كلام الذهبيّ باختصار. وكان فاضلاً أديباً ومات في شوّال. ومن شعره ــ رحمه الله تعالى ــ: [البسيط]

دعِ المنجِّم يكبُو في ضلالتِهِ ... إنِ آدّعى علمَ ما يجري به الفلَكُ
تفرّد اللّهُ بالعلم القديم فلا الـ ... إنسانُ يَشْرَكُه فيه ولا المَلَكُ

---

(١) زيادة عن الشذرات وابن خلكان.
(٢) زيادة عن الذهبي.
(٣) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «حميل».
(٤) زيادة عن الذهبي.

وفيها تُوفِّي سعيد بن حمزة بن أحمد أبو الغنائم بن شاروخ[1] الكاتب العراقيّ. كان فاضلاً بارعاً في الأدب، وله رسائل ومكاتبات وشعر. ومن شعره القصيدةُ التي أوّلها: [البسيط]

يا شائمَ البرقِ من نَجْدِيّ كاظمةٍ يبدو مراراً وتُخْفِيه الدياجيرُ

وفيها تُوُفِّي السلطان الملك الظاهر أبو منصور غازي صاحب حلب آبن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف آبن الأمير نجم الدين أيّوب. وُلِد بالقاهرة في سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة في سلطنة والده. ونشأ تحت كنف والده، وولّاه أبوه سلطنة حلب في حياته. وكان مَلِكاً مَهيباً وله سياسة وفِطْنة، ودولة معمورة بالعلماء والأمراء والفضلاء. وكان محسناً للرعيّة والوافدين عليه. وحضر معظم غَزَوات والده السلطان صلاح الدين، وكان في دولة الظاهر هذا من الأمراء: مَيْمون القَصْرِيّ، والمُبَارز بن يوسف بن خَطْلُخ، وسُنْقُر الحَلَبِيّ، وسراسُنْقُر، وأَيْبَك فُطَيْس وغيرُهم من الصلاحيّة. ومن أرباب العمائم القاضي بهاء الدين بن شدّاد، والشريف الافتخاريّ الهاشميّ، والشريف النّسّابة، وبنو العجميّ والقَيْسَرانِيّ، وبنو الخَشّاب. وكان ملجأً للغرباء وكَهْفاً للفقراء، يزور الصالحين ويتفقّدهم، ودام على ذلك إلى أن تُوُفِّي ليلة الثلاثاء العشرين من جُمادى الآخرة بعلّة الذَّرَب. ودُفِن بقلعة حلب، ثم نُقِل بعد ذلك إلى مدرسته[2] التي أنشأها. وقام بعده ولده الملك العزيز محمد بوصيّته، وولّاه الخليفة حسب ما تقدّم ذكره.

وفيها تُوفِّي الشيخ عزّ الدين محمد ابن الحافظ عبد الغني المَقْدِسِيّ؛ وُلد سنة ستٍّ وستين وخمسمائة، وسمع الحديث ورحل البلاد، وكان حافظاً ديِّناً ورِعاً زاهداً. ومات بقاسِيُون.

---

(١) كذا في الأصل. والصواب ما جاء في مرآة الزمان نقلاً عن العماد الأصبهاني في الخريدة ــ وكان العماد معاصراً له ــ من أنه: «حمزة بن أحمد، أبو الغنائم النيلي العراقي، ابن ساروج» (الأعلام: ٢/٢٧٦).

(٢) هي المدرسة الظاهرية البرانية؛ وموقعها خارج باب النصر بمحلة المنيبع، شرقي الخاتونية الحنفية وغربي الخانقاه الحسامية، بين نهري القنوات وبانياس على الميدان بالشرف القبلي. بناها الملك الظاهر غازي سنة ٦١٣هـ. (الدارس: ١/٢٥٧).

وفيها تُوفّي يحيى بن محمد بن محمد بن محمد [بن محمد](١) أبو جعفر الشريف الحُسَيْنِيّ. ولي نقابة الطالبيين بالبصرة بعد أبيه؛ وقرأ الأدب، وسمع الحديث، ومن شعره ـ رحمه الله تعالى ـ: [البسيط]

هذا العقيقُ وهذا الجِزْعُ والبانُ ... فاحبِسْ فلي فيه أوطارٌ وأوطانُ
آليتُ والحُرُّ لا يَلْوِي أَلِيَّتَهُ ... أَلّا تَلَذَّ بطِيب النوم أجفانُ
حتّى تَعُودَ ليالينا التي سَلَفَتْ ... بالأجرَعَيْن(٢) وجيراني كما كانوا

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي العلّامة تاج الدين أبو اليُمْن زيد بن الحسن الكِنديّ في شوّال، وله ثلاث وتسعون سنة وشهران. والملك الظاهر أبو منصور غازي آبن السلطان صلاح الدين بحلب في جمادى الآخرة. والمحدّث عزّ الدين محمد آبن الحافظ عبد الغني المَقْدِسيّ في شوّال.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم أربع أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة أربع عشرة وستمائة.

فيها قدِم الملك خُوَارَزْم شاه وآسمه محمد [بن تُكُش](٣) إلى هَمَذان بقصد بغداد في أربعمائة ألف مقاتل، وقيل في ستمائة ألف، فاستعدّ له الخليفة الناصر لدين الله، وفرّق المال والسلاح، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدِّين السُّهْرَوَرْدِيّ في رسالة فأهانه وآستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته، ولم يأذن له بالقعود.

---

(١) زيادة عن الذهبي.
(٢) الأجرعين: موضع باليمامة (معجم البلدان) وقد رواه ياقوت بصيغة التثنية المجرورة ابتداءً.
(٣) زيادة عن ابن الأثير.

قال أبو المظفّر: ـ «حَكَى الشهاب قال ـ آستدعاني[١] فأتيتُ إلى خَيْمة عظيمة لها دِهْليز لم أرَ في الدنيا مثله، والدِّهليز والشقة أطلس والأطناب حرير، وفي الدِّهليز[٢] ملوكُ العجم على اختلاف طبقاتهم: صاحب هَمَذان وأصبهان والرَّي وغيرهم، فدخلنا إلى خَيْمة أُخرى إبْرِيسَم؛ وفي دهليزها ملوكُ خُراسان: مَرْو ونَيْسابور وبَلْـخ وغيرهم؛ ثم دخلنا خَيْمة أخرى، وملوك ما وراء النهر في دِهليزها، كذلك ثلاث خيام. ثم دخلنا عليه وهو في خركاة[٣] عظيمة من ذهب؛ وعليها سِجافٌ مرصّـعٌ بالجواهر. وهو صبـيّ له شَعَرات قاعد على تخت ساذَج وعليه قَبَاءٌ بخاريّ يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهماً، فسلّمت عليه فلم يردّ، ولا أمرني بالجلوس؛ فشرعتُ فخطبتُ خطبةً بليغةً، ذكرتُ فيها فضل بني العبّاس ووصفتُ الخليفةَ بالزُّهد والوَرَع والتُّقى والدين؛ والتَّرْجُمان يُعِيد عليه قولي. [فلما فرغت][٤] قال للترجمان: قل له: هذا الذي وصفته ما هو في بغداد؟. قلت: نعم. قال: [أنا][٤] أجيء وأَقِيم خليفة يكون بهذه الأوصاف. ثم ردّنا بغير جواب. فنزل الثّلْـج عليهم فهلكت دوابُّهم وركِب خُوَارَزْم شاه يوماً فعثر به فرسه فتطيّر، ووقـع الفساد في عسكره وقلّت المِيرة. وكان معه سبعون ألفاً من الخُطَا فردّه الله ونُكِب تلك النكبة العظيمة». وسنذكرها ـ إن شاء الله تعالى ـ في محلّها.

وفيها تُوُفّي إبراهيم بن عبد الواحد بن عليّ بن سرور الشيـخ العِماد المَقْدِسِيّ الزاهد القُدْوة الحنبليّ أخو الحافظ عبد الغني؛ وُلِد بجَمّاعِيل في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، فهو أصغر من الحافظ عبد الغني بسنتين وسمِـع الكثير؛ وكان إماماً حافظاً عالماً محدِّثاً زاهداً عابداً فقيهاً. مات فجأة في ليلة الأربعاء سادس عشر ذي القعدة.

---

(١) المستدعي هو خوارزم شاه.

(٢) الدهليز: الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب؛ وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه بكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٣٨).

(٣) الخركاة (بالتاء وبالهاء في آخره) هي الخيمة.

(٤) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

وفيها تُوُفِّي عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن عليّ بن عبد الواحد أبو القاسم القاضي جمال الدين الحَرَسْتَانِيّ الأنصاريّ شيخ القضاة. وُلِد بدمشق في سنة عشرين وخمسمائة، ورحل وسمِع الحديث وتفقّه؛ وكان إماماً عفيفاً خطيباً ديِّناً صالحاً. له حكاياتٌ مع الملك المعظَّم عيسى في أحكامه ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفيها تُوفِّي محمد بن أبي القاسم بن محمد أبو عبد الله الهَكَّارِيّ الأمير بدر الدين؛ استُشْهِد على [حصن][1] الطور، وأبلى بلاءً حسناً ذلك اليوم وكان من المجاهدين، له المواقف المشهودة في قتال الفرنج، وكان من أكابر أمراء الملك المعظَّم، كان يستشيره ويَصْدُر عن رأيه ويثِق له لصلاحه ودينه وكان سَمْحاً جَواداً.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي المحدّث أبو الخطّاب أحمد بن محمد البَلَنْسِيّ بمَرَّاكُش. وأبو الحسن عليّ بن محمد بن عليّ المَوْصِليّ أخو سليمان[2]. وأبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكِنَانِيّ البَلَنْسِيّ الأديب الإسكندرانيّ بها، وله أربع وسبعون سنة. وقاضي القضاة أبو القاسم عبد الصمد بن محمد الحَرَستَانِيّ في ذي الحِجّة، وله أربع وتسعون سنة وأشهر. والإمام عِماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد المَقْدِسيّ فجأة في ذي القعدة وله سبعون سنة. والمحدِّث أبو محمد عبد الله بن عبد الجبَّار العثمانيّ الإسكندرانيّ الكَارِميّ بمكّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً.

* * *

---

(١) زيادة عن السلوك. والطور: جبل مطلّ على طبرية.

(٢) راجع حوادث سنة ٦١٢هـ.

السنة التاسعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي التي مات فيها العادل في جمادى الآخرة حسب ما تقدّم ذكره.

وهي سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيها نزلت الفرنـج على دِمْياط في شهر ربيـع الأوّل، وكان العادل بمَرْج الصُّفَّر، فبَعَث بالعساكر التي كانت معه إلى مصر إلى ولده الكامل، وأقام المعظّم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنـج ليشغلهم عن دِمْياط.

وفيها آستدعى الملكُ العادلُ صاحبُ الترجمة آبنه الملكَ المعظَّم المقدّم ذكره وقال له: قد بَنَيْتَ هذا الطُّور[1]، وهو يكون سبباً لخراب الشام، وقد سَلَّم الله مَن كان فيه من أبطال المسلمين، وسلاح الدنيا والذخائر، وأرى من المصلحة خرابه ليتوفّر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دِمْياط، وأنا أُعَوِّضُك عنه؛ فتوقَّف المعظّم وبَقِيَ أيّاماً لا يدخل إلى أبيه العادل، فبعث إليه العادل ثانياً وأرضاه بالمال، ووعده في مصر ببلاد، فأجاب المعظّم وبعث ونَقَل ما كان فيه.

وفيها فيَ يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيـع الآخر كَسَر الملك الأشرف موسى، صاحبُ خِلاط وديار بكر وحلب آبنُ الملك العادل هـذا، ملكَ الروم كَيْكَاوُس[2].

وفيها أيضاً بعث الأشرف المذكور بالأمير سيف الدين بن كهدان والمبارز آبن خَطْلُـج بجماعة من العساكر نجدةً إلى أخيه الملك الكامل بدِمْياط، كلّ ذلك والقتال عَمّال بين الملك الكامل والفرنـج على ثغر دِمْياط.

وفيها في آخر جُمادى الأولى أخذ الفرنـج بُرْج السِّلْسِلة[3] من الكامل، فأرسل الكامل شيخَ الشيوخ صدر الدين إلى أبيه العادل وأخبره، فدقّ العادل بيده على صدره، ومرِض من قَهْره مرضَ الموت.

---

(١) المراد حصن الطور.

(٢) هو الملك الغالب عز الدين كيكاوس الأول بن كيخسرو الأول السلجوقي. (السلوك، ومعجم زامباور).

(٣) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

وفيها في جُمادى الآخرة ٱلتقى الملك المعظَّم الفرنـج بساحل الشام وقاتلهم فنصره الله عليهم، وقتل منهم مَقْتلة، وأَسَر من الدَّاوِيّة[١] مائةَ فارس، وأدخلهم القدس منكَّسِي الأعلام.

وفيها وصل رسول خُوارَزْم شاه إلى الملك العادل هذا وهو بمَرْج الصُّفَّر، فبعث بالجواب الخطيبَ الدَّوْلَعِيَّ ونجم الدين خليل [بن عليّ الحنفي][٢] قاضي العسكر، فوصلا هَمَذان فوجدا الخُوارَزْميّ قد ٱندفـع بين يدي الخُطَا [والتتار][٢]، وقد خامر عليه عسكره، فسارا إلى حدّ بُخارى؛ فاجتمعا بولده الملك جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل صاحب الترجمة مرسلهما، فرجعا إلى دمشق.

وفيها حـجّ بالناس من بغداد أقباش الناصري.

وفيها تُوفّي عبد الله بن الحسين أبو القاسم عِماد الدين الدَّامَغَـانِيّ الحنفيّ قاضي القضاة ببغداد؛ ومولده في شهر رجب سنة أربـع وستين وخمسمائة. وكان له صَمْتٌ ووقار ودينٌ وعصمة وعِفّة وسِيرة حسنة مـع العلم والفضل، وكانت وفاته في ذي القعدة ودُفِن بالشُّونيزيّة.

وفيها تُوُفِّي كَيْكَاوُس الأميرُ عِزّ الدين صاحب الروم؛ كان جبّاراً ظالماً سفّاكاً للدماء، ولمّا عاد إلى بلده من كَسْرة الأشرف موسى ٱتَّهَم أقواماً من أمراء دولته أنهم قصّروا في قتال الحلبيّين، وسَلَق منهم جماعة في القُدور، وجعل آخَرين في بيتٍ وأحرقه؛ فأخذه الله بغتةً. ومات سكران فجأةً؛ وقيل: بل ٱبْتُلِي في بدنه، وتقطّعت أوصاله. وكان أخوه علاءُ الدين كَيْقُبَاد محبوساً في قلعة، وقد أمر كَيْكَاوُس بقتله، فبادروا وأخرجوه، وأقاموه في المُلك. وكانت وفاة كَيْكَاوُس في شوّال، وهو الذي أطمـع الفرنـج في دِمْياط.

(١) راجـع ص ٢٩ من هذا الجزء، حاشية (٦).

(٢) زيادة من الذيل على الروضتين.

وفيها تُوفّي خُوارَزْم[١] شاه وآسمه محمد بن تُكُش بن إيل أَرْسلان بن أَتْسِز بن محمد بن أَنُوشتِكِين السلطان علاء الدين المعروف بخُوَارَزْم شاه.

قال آبنُ واصل[٢]: نسبُه ينتهي إلى إيلتِكِين أحد مماليك السلطان أَلْب أَرْسلان بـن طُغْرُلْبَك السَّلْجوقِيّ، وكانت سلطنة خوارَزم شاه المذكور في سنة ست وتسعين وخمسمائة عند موت والده السلطان علاء الدين تُكُش.

وقال عِز الدين بن الأثير: كان صَبُوراً على التعب وإدمان السَّيْر غير مُتَنعِّم ولا مُقْبِل على اللّذات، إنّما همّته في المُلك وتدبيره وحفظه وحفظ رعيّته، وكان فاضلاً عالماً بالفقه وغيرهما، وكان مُكْرِماً مُحِبًّا لهم مُحْسِناً إليهم يُحبّ مناظرتهم بين يديه ويُعظم أهل الدين ويتبرّك بهم.

ــ قلت: وهذا بخلاف ما ذكره أبو المظفّر ممّا حكاه عن الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِيّ، لمّا توجه إلى خُوارَزْم شاه هذا رسولاً من قِبَل الخليفة الناصر لدين الله فإنّه ذكر عنه أشياء من التكبّر والتعاظم عليه، وعدم الالتفات له، وإنّه صار لا يفهم كلامَ السُّهْرَوَرْدِيّ إلّا بالتَّرْجُمان؛ ولعلّه كان فعل ذلك لإظهار العظمة، وهو نوع من تجاهل العارف ــ.

قال: وكان أعظم ملوك الدنيا وآتّسعت ممالكه شرقاً وغرباً وهابته الملوك حتّى لم يبقَ إلّا مَن دخل تحت طاعته وصار من عسكره. ومَحق أبوه التّتار بالسيف وملَك منهم البلاد. ووقَع له أمور طويلة حتّى إنّه نزل هَمَذان، وكان في عسكره سبعون ألفاً من الخُطَا؛ فكاتب القُمِّيُّ[٣] عساكره ووَعَدهم بالبلاد، فآتّفقوا مع الخطَا على قتله. وكان خاله من الخُطَا وحلفوه ألّا يُطلعه على ما دبّروا عليه، فجاء إليه في الليل وكتب في يده صورةَ الحال، فقام وخرج من وقته ومعه ولداه: جلالُ الدين وآخر؛ ولما خرج من الخَيْمَة دخل الخُطَا والعساكر من بابها ظناً منهم أنّه فيها، فلم يجدوه

---

(١) ذكر ابن الأثير وفاته سنة ٦١٧هـ. وهو الصواب. وسيأتي للمؤلف إشارة إلى ذلك في حوادث سنة ٦١٧هـ. وذكر وفاته هنا خطأ.

(٢) هو ابن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ، صاحب كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب».

(٣) راجع ص ١٩٠ من هذا الجزء، حاشية (٧).

فنهبوا الخزائن؛ يقال: إنّه كان في خزائنه عشرة آلاف ألف دينار، وألُف حِمْل قماش أطلس، وعشرون ألف فرس وبغل، وكان له عشرة آلاف مملوك، فتمزّق الجميع وهرب ولداه إلى الهند، وهرب خُوارَزْم شاه إلى الجزيرة، وفيها قلعة ليتحصّن بها، فمات دون طلوع القلعة المذكورة في هذه السنة، وقيل: في سنة سبع عشرة وستمائة. والله أعلم.

وفيها تُوُفِّي الملك القاهر عِزّ الدين مسعود [بن أَرْسلان بن مسعود بن مودود ابن زَنْكِي أبو الفتح](١) صاحب الموصل، وترك ولداً صغيراً آسمه محمود، فأخرجَ الأميرُ بدرُ الدين لؤلؤ زَنْكِيَّ أخا القاهر من الموصل وآستولى عليها، ودبّر مملكة محمود المذكور.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي الشهاب فِتْيَان بن عليّ الشاغُورِيّ الأديب. وصاحبُ الروم السلطان عِزَ الدين كَيْكَاوُس، ووَلي بعده علاءُ الدين أخوه. وصاحب الموصل عِز الدين مسعود بن أَرْسلان شاه الأتابِكيّ. وصاحب مصر وغيرها السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيّوب في جُمَادى الآخرة عن سبع وسبعين سنة. وأبو الفتوح محمد بن محمد [بن محمد](٢) بن عمروك البَكْرِيّ النَّيسابُورِيّ الصُّوفيّ في جُمادى الآخرة، وهو في عشر المائة. والشمس أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد السلميّ العطار في شعبان. والحافظ أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن أحمد بن كرم البَنْدَنِيجِيّ في رمضان عن أربع وسبعين سنة، سمِع آبن الزَّاغُونيّ. وأمُّ المؤيَّد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشَّعْرِيّة، ولها إحدى وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وستّ أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وستّ أصابع.

---

(١) زيادة عن الذهبي وشذرات الذهب.

(٢) زيادة عن الذهبي.

ذكر سلطنة الملك الكامل[1] على مصر

أعني بذلك آستقلالاً بعد وفاة أبيه العادل، لأنّ الكامل هذا كان متولّي سلطنة مصر في حياة والده العادل؛ لمّا قسم العادل الممالك في أولاده من سنين عديدة، أَعْطَى المعظّم عيسى دِمَشق، وأعطى الأشرفَ موسى الشرق، وأعطى الملك الكامل محمداً هذا مصر، وصار هو يتنقّل في ممالك أولاده؛ والعمدة في كلّ الممالك عليه إلى أن مات الملكُ العادل تفرّد الملك الكامل محمد بالخطبة في ديار مصر وأعمالها، وآستقلّ بأمورها وتدبير أحوالها، وذلك من يوم وفاة والده الملك العادل المذكور، وهو من يوم الجمعة سابع جُمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة.

قلت: وقد تقدّم نسب الملك الكامل هذا في ترجمة عمه السلطان صلاح الدين، وآستوْعَبْنا ذلك من عِدّة أقوال وحررناه، فلْيُنْظَر هناك.

قال أبو المظّفر: «وُلِد الكاملُ سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وكان أكبرَ أولاد العادل بعد مودود، وكان العادل قد عَهِد إليه لمَا رأى من ثباته وعقله وسداده. وكان شجاعاً ذكيّاً فَطِناً يُحِبَ العلماء والأماثل ويُلْقِي عليهم المشكلات، ويتكلّم على صحيح مسلم بكلام مليح، ويثْبُت بين يدي العدوّ. وأمّا عدله فإليه المنتهى» اِنتهى كلام أبي المظفّر بآختصار.

وقال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبيّ في تاريخ الإسلام:

(١) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان: ٧٩/٥، والسلوك: ٢٣٠/١، والخطط المقريزية: ٢٣٥/٢، وذيل الروضتين: ١٦٦، والشذرات: ١٧٢/٥، وبدائع الزهور: ٢٥٨/١، وشفاء القلوب: ٢٩٩، وابن الأثير: حوادث سنة ٦١٥هـ وما بعدها إلى سنة ٦٢٨هـ حيث ينتهي كتاب الكامل لابن الأثير، والدارس في تاريخ المدارس: ٢١٣/٢، ومفرج الكروب: ٢٧٤/٣.

«الملك الكامل محمد السلطان ناصر الدين أبو المعالي وأبو المظفّر آبن السلطان الملك العادل سيف الدين أبـي بكر محمد بن أيّوب بن شادي صاحب مصر. وِلد بمصر سنة ست وسبعين وخمسمائة.

ــ قلت: وهذا بخلاف ما نقله أبو المظفّر في سنة مولده، وعندي أنّ أبا المظفر أثبت لصحبته بأخيه المعظم عيسى، وكونه أيضاً عصري الملك الكامل هذا ــ. والله أعلم.

قال (أعني الذهبيّ): وأجـاز له العـلّامة عبـد الله بن بَرّي، وأبو عبد الله آبن صَدَقة الحَرانيّ، وعبد الرحمن بن الخرقيّ؛ قرأت بخط آبن مَسْدِيّ في معجمه: كان الكامل مُحِباً للحديث وأهله، حريصاً على حفظه ونقله، وللعلم عنده شرف؛ خرّج له أبو القاسم بن الصَّفْرَاوِيّ أربعين حديثاً، وسمعها جماعة. وحَكَى لي عنه مكرم الكاتب أنّ أباه العادل آستجاز له السِّلَفيّ قبل موت السِّلَفِيّ بأيّام، قال آبن المسْدِيّ: ثم وقفتُ أنا على ذلك وأجاز لي [و] لابني. قال الذهبيّ: وتملّك الديار المصريّة أربعين سنة، شطرها في أيّام والده. وقيل: بل وُلِد في ذي القعدة سنة خمس وسبعين. قلت: وهذا قول ثالث في مولده.

وقال الحافظ عبد العظيم المُنْذِرِيّ[1] استادار الحديث بالقاهرة (يعني بذلك المدرسة الكامليّة[2] ببين القصرين). قال: وعمّر القُبّة[3] على ضريـح الشافعيّ،

(١) لعله ينقل عن كتاب المنذري: «التكملة لوفيات النقلة». وقد توفي المنذري سنة ٦٥٦هـ.

(٢) المدرسة الكاملية: كانت هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، وتعرف بدار الحديث الكاملية. أنشاها الملك الكامل في سنة ٦٢١هـ. وهي ثاني مدرسة للحديث بعد المدرسة التي أنشأها بدمشق نور الدين محمود. (خطط المقريزي: ٣٧٥/٢). وبنى الملك الكامل فيها منازل يسكن بها الطلبة والمدرّسون. وجعل لها خزانة كتب يليها أحد الرجال المثقفين. وأول من تولى مشيخة هذه الدار أبو الخطاب عمر بن دحية، مؤلف كتاب نهاية السول في خصائص الرسول. وحفظ لنا السيوطي في كتابه: حسن المحاضرة ١٥٩/٢ ثبتاً بمن تولوا مشيخة هذه الدار. (الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: ص ٥٢) ولا تزال هذه المدرسة موجودة إلى اليوم بشارع بين القصرين بجوار جامع السلطان برقوق من بحريه، وتعرف باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل. (محمد رمزي).

(٣) انظر المقريزي: ٤٦٢/٢ وبدائع الزهور: ١٩٨/٢. ولا تزال هذه القبة الجميلة المرتفعة قائمة إلى اليوم تعلو قبر الإمام الشافعي المجاور لمسجده بشارع الإمام الشافعي بالقرافة. ويوجد فوق القبة من الخارج في مكان الهلال مركب صغيرة من النحاس تسع من الحب قدر نصف إردب. (محمد رمزي).

وأجرى الماء من بركة الحَبَش[١] إلى حوض السَّبِيل[٢] والسِّقاية، وهما على باب القُبّة المذكورة، ووقف غير ذلك من الوقوف على أنواع من أعمال البر بمصر وغيرها. وله المواقف المشهودة في الجهاد بدِمْياط المدّة الطويلة، وأنفق الأموال الكثيرة، وكافح العدوَّ المخذول برّاً وبحراً ليلاً ونهاراً. يُعرف ذلك من مَشَاهده. ولم يزل على ذلك حتّى أعزّ الله الإسلام وأهلَه، وخذل الكفر وأهلَه. وكان مُعَظِّماً للسُّنّة النبويّة وأهلها، راغباً في نشرها والتمسّك بها، مؤثراً الاجتماع مع العلماء والكلام معهم حضَراً وسَفَراً. اِنتهى كلام المنذري بآختصار.

وقال القاضي شمس الدين آبن خلّكان في تاريخه بعد ما ساق نسبه وذكره نحواً ممّا ذكرناه حتّى قال: «ولمّا وصل الفرنج إلى دِمْياط كما تقدّم ذكره، كان الملك الكامل في مبدأ آستقلاله بالسلطنة، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء، منهم: عِماد الدين أحمد بن المشطوب، فآتّفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين إبراهيم آبن الملك العادل، وآنضموا إليه، فظهر للملك الكامل منهم أمور تدلّ على أنّهم عازمون على تفويض الملك إليه وخَلْع الكامل، وآشتهر ذلك بين الناس؛ وكان الملك الكامل يُداريهم لكونه في قُبالة العدوّ ولا يمكنه المقاهرة[٣]، وطوّل رُوحهَ معهم، ولم يزل على ذلك حتّى وصل إليه أخوه الملك المعظّم عيسى صاحب دِمَشق يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة من سنة خمس عشرة وستمائة، فأطلعه الكامل في الباطن على صورة الحال، وأنّ رأس هذه الطائفة آبن المشطوب[٤]، فجاءه يوماً على غفلة في خَيْمته وآستدعاه فخرج إليه، فقال

(١) راجع الجزء الخامس، ص ١٤، حاشية (٢).

(٢) حوض السبيل والسقاية: كان حوض السبيل واقعاً بجوار السقاية، ولا أثر له اليوم. أما السقاية المشهورة اليوم باسم «المزملة» فلا تزال موجودة بشكل سبيل يقع بين مسجد الإمام الشافعي وبين منزل ورثة الشيخ عبد الفتاح أبي النجا على يسار الداخل إلى قبة الشافعي. وقد جدد هذا السبيل ديوان عموم الأوقاف سنة ١٣٠٥هـ. (محمد رمزي).

(٣) في ابن خلكان: «ولا يمكنه المناظرة والمنافرة».

(٤) هو الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بابن المشطوب. وكان من أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه ويطيعونه. (السلوك: ١/٢٣١).

[له][1]: أريد أن أتحدّث [معك][1] سراً في خَلْوة، فركب فرسه (يعني [آبن][1] المشطوب). وسار معه جريدة، وقد جّرد المعظّم جماعةً ممن يعتمد عليهم ويَثِق إليهم، وقال لهم: اِتَّبِعونا. ولم يزل المعظَّم يَشْغَله بالحديث ويخرُج معه من شيء إلى شيء حتّى أُبْعِد عن المخيم، ثم قال له: يا عماد الدين هذه البلاد لك، [و][2] نشتهي أن تَهَبَها لنا، ثم أعطاه شيئاً من النفقة، وقال لأولئك المجرّدين: تَسلّموه حتّى تُخرجوه من الرمل، فلم يسعه إلا الامتثال لانفراده وعدم القُدرة على الممانعة في تلك الحال؛ ثم عاد المعظّم إلى أخيه الملك الكامل وعرّفه صورة ما جرى. ثم جهّز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل لإحضار النجدة منها [و][2] من بلاد الشرق فمات بسِنْجَار. وكان ذلك خديعةً لإخراجه من البلاد. فلمّا خرج هذان الشخصان من العسكر تَحَلّلت عزائم مَن بقي من الأمراء الموافقين لهما، ودخلوا في طاعة الملك الكامل كَرْهاً لا طوعاً. وجرى في قصّة دِمْياط ما هو مشهور فلا حاجة للإطالة في ذكره[3].

ولمّا ملك الفرنج دمياط وصارت في أيديهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر [و][2] نزلوا في رأس الجزيرة[4] التي دِمْياط في برها، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعروفة بالمنصورة[5]، والبحر حائلٌ بينهم، وهو بحر أُشْموم[6]،

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) في السلوك: ١/٢٣٠ ــ ٢٣٥ تفاصيل وافية عن حصار دمياط ومؤامرة خلع الكامل، فلتنظر هناك.

(٤) الجزيرة: المقصود بها الأرض التي تشغلها اليوم بلاد مركز فارسكور وبعض بلاد مركز المنصورة. (محمد رمزي).

(٥) المنصورة: أنشأها الملك الكامل سنة ٦١٦هـ، عندما ملك الفرنج مدينة دمياط؛ وقد جعلها الكامل منزلة لعسكره وسماها المنصورة ــ تيمناً بانتصاره على الصليبيين ــ ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط فصارت المنصورة بعد ذلك مدينة كبيرة بها المساجد والحمامات والفنادق والأسواق. ولا تزال المنصورة إلى اليوم عاصمة مديرية الدقهلية، وهي من أشهر وأكبر المدن المصرية وأجملها لوقوعها على الشاطىء الشرقي لفرع النيل الشرقي المعروف باسم فرع دمياط. (محمد رمزي).

(٦) بحر أشموم: يعرف اليوم باسم البحر الصغير، أحد فروع الريّ الشهيرة بمديرية الدقهلية. وكان يسمى بحر أشموم نسبة إلى مدينة أشموم طناح الواقعة عليه وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان بمركز دكرنس. وكان هذا البحر يأخذ مياهه قديماً من فرع النيل الشرقي في نقطة تقع في الجنوب الغربي لمدينة

ونصر الله ــ سبحانه وتعالى ــ بَمنّه وجَميل لطفه المسلمين عليهم كما هو مشهور؛ ورحَل الفرنـج عن منزلتهم ليلة الجمعة سابـع رجب سنة ثماني عشرة وستمائة، وتّم الصلـح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور، ورحَل الفرنـج عن البلاد في شعبان من السنة المذكورة، وكانت مدّة إقامتهم في بلاد الإسلام[١] ما بين الشام والديار المصريّة أربعين شهراً وأربعة عشر يـوماً؛ وكفى الله ــ تعـالى ــ المسلمين شرّهـم والحمد لله على ذلك.

ــ قلت ونذكر أمر دِمْياط من كلام أبـي المظفّر في آخر هذه الترجمة بأوسـع من ذلك، لأنّه معاصر الكامل وصاحب المعظّم، فهو أجدر بهذه الواقعة ــ. فلمّا آستراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدوّ تفرّغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد وبدَّد شَمْلَهم وشرّدهم، ودخل القاهرة وشَرَع في عِمارة البلاد وآستخراج الأموال من جهاتها. وكان سلطاناً عظيم القدر جَميلَ الذكر مُحِباً للعلماء متمسِّكاً بالسُّنة، حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل حازماً في أموره لا يضـع الشيء إلّا في مواضعه من غير إسراف ولا إقتـار؛ وكان يَبيت عنـده كلّ ليلة [جمعة][٢] جماعةٌ من الفضلاء يشاركهم في مباحثهم، ويسألهم عن المواضـع المُشْكلة في كلّ فنّ، وهو معهم كواحد منهم، وكان ــ رحمه الله ــ يُعجبه هذان البيتان ويُنشدهما كثيراً وهما: [مخلّـع البسيط]

ما كنت [من][٣] قبل مِلك قلبي تَصُـدُّ عن مُـذْنَـبٍ حـزين
وإنّمـا قـد طـمِعـتَ لـمّـا حللتَ في مـوضـع حـصِيـن

قال[٤]: ولمّا مات أخوه الملك المعظم عيسى صاحب الشام، وقام آبنه الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصريّة قاصداً أخذَ

= المنصورة. أما اليوم فيأخذ مياهه من ترعة المنصورية في نقطة تقـع في الشمال الشرقي لمدينة المنصورة. (محمد رمزي).

(١) في الأصل: «بلاد الشام» والتصحيح عن ابن خلكان.
(٢) زيادة عن ابن خلكان.
(٣) زيادة عن ابن خلكان.
(٤) يتابـع المؤلف النقل عن ابن خلكان.

دِمَشق منه؛ وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفَّر الدين موسى، وآجتمعا على أخذ دمشق بعد فصول يطول شرحها. وملك الكامل دمشق في أوّل شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين؛ فلمّا ملكها دفعها لأخيه الملك الأشرف، وأخذ عِوَضَها من بلاد الأشرف: حَرَّان والرُّها وسَرُوج والرَّقَّة ورأس العين؛ وتوجّه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان من السنة.

قال آبن خلّكان: وآجتزتُ بحَرَّان في شوّال سنة ستّ وعشرين وستمائة والملك الكامل مقيمٌ به بعساكر الديار المصريّة؛ وجلال الدين خُوَارَزْم شاه يوم ذاك محاصِرٌ لخلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصريّة.

ثم تجهز في جيش عظيم، وقصد آمِد في سنة تسع وعشرين وستمائة فأخذها مع حِصْن كَيْفَا والبلاد من الملك المسعود [ركن الدين مودود](١) بن الملك الصالح أبي الفتح محمود(٢) بن نور الدين محمد بن فخر الدين قَرَا أَرْسلان بن ركن الدولة داود بن نور الدولة سقْمان؛ ويقال سُكْمان بن أرْتُق، قال: ثمّ مات أخوه الملك الأشرف وجعل وليّ عهده أخاه الملكَ الصالحَ إسماعيل بن العادل، فقصده الملك الكامل أيضاً، وآنتزع منه دِمَشق بعد مصالحة جرت بينهما في التاسع من جُمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأبقى له بَعْلَبَكّ وأعمالها، وبُصْرَى وأرض السَّوَاد وتلك البلاد. ولمّا ملك البلاد المشرقيّة [و] آمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيّوب، وآستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصريّة. وقد تقدّم في ترجمة الملك العادل أنّه سيّر ولده الملك المسعود أَقْسِيس إلى اليمن، وكان أكبر أولاد الملك الكامل. ومَلَك الملك المسعود مكّة ــ حرسها الله تعالى ــ وبلادَ الحجاز مضافة إلى اليمن، وكان رحيلُ الملك المسعود من الديار المصريّة متوجّهاً إلى اليمن في يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة إحدى عشرة وستمائة، ودخل مكّة في ثالث ذي القعدة من السنة، وخُطِب له بها وحجّ؛ ودخل زَبِيد وملكها مستهلّ المحرّم سنة آثنتي عشرة وستمائة.

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «محمد» والتصحيح عن ابن خلكان.

ثم ملك مكّة في شهر ربيع الآخر سنة عشرين وستمائة، أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحَسَني[١].

قلت: وقد ذكرنا خروج الملك المسعود إلى اليمن من وقته في ترجمة جَدّه الملك العادل. وتُوُفِّيَ الملك المسعود في حياة والده الملك الكامل بمكّة في ثالث جُمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة. وكان مولده في سنة سبع[٢] وتسعين وخمسمائة وأظُنّه أكبر أولاد الكامل. والله أعلم.

قال آبن خلّكان: وآتّسعت المملكة للملك الكامل؛ ولقد حَكَى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكّة أنّه لمّا وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: صاحب[٣] مكّة وعبيدها، واليمن وزَبيدها، ومصر وصَعِيدها، والشام[٤] وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القِبْلَتين ورَبّ العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين.

قال: ولقد رأيتُه بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عند رجوعه من بلاد المشرق، وآستنقاذه إيّاها من الأمير علاء الدين كَيْقُبادَ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود [بن قليج أرسلان][٥] بن سليمان [بن قتلمش][٥] بن إسرائيل بن سَلْجوق بن دقّاق السَّلْجُوقِيّ صاحب الروم، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها؛ وفي خدمته يومئذ بضعة عشر ملكاً، منهم [أخوه][٥] الملك الأشرف. ولم يزل في علوّ شأنه وعظيم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق ولم يركب، وكان يُنْشِد في مرضه كثيراً. [الخفيف]

يا خلِيليَّ خَبِّراني بصدقٍ كيف طَعْمُ الكَرَى فإنِّي نسِيتُهْ[٦]

ولم يزل كذلك إلى أن تُوُفِّي يوم الأربعاء بعد العصر، ودُفِن بالقلعة بمدينة

(١) في الأصل: «الحسيني». والتصحيح عن ابن خلكان والأعلام.
(٢) في ابن خلكان: «سنة تسع وتسعين وخمسمائة».
(٣) في الأصل: «سلطان». وما أثبتناه عن ابن خلكان.
(٤) ساقطة من ابن خلكان.
(٥) زيادة عن ابن خلكان.
(٦) في ابن خلكان: «فإني عليلُ»

دمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأنا بدمشق يومئذ، وحضرتُ الصَّيْحَةَ يوم السبت في جامع دمشق، لأنّهم أَخْفَوْا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلمّا [حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش][1] بين يدي المِنْبر وترحّم على الملك الكامل، ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر، وكنتُ حاضراً في ذلك الموضع[2]، فضَجّ الناس ضَجّةً واحدة، وكانوا قد أحسّوا بذلك، لكنهم لم يتحقّقوه إلاّ ذلك اليوم.

وترتّب آبن أخيه الملك الجواد مظفَّر الدين يُونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق عن الملك العادل بن الكامل صاحب مصر بآتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق.

ثم بُني له تربة مجاورة للجامع، ولها شُبّاك إلى الجامع، ونُقِل إليها.

قال: وأمّا ولده الملك العادل [فإنّه][3] أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي القعدة[4] من سنة سبع وثلاثين وستمائة، فقَبَض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس». اِنتهى كلام آبن خلّكان على جليّته. ونذكر أيضاً من أحوال الكامل نُبْذَةً جيّدة من أقوال غيره من المؤرّخين. إن شاء الله تعالى.

قال بعضهم: كان الملك الكامل فاضلاً عالماً شهماً مهيباً عاقلاً مُحِبّاً للعلماء، وله شِعْر حسن، وآشتغالٌ في العلم. قيل: إنّه شكا إليه ركبدار[5] أستاذَهَ بأنّه آستخدمه ستة أشهر بلا جامكيّة، فأنزل أستاذَه من فرسه وألبسه ثياب الركبدار، وألبس الركبدار ثيابه، وأمره بخدمة الركبدار وحَمْل مداسه ستة أشهر حتّى شفع فيه.

---

(١) بين معقوفين هي عبارة ابن خلكان. وعبارة الأصل: «فلما دنت الصلاة قال بعض الدعائيين يدي المنبر. . . إلخ» وفيها اضطراب وتحريف.

(٢) في الأصل: «الوقت». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

(٤) كذا في ابن خلكان. وفي الأصل: «ذي الحجة».

(٥) الركبدار، والركابدار: هو الذي يحفظ نعل الأمير أو السلطان، ويلبسه إياها أحياناً، ويمسك بركاب فرسه حتى يثبت قدمه في الركاب.

وكانت الطرق آمنةً في زمانه. ولمّا بعث آبنه الملك المسعود أَقْسِيس وآفتتح اليمن والحجاز ثم مات قبله كما ذكرناه ورِث منه أموالاً عظيمة، ففرّق غالبها في وجوه البِرّ والصدقات. وكانت راية الملك الكامل صفراء. وفيه يقول البهاء زُهَيْر ـ رحمه الله تعالى ـ. [الطويل]

بك آهتزَّ عِطْفُ الدِّين في حُلَل النَّصْرِ ورُدَّتْ على أعقابِها مِلَّةُ الكُفْرِ
وأقْسِم إن ذاقت بنو الأصفر الكَرَى لَما حلمَتْ إلّا بأعلامكَ الصُّفْرِ
ثلاثةَ أعوام أقمتَ وأشهراً تُجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرِو
وليلة نَفْرٍ للعدوّ رأيتها بكثرة من أَرْدَيْتَه ليلة النَّحْرِ
فيا ليلةً قد شرّف الله قدرَها فلا غَرْوَ إن سمّيتُها ليلة القَدْرِ

وقال: وكان فيه جَبَرُوت مع سفك الدماء.

وذكر الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجَزَرِيّ[1]: أنّ عماد الدين يحيى البيضاويّ الشريف قال: حكى لي الخادم الذي للكامل قال: طلب منّي الكامل طَسْتاً حتّى يتقيّأ فيه فأحضرتُه، وكان الملك الناصر داود على الباب، جاء ليعود عمّه الكامل؛ فقلتُ: داود على الباب، فقال: ينتظر موتي! فآنزعج، فخرجت وقلت: ما ذاك وقتُك. السلطان منزعج؛ فنزل إلى داره؛ ودخلتُ إلى السلطان فوجدتُه قد قَضَى والطست بينَ يديه وهو مكبوب على المِخَدّة.

وقال آبنُ واصل: حَكَى لِي طبيبه قال: أصابه لمّا دخل قلعة دمشق زُكَامٌ، فدخل الحمّام وصبّ على رأسه ماءً شديدَ الحرارة، آتّباعاً لقول محمد بن زكريّا

---

(١) هو شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري الدمشقي. مؤرخ دمشقي المولد والوفاة. توفي سنة ٧٣٩هـ. له كتاب «التاريخ المسمى بحوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه» منه جزءان مرتبان على السنين، يبتدىء أحدهما بحوادث سنة ٦٠٨هـ إلى سنة ٦٥٨هـ، وهو من مخطوطات خزانة الرباط (١٩٤ أوقاف) ويبتدىء الثاني بحوادث سنة ٧٢٦هـ وينتهي بسنة وفاته ٧٣٩هـ، وهو في دار الكتب. اطلع على هذا الكتاب كل من المزي والذهبي والبرزالي ونقلوا عنه. (الأعلام: ٥/٢٩٨). قلت: وأرجّح ألا يكون أبو المحاسن هنا ينقل مباشرة عن الجزري هذا، وإنما هو ينقل عن الذهبي، بدليل أن أبا المحاسن لم يذكر شيئاً عن الجزري هذا في حوادث سنة ٧٣٩هـ.

الرازيّ(١) في كتاب سمّاه «طِبّ ساعة»(٢)؛ قال فيه: من أصابه زُكَامٌ وَصَبَّ على رأسه ماءً شديدَ الحرارة آنحلّ زكامُه لوقته، وهو لا ينبغي أن يُعمَل على إطلاقه؛ قال الطبيب: فانصبّ من دماغه إلى فم معدته فتورّمت، وعَرضت له حُمّى شديدة، وأراد القيء فنهاه الأطِبّاء، وقالوا: إن تقيّأ هلك، فخالفهم وتقيأ فهلك لوقته.

قال آبن واصل: وحَكَى لِي الحَكَم رضيّ الدين قال: عَرَضت له خوانيق، وتقيّأ دماً كثيراً ومِدّةً؛ فأراد القيء أيضاً فنهاه موفق الدين إبراهيم، وأشار عليه بعضُ الأطباء بالقيء فتقيّأ، فآنصبّت بقيّة المادة إلى قصبة الرئة وسدّتها فمات.

وقال آبنُ واصل: وكان ملكاً جليلاً حازماً، سديدَ الآراء حسنَ التدبير لممالكه عفيفاً حليماً؛ عُمِّرت في أيامه الديار المصرية عِمَارةً كبيرة، وكان عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يُورِدها، فَمن أجابه حَظِيَ عنده.

(١) هو أبو بكر الرازي المتوفى سنة ٣١٣هـ. فيلسوف من أئمة صناعة الطب.
(٢) ليس في قائمة كتبه التي ذكرها مترجموه ذكر لهذا الكتاب. ولعله كتاب «برء الساعة».

ذكر أخذ دِمْياط

قال أبو المظفّر في تاريخه: «في شعبان أخذ الفرنـج دِمْياط، وكان المعَّظم قد جهّز إليها الناهض بن الجرخي[١] في خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق فقُتِل آبن الجرخي ومَن كان معه، وصَفُّوا رؤوس القَتْلَى على الخنادق، وكان الفرنـج قد طَمُّوها (يعني الخنادق) وضعُف أهلُ دِمْياط وأكلوا الميتات، وعجز الملك الكامل عن نُصْرتهم، ووقـع فيهم الوباء والفناء، فراسلوا الفرنـج على أن يُسَلِّموا إليهم البلد ويخرجوا منه بأموالهم وأهلهم، وآجتمعـوا وحلّفوهم[٢] على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البَرِّ والبحر، وفتـح لهم أهل دِمْياط الأبواب، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السُّور، وغَدَرُوا بأهل دِمْياط، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، وباتوا تلك الليلة بالجامـع يَفْجُرون بالنساء، ويَفْتَضُّون البنات، وأخذوا المِنْبر والمصاحف ورؤوسَ القَتْلَى، وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامـع كنيسةً؛ وكان أبو الحسن ابن قُفْل بدِمْياط، فسألوا عنه، فقيل لهم: هذا رجلٌ صالـح من مشايـخ المسلمين يَأوِي اليه الفقراء، فما تعرّضوا له. ووقـع على المسلمين كآبةٌ عظيمة. وبكى الكامل والمعظّم بكاءشديداً، ثم تأخّرت العساكر عن تلك المنزلة. ثم قال الكامل لأخيه المعظّم: قد فات المطلوب، وجرى المقدر بما هو كـائن، وما في مُقامك ها هنا فائدة؛ والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنـج، وتستجلب العساكر من بلاد الشرق. قال أبو المظفَّر: فكتب المعظّم إليّ وأنا بدِمَشق كتاباً بخطّه، يقول ــ في أوّله ــ: قد علِم الأخ العزيز بأن قد جرى على دِمْياط ما جرى، وأريد أن

(١) في الأصل: «الحرجي». وما أثبتناه عن شفاء القلوب.

(٢) عبارة شفاء القلوب: «واجتمـع الأقساء وحلفوا على ذلك».

تُحرِّض الناسَ على الجهاد، وتُعرِّفهم ما جرى على إخوانهم أهلِ دِمْياط من الكَفَرة أهل العِناد. وإنِّي كشفتُ ضِياع الشام فوجدتُها أَلفَيْ قرية، منها ألفٌ وسِتّمائة أملاكٌ لأهلها، وأربعمائة سلطانية، وكم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمائة من العساكر؟ وأريد أن تُخرِجَ الدماشقةَ ليذُبُّوا عن أملاكهم، الأصاغر منهم والأكابر. ويكون لقاؤنا وهم صحبتك إلى نابُلس في وقت سمّاه. قال: فجلستُ بجامع دِمَشق وقرأتُ كتابه عليهم، فأجابوا بالسمع والطاعة، [وقالوا: نمتثل أمره بحسب الاستطاعة](١). وتجهزوا؛ فلمّا حلّ ركابُه بالساحل وقع التقاعد، وكان تقاعدُهم سبباً لأخذه الثُّمْنَ والخمسَ من أموالهم. وكتب إليّ يقول: إذا لم يخرجوا فسر أنت إلينا، فخرجتُ إلى الساحل وهو نازل على قَيْسارية، فأقمنا حتّى فتحها عَنْوَةً، ثم سرنا إلى النفر(٢) ففتحه وهدمه؛ وعاد إلى دمشق بعد أن أخرج العساكر إلى السواحل. وآستمرّ الملك الكامل على مقاتلة الفرنج إلى أن فتح الله عليه في سنة ثماني عشرة وستمائة، وطلب من إخوته النجدة، وتوجّه المعظّم في أوّل السنة إلى أخيه الأشرف موسى، وآجتمعا على حَرّان. وكتب صاحبُ مَارِدِين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظّم إليه، فسأله فسار إلى ماردين، فتلقّاه صاحب ماردين من دُنَيْسِر، وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمةً عظيمة، وقدّم له التُّحَفَ والجواهر وتحالفا وآتّفقا على ما أرادا؛ ثم عاد المعظّم إلى أخيه الأشرف. وجاء خبر دِمْياط. وكان المعظّم أحرصَ الناس على خلاص دِمْياط والغزاة، وكان مصافياً لأخيه الكامل، وكان الأشرف مقصِّراً في حقّ الكامل مبايناً له في الباطن؛ فلمّا آجتمعت العساكر على حَرّان قطع بهم المعظّم الفُرات، وسار الأشرف في آثاره، ونزل المعظّم حِمْص والأشرف سَلَمْيَة. قال: وكنتُ قد خرجتُ من دِمَشق إلى حمص لطلب الغزاة، فإنّهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابُلس، فآجتمعتُ بالمعظّم في شهر ربيع الآخر فقال لي: قد سحبتُ الأشرف إلى ها هنا وهو كاره، وكلّ يوم أعتبه في تأخّره وهو يكاسر(٣) وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، وهو صديقك؛ وأشتهي أن تقوم تروح إليه فقد سألني

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) كذا. ولعلها: «النفق».

(٣) كذا. ولعله: يتكاسل».

عنك [مراراً](١)؛ ثم كتب إلى [أخيه](١) كتاباً بخطّه نحو ثمانين سطراً، فأخذتُه ومضيتُ إلى سَلَمْيَة؛ وبلـغ الأشرفَ وصولي فخرج من الخَيْمة وتلقاني وعاتبني على آنقطاعي [عنه](١) وجرى بيني وبينه فصول؛ وقلت له: المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنـج الديار المصريّة ملكوا إلى حَضْرَمَوْت، وعفَوا آثار مكّة والمدينة والشام [وأنت تلعب](١)، قم الساعة وآرحل؛ فقال: اِرموا الخيام [والدهليز](١)، وسبقتُه إلى حِمْص فتلقاني المعظّم، وقال: ما نمتُ البارحة ولا أكلتُ اليوم شيئاً، فقلت: غداً يُصبِّـح أخوك الأشرفُ حِمْصي.

فلمّا كان من الغد أقبلت الأطلاب(٢) وجاء طُلْب الأشرف، والله ما رأيت أجملَ منه ولا أحسن رجالاً ولا أكمل عُدّة، وسرّ المعظّم سروراً عظيماً؛ وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فآتّفقوا على الدخول في السحَر إلى طرابُلُس، وكانوا على حال، فأنطق الله الملكَ الأشرفَ من غير قصد وقال للمعظّم: يا خَوَنْد(٣)، عوض ما ندخل الساحل وتضعُف خيلُنا وعساكرنا ويضيـع الزمان ما نـروح إلى دِمْياط ونستريـح؟ فقال له المعظّم ــ قول رماة البندق قال ــ: نعم، فقبّل المعظّم قدمه ونام الأشرف، فخرج المعظّم من الخيمة كالأسد الضاري يصيـح: الرحيلَ الرحيلَ إلى دِمْياط؛ وما كان يَظُنّ أنّ الأشرف يسمـح بذلك، وساق المعظّم إلى دِمَشق وتَبِعَتْه العساكر، ونام الأشرف في خيمته إلى قرب الظهر، وآنتبه فدخل الحمّام فلم يَرَ [حول] خيمته أحداً، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت، وساق إلى دمشق فنزل القُصَيْر يوم الثلاثاء رابـع جُمادى الأولى، فأقام إلى سلخه، وعَرَض العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظّم في الطيّارة بقلعة دمشق، وساروا إلى مصر.

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) الأطلاب: فرق الجيش وكتائبه. ويقول ابن إياس أن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبـي. ويذكر المقريزي أن «الطلب» في لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتـا فارس إلى مائة إلى سبعين. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦).

(٣) الخَوَنْد: لفظ فارسي بمعنى السيّد العظيم والأمير. واستعملت في العربية لقباً بمعنى السيد والسيدة. (تأصيل ما ورد في تاريـخ الجبرتي من الدخيل: ٩١).

وأمّا الفرنـج فإنّهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائداً جدّاً[١]، فجاؤوا إلى ترعة فأرسَوْا عليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كلّ مكان، وأحدق بهم عساكر الكامل، فلم يبق [لهم] وصول إلى دِمْياط؛ وجاء أسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم، ومنعوهم أن تصل إليهم المِيرةُ من دِمْياط، وكانوا خَلْقاً عظيماً، وآنقطعت أخبارُهم عن دِمْياط، وكان فيهم مائة كُنْـد[٢] وثمانمـائة من الخيّـالة المعروفين وملِكُ عكّا والدوك واللوكان نائبُ البابا؛ ومن الرجّالة ما لا يُحصى، فلمّا عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلـح والرهائن، ويسلِّمون دِمْياط؛ فمن حِرْص الكامل على خلاص دِمْياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا برِقابهم؛ فبعث إليهم الكامل آبنَه الملك الصالـح نجم الدين أيّوب، وآبنَ أخيه شمس الملوك؛ وجاء ملوكهم إلى الكامـل ممّن سمّينـا، فـآلتقاهم وأنعم عليهم وضـرب لهم الخِيام[٣].

---

(١) المراد زيادة ماء النيل في أيام الفيضان. وكان هذا الأمر عاملاً هاماً ساعد المسلمين في انتصارهم على الصليبيين في تلك المعركة. قال المقريزي في السلوك: ٢٤٣/١: «وكان الوقت في قوة الزيادة (أي زيادة النيل) فإنه كان أول ليلة من توت، والفرنـج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل. فلم يشعر الفرنـج إلا والماء قد غرق أكثر الأرض التي هم عليها، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها. . .».

(٢) الكُنْد: هو الكونت أو القومس. Count. Comte. وقد أورد هذا اللفظ بهذا المعنى العماد الكاتب الأصبهاني في كتابه البرق الشامي: «وقد وصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له أفلند، من أكبر طواغيت الكفر». ـ البرق الشامي: ٥٢/٣.

(٣) الفقرة السابقة (والتي يمكن إدراجها تحت عنوان: انسحاب الصليبيين من دمياط ومعاهدة الصلح) مضطربة السياق وغير دقيقة في إيراد الحوادث والأعلام.

ونعيد فيما يلي صياغتها تلخيصاً عن كتابي «الحروب الصليبية» لسيّد علي الحريري، و«الحروب الصليبية كما رآها العرب» لأمين معلوف:

(. . . بعد استيلاء الصليبيين على دمياط قرر مجلس مشورتهم بأن تكون دمياط تابعة للملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا وعكا. ثم إنهم قرروا المسير إلى القاهرة ومحاصرتها. وكان على رأس القوات الصليبية الكردينال بيلاجيوس ـ وهو كردينال إسباني من أنصار الحرب المقدّسة المغالين، وكان البابا قد عيّنه نائباً عنه وعلى رأس الحملة ـ واحتشد الصليبيون تجاه المنصورة، وكان عددهم إذ ذاك نحو مائتي ألف راجل وعشرة آلاف فارس؛ فخابرهم الملك الكامل بالصلـح وعرض عليهم أن يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الأماكن التي فتحها صلاح الدين، إلا الشوبك والكرك، لأنهما أصبحتا =

ووصل المعظّم والأشرف في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلساً عظيماً في خيمة كبيرة عالية، وقد مَدّ سماطاً عظيماً، وأحضر ملوكَ الفرنـج، ووقف المعظّم والأشرف والملوك في خدمته، وقام الحِلّي[1] الشاعر ــ رحمه الله تعالى ــ فأنشد: [الطويل]

هنيئـاً فـإنّ السعـد راح مخلَّدا وقد أنجز الرحمنُ بالنصر مَوْعِـدَا
حبَـانا إلـهُ الخَلْق فتحاً بـدا لنـا مُبينـاً وإنعـامـاً وعـزًّا مـؤبَّـدا
تهلّل وجـهُ الـدهـر بعـد قُـطُوبِـهِ وأصبح وجهُ الشِرْك بالظلم أسودا
ولمّا طغى البحرُ الخِضَمُّ بأهله الـ ـطغاة وأضحى بالمراكب مُزْبِـدا
أقـام لهذا الـدِّين مَنْ سلّ سيفـه صقيلاً كما سلّ الحُسام مجـرّدا

= ملكاً خاصاً له نالها بالإرث من السلطان صلاح الدين. وطلب منهم بالمقابل أن يردوا دمياط وينسحبوا من القطر المصري. وكان تقدير الصليبيين أن المسلمين في حالة ضعف، لذلك قرروا ــ بتحريض من بيلاجيوس ــ متابعة القتال. وأرسلوا إلى الكامل بأنهم لا ينسحبون إلا بالحصول على تينك المدينتين (الشوبك والكرك) زيادة على المدن الأخرى المذكورة، يضاف إلى ذلك مبلـغ ٣٠٠ ألف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى بهدم أسوار بيت المقدس. فامتنـع المسلمون عن التسليم لهم بذلك، ثم بعثوا سريّة من رجالهم لتسير سراً من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سدّ ترعة المحلّة. وكان النيل في عظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى أغرقت جميـع الأراضي التي تفصل جيش الصليبيين عن دمياط، وأصبحوا على أرض مثل الجزيرة. ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط إلا طريق ضيق، فأمر السلطان بنصب الجسور عند أشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق. واضطرب الفرنـج وضاقت عليهم الأرض. واتفق مجيء فرقة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والأسلحة فقاتلتها شواني المسلمين وظفرت بها. عندها ندم الصليبيون على رفضهم المعاهدة السابقة وطلبوا من الملك الكامل الأمان على أن ينسحبوا من مصر دون مقابل. فقبل منهم الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م على أن يعطي كل من الفريقين رهائن، فأعطى الصليبيون الملك يوحنا دي بريانا ملك عكا والكردينال بيلاجيوس نائب البابا رهائن، وأعطى الكامل ابنه الملك الصالـح، وكان سنه ١٥ سنة، وجماعة من الأمراء . . . ثم انسحب الصليبيون من دمياط وسائر أنحاء القطر المصري. بعد ذلك أرسل الصليبيون الملك الصالـح ومن معه إلى أبيه فأرسل إليهم رهنهم). وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط إلى أن أقلعوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر و١٩ يوماً، منها مدة استيلائهم على المدينة سنة وعشرة أشهر و٢٤يوماً. ثم سار الملك الكامل إلى مقر ملكه في القاهرة، وانتقل من دار الوزارة التي كانت إلى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة.

(١) شرف الدين راجـح بن إسماعيل الحلّي. كان فاضلاً جيد النظم عذب الألفاظ حسن المعاني. توفي سنة ٦٢٧هـ. (فوات الوفيات: ٢/٧).

فلم يَنْجُ إلّا كـلُّ شِلْوٍ مجـدَّلٍ ثَـوَى منهمُ أو من تـراه مقيَّـدا
ونادى لسانُ الكون في الأرض رافعاً عقيـرتَـه في الخـافقَيْن ومُنْشِـدا
أَعُبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وحـزبَـهُ وموسى جميعاً يخـدُمون محمّـدا

وهذا من أبيات كثيرة.

قلت: صحّ للشاعر فيما قصد من التورية في المعظَّم عيسى والأشرف موسى، لمّا وقفا في خدمة الكامل محمد، فلله دره! لقد أجاد فيما قال[١].

ووقـع الصلـح بين الملك الكامل وبين الفرنـج في يوم الأربعاء تاسـع عشر شهر رجب سنة ثماني عشرة وستمائة، وسار بعض الفرنـج في البرّ وبعضهم في البحر إلى عكّا، وتسلم الكامل دِمْياط.

قلت: ويُعجبني قول البارع كمال الدين[٢] عليّ بن النّبيه في مدح مخدومه الملك الأشرف موسى لمّا حضر مـع أخيه المعظَّم إلى دِمْياط في هذه الكائنة قصيدتَه التي أوّلها: [البسيط]

لـلذّةِ العـيش والأفـراح أوقــاتُ فـانشر لـواءً له بـالنصـر عـاداتُ

إلى أن قال منها:

دِمْيـاط طُورٌ ونـارُ الحرب مـوقَدَةٌ وأنت مـوسى وهذا اليـوم مِيقاتُ
ألقِ العَصَا تتلقّفْ كلَّ مـا صنعوا ولا تَخفْ ما حبالُ القـوم حَيّاتُ

وهي قصيدة طويلة مثبتة في ديوان آبن النبيه.

قال أبو المظفّر: قال فخر الدين آبن شيخ الشيوخ: لمّا حضر الفرنجُ دِمْياط صَعِد

---

(١) وجاء في شفاء القلوب: وقيل إن البيت الأخير للشاعر شرف الدين جبارة (علي بن اسماعيل بن جبارة المتوفى سنة ٦٣٢هـ) من قصيدة أولها:
«أبى الوجد إلا أن أبيت مُسَهَّدا»

(٢) هو كمال الدين علي بن يوسف بن النَّبيه، صاحب ديوان رسائل الملك الأشرف موسى بن العادل. توفي سنة ٦١٩هـ. (فوات الوفيات وشذرات الذهب).

الكامل على مكان عالٍ، وقال لي: ما ترى ما أكثر الفرنج! ما لنا بهم طاقة؛ فقلتُ: أعوذ بالله من هذا الكلام؛ قال: ولِمَ؟ قلتُ لأنّ السعد [موكل][1] بالمنطق، قال: فأخذتِ الفرنـج دِمْياط بعد قليل، فلمّا طال الحِصار صَعِد يوماً على مكان عالٍ، وقال: يا فلان، ترى الفرنـج ما أقلهم! والله ما هم شيء؛ فقلتُ: أخذتَهم والله؛ قال: وكيف؟ قلتُ: قلتَ في يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فأخذوا دِمْياط، وقد قلتَ اليوم: كذا، والملوك منطَّقون بخير وشرّ؛ فأَخَذَ دِمْياط بعد قليل». اِنتهى. وقد تقدّم ذكر الكامل في أوائل الترجمة من قول جماعة من المؤرّخين، ويأتي أيضاً ــ مِن ذكره في السنين المتعلّقة به ــ نبذةٌ كبيرة، إن شاء الله تعالى. والله الموفّق لذلك بمنّه وكرمه.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الكامل محمد آبن الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ستّ عشرةَ وستّمائة.

وقد تقدّم أنّ الكامل كان ولِي مصر في حياة والده العادل سنين عديدة فلا عُمْدة بولايته تلك الأيام، فإنّه كان كالنائب بمصر لأبيه العادل، ولا عِبرةَ إلاّ بعد آستقلاله بسلطنة مصر بعد وفاة أبيه.

فيها (أعني سنة ستَّ عشرةَ وستمائة) أخرب الملكُ المعظَّم عيسى صاحبُ دِمَشق القُدْس، لأنّه كان توجّه إلى أخيه الملك الكامل صاحب الترجمة في نَوْبة دمياط في المرّة الأولى، فبلغه أن الفرنـج على عزم أخذ القُدس، فآتفق الأمراء على خرابه؛ وقالوا: قد خلا الشامُ من العساكر، فلو أَخَذ الفرنـجُ القُدس حكموا على الشام جميعه. وكان بالقدس [أخوه] العزيز عثمان، وعزّ الدين أَيْبَك أستادار، فكتب إليهما المعظّم بخرابه، فتوقّفا وقالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظّم ثانياً:

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

لو أخذوه لقتلوا كلّ مَن فيه وحكموا على الشام وبلادِ الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه. فشرعوا في خراب السور أوّل يوم من المحرّم، ووقع في البلد ضجّة عظيمة. وخرج النساء المخدّرات والبنات والشيوخ وغيرُهم إلى الصخرة والأقصى وقطعوا شعورَهم ومزّقوا ثيابهم، وفعلوا أشياء من هذه الفعال؛ ثم خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهاليهم، وما شَكُّوا أنّ الفرنج تُصَبِّحهم، وآمتلأت بهم الطُّرُقات؛ فتوجّه بعضهم إلى مصر، [وبعضهم إلى الكَرَك][1]، وبعضهم إلى دِمشق، وكانت البنات المخدّرات يُمَزِّقن ثيابهنّ ويربُطْنها على أرجلهن من الحفا؛ ومات خَلْق كثير من الجوع والعطش، ونُهِبت الأموال التي كانت لهم بالقدس، وبلغ ثمن القنطار الزيت عشرة دراهم، والرطل النُّحَاس نصف دِرْهم؛ وذمّ الناس المعظَّم؛ فقال بعض أهل العلم في ذلك: [مخلّع البسيط]

فــي رَجَـبٍ حــلّلَ الـحُـمَـيّـا   وأخـرب القُـدْس في المحـرَّمْ

وقال القاضي مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفِيّ قاضيّ الطُّور[2] في خراب القُدْس: [الطويل]

مررتُ على القُدْس الشريف مُسَلِّماً   على ما تبقّى من رُبوعٍ كأنْجُمِ
ففاضت دموعُ العَيْنِ مِنّي صَبَابَةً   على ما مضى من عصرنا المتقدّمِ
وقـد رام عِلْـجٌ أن يعفّي رسومـه   وشمَّـر عن كفّي لئيمٍ مُـذَمَّـمِ
فقلتُ لــه شُلَّت يمينُـك خَلِّهـا   لـمعتَبِرٍ أو سـائـلٍ أو مـسلِّمِ
فلو كـان يُفْدَى بـالنفوس فـديتُـه   بنفسي وهذا الظنّ في كلّ مسلمِ

وفيها حجّ بالناس من العراق أقباش الناصريّ، ومن الشام مملوك الملك المعظَّم عيسى.

وفيها تُوُفِّيت ستُّ الشام بنتُ الأمير نَجْم الدِّين أيُّوب أختُ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب؛ كانت سيّدةَ الخواتين في زمنها؛ كانت كثيرة البِرّ

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) كذا في الشذرات. وفي الأصل: «الغور».

والصدقات؛ كانت تعمل في دارها الأشربةَ والمعاجين والعقاقير كلّ سنة بألوف دنانير وتُفَرِّقها على الناس، وكان بابها ملجأً للقاصدين؛ وكان زوجها آبن عمّها الأمير ناصر الدين محمد بن شِيرِكُوه صاحب حِمْص، وهي أمّ حُسام الدِّين [محمد بن عمر بن][1] لاجين، وصاحبة الأوقاف والأربطة بدِمَشق وغيرها ـ رحمها الله تعالى ـ.

وفيها تُوُفِّي محمد بن زَنْكِي الملك المنصور صاحب سِنْجار؛ كان مِلِكاً عادلاً عاقلاً جَوَاداً، خلّف عِدّة أولاد: سلطان شاه وزَنْكِي ومظفَّر الدِّين، وعِدّة بنات. وكان من بيت مُلك وسلطنة.

وفيها تُوُفِّي عليّ بن القاسم بن عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عساكر آبن صاحب تاريخ دمشق. كان فاضلاً سمِع الحديث وتفقّه وسافر إلى بغداد، فلمّا عاد قُطِع عليه الطريق، فأصابه جِرَاحٌ فمات منه بعد أيّام.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي العدل أبو منصور سعيد بن محمد بن سعيد الرزّاز فجأةً في المحرّم. وأبو منصور عُتَيْق بن أحمد في صفر. والعلامة أبو البقاء عبد الله بن الحُسين بن أبي البقاء العُكْبَرِيّ الضَّرير في شهر ربيع الآخر، وقد قارب الثمانين. وأبو البركات داود بن أحمد بن محمد [بن منصور بن ثابت][2] بن مُلاعِب الأَزَجِيّ الوكيل في رجب، ولِد في أوّل سنة آثنتين وأربعين. وأبو الفضل أحمد بن محمد بن سيّدهم الأنصاريّ بن الهَرّاس الجابي[3] في شعبان، وله أربع وثمانون سنة. وأبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن عليّ الأنباريّ الكاتب سبط قاضي القضاة أبي الحسن بن الدَّامَغانيّ، وله تسعون سنة. وأبو يَعْلَى حمزة بن السيّد بن أبي لُقْمة الصفّار في شهر رمضان، وهو أصغر من أخيه[4]. وأبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن مسعود [بن سعد بن عليّ][5] بن الناقد

---

(١) زيادة عن ابن الأثير.

(٢) زيادة عن الذهبي.

(٣) في الذهبي: «الحبابي».

(٤) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٢٣هـ.

(٥) زيادة عن الذهبي.

المقرىء، ويقال: كان آخر من قرأ المِصْباح[١] على مؤلِّفه الشَّهْرُزُورِيّ، مات في شوّال عن ستّ وثمانين سنة. والخاتون ستّ الشام أخت الملك العادل في ذي القعدة. والعلّامة افتخار الدين أبو هاشم عبد المطّلب بن الفضل الهاشميّ الحنفِيّ بحلب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبع عشرة وستمائة.

فيها قتَل صاحبُ سنجار أخاه، فسار الملكُ الأشرفُ موسى أخو الملك الكامل هذا إليها، فأخذها وعوّض صاحبها الرَّقّة.

وفيها نزَل الملك الأشرف المذكور على المَوْصِل نجدةً لبدر الدين علي بن زَيْن الدين، وعزم على قصد إِرْبِل، فبعث الخليفةُ مَن ردّه عن إِرْبِل وأصلح بينهما.

وفيها في شهر رجب كانت واقعة البرلُّس[٢] بين الكامل صاحب الترجمة وبين الفرنج، ونصر الله الكامل وقتل منهم عشرة آلاف وغَنِم خيولهم وسلاحهم ورجعوا إلى دِمْياط مهزومين.

---

(١) «المصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر» لأبي الكرم مبارك بن الحسن الشهرزوري المتوفى سنة ٥٥٠هـ. (كشف الظنون).

(٢) كانت البرلُّس من الثغور المصرية القديمة الواقعة على شاطىء البحر المتوسط بين دمياط ورشيد، وإليها تنسب بحيرة البرلس الواقعة شمال مديرية الغربية. وأنشأ الأيوبيون فيها قلعة اشتهرت بين الأهالي باسم «البرج» ومن ذاك الوقت عرفت قرية البرلس باسم البرج. (محمد رمزي).

وفيها عزل الملك المعظّم عيسى صاحب دِمَشق المبارز المعتمد عن ولاية دمشق، وولّى عوضَه عليها العزيز خليلاً.

وفيها كان أوّل ظهور التّتار[1] وعبورهم جَيْحون؛ وكان أوّل ظهورهم من [ما] وراء النهر سنة خمس عشرة وستمائة. وقبل عبورهم جيحون قصدوا بُخَارَى وسَمَرْقَنْد، وقتلوا أهلها وسبَوْهم، وحصروا خُوَارَزْم شاه، فانضمّ إليهم الخُطَا، وصاروا تبعاً لهم.

وكان خُوَارَزْم شاه قد أخلى البلاد من الملوك، فلم يجدوا أحداً يردّهم، ووصلوا في هذه السنة إلى الرَّيّ وقَزْوِين وهَمَذَان، وقتلوا أهلها وأحرقوا مساجدها، ثم فعلوا بأَذْرَبيجَان كذلك.

وفيها حجّ بالناس من العراق أقباش الناصريّ وقُتِل بمكّة، ولم يحجّ أحد من العجم بسبب التّتار، وعاد الحجّ البغداديّ من على الشام. وحجّ بالناس من الشام المبارز المعتمد.

وفيها تُوفّي الملك الفائز إبراهيم آبن الملك العادل أبي بكر آبن الأمير نجم الدين أيّوب أخو الملك الكامل صاحب الترجمة. وقد تقدّم أنّه كان يريد الوثوب على أخيه الملك الكامل، وآتّفق مع آبن المشطوب حتّى أخرجهما أخوه الملك المعظّم عيسى من مصر؛ فمات الفائز بين سِنجار والموصل، فحمِل إلى سنجار ودُفِن بتربة عِماد الدِّين زَنْكِي والد السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، ومات وهو في عُنْفُوان شَبيبته.

وفيها تُوُفِّي الأمير أقباش بن عبد الله الناصريّ. قال أبو المظفّر: «اِشتراه الخليفة (يعني الناصر لدين الله) وهو ابن خمسَ عشرةَ سنة بخمسة آلاف دينار،

(١) كتب ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧هـ فصلاً مؤثراً تحت عنوان «ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام».
ومما جاء فيه:
«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها؛ فأنا أقدم إليه رجلاً وأأخر أخرى؛ فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً...».

ولم يكن بالعراق أجمل صورةً منه، ثم قرّبه إليه ولم يكن يفارقه؛ فلمّا ترعرع ولّاه إمْرة الحاجّ والحرمين، وكان متواضعاً محبوباً إلى القلوب. قُتِل بمكّة المشرّفة في واقعة بين أشراف مكّة، خرج ليُصْلحَ بينهم فقُتِل. وكان قتله في سادس عشر ذي الحجّة.

وفيها تُوفّي الشيخ عبد الله بن عثمان بن جعفر بن محمد اليُونِينِيّ، أصله من قرية من قُرَى بعلبك يقال لها «يُونين». كان صاحب رياضات وكرامات ومجاهدات ومكاشفات، وكان من الأبدال. وكانت وفاته يوم السبت في العشر الأوّل من ذي الحجّة ــ رحمه الله ــ.

وفيها تُوُفّي الشريف قَتَادة بن إدريس أبو عَزيز الحُسَيْنِيّ المكّي أميرُ مكّة. كان شيخاً عارفاً مُنْصِفاً نِقْمَةً على عَبيد مكّة المفسدين، وكان الحَاجّ في أيّامه في أمان على أموالهم ونفوسهم، وكان يُؤذّن في الحرم بـ« حيّ على خير العمل» على قاعدة الرافضة، وما كان يلتفت إلى أحد من خَلْق الله تعالى، ولا وَطِىء بِساطَ الخليفة ولا غيره، وكان يُحْمَلُ إليه من بغداد في كلّ سنة الذهب والخِلَعُ وهو بداره في مكّة، وهو يقول: أنا أحقّ بالخلافة [من الناصر لدين الله](١)، ولم يرتكب كبيرة فيما قيل. قلت: وأيّ كبيرة أعظم من الرّفْض وسبّ الصحابة! ــ رضي الله عنهم ــ.

وفيها تُوفّي محمد بن عمر بن شاهِنْشاه بن أيّوب الملك المنصور صاحب حَمَاة. كان شجاعاً مُحِباً للعلماء والفضلاء، مات بحَمَاة ودُفِن بها. وقام بعده ولدُه الأكبر الملكُ الصالح الناصر قليج أَرْسلان. وجرى له مع الملك الكامل صاحب الترجمة أمورٌ وفصول.

وفيها تُوُفّي محمود بن محمد بن قرا أَرْسلان بن أُرْتُق الملك الصالح ناصر الدين صاحب آمِد؛ كان شجاعاً عاقلاً جَوَاداً مُحِبّاً للعلماء، وكان الأشرف يُحِبّه، وجاء إلى الأشرف وخدمه غيرَ مرّة؛ ومات بآمد في صفر. وقام بعده ولده مسعود، وكان مسعود

(١) زيادة عن الذهبي.

ضدّ آسمه بخيلاً فاسقاً، حصره الملك الكامل هذا وظَفِر به وأخذه إلى مصر وأحسن إليه؛ فكاتب الروم وسعى في هلاك الكامل، فحبسه الكامل ـ لمّا سَمِع ذلك ـ في الجُبّ[١] مدّة ثم أطلقه، فمضى إلى التتار، وكان معه الجواهر والأموال فقتلتْه التتار، وأخذوا جميع ما كان معه.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي عبد الرحمن بن أحمد بن هَدِيّة[٢] الورّاق في شهر ربيع الأوّل، وقد جاوز التسعين، وهو آخر من رَوَى عن عبد الوهّاب الأَنْماطِيّ. وشيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبي الفتح عمر بن عليّ بن محمد بن حَمّويه في جُمادى الأولى ذاهباً في الرسليّة من الكامل بالموصل، وله أربع وسبعون سنة. وصاحب حَماة الملك المنصور محمد بن تقيّ الدين عمر بن شَاهِنْشاه. والزاهد الكبير الشيخ عبد الله اليُونِينِيّ في ذي الحجّة بَبعْلَبَك. وصاحب مكّة قَتَادة بن إدريس الحُسَيْنِيّ. وأبو الحسن المؤيِّد بن محمد بن عليّ الطُّوسِيّ المقرىء في شوّال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة ستّ عشَرَة ذراعاً وثماني أصابع.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثماني عشرة وستمّائة.

فيها تُوفّي إسماعيل بن عبد الله أبو طاهر الأَنْماطيّ المحدّث؛ كان إماماً فاضلاً سمِع الكثير ولَقِي الشيوخَ وحدّث، وتُوُفِّي بدِمش في شهر رجب وكان ثِقةً.

---

(١) الجبّ: كان يوجد في قلعة الجبل بالقاهرة. وقد ردم. ومكانه اليوم المدفن الواقع غربي جامع سليمان باشا المعروف بجامع سيدي سارية. (محمد رمزي).

(٢) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «هبة الله».

وفيها تُوُفّي محمد بن خَلَف بن راجح المَقْدسِيّ ويُلَقّب بالشهاب والد القاضي نجم الدين[١]، كان زاهداً عابداً فاضلاً في فنون العلوم.

وفيها تُوُفّي محمد بن محمد الشيخ الإمام النحويّ التَّكرِينيّ؛ كان بارعاً في النحو والأدب والشعر. ومن شعره قوله: [مخلّع البسيط]

مَنْ كان ذَمَّ الرَّقيبَ يوماً فإنّني للرقيب شاكرْ
لم أرَ وجْهَ الرقيب وقتاً إلّا ووجه الحبيب حاضرْ

وله في مجنونة: [السريع]

أمسيتُ[٢] مجنوناً بمجنونةٍ يَغَار من قامتها الغُصْنُ
فَمَنْ عذِيري من هَوَى ظبيةٍ قد عشِقَتْها الإنسُ والجِنُّ

قلت: وطَريفٌ قول الشيخ زَيْن الدِّين عمر بن الوَرْدِيّ ـ رحمه الله ـ في هذا المعنى: [مخلّع البسيط]

زاد جُنوني بذِي جُنُونٍ مُعَذَّرٍ والعِذارُ زَيْنُ
قالوا به عارضٌ وعينٌ قلت وبي عارض وعَيْنُ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفي شهاب الدين محمد بن خَلَف بن راجح المَقْدِسِيّ في صفر، وله ثمان وستون سنة. وأبو محمد هبة الله ابن الخِضْر بن هبة الله [بن أحمد بن عبد الله][٣] بن طاوس في جُمادى الأولى، وله إحدى وثمانون سنة. وأبو نصر موسى آبن الشيخ عبد القادر الجِيليّ في جمادى الآخرة. وآسْتُشْهِد بهَمَذَان خَلْقٌ بأيدي التتار، منهم: الإمام تقيّ الدين أبو جعفر محمد بن محمود بن إبراهيم الحَمّاميّ الواعظ. وأبو عبد الله محمد بن

---

(١) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٣٨هـ.

(٢) جاء في حاشية ص ٢٥٢ من طبعة دار الكتب أن هذا الشعر هو لعمر بن مظفر بن الوردي كما في ديوانه المطبوع بالآستانة ص ٢٨٧. ورواية البيت الأول: «إني لمجنون ... الخ».

(٣) زيادة عن الذهبي.

أحمد بن هبة الله الرُّوذْرَاوَرِيّ[١]. وبهَرَاةَ أبو روح [عبد المُعِزّ][٢] بن محمد الهَرَوِيّ. وبنَيْسابور أبو بكر القاسم بن عبد الله بن عمر بن الصَّفّار. وأبو النَّجِيب إسماعيل بن عثمان بن إسماعيل بن أبي القاسم القارىء الصوفيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وستُّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبعان.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة تسعَ عشرةَ وستمائة.

فيها ظهر جرادٌ بالشام أكل الشجر والزروع والثمر ولم يُرَ مثله.

وفيها نُقِلت رِمّة الملك العادل أبي بكر من قلعة دِمَشق إلى مدرسته[٣] التي عند دار العَقِيقِيّ، فدُفِن بها.

وفيها تُوفّي مِسْمار بن عمر بن محمد الشيخ أبو بكر بن العُوَيس البغداديّ في شعبان بالموصل، وكان فاضلاً ثقة.

وفيها تُوُفّي نصر بن أبي الفرج الفقيه الحنبليّ؛ كان إمام الحنابلة بمكّة، جاور بمكّة سنين، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمُهَجَّم[٤] ودُفِن به، وكان صالحاً متعبِّداً لا يفتر عن الطَّوَاف.

---

(١) كذا في الذهبي، نسبة إلى «روذراور» كورة قرب نهاوند من أعمال الجبال. وفي الأصل: «الروذباري» نسبة إلى «روذبار».

(٢) زيادة عن الذهبي.

(٣) وهي المدرسة العادلية الكبرى، داخل دمشق شمالي الجامع بغرب، وشرقي الخانقاه الشهابية، وقبلي الجاروخية بغرب، وتجاه باب الظاهرية يفصل بينها الطريق. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/٢٧١).

(٤) المهجَّم: بلد وولاية من أعمال زبيد باليمن. (معجم البلدان).

وفيها تُوُفِّي الأمير قطب الدين أحمد ٱبن الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب أخو الملك الكامل محمد هذا. مات بالفَيُّوم[1] فنُقِل إلى القاهرة ودُفِن بها.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي الحافظ أبو الفتوح نصر بن أبـي الفرج البغداديّ ٱبن الحُصْرِيّ المقرىء الحنبليّ في المحرّم، وله ثلاث وثمانـون سنة. والحـافظ أبو الـطاهر تَقِيّ الـدين إسماعيـل بن عبد الله بن عبد المحسن المصريّ[2] ٱبن الأنماطيّ في رجب كَهْلاً. وأبو بكر مِسْمار بن عمر بن محمد بن العُويس النَّيَّار بالموصل في شعبان. والقُدوة الشيخ عليّ [بن أبـي بكر محمد بن عبد الله][3] بن إدريس اليَعْقُوبِيّ في ذي القعدة. وأبو سعد ثابت بن مشرف المعمار في ذي الحجّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وسبـع أصابـع. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وثلاث أصابـع.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة عشرين وستمائة.

قال أبو شامة: ففيها عاد الملك الأشرف موسى من مصر [إلى الشام قاصداً بلاده بالشرق][4]، فٱلتقاه أخوه المعظم عيسى وعرض عليه النزول [بالقلعة][4]

(١) الفيّوم: منطقة منخفضة تقـع بالصحراء الغربية (الليبية) بمصر، ومساحتها حوالى ألفي كلم مربـع؛ أخصبت أراضيها مياه النيل التي يحملها بحر يوسف. وأكثر أجزائها انخفاضاً الجزء الذي تغمره ميـاه بحيرة قارون. ومدينة الفيوم قاعدة محافظة الفيوم غربـي محافظة بني سويف. (الموسوعة العربية الميسّرة: ١٣٥٧) وانظر الحاشية التي كتبها الاستاذ محمد رمزي في ص ٢٥٤ من الجزء السادس، طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) كذا في تاريـخ الإسلام وتذكرة الحفاظ للذهبـي. وفي الأصل: «الأنصاري».

(٣) زيادة عن الذهبـي.

(٤) زيادة من الذيل على الروضتين.

فآمتنع، ونزل بجَوْسَق والده العادل، وبدت الوحشةُ بين الإخوة الثلاثة [يعني الكامل محمداً صاحب الترجمة، والمعظَّم عيسى صاحب دمشق، والأشرف موسى صاحب خِلَاط وغيرها](١). قال: ثم رحل الأشرف سَحَراً على ضُمَيْر(٢) ثم سار إلى حرّان، وكان [الأشرف](١) قد آستناب أخاه شهاب الدين غازياً صاحب مَيّافارِقين على خِلَاط، [لمّا سافر إلى مصر](١) وجعله وليَّ عهده، ومكّنه من بلاده؛ فسوّلتْ له نفسه العِصْيان، وحسّن له ذلك الملك المعظّم وكاتبه وأعانه، وكذا كاتبه صاحب إرْبِل [والمشارقة](١)، فأرسل الأشرف إلى غازي المذكور يطلبه فآمتنع؛ فأرسل إليه: يا أخي لا تفعل، أنت وليُّ عهدي والبلاد في حكمك فأبى؛ فجمع الأشرف عساكره وقصده، ووقع له معه أمور حتّى هزمه، ثم رَضِي عنه الأشرف حسب ما نذكره في السنة الآتية.

وفيها كانت بين التّتار الذين جاؤوا إلى الدَّرْبَنْد(٣) وبين القَبْجَاق(٤) والروس وقعة هائلة، وصبر الفريقان أيّاماً، ثم آنهزم القَبْجَاق والروس، ولم يَسْلَم منهم إلّا اليسير.

وفيها تُوُفّي عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة بن مقدام بن نصر شيخ الإسلام موفَّق الدين أبو محمد المَقْدِسِيّ الجَمّاعِيليّ الدمشقيّ الصالحيّ الحنبلي صاحب التصانيف. وُلِد بجمّاعيل في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقرأ القراءات وآشتغل في صغره وسَمِع من أبيه سنة نيّف وخمسين، ورحل إلى البلاد وسَمِع الكثير، وكتب وصنّف وبَرَع في الفقه والحديث، وأفتى ودرّس وشاع ذكرهُ وَبَعُدَ صِيتُه. وكانت وفاته في يوم عيد الفطر، وله ثمانون سنة.

وفيها تُوُفّي عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن

---

(١) زيادة من الذيل على الروضتين.

(٢) ضمير: موضع قرب دمشق، وهو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة (معجم البلدان).

(٣) الدربند أو باب الأبواب: ممر وحصن في الطرف الشرقي من القوقاز. والدربند اسمه الفارسي. وقد تحول الاسم تحت التأثير التركي إلى «الباب الحديدي» (دائرة المعارف الإسلامية: ٥١٢/٥).

(٤) القبجاق والقفجاق: جنس من الترك، مساكنهم الأصلية حوض نهر إرتش، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر إتل (الفولغا) في جنوب الروسيا الحالية، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق. (السلوك: ٦٦٣/٣، حاشية).

الحسين الإمام المفتي فخر الدين أبو منصور الدِّمشقيّ الشافعيّ المعروف بـابن عساكر شيـخ الشافعيّة بالشام. ولد في سنة خمسين وخمسمائة، وسمِع من عَمَّيْه هبة الله، والحافظ أبـي القاسم وجماعـة أُخَر، وتفقّـه على حَمِيه قـطب الدين النَّيْسابُورِيّ؛ وكان بارعاً مُفْتَنّاً مدرِّساً فقيهاً عالماً محدّثاً؛ وكانت وفاته في شهر رجب.

وفيها تُوفّي ملك الغرب يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن عليّ السلطان المستنصر بالله الملقَّب بأمير المؤمنين، المكنى أبـا يعقوب، القَيْسِيّ المغربـيّ صاحب بلاد المغرب؛ لم يكن في بني عبد عبد المؤمن أحسن صورةً منه، ولا أبلـغ خِطاباً، ولكنّه كان مشغولاً باللذات؛ ومات وهو شابّ في هذه السنـة، ولم يخلّف ولداً؛ فـآتّفق أهـل دولتـه على تـوليـة الأمـر لأبـي محمـد عبـد الـواحـد بن يـوسف بـن عبـد المؤمن بن عليّ، فـولي ولم يُحِسن التـدبيـر ولا المداراة. وكان مولد يوسف صاحب الترجمة في سنة أربـع وتسعين وخمسمائة، وأمّه أم ولد روميّة آسمها قمر، وكانت دولته عشر[1] سنين وشهرين.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قـال: وفيها تُـوُفِّي أبو سعـد عبد السلام بـن المبارك [بن عبد الجبّار بن محمد بن عبد السلام][2] بن الردغولي في المحرّم، وله تسـع وثمانون سنة. والعلاّمة فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن ابن عساكر الشافعيّ في رجب، وله سبعون سنة. والعلامة موفّق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة المَقْدِسِي شيـخ الحنابلة في يوم الفطر، وله ثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع ونصف إصبـع. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً سواء.

* * *

(١) في الأصل: «عشرين سنة وشهرين». وما أثبتناه يوافق جميع المصادر التي تتحدث عن المغرب.

(٢) زيادة عن الذهبـي.

السنة السادسة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة إحدى وعشرين وستمائة.

فيها آستردّ الملك الأشرف موسى مدينة خِلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وأبقى عليه ميّافَارِقين، ورَضِي عنه بعد أمور وقعت بينهما، وقد تقدّم ذكر ذلك أيضاً.

وفيها ظهر السلطان جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه بعد ما آنفصل عن بلاد الهند وكِرْمان، وآستولى على أَذْرَبِيجان وحكم عليها. وراسله الملك المعظّم عيسى لِيُعينه على قتال أخيه الملك الأشرف موسى؛ ثم كتب المعظّم أيضاً لصاحب إرْبِل في هذا المعنى، وبعث ولده الملك الناصر داود إليه رَهِينةً.

وفيها آستولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل وأظهر أنّ الملك محمود بن القاهر[1] قد تُوُفي، وكان قد أَمَر بخَنْقه.

وفيها بنى الملك الكامل صاحب الترجمة دارَ الحديث الكامليّة بالقاهرة في بين القصرين، وجعل أبا الخطّاب بن دِحْيَة شَيْخَها.

وفيها قَدِم الملك مسعود أَضْسِيس (المشهور بأَقْسِيس) على أبيه الملك الكامل من اليمن طائعاً، وعزمه أخذ الشام من عمّه الملك المعظّم عيسى، وقدّم لأبيه أشياء عظيمة، منها مائتا خادم.

قال آبن الأثير: وفيها عادت التتار من بلاد القَبْجَاق ووصلت إلى الرَّيّ، وكان مَن سَلِم من أهلها قد عمّروها، فلم يشعروا إلاّ بقدوم التتار بغتةً، فوضعوا فيهم السيف، ثم فعلوا بعِدّة بلاد أخَر كذلك، فما شاء الله كان.

وفيها حدثت واقعه قبيحةٌ من الكَرَج، وهو أنّ الكَرَج ــ لعنهم الله ــ لم يبق

---

(١) كذا في الشذرات والذهبي. وفي الأصل: «الملك القاهر محمود».

فيهم من بيت المُلك أحد سوى آمرأة فملّكوها عليهم. قال آبن الأثير: ثم طلبوا لها زوجاً يتزوجها وينوب عنها في المُلك، ويكون من بيت مملكة. وكان صاحب أرْزَن الروم مُغيث الدين طُغْرِل شاه بن قِلِيج أَرْسلان بن مسعود بن قِلِيج أَرْسلان وهو من الملوك السَّلْجُوقِيّة وله ولد، فأرسل إلى الكَرَج يخطُب المَلِكَة لولده فامتنعوا، وقالوا: لا يملكنا مسلم، فقال لهم: إنّ آبني يتنصّر ويتزوّجها، فأجابوا فتنصّر وتزوّج بها، وأقام عندها حاكماً في بلادهم، فنعوذ بالله من الخذلان! وكانت الملكة تَهْوَى مملوكاً، فكان هذا الزوج يسمع عنها من القبائح أشياء ولا يمكنه الكلام لعجزه، فدخل يوماً، فرآها مع المملوك، فأنكر ذلك، فقالت: إن رَضِيتَ بذا وإلّا أنت أخبر بما أفعله معك!. [فقال: إنّني لا أرضَى بهذا][١] فنقلتْه إلى بلد [آخر][١] ووكّلتْ به مَن يحفظه وحَجَرت عليه؛ [وأرسلت إلى بلاد اللّان][١] وأحضرت رجلين وُصِفا لها بحُسن الصورة فتزوّجت بأحدهما، وبقِي معها ذاك يسيراً، ثمّ فارقتْه وأحضرت آخر من كَنْجَة وهو مُسلم، فطلبت منه أن يتنصّر ويتزوّجها فلم يفعل، فأرادت أن تتزوّجه [وهو مسلم][١] فقام عليها الأمراء ومعهم إبواني[٢] مقدّمهم، وقالوا لها: فضحتينا بين الملوك بما تَفْعَلِين! [ثم تريدين أن يتزوّجك مُسْلِم، وهذا لا نمكّنك منه أبداً][١]، والأمر بينهم متردّد، والرجل الكَنْجِيّ عندهم [لم يُجبهم إلى الدخول في النَّصرانيّة][١]، وهي تَهْوَاه. اِنتهى كلام آبن الأثير.

وفيها تُوفي فخر الدين أبو المعالي محمد بن أبي الفرج المَوْصِليّ المقرىء ببغداد في شهر رمضان. وكان إماماً فاضلاً بارعاً في فنون. ومن شعره «مواليا»[٣]:

ساقٍ قمر بكفّه شمسُ ضُحا قد أسكرني مِن راحتيه وصحا
لو أمكنني والراح في راحته في الحان شربت كفّه والقدحا

قلت: ويعجبني في هذا المعنى قولُ أبي الحسن عليّ بن عبد الغنيّ الفِهْريّ

(١) زيادة عن ابن الأثير.
(٢) في ابن الأثير: «إيواني».
(٣) المواليا: نوع من النظم العامي من البحر البسيط، اشتهر في العصر العباسي.

القَيْرَوَانِيّ الضَّرير المعروف بالحُصْرِيّ الشاعر المشهور، ووفاته سنة ثمان [وثمانين][1] وأربعمائة، وهما: [الوافر]

أقول له وقد حيّا بكأسٍ لها من مسْك ريقته خِتامُ
أمِن خَدَّيْكَ يُعْصر قال كلّاً مَتَى عُصِرت من الوَرْد المُدَامُ

وفيها تُوُفِّي القاضي أبو البركات عبد القَوِيّ بن عبد العزيز بن الجَبّاب السَّعْديّ في شوّال، وله خمس وثمانون سنة. وكان عالماً بارعاً ديِّناً عفيفاً أفتى ودرّس سنين.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي أبو جعفر محمد بن هبة الله بن مُكَرَّم الصوفيّ ببغداد في المحرّم. وأبو طالب عبد الرحمن بن محمد بن عبد السّميع الهاشميّ المقرىء بواسط. وأبو العبّاس أحمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن صِرْمَى الأَزَجِيّ في شعبان. وفخر الدين أبو المعالي محمد بن أبي الفرج الموصليّ البغداديّ المقرىء في رمضان.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

فيها في شهر ربيع الأول وصل السلطان جلال الدين بن خُوارَزْم شاه إلى دَقُوقا[2] فافتتحها بالسيف، وأحرق البلد ونهب أهلَها، وفعل فيها ما لا تفعله الكُفّار لكونهم شتموه ولعنُوه على الأسوار؛ ثم عزم على قصد بغداد، فانزعج الخليفة الناصر لدين الله وآستعدّ لقتاله وأنفق ألفَ ألف دينار في هذا المعنى.

(١) زيادة عن ابن خلكان والشذرات.
(٢) مدينة بين إربل وبغداد (معجم البلدان).

قال أبو المظفّر: «قال لي الملك المعظّم عيسى: كتب إليّ جلالُ الدين يقول: تحضر أنت ومن عاهدني فنتّفق حتّى نقصد الخليفة، فإنّه كان السبب في هلاك المسلمين، وفي هلاك أبي، وفي مجيء الكُفّار إلى البلاد؛ ووجدنا كُتُبه إلى الخُطَا وتواقيعَه لهم بالبلاد والخِلع والخيل؛ فقال المعظّم: فكتبت إليه: أنا معك على كلّ أحد إلّا على الخليفة فإنّه إمام المسلمين!». اِنتهى.

قلت: ثم وقع لجلال الدين المذكور في هذه السنة أمور ووقائع مع غير الخليفة من الملوك يطول شرحها. يأتي ذكر بعضها إن شاء الله.

وفيها تُوُفّي الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبو العبّاس أحمد آبن الخليفة المستضيء بالله أبي محمد الحسن آبن الخليفة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف آبن الخليفة المقتفي بأمر الله أبي عبد الله محمد آبن الخليفة المستظهر بالله أحمد الهاشميّ العباسيّ البغداديّ. وُلِد يوم الاثنين عاشر شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وبويع بالخلافة بعد موت أبيه المستضيء في أوّل ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة. وأمّه أمّ ولد تركيّة.

قال الشيخ شمس الدين: «وكان أبيضَ اللّون تُرْكِيّ الوجه مَلِيح العَيْنين، أنور الجَبْهَة، أَقْنى الأنف، خفيفَ العارضين، أشقَر اللّحية رقيقَ المحاسن. كان نَقْشُ خَاتَمه: «رجائي من الله عفوُه». لم يَلِ الخلافة قبله أحد من بني العبّاس أطول مدّة منه، إلّا ما ذكرنا من خلفاء العُبَيدية المستنصر مَعَدّ» اِنتهى.

وفي أيّام الناصر لدين الله ظهرت الفُتُوَة[1] ببغداد ورَمْيُ البُنْدق[1] ولعبُ الحَمَام المنَاسِيب، وآفتنّ الناس في ذلك، ودخل فيه الأجلّاء ثم الملوك؛ فألبسوا الملك العادل ثم أولادَه سراويلَ[1] الفُتُوّة، ولبِسَها أيضاً الملك شهاب الدين صاحب

(١) ذكر جرجي زيدان (تاريخ التمدن الإسلامي: ٥/١٨٠ ـ ١٨١) نبذة عن الفتوّة والبندق وسراويل الفتوّة في باب: ألعاب الخلفاء وملاهيهم.
قال: «البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها، وهي فارسية بلفظها واستعمالها، ويسمونها أيضاً الجلاهق. واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام الخليفة عثمان بن عفان... وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة، يخرجون إلى ضواحي المدن يتسابقون في =

غَزْنَة والهند من الخليفة الناصر لدين الله، ولبِسها جماعة أُخَر من الملوك. وأمّا لعب الحَمَام فخرج فيه عن الحدّ، يُحْكَى عنه أنّه لمّا دخلت التّتار البلاد وملكوا من [ما] وراء النهر إلى العراق، وقتلوا تلك المقتلة من المسلمين، التي ما نُكِب المسلمون بأعظم منها، دخل عليه الوزير فقال له: آه يا مولانا، إنّ التّتار قد ملَكت البلاد وقتلت المسلمين! فقال له الناصر لدين الله: دعني أنا في شيء أهمّ من ذلك! طيرتي البَلْقَاء، لي ثلاثة أيام ما رأيتها! وفي هذه الحكاية كفاية إن صحّت عنه. وكانت وفاته في سلخ شهر رمضان؛ وكانت خلافته سبعاً وأربعين سنة. وبويع بعده لولده أبي نصر ولُقِّب بالظاهر بأمر الله، فكانت خلافة الظاهر المذكور تسعة أشهر ومات. حسب ما يأتي ذكره.

وفيها تُوُفِّي السلطان الملك الأفضل عليّ بن آبن السلطان صلاح الدين يوسف آبن الأمير نجم الدين أيّوب في يوم الجمعة من شهر ربيع الأوّل من السنة، وهو الذي كان مَلكَ الشام في حياة أبيه ثمّ من بعده، ووقع له تلك الأمور مع أخيه

= رميه على الطير ونحوه، ويعدّون ذلك من قبيل الفتوّة. ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطيير الحمام، ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوّة، وكان العيّارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة، حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العباسي جعل لرمي البندق شأناً، لأنه كان ولعاً به، وباللعب بالحمام المناسيب. وكان يلبس سراويل الفتوه، وقد بلغ من رغبته في ذلك حتى جعل رمي البندق فناً، لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة، ويلبسون سراويلها، على أن يكون بينهم روابط وثيقة، نحو ما عند بعض الجمعيات السرّية. وجعل الخليفة نفسه رئيس هذه الطائفة، يدخل فيها من يشاء ويحرم من يشاء. وكتب الناصر سنة ٦٠٧هـ إلى ملوك الأطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا له كأس الفتوّة، ويلبسوا سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق فأجابوه إلى ذلك. ومن أراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد، فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه. فبطلت الفتوة في البلاد جميعها، إلا من لبس سراويلها منه؛ ومنع الرمي بالبندق، إلا من ينتسب إليه». هذا ويرى البعض أن النظام الذي ابتدعه الخليفة الناصر العباسي أصل هيئات وجمعيات الفروسية الأوروبية في القرون الوسطى.

وذكر القلقشندي في صبح الأعشى: ١٢/٢٦٨ رسم لباس الفتوة في العصر المملوكي، كما أورد عدداً من نسخ تواقيع بالفتوّة وحاكمية رمي البندق (ص٢٥٩ ــ ٢٧٤).

وانظر أيضاً «حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل» للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: ص ٣٧٩ ــ ٣٨٢.

وعمّه العادل، وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلّه؛ وتنقلّت به الأحوال إلى أن صار صاحب سُمَيْسَاط، وبقي بها إلى أن مات في هذه السنة. وكان مولده بمصر في سلطنة والده سنة خمس وستين وخمسمائة. وكان فاضلاً شاعراً حسن الخطّ قليل الحظّ غير مسعود في حركاته ــ رحمه الله تعالى ــ ــ ومن شعره ــ ممّا كتبه إلى الخليفة لمّا خرج من دِمَشق، وآتّفق عليه الملك العادل عمّه والعزيز أخوه ــ: [البسيط]

مـولاي إنّ أبـا بكـر وصـاحبـه عثمانَ قد غَصَبا بالسيف حقَّ عَلي

فانظُر إلى حظّ هذا الاسم كيف لقِي من الأواخر ما لاقى من الأوَلِ[1]

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الواعظ أبو إسحاق إبراهيم بن المظفَّر بن إبراهيم بن البَرْنِيّ بالموصل في المحرّم. والخطيب المفسّر فخر الدين محمد بن الخضر بن محمد بن تَيْمِيّة الحرّاني في صفر. والملك الأفضل عليّ بن السلطان صلاح الدين بسُمَيْسَاط في صفر، وله سبع وخمسون سنـة. وأبو الحسن عليّ بن أبـي الكرم [نصر بن المبارك][2] الجلال بن البنّاء بمكّة في شهر ربيـع الأول. وعبد المحسن خطيب المَوْصل آبن عبد الله بن أحمد الطُّوسِي في شهر ربيـع الأوّل. وقاضي القضاة بالقاهرة زَيْن الدين عليّ آبن العلّامة يوسف بن عبد الله بن بُنْدَار الدِّمَشْقيّ. والوزير الكبير صفيّ الدين عبد الله بن عليّ الشَّيْبـيّ آبن شُكْر بالقاهرة في شعبان. ومجد الدين أبو المجـد محمد بن الحسين القَـزْوِينيّ الصوفيّ بالموصل في شعبان. والناصر لدين الله أبو العبّاس أحمد بن المستضيء بالله حسن بن المستنجد في سلخ شهر رمضان، وله سبعون سنة، وكانت خلافته

---

(١) وأورد ابن خلكان بين هذين البيتين بيتين آخرين هما:

وهـو الـذي كـان قـد ولّاه والـده عـليهـا فـاستـقـام الأمـر حـين ولي

فـخـالـفـاه وحـلّا عـقـد بيـعـتـه والأمـر بـينـهـا والـنصّ فـيـه جـلي

قال: فجاء جواب الإمام الناصر وفي أوله:

وافى كتـابـك يـا ابن يـوسف معلنـاً بـالـودّ يـخـبر أن أصـلك طـاهـرُ

غـصـبـوا عـليـاً حقّـه إذ لم يـكـن بعـد النبـيّ لـه بـيـثـرب نـاصـر

فـابـشـر فـإن غـداً عليـه حسـابهم واصـبـر فنـاصـرك الإمـام الـنـاصـر

(٢) زيادة عن الشذرات.

سبعاً وأربعين سنة. وفخر الدين محمد بن إبراهيم بن أحمد الفارسيّ الخَبْرِيّ الصوفيّ بمصر في ذي الحجّة، وله أربع وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

فيها قَدِم الشيخ محيي الدين بن الجَوْزِيّ إلى دِمَشق رسولاً إلى الملك المعظَّم عيسى صاحب دمشق، ومعه الخِلَع له ولإخوته أولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد العبّاسيّ المتوليّ الخلافة بعد وفاة والده الناصر لدين الله. [ومضمون رسالته طلب رجوع المعظّم عن موالاة آبن الخُوارَزْمِيّ][1].

قال أبو المظفَّر سبط آبن الجوزِيّ، قال لي الملك المعظّم، قال خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجِيّ (يعني جلال الدين [بن] الخُوارَزْمِيّ وترجع إلى إخوتك ونصلح بينكم؛ قال: فقلت لخالك: إذا رجَعتُ عن [آبن] الخُوارَزْمِيّ وقصدني إخوتي تُنجدونني؟ قال: نعم، فقلت: ما لكم عادة تُنْجِدون أحداً! هذه كتب الخليفة الناصر لدين الله عندنا، ونحن على دِمْياط نكتب ونستصرخ به، فيجيء الجواب بأنّا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا. قال: قلتُ: مَثَلِي معكم كمثل رجل كان يخرج إلى الصلاة وبيده عُكّاز خوفاً من الكلاب، فقال له بعض أصدقائه: أنت شيخ كبير، وهذا العكاز يُثْقِلك، وأنا أدلك على شيء يُغنيك عن حمله، قال: وما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدار، وما يقربك كلب، وأقام مدّةً فرأى الشيخ حامل العُكّاز، فقال له: أما قد علّمتك ما يُغنيك عن حمله؟ فقال: هذا

(١) زيادة عن الذيل على الروضتين.

العُكّاز لكلب لا يعرف القرآن. وقد آتّفق إخوتي عليّ، وقد أنزلتُ [آبن] الخُوَارَزْمِيّ على خِلَاط، إن قصدني أخي الأشرف منعه؛ وإن قصدني أخي الكامل (يعني صاحب الترجمة) فأنا له. ثم آصطلح الإخوة بعد ذلك في السنة.

وفيها تُوُفّي كافور بن عبد الله شِبْل الدولة الحُساميّ خادم ستّ الشام بنت أيّوب. كان عاقلاً ديّناً صالحاً؛ بنى مدرسته[1] على نهر ثَوْرَا بدِمَشق لأصحاب أبـي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ والخانقاه إلى جانب مدرسته. وكانت وفاته بدمشق في شهر رجب.

وفيها تُوُفّي الخليفة أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله أبـي العباس أحمد الهاشميّ البغداديّ. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه في السنة الماضية فلم تَطُل مدّتُه فيها، ووقـع له شدائد إلى أن مات في شهر رجب؛ وأمُّه أمّ ولد. وكانت خلافته تسعة أشهر وأيّاماً، وكان مولده في المحرّم سنة سبعين وخمسمائة، وكان جميلَ الصورة أبيضَ مُشْرَباً بحُمرة حُلْوَ الشمائل شديدَ القُوَى. أفضت الخلافة إليه، وله آثنتان وخمسون سنة إلا أشهراً، فقيل له: ألا تنفسح؟ فقال: قد فات الزرع! فقيل له: يبارك الله في عمرك، فقال: مَن فتـح دكّاناً بعد العصر إيش يكسب!. وكان خيِّراً عادلاً قطـع الظُّلامات والمُكوس، حتى قيل: إنّ جملة ما قطـع من الظُّلامات والمكوس ثمانيةُ آلاف دينار في كلّ سنة، وتصدّق في ليلة العيد بمائة ألف دينار. وسببه أنّه لمّا ولي الخلافة ولّى الشيـخ عماد الدين[2] ابن الشيـخ عبد القادر الجِيلِيّ القضاءَ، فما قَبِل عماد الدين إلّا بشرط أن يُورِّث ذوي الأرحام، فقال له الخليفة: أَعْطِ كلَّ ذي حقّ حقَّه وآتّق الله ولا تتق بسواه؛ فكلّمه القاضي أيضاً في الأوراق التي تُرفـع إلى الخليفة؛ وهو أنّ حُرّاس الدروب كانت تَرْفَـع إلى الخليفة في صبيحة كلّ يوم ما يكون عندهم من أحوال الناس الصالحة والطالحة، فأمر الظاهر بتبطيل ذلك، وقال: أيّ فائدة في كشف أحوال الناس! فقيل

(١) وهي المدرسة الشبلية البرّانية، بسفـح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثورى (ثوري) ـ انظر الدارس في تاريخ المدارس: ٤٠٧/١.

(٢) انظر حوادث سنة ٦٣٣هـ.

له: إن تركتَ ذلك فسدَتْ أحوال الرعيّة، فقال: نحن ندعو لهم بالإصلاح. ثم أعطى القاضيَ المذكور عشرة آلاف دينار يَفي بها ديون مَن في السجون من الفقراء، ثم فرّق بقيّة المائة الألف الدينار في العلماء والفقراء. ولمّا مات الظاهر تولى الخلافةَ بعده ولدُه المستنصر بالله أبو جعفر.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو المحاسن محمد بن السيد بن أبي لُقْمة الأنصاريّ الصفّار في شهر ربيع الأوّل عن أربع وتسعين سنة. وقاضي الشام جمال الدين يونس بن بَدْرَان القرشيّ المصريّ الشافعيّ في شهر ربيع الأوّل، ودُفن بقرب القَليجيّة[١]. وشمس الدين أحمد بن عبد الواحد المَقْدِسِيّ الملقَّب بالبُخاريّ الفقيه المُناظر في جُمادى الآخرة، وله تسع وخمسون سنة. والتقيّ خَزْعَل بن عسكر المصريّ النحويّ اللغويّ بدِمَشق. والمحاري (؟) الزاهد أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن عُلْوان بحلب في جمادى الآخرة، وله تسعون سنة. والعلّامة إمام الدين عبد الكريم بن محمد بن الفضل الرافعيّ القَزْوِينِيّ صاحب الشرح[٢]. والظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله في رجب، وله ثلاث وخمسون سنة، وكانت خلافته عشرة أشهر. وبويع بعده آبنه المستنصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

* * *

(١) في الأصل: «الصليحيّة». والتصويب عن الشذرات والدارس. قال في الدارس: ودفن بقاعته بداره بقرب القليجيّة الحنفية في رأس درب الريحان من ناحية الجامع قبلي الخضراء. ولتربته شباك شرقي المدرسة الصدرية الحنبلية.

(٢) هو «فتح العزيز في شرح الوجيز للغزالي» في الفقه، أو لعله «شرح مسند الشافعي». (الأعلام: ٤/٥٥).

السنة التاسعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة أربـع وعشرين وستمائة.

فيها عاد الملك الأشرف موسى آبن الملك العادل إلى بلاده بعد أن صالـح أخاه الملك المعظَّم عيسى آبن الملك العادل، وكلاهما أخو الملك الكامل هذا.

وفيها حـجّ بالناس من الشام الشجاع [عليّ][1] بن السلّار، ومن ميّافارقين الشهاب غازي آبن الملك العادل.

وفيها تُوُفِّي السلطان الملك المعظّم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل أبـي بكر بـن أيّوب بن شادِي الأيّوبـيّ صاحب الشام. قال أبو المظفّر: وفيها تُوُفِّي الملك المعظّم العالم الفقيه المجاهد في سبيل الله الغازي النحويّ اللغويّ. وُلِد بالقاهرة سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، ونشأ بالشام وقرأ القرآن وتفقّه على مذهب أبـي حنيفـة بجمال الـدين الحَصِيـريّ، وحفِظ المسعـوديّ، وآعتنى «بـالجـامـع الكبير»[2]، وقرأ الأدب [والنحو][1] على تاج الدين الكِنْدِيّ[3]، فأخذ عنه «كتاب» سيبويه وشرحَه الكبير للسيرافيّ، «والحجّـة في القراءات» لأبـي عليّ الفـارسيّ «والحماسة»، وقرأ عليه «الإيضاح»[4] لأبـي عليّ حفظاً؛ ثمّ ذكر مسموعاته في الحديث وغيره إلى أن قال: وشرح الجامـع الكبير، وصنّف الردّ[5] على الخطيب، والعروضَ، وله «ديوان شعر». قال: وكان شجاعاً مِقْداماً كثير الحياء متواضعاً مليـحَ

---

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) الجامـع الكبير في فقه الحنفية للإمام المجتهد أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ٢١٧هـ.

(٣) ذكره المؤلف في حوادث سنة ٦١٣هـ.

(٤) الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٢٧٧هـ.

(٥) هو كتاب «السهم المصيب في الردّ على الخطيب» والخطيب هو: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، وكتابه «تاريخ بغداد». وقد ردّ عليه لأنه وجد فيه مطاعن على أبي حنيفة. وكان الملك المعظم حنفياً، وقد انفرد بذلك عن بني أيوب، فإنهم كانوا كلهم شافعية. وعوتب في ذلك فقال: أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم؟.

الصورة ضَحُوكاً غَيُوراً جَوَاداً حسن السِّيرة. وأطلق أبو المظفَّر عِنان القلم في مَيْدان محاسنه حتّى إنّه ساق ترجمته في عدّة أوراق في مرآة الزمان.

قلت: ويحقّ له ذلك، فإنّ المعظّم كان في غاية ما يكون من الكمال في عِدّة علوم وفنون، وهو رجل بني أيّوب وعالمُهم بلا مدافعة، ومحاسنه أشهر من أن تُذكر. وكانت وفاته ــ رحمه الله ــ في ثالث ساعة من نهار الجمعة أوّل يوم ذي الحجّة، ودُفن بقلعة دِمَشق، ثم نُقِل بعد ذلك من قلعة دمشق ودُفن مع والدته في القبّة عند الباب[١]. وخلّف عِدّة أولاد: الملك الناصر داود، والملك المغيث عبد العزيز، والملك القاهر عبد الملك[٢]؛ ومن البنات تسعاً، وقيل إحدى عشرة. وتولّى آبنه الناصر داود دِمَشق بعده إلى أن أخذها منه عمّه الملك الكامل صاحب الترجمة.

وفيها تُوُفِّي الملك جِنْكِزْخَان التركيّ، طاغية التّتار وملكهم الأول الذي خرّب البلاد وأباد العباد، وليس للتتار ذكر قبله.

قلت: هو صاحب «التورا» «واليسق»، وقد أوضحنا أمره في غير هذا الكتاب، وذكرنا أصله وآعتقاد التتار فيه وأشياء كثيرة. والتورا باللغة التركية هو المذهب، واليسق هو الترتيب، وأصل كلمة اليسق: سي يسا، وهو لفظ مركّب من أعجميّ وتركيّ، ومعناه: التراتيب الثلاث، لأنّ «سي» بالعجمي في العدد ثلاثة، و«يسا» بالتركيّ: الترتيب؛ وعلى هذا مشت التتار من يومه إلى يومنا هذا، وآنتشر ذلك في سائر الممالك حتّى ممالك مصر والشام، وصاروا يقولون: «سي يسا» فثُقُلَتْ عليهم فقالوا: «سياسة»[٣] على تحاريف أولاد العرب في اللغات الأعجمية. ولمّا أن

---

(١) أي دفن بالقرب من والدته، عند باب القبة بالمدرسة المعظمية (نسبة إليه) بسفح جبل قاسيون بدمشق. (الدارس: ١/٤٤٦، وشفاء القلوب: ٢٨٥).

(٢) أشار صاحب شفاء القلوب إلى أن المعظم كان له ولد رابع مات صغيراً بعد والده بقليل. ولم يذكر اسمه.

(٣) ذهب المقريزي إلى أن أصل الكلمة المغلي هو «ياسه» وليس «سي يسا» كما ورد هنا. قال القلقشندي: «والياسة هي مجموعة قوانين خنها (جنكزخان) من عقله وقرّرها من ذهنه، رتّب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً بما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك؛ وقد سماها: الياسة الكبرى. وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزانته تتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته. ومنها: أنّ من زنى =

تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البُنْدُقْدارِيّ أحبَّ أن يسلُك في مُلْكه بالديار المصريّة طريقة جَنْكِزْخَان هذا وأمورَه، ففعل ما أمكنه، ورتّب في سلطنته أشياء كثيرة؛ لم تكن قبله بديار مصر: مثل ضرب البُوقات، وتجديد الوظائف، على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في ترجمته. وآستمرّ أولاد جنكـزخان في ممالكه التي قسمها عليهم في حياته، ولم يختلف منهم واحد على واحد، ومَشَوا على ما أوصاهم به، وعلى طريقته «التورا» و«اليسق» إلى يومنا هذا. اِنتهى.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي داود بن مُعَمّر بن عبد الواحد بن الفاخر القرشيّ في رجب أو في شعبان، وله تسعون سنة. وطاغية التتار جِنْكِزْخَان في شهر رمضان. وقاضي القضاة بحرّان أبو بكر عبد الله بن نصر الحنبلِيّ، وله خمس وسبعون سنة. وأبو محمد عبد البرّ آبن الحافظ آبن العلاء الهَمَذانِيّ بروُذْرَاوَر في شعبان. والبهاء عبد الرحمن بن إبراهيم المَقْدِسيّ الحنبليّ الفقيه المحدّث في ذي الحجة، وله تسع وستون سنة. والملك المعظّم شرف الدين عيسى بن العادل في ذي القعدة، وله ثمانٍ وأربعون سنـة. وأبو الفـرج الفتـح بن عبد الله [بن محمد بـن عليّ بن هبة الله][1] بن عبد السلام الكاتب في المحرّم، وله سبـع وثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع أذرع[2] وآثنتا عشرة إصبعاً. هكذا وجدته مكتوباً، ولعلّه وهم من الكاتب.

* * *

= قتل، ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل، ومن بال في الماء قتل، ومن أعطي بضاعة فخسر ثم أعطي ثانياً فخسر ثم أعطي ثالثاً فخسر قتل. . . الخ». قال المقريزي: وأخبرني العبد الصالـح الداعي إلى الله تعالى أبو هاشم أحمد ابن البرهان أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. (انظر صبح الأعشى: ٤/٣١٤، وخطط المقريزي: ٢/٢٢٠).

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) في كنز الدرر: «١٦ ذراعاً و١٠ أصابـع».

السنة العاشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وعشرين وستمائة.

فيها نزل جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه على خِلَاط مرّة ثانية، وهجم عليه الشتاء فرحل عنها إلى أَذْرَبِيجان، وخرج الحاجب[1] عليّ من خِلاط بالعسكر، فآستولى على خَوَيّ وسَلَمَاس وتلك النواحي، وأخذ خزائن جلال الدين المذكور وعاد إلى خلاط، فقيل له: بئس ما فعلت! وهذا يكون سبباً لهلاك العباد والبلاد، فلم يلتفت.

وفيها كان فراغ مدرسة[2] ركن الدين الفلكي بقاسِيون دمشق.

وفيهـا تُوفّي عبـد الرحيم بن عليّ بن إسحـاق سبط القاضي جمـال الدين القرشيّ. كان إماماً عالماً فاضلاً غزير المروءة كثير الإحسان شاعراً مترسّلاً، وكانت وفاته بدِمشق في سابـع المحرّم. ومن شعره قوله في مليـح بالحَمَّام: [الطويل]

تجـرّد للحَمّـام عن قشـر لؤلؤ ... وأُلْبِس من ثوب المحاسن ملبوسًا
وقـد زُيِّن المـوسى لتزيين رأسـه ... فقلت لقد أُوتيتَ سُؤْلَك يا موسى

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو المعالي أحمد ابن الخضر بن هبة الله بن طاوس الصوفيّ في رمضان. والمحدّث محبّ الدين أحمد بن تميم اللَّبْلِـيّ[3]. وأبو منصور أحمد بن يحيـى بن البرّاج الصوفيّ الوكيل في المحرّم. والعلامة أبو القاسم أحمد بن يزيد القُرْطبـيّ آخر مَن روى بالإجازة عن

---

(١) هو الحاجب حسام الدين علي بن حماد، مملوك حسام الدين، متولي خلاط للملك الأشـرف. قبض عليه الأشـرف على يد مملوكه عز الدين أيبك ثم قتله سنة ٦٢٦هـ. (عن ابن الأثير وابن خلدون).

(٢) وهي المدرسة الركنية بالصالحية. أنشأها الأمير ركن الدين منكورس الفلكي، عتيق فلك الدين سليمان العادلي. (الدارس: ١/١٩٠، ٣٩٨).

(٣) نسبة إلى «لَبْلَة» بالأندلس. وكانت لَبْلَة Niebla قاعدة كورة تحمل نفس الاسم تقـع شمال كورة أكشونبة Ocsonoba. وهي على خمسين كيلومتراً غربـي إشبيلية. والنسبة إليها: لَبْلي، وبالأسبانية: nebulense (الحلة السيراء: ٢/١٨٠، حاشية: ٥).

شُرَيْح في رمضان. وأبو عليّ الحسن بن إسحاق بن موهوب بن [أحمد][١] الجَوَالِيقيّ في شعبان، وله إحدى وثمانون سنة. ونَفِيس الدين الحسن بن عليّ [بن أبي القاسم الحسين][١] بن الحسن بن البُنّ الأَسَدِيّ في شعبان، وله ثمانٍ وثمانون سنة. والرئيس المنشىء جمال الدين عبد الرحيم[٢] بن عليّ بن الحسين بن شِيث القرشيّ الفَرَضيّ بدِمشق في المحرّم، وكان كاتب المعظّم. وأبو منصور محمد بن عبد الله بن المبارك البَنْدَنِيجيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وتسع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وخمس أصابع.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ستّ وعشرين وستمائة.

فيها أعطى الملك الكامل صاحب الترجمة بيت المقدس لملك الفرنج الأنبرور[٣].

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) نشأ بقوص وولي ديوان الإنشاء بها، ثم بالإسكندرية ثم بالقدس. وبعد ذلك ولي كتابة الإنشاء للملك المعظم عيسى في دمشق. وهو صاحب كتاب «معالم الكتابة ومغانم الإصابة» وهو من المراجع الهامة في موضوع المراسيم والألقاب وترتيب ديوان الإنشاء والإدارات الرسمية في العصر الأيوبي. ويعادل في قيمته كتاب ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف: (انظر مقدمتنا لمعالم الكتابة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت).

(٣) هو فردريك الثاني دو هوهنستوفن ملك ألمانيا وصقلية، وأقوى ملوك الغرب في ذاك الوقت. وقد جاء على رأس الحملة الصليبية السادسة. والواقع أن الملك الكامل أعطاه القدس دون قتال. كما نصت المعاهدة بين فردريك والكامل على أن يعطى فردريك بالإضافة إلى القدس كلًّا من بيت لحم والناصرة ونواحي صيدا وقلعة تبنين. ويحتفظ المسلمون بوجود لهم في قطاع الحرم الشريف. وأبرمت المعاهدة في ١٨ شباط سنة ١٢٢٩م. وبعد شهر حضر الامبراطور (الأنبرور) الى القدس التي كان الكامل قد أجلى سكانها المسلمين باستثناء بعض رجال الدين الموجين بأمكنة العبادة الإسلامية. وقد كان لتسليم المدينة المقدسة

وفيها خرج الملك الكامل في صفر من مصر، ونزل تل العجول، وكان الملك الناصر داود ابن الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق كاتَبَ عمّه الملك الأشرف موسى بالحضور إلى دمشق، فوصل إليها ونزل بالنيرب؛ وكان عزّ الدين أَيْبَك قد أشار على الملك الناصر داود بمداراة عمّه الملك الكامل محمد صاحب مصر فخالفه؛ وقال[١] الناصر لعمّه الأشرف في قتال عمّه الكامل، فلم يلتفت الأشرف إلى كلامه؛ وآجتمع الأشرف مع أخيه الملك الكامل وآتّفقا على حصار دمشق. ووصلت الأخبار بتسليم القُدْس إلى الأنبرور، فقامت قيامة الناس لذلك[٢] ووقع أمور، وتسلّم الأنبرور القدس؛ والكامل والأشرف على حصار دمشق، فلم يُقم الأنبرور بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا بعد أن أحسن إلى أهل القدس، ولم يُغَيِّر من شعائر الإسلام شيئاً.

وفيها سلّم الملك الناصر داود إلى عمّه الملك الكامل دمشق وعوّضه عمُّه الكامل الشُّوبَك، وذلك في شهر ربيع الآخر من السنة.

وفيها توفي أُضْسِيس المعروف بأقسيس المنعوت بالملك المسعود بن الملك الكامل صاحب الترجمة؛ مرِض بعد خروجه من اليمن مرضاً مزمناً، ومات بمكّة ودفن بالمعْلَي[٣] في حياة والده الملك الكامل، وكان معه من الأموال شيء كثير. وكان ظالماً جبّاراً سفاكاً للدماء قَتَل باليمن خلائق لا تدخل تحت حصر، وآستولى على أموالهم. وكان أبوه الملك الكامل يكرهه ويخافه. ودام باليمن حتى سمِع بموت عمّه الملك المعظّم عيسى، فخرج من اليمن بطمع دمشق، فمرِض ومات. فلمّا سمع أبوه الملك الكامل بموته سرّ بذلك، وآستولى على جميع أمواله.

= بهذا الشكل صدى سيئاً بين المسلمين الذين استعظموه. (انظر تفاصيل ذلك في السلوك للمقريزي: ٢٦٨/١، وابن الأثير: ٤٨١/١٠، والحروب الصليبية لسيّد علي الحريري: ٢٤١، والحروب الصليبية كما رآها العرب: ص ٢٨١ ــ ٢٨٧ وفيه تفسير جيّد لموقف الكامل والعلاقة الوطيدة التي جمعته بالامبراطور فردريك الثاني).

(١) كذا هي عبارة الأصل.

(٢) وقد أخذ الناصر داود في التشنيع على عمه الكامل، وأمر سبط ابن الجوزي ــ وكان بالشام ــ أن يجمع الناس ويتكلم فيهم بهذا الأمر ففعل. (انظر شفاء القلوب: ٣١٢).

(٣) المعلى: جبّانة مكة (ابن خلكان).

وفيها تُوُفّي الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صَصْرَى[1] الشيخ الإمام أبو القاسم الدمشقيّ التغلبي. سمع الحافظ آبن عساكر وغيره، وروى الكثير، وكان صالحاً ثقة ـ رحمه الله ـ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو القاسم ابن هِبَة الله بن محفوظ بن صَصْرَى التَّغْلَبِيّ في المحرّم، وقد قارب التسعين. وتُوفّيت أمة الله بنت أحمد بن عبد الله بن عليّ الآبَنُوسِيّ. وأبو الحسن محمد بن محمد بن أبي حَرْب النَّرْسِيّ الشاعر. والمهذّب بن عليّ بن قُنَيْدَة[2] أبو نصر الأَزَجيّ. والملك المسعود أقسيس صاحب اليمن آبن الملك الكامل في جُمادى الآخرة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبع وعشرين وستمائة.

فيها أخذ السلطان جلال الدين بن خُوَارزْم شاه مدينةَ خِلاط بعد حصار طويل أقام عليها عشرة أشهر، ولمّا بلغ صاحبَها الملكَ الأشرفَ ذلك إستنجد بملك الروم وغيرِه من الملوك، وواقع جلالَ الدين الخَوَارزمِيّ المذكور وكسره بعد أمور، وقَتَل معظم عسكره، وآمتلأت الجبال والأودية منهم، وشَبِعت الوحوش والطيور من رِممهم، وعظُم الملك الأشرف في النفوس.

---

(١) في ضبطها خلاف: جعلها بعض مترجميه بفتحتين وراء مكسورة، وآخرون بفتح الصاد الأولى وضم الثانية وتشديد الراء وفتحها. وما أثبتناه عن الأعلام للزركلي الذي قدّم أسباباً لاعتماده هذا الضبط. (الأعلام: ٢/٢٢٥).

(٢) في الأصل: «ابن عبدة» وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية.

وفيها تُوُفِّي الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الشيخ أبو البركات زَيْن الأمناء المعروف بابن عساكر في ليلة الجمعة سابع عشر صفر، ودُفن عند أخيه فخر الدين؛ وكان فاضلاً محدّثاً، سمِع الكثير وَرَوى تاريخ الحافظ آبن عساكر.

وفيها تُوفّي فِتْيان بن عليّ بن فتيان الأسدِيّ الحَرِيميّ المعروف بالشَّاغُورِيّ المعلِّم الشاعر المشهور؛ كان فاضلاً شاعراً. خدَم الملوك ومدحهم وعلَّم أولادهم، وله ديوان شعر مشهور. قال الإسْعِرْدِيّ: إنّه مات في هذه السنة. وقال آبن خلّكان: إنّه توفّي سَحَر الثاني والعشرين من المحرّم سنة خمس عشرة وستمائة بالشاغور، ودُفن [بمقابر][1] الباب الصغير، وقول آبن خلّكان هو الأرجح. اِنتهى. ومن شعر الشاغوريّ في مدح أرض الزَّبَدَانِي من دِمشق: [البسيط]

قد أجمد الخْمرَ كانونٌ بكلّ قدحْ ... وأخمد الجمرَ في الكانون حين قَدَحْ
يا جنّةَ الزَّبَدَانِي أنت مُسْفِرَةٌ ... بحسن وجهٍ إذا وجهُ الزمان كَلَحْ
فالثلج قطنٌ عليه السحبُ تَنْدِفُه ... والجوّ يحلُجه والقوس قوسُ قُزَحْ

وله، وقد دخل الحّمام وماؤها شديد الحرارة، وكان شاخ، فقال: [المتقارب]

أرى ماءَ حمّامِكم كالحميم ... نكابد منه عَناءً وبُوسَا
وعهْدِي بكم تسمِطُون الجِداء ... فما بالُكم تسمطون التُّيوسا

ومثل هذا قول بعضهم: [مخلّع البسيط]

حَمّامكم هذه جِمَامٌ ... وَقُودُها الناسُ والحِجارهْ
أعجبُ شيءٍ رأيتُ فيها ... طَهُورُها ينقُض الطَّهاره

ومن أحسن لغز سمعناه في الحَمّام: [الوافر]

وما ليلٌ يخالطه نهارٌ ... وأقمارٌ تَصُدُّ عن الشموسِ
وأنهارٌ على النِّيران تجري ... وأسلحةٌ تُسَلُّ على الرؤوس

الذين ذكر الذَّهبي وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي زين الأمناء

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

الحسن بن محمد بن الحسن بن عَسَاكر في صفر، وله ثلاث وثمانون سنة. والشرف راجِح بن إسماعيل الحِليّ الشاعر. وعبد الرحمن بن عَتِيق [بن عبد العزيز][١] بن صيلا المؤدِّب. وعبد السلام بن عبد الرحمن [ابن الأمين][١] عليّ [بن عليّ][١] بن سُكَيْنة. وأبو المعالي محمد [بن أحمد][١] بن صالح الحنبليّ ببغداد. وفخر الدين محمد بن عبد الوهاب الأنصاريّ يوم عيد الأضحى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمان وعشرين وستمائة.

فيها ساق التَّتار خَلْف السلطان جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه بعد أن واقعهم عِدّةَ وقائع من بلاد تِبْريز، فآنهزم بين أيديهم إلى ديار بكر، فقُتِل في قرية من أعمال مَيّافارِقين.

وفيها توفي بَهْرَام شاه بن فرخشاه بن شاهِنْشاه بن أيّوب، الملك الأمجد صاحب بعلبكّ. كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب أعطاه بعلبكّ عند وفاة أبيه سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة، فأقام فيها خمسين سنة حتّى حصَره الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيّوب وأخرجه منها، وساعده عليه آبن عمّه أسدُ الدين شِيرِكُوه صاحب حِمْص؛ فآنتقل الملك الأمجد إلى الشام وسكنها حتّى قتله بعض مماليكه غِيلةً؛ وكان فاضلاً شاعراً فصيحاً كاتباً، وله ديوان شعر كبير. ومن شعره «دوبيت»[٢]:

---

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) دوبيت: لفظ مركب من كلمتين: أولاهما «دو» فارسية بمعنى اثنين. وثانيتهما عربية تعني الوحدة الشعرية. ويسميه العرب: الرباعي، لأن وزن شطر البيت فيه أربعة أفاعيل مختلفة. وهو ضرب من الشعر استحدثه العرب المولدون على وزن الشعر الفارسي المسمى «دوبيت» على وزن: (فعلن متفاعلن فعولن فعلن).

كم يذهب هذا العمرُ في الخُسْران يـا غفلتي فيـه ومـا أنسـانِي
ضيّعت زمـاني كلّه في لَعِبٍ يا عمرُ فهل بعدَك عمرٌ ثانِ

قلت: ومـا أحسنَ قولَ قـاضي القُضَاة شهـاب الـدين أحمـد بن حَجَـر[١] ــ رحمه الله ــ في هذا المعنى، وهو ممّا أنشدني من لفظه لنفسه ــ عفا الله عنه ــ:
[الطويل]

خليليَّ ولَّى العمـر منا ولم نَتُبْ وننـوِي فعالَ الصـالحـاتِ ولَكِنّـا
فحتّى متى نَبْنِي بُيـوتـاً مَشِيـدَةً وأعمـارُنـا منـا تُهَـدّ ومـا تُبْنَى

وما ألطفَ قولَ السِّرَاج[٢] الوَرّاق ــ رحمه الله ــ وهو قريب ممّا نحن فيه:
[الكامل]

يا خَجْلتِي وصحائِفِي سُوداً غَدَتْ وصحـائفُ الأبرار في إشـراقِ
وفضيحتِي[٣] لمعنِّفٍ لي قائل أكـذا تكون صحـائفُ الـورّاقِ

وفيها قُتِل السلطان جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه، وآسمه تُكُش، وقيل محمود ابن السلطان علاء الدين خُوَارَزْم شاه؛ وآسمه محمد بن تكش، وهـو من نسل عبد الله بن طاهر بن الحسين، وَجدُّه تُكُش هو الذي أزال مُلك السَّلْجُوقِيّة. قُتِل بديار بكر، كما ذكرناه في أوّل هذه السنة. ولمّا قُتِل دخل جماعةٌ على الملك الأشرف موسى فهنؤوه بموته؛ فقال: تهنّوني به وتفرحون! سوف تَرَون غِبَّة! والله لتكونَنّ هذه الكَسْرةُ سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخُوَارَزْمِيّ إلّا مثل [السدّ][٤] الذي بيننا وبين يَأجُوجَ ومَأجُوجَ؛ فكان كما قال الأشرف. كان الخُوَارَزْميّ يقاتل التتار عشرة أيّام بلياليها بعساكره، يترجّلون عن خيولهم ويلتقون بالسيوف، ويبقى الرجل منهم يأكل ويبول وهو يقاتل.

---

(١) انظر وفيات سنة ٨٥٢هـ.
(٢) انظر وفيات سنة ٦٩٥هـ.
(٣) في الأصل: «وتوقفي لموبّخ لي قائل» وما أثبتناه رواية فوات الوفيات.
(٤) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

وفيها توفّي المهذب [عبد الرحيم بن علي][1] بن الدَّخْوَار الطبيب؛ كان فاضلاً حاذقاً بعِلْم الطبّ أستاذَ عصره، تقدّم على جميع أطبّاء زمانه، ومع هذا مات بستة أمراض مختلفة، ووقَف داره وكتبه على الأطبّاء.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو نصر أحمد بن الحسين بن عبد الله بن النَّرْسيّ البيِّع في رجب، وله ثلاث وثمانون سنة. والملك الأمجد مجد الدين بَهْرَام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبكّ. ومحمد بن عمر بن حسين المقرىء الكُرْديّ بدِمَشق. والمهذَّب عبد الرحيم بن عليّ رئيس الطبّ، ويعرف بالدّخْوَار في صفر. وأبو الفضل عبد السلام بن عبد الله الدَّاهِرِيّ[2] الخفّاف في شهر ربيع الأوّل عن ثنتين وثمانين سنة. وأبو الرضا محمد بن أبي الفتح المبارك ابن عَصِيّة الحْربِيّ في المحرّم، وله ثلاث وثمانون سنة. والعلاّمة زَيْن الدين يحيى بن عبد المُعْطِي بن عبد النُّور الزَّوَاوِيّ النحويّ في ذي القعدة بمصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراع واحدة ونصف إصبع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة تسع وعشرين وستمائة.

فيها عاد التَّتار إلى الجزيرة وحَرّان وقتلوا وأسَروا وسَبَوْا، وخرج الكامل صاحب الترجمة من مصر إلى أن وصل إلى ديار بكر وآجتمع مع أخيه الأشرف موسى، وآجتمعوا على دفع التَّتار؛ وكان أهلُ حَرّان قد خرجوا لقتال التّتار، فما رجع منهم إلاّ القليل. وعاد التَّتار إلى بلادهم بعد أمور صدَرت منهم في حقّ

---

(١) زيادة عما سيأتي.

(٢) كذا في الشذرات. وفي الأصل: «الزاهري». والداهري: نسبة إلى الداهرية، من قرى بغداد.

المسلمين. فلمّا بلغ الكاملَ عَوْدُ التَّتار نزل على مدينة آمِد ومعه أخوه الأشرف، وحاصرها حتّى آستولَى عليها وعلى عِدّة قِلاع.

وفيها تُوفّي إسماعيل بن إبراهيم الشيخ شرف الدين الفقيه الحنفيّ وهو آبن خالة شمس الدين ابن الشِّيرازِيّ. كان فقيهاً فاضلاً زاهداً عابداً وَرِعاً وله تصانيف حِسان، منها «مقدمة في الفرائض»؛ وكان بَعث إليه الملك المعظَّم عيسى صاحب دمشق يقول: أَفْتِ بإباحة الأنْبِذة، وما يعمل من ماء الرمّان ونحوه، فقال: لا أفتح هذا الباب على أبي حنيفة! إنّما هي رواية النوادر، وقد صحّ عن أبي حنيفة أنّه ما شرِبه قطُّ، وحديث آبن مسعود لا يصحّ، وكذا ما يُرْوَي عن عمر[1] في إباحة شربه لا يثْبُت عنه. فغَضِب المعظّم وأخرجه من مدرسة طَرْخَان[2].

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو القاسم أحمد بن أحمد بن السِّمِّذِيّ[3] الكاتب. والحافظ أبو موسى عبد الله آبن الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدِسِيّ في رمضان، وله ثمانٍ وأربعون سنة. وعبد اللطيف بن عبد الوهاب بن الطَّبَرِيّ في شعبان. والعلاّمة موفّق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البَغْداديّ النحويّ الطبيب في المحرّم عن آثنتين وسبعين سنة. والزاهد الشيخ عمر بن عبد الملك الدِّيْنَورِيّ بقاسِيُون. وأبو حفص عمر بن كرم بن أبي الحسن الدِّينَورِيّ الحَمامي في رجب، وله تسعون سنة. وأبو القاسم عيسى بن عبد العزيز بن عيسى المقرىء بالإسكندرية. والحافظ معين الدين أبو بكر محمد بن عبد الغني نُقْطَة الحنبليّ في صفر كَهْلاً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وثماني أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

(١) كذا في طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان. وفي الأصل: «عن محمد».

(٢) هي المدرسة الطرخانية بدمشق. ونسبتها إلى الأمير طرخان بن محمود الشيباني. أنشئت سنة ٥٢٥هـ. (الدارس: ١/٤١٥).

(٣) نسبة إلى السمذ، وهو الخبز الأبيض.

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبـي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثلاثين وستمائة.

فيها فتـح الملك الكامل محمد صاحب الترجمة آمِد، وأخرج منها صاحبها الملكَ المسعودَ بن مودود بعد حصار طويل؛ وتسلّم منه جميـع القِلاع التي كانت بيده، وبقي حِصْنُ كَيْفَا عاصياً؛ فبعث الكامل أخاه الأشرف، وأخاه شهاب الدين غازياً، ومعهما صاحب آمِد تحت الحَوْطة؛ فسألهم صاحب آمِد في تسليم الحصن فلم يُسلِّموا البلد، فعذّبه الأشرف عذاباً عظيماً، وكان يبغضه؛ ولا زال الأشرف يحاصر حصن كَيْفَا حتّى تسلّمها بعد أمور في صفر من السنة، ووجد عند مسعود المذكور خمسمائة بنتٍ من بنات الناس للفراش.

وفيها فُتِحت دارُ الحديث الأشرفيّة المجاورة لقلعة دمشق التي بناها الملك الأشرف موسى، وأملَى بها آبنُ الصلاح[١] الحديث، وذلك في ليلة النصف من شعبان، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبـيّ صلّى الله عليه وسلم.

وفيها تُوفّي الوزير صَفِيُّ[٢] الدين عبد الله بن عليّ بن شُكْر، وزير الملك العادل؛ وأصله من الدَّمِيرةَ، وهي قرية بالوجه البحري من أعمال مصر. وكان صفيّ الدين المذكور وزيراً مَهِيباً عالماً فاضلاً له معرفة بقوانين الوزارة، وكانت عنايته مصروفة إلى العلماء والفقهاء والادباء، وكـان مـالكي المذهب. ومات بالقاهرة وهو على حُرْمته، وله بالقاهرة مدرسة[٣] معروفة به.

---

(١) انظر حوادث سنة ٦٤٣هـ.

(٢) ذكر المؤلف وفاته سنة ٦٢٢هـ نقلاً عن الذهبي. وهنا يوافق رواية صاحب مرآة الزمان.

(٣) هي المدرسة الصاحبية بالقاهرة (خطط المقريزي: ٣٧١/٢) ويشغل مكان هذه المدرسة اليوم منزلان متجاوران: البحري منها وقف الشيخ محمد ونس الفقي رقم ٨ بشارع الوزير الصاحب (المسمى خطأ باسم السلطان الصاحب) وهذا الشارع كان يعرف قديماً باسم سويقة الصاحب، وكان فيه باب المدرسة، والقبلي منها هومنزل ورثة محمد أفندي علي حلاوة رقم ٤ بزقاق سعادة بعطفة الستّ بيرم بشارع درب سعادة. وفي داخل هذا المنزل توجد بقايا قبة المدرسة المذكورة. (عن تعليقات الاستاذ محمد رمزي).

وفيها تُوُفِّي الملك العزيز عثمان آبن السلطان الملك العادل أبـي بكر بن أيّوب أخو الملك الكامل هذا؛ وكان شقيقَ المعظَّم عيسى، وهو صاحب بانْيَاس وتِبْنِين والحصون، وهو الذي بنى الصُّبَيْبَة؛ ودام مالكاً لهذه القِلاع إلى أن مات في يوم الاثنين عاشر شهر رمضان ببستانه ببيت لهيا، وحُمِل تابوتُه فدُفِن بقاسِيُون عند أخيه الملك المعظَّم عيسى، وقد تقدّم أنّه كان شقيقه.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي بهاء الدين إبراهيم ابن أبـي اليُسْر شاكر بن عبد الله التَّنُوخِيّ الشافِعِيّ في المحرّم؛ ولي قضاء المَعَرّة خمسةَ أعوام. وأبو الحسن عليّ بن أحمد بن يوسف الأزَجِيّ بالقُدْس في صفر. وأبو محمد الحسن آبن الأمير السيد عليّ بن المرتضَى العَلَوِيّ الحُسَيْنِيّ في شعبان. وصفي الدين أبو بكر عبد[١] العزيز بن أحمد بن عمر بن سالم بن محمد][٢] بن باقا التاجر في رمضان، وله خمس وسبعون سنة. وصاحب الصُّبَيْبَة الملك العزيز عثمان بن العادل ــ رحمه الله ــ والعلاّمة عزّ الدين أبو الحسن عليّ بن الأثير بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشَّيباني الجَزَرِيّ المؤرِّخ في شعبان، وقد قارب ستاً وسبعين سنة. وصاحب إرْبِل مُظَفَّر الدِّين كُوكُبوري آبن صاحب إرْبِل أيضاً زين الدين عليّ بن بُكْتِكِين التُّرْكُمانِيّ في رمضان. والوزير مؤيّد الدِّين محمد بن محمد بن القُمِّيّ ببغداد. وشرف الدين محمد بن نصر الله بن مكارم الدِّمَشقيّ الشاعر الكاتب [المعروف بآبن عُنَين] في شهر ربيـع الأول.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وعشر أصابـع. مبلـغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وستّ أصابـع، وطال مكثه على الأراضي. والله أعلم.

* * *

(١) في الأصل: «أبو بكر بن عبد العزيز». والتصويب عن الشذرات.

(٢) زيادة عن الشذرات.

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

فيها آجتمع الملك الكامل صاحب الترجمة وإخوتُه وأسدُ الدين شِيرِكُوه صاحب حِمْص، وساروا ليدخلوا بلاد الروم من عند النهر الأزرق[١]، فوجدوا الروم قد حفِظوا الدَّرْبَنْد[٢]، ووقفوا على رؤوس الجبال وسَدُّوا الطرق، فآمتنعت العساكر من الدخول؛ وكان الملك الأشرف صاحب دمشق يومئذ ضيِّقَ الصدر من أخيه الملك الكامل هذا، لأنّه طلب منه الرَّقَّة فامتنع؛ وقال له: ما يكفيك كرسيّ بني أمَيَّة! فآجتمع أسد الدين شِيرِكُوه صاحب حِمْص بالأشرف وقال له: إنْ حَكَم الكامل على الروم أخذ جميع ما بأيدينا فوقع التقاعد، فلمّا رأى الكامل ذلك عبَر الفرات ونزل السُّوَيْداء[٣]، وجاءه صاحب خَرْتَبِرت[٤]، وهو من بني أرْتُق، وقال له: عندنا طريق سهلة تدخل منها إلى الروم. فجهز الملك الكامل بين يديه ولدَه الملك الصالح نجم الدين أيّوب، وآبن أخيه الملك الناصر داود بن المعظَّم، والخادم صواباً، فجاءتهم عساكر الروم؛ وكان الناصر تأخّر وتقدّم صواب في خمسة آلاف فارس، ومعه الملك المظفَّر صاحب حَمَاة، وقاتلوا الروم وآنهزموا؛ فعاد الملك الكامل إلى آمِد. وكان أسِر صواب وجماعة من الأمراء فأطلقهم الروم بعد أن أحسنوا إليهم.

وفيها قدِم رسول الأنبرور الفرنجيّ على الملك الكامل بهدايا فيها دُبٌّ أبيض، وشعره مثل شعر السَّبُع، ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله ومعه أيضاً طاووس أبيض.

---

(١) نهر بالثغر بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب (معجم البلدان).

(٢) راجع ص ٢٢٦، حاشية (٣). والدربند تعني الممر بين جبلين على وجه الإطلاق.

(٣) السويداء: بلدة في ديار مضر قرب حرّان بينها وبين بلاد الروم. (معجم البلدان).

(٤) خرتبرت: وترسم خرت برت وخربرت. وهي مدينة في وسط تركيا إلى الشرق. وهي خربوط وخربوت وهو الإسم الأرمني للمدينة؛ وسماها العرب حصن زياد (بلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩).

وفيها تُوفّي الشيخ العارف المُسَلِّك الزاهد شهاب الدين أبو حفص ــ وقيل أبو عبد الله ــ عمر بن محمد بن عبد الله بن عَمّويه القرشيّ التَّيْميّ البَكْريّ السُّهْرَوَرْدِيّ الصُّوفيّ. وذكر الذهبيّ وفاته في سنة آثنتين وثلاثين وهو الأشهر. قلت: ومولده في شهر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسُهْرَوَرْد، وقَدِم بغدادَ وهو أمرد، فصحِب عمَّه الشيخ أبا النَّجيب عبد القاهر[1] وأخذ عنه التصوّف والوعظ وصحِب أيضاً الشيخ عبد القادر الجِيلي[2]، وسمع الحديثَ من عمّه المذكور وغيرِه، ورَوَى عنه البِرْزَالي[3] وجماعة كثيرة؛ وكان له في الطريقة قدم ثابتةٌ ولسان ناطق، وَوَلِي عِدّة رُبُط للصُّوفيّة، ونفّذه الخليفة إلى عِدّة جهات رسولاً؛ وكان فقيهاً عالماً واعظاً مُفْتَناً مصنِّفاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة، وآشتهر آسمه وقُصِد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خَلْق من العُصاة فتابوا، ووصَل به خَلْق إلى الله تعالى، وكُفَّ بصرهُ قبل موته.

قال أبو المظفّر سبط ابن الجَوْزيّ: رأيتُه في سنة تسعين وخمسمائة يعظ برباط درب المقير على مِنْبر طين، وعلى رأسه مِئْزَر صوف؛ قال: وصنّف كتاباً للصوفيّة وسماه «عوارف المعارف». قال: وجلس يوماً ببغداد وذكر أحوال القوم وأنشد ــ رحمه الله تعالى وعفا عنه ــ: [البسيط]

ما في الصِّحابِ أخو وجد نُطارِحُهُ حـديثَ نَجْدٍ ولا صَبٌّ نُجاريـه

وجعل يردِّد البيت ويطرَب، فصاح به شابٌ من أطراف المجلس، وعليه قَبَاءٌ وكَلُوتة[4]؛ وقال: يا شيخ، لم تَشْطَح وتنتقص القوم! والله إنّ فيهم مَن لا يَرْضَى أن

(١) ذكره المؤلف في حوادث سنة ٥٦٣هـ.
(٢) راجع حوادث سنة ٥٦١هـ.
(٣) سيأتي ذكره في حوادث سنة ٦٣٦هـ.
(٤) الكلوتة: وتجمع على كلوتات. وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة، وتسمى: كلفه، وكلفتاه، وكلفته. يقول البعض إنها من أصل لاتيني، ويقول آخرون إنها معربة عن الفارسية. وقد استحدث سلاطين الأيوبيين لبس الكلوتة بمصر، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها. وكذلك كان يفعل أمراؤهم وجندهم ومماليكهم. (صبح الأعشى: ٤/٦، ٣٩ ــ وخطط المقريزي: ٢/٩٨).

يجاريَك، ولا يصل فهمُك إلى ما يقول، هلّا أنشدتَ: [البسيط]

ما في الصّحاب وقد سارت حُمُولُهم إلاَّ مُحِبٌّ له في الرَّكْب محبوبُ
كأنّه يوسف في كلّ راحلةٍ والحيُّ في كلّ بيتٍ منه يعقوبُ!

فصاح الشيخ ونزل من على المِنْبر وقصده فلم يَجِدْه، ووجد موضعه حُفْرَةً بها دَمٌ ممّا فحصَ برجليه عند إنشاد الشيخ البيتَ. اِنتهى كلام أبي المظفّر باختصار.

وفيها تُوفّي الشيخ طَيّ[1] المصريّ مريد الشيخ محمد الفَزَارِيّ؛ قدِم الشام وأقام مدةّ بزاويته، وكان يغشاه الأكابر، وآنتفع بصحبته جماعة، وكان زاهداً عابداً، ودُفِن بزاويته[2] بدِمَشق.

وفيها تُوفّي الشيخ عبد الله الأَرمنِي الزاهد العابد الوَرِع. كان رحّالاً سافر إلى البلاد ولَقِي الأبدال وأخذ عنهم، وكان له مجاهدات ورياضات وعبادات وسياحات، وكان في بداية أمره لا يَأوِي إلاّ البَراري القِفار ويتناول المباحاتِ؛ قرأ القرآن وكتاب القُدُوري في الفقه، وصحِب رجالاً من الأولياء، وكان معدوداً من فقهاء الحنفية؛ وله حكايات ومناقب كثيرة. ومات في يوم الجمعة تاسع عشرين ذي القعدة، ودُفن بسفح قاسيون، وقد جاوز سبعين سنة.

وفيها تُوفّي العلاّمة سيف الدِّين عليّ بن أبي عليّ بن محمد بن سالم المعروف بالسيف الآمِدِيّ؛ كان إماماً بارعاً لم يكن في زمانه من يُجاريه في علم الكلام. قال أبو المظفّر: وكان يُرمى بأشياء[3] ظاهرها أنّه كان بريئاً منها، لأنّه كان سريع الدَّمْعَة، رقيقَ القلب سليم الصدر، وكان مقيماً بحَمَاة وسكن دِمَشق، وكان بنو العادل: المعظّم والأشرف والكامل يكرهونه لِمَا آشتهر عنه من الاشتغال بالمنطق

(١) في الأصل: «الشيخ علي المصري مريد الشيخ محمد الفرواني». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان، والدارس في تاريخ المدارس.

(٢) ذكرها النعيمي في الدارس باسم: الزاوية الطيبية.

(٣) قال في الشذرات: نسبوه بمصر إلى دين الأوائل وكتبوا محضراً بإباحة دمه، فلما رأى بعضهم ذلك الإفراط، وقد حمل المحضر إليه ليكتب كما كتبوا كتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه والقوم أعداء له وخصوم

وعلوم الأوائل. ثم قال أبو المظّفر بعد كلام آخر: وأقام السيف خاملاً في بيته إلى أن تُوفّي في صفر، ودُفِن بقاسيون في تربته.

وفيها تُوفّي كريم الدين الخِلاطِيّ الأمير؛ كان أديباً لطيفاً حسنَ اللقاء ذا مُروءة. خدَم الأشرف والمعظَّم والكامل، وحج بالناس أميراً من الشام، وتُوفّي بدمشق ودُفِن بقاسِيون عِند مَغَارة الجوع.

وفيها تُوفّي الصلاح[1] الإرْبِليّ، كان أديباً فاضلاً شاعراً؛ خدَم مظفَّر الدِّين صاحب إرْبِل، ثمّ آنتقل إلى خدمة الملك المغيث بن العادل، ثمّ خدم الكامل وتقدّم في دولته وصار نديمه؛ ثم سَخِط عليه، لأنّه بعثه رسولاً إلى أخيه المعظَّم فنُقِل عنه أنّ المعظّم آستماله، فحَبسه الكامل في الجُبّ[2] مدّة سنتين، ثم رضي عنه وأخرجه. ومن شعره من قصيدة: [دوبيت]

من يوم فراقنا على التحقيق ... هذي كبدي أحقّ بالتمزيق
لو دام لنا الوصال أَلْفَيْ سنةٍ ... ما كان يَفِي بساعة التفريق

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي إسماعيل بن عليّ بن إسماعيل بن ماتكين الجوهريّ في ذي القعدة، وله ثمانون سنة. ونجم الدين ثابت بن باذان التَّفْلِيسي الصُّوفّي شيخ الأَسَديّة. وسِرَاج الدين الحسين بن أبي بكر المبارَك بن محمد الزَّبِيديّ الحنبليّ في صفر، وله خمس وثمانون سنة. وزكريّا بن عليّ بن حَسّان العُلْبِيّ في شهر ربيع الأوّل. والخادم طُغْرِيل أتابك المِلك العزيز ومدبّر دولته. والشيخ القُدْوة عبد الله بن يُونُس الأَرْمنيّ. والسيفُ الآمِديّ عليّ بن أبي عليّ بن محمد بن سالم التَّغْلبي في صفر، وله ثمانون سنة. والمحدّث أبو رشيد محمد بن أبي بكر الأصبهانيّ الغَزَاليّ المقرىء. وأبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القُرْطُبِيّ في صفر بالمدينة. وأبو الغنائم المسلم بن أحمد المَازِنِي النَّصِيبيّ في شهر ربيع الأوّل.

---

(١) صلاح الدين أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان الإربلي.
(٢) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء، حاشية (١).

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة آثنتين وثلاثين وستمائة.

فيها خرجت عساكر الروم نحو آمِد وحاصروها وأقاموا عليها أياماً، ثم نازلوا السُّوَيْدَاء فأخذوها.

وفيها كان الوباء العظيم بمصر حيث إنّه مات في شهرٍ نيفٌ وثلاثون ألف إنسان[1]. وفيها تُوفّي عبد السلام بن المطهَّر بن عبد الله بن محمد بن [أبي] عَصْرُون. كان فقيهاً فاضلاً زاهداً إلّا أنّه كان مغرىً بالنكاح؛ كان عنده نيّف وعشرون جارية للفراش. ومات بدِمَشْق بقاسيون، وهو والد قطب[2] الدين وتاج[3] الدين.

وفيها تُوفّي صواب العادلي مقدّم عسكر الملك الكامل الذي كانت الروم أسرته في عام أوّل؛ وكان خادماً عاقلاً شجاعاً، وكان العادل والكامل يعتمدان عليه، وكان حاكماً على الشرق كلّه من قِبَل الكامل.

وفيها تُوفّي الشيخ شرف الدين أبو حَفْص عمر بن أبي الحسن عليّ بن المُرْشد بن عليّ المعروف بابن الفارِض الحمويّ الأصل، المصريّ [المولد و][4]

(١) ذكر المقريزي (السلوك: ٢٩١/١/١) في حوادث سنة ٦٣٢هـ أن وباءً كثيراً استمر بمصر مدة ثلاثة أشهر، فمات بالقاهرة ومصر خلق كثير، بلغت عدتهم زيادة على ١٢ ألفاً سوى من مات بالريف.

(٢) سيذكره في حوادث ٦٧٥هـ.

(٣) سيذكره في حوادث ٦٩٥هـ.

(٤) زيادة عن ابن خلكان.

الدار والوفاة الصالح الشاعر المشهور، أحد البلغاء الفُصَحاء الأدباء. مولده في رابع ذي القعدة سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، وتُوفي بالقاهرة في يوم الثلاثاء الثاني من جُمادى الأولى، ودُفِن من الغد بسفح المقطم، وقبره معروف به يُقْصد للزيارة. والفارض (بفتح الفاء وبعدها ألف وراء مكسورة وضاد معجمة)؛ وهو الذي يكتب الفروض على النساء والرجال. وهو صاحب النظم الرائق والشعر الفائق الغراميّ. وديوان شعره مشهور كثير الوجود بأيدي الناس، وشعره أشهر من أن يذكر. فمن مقطّعات شعره قوله: [مجزوء الكامل]

وحياة أشواقي إلَيْـ ـكَ وحرمة الصبر الجميل
لا نَظَرت[1] عيني سوا كَ ولا صبوتُ إلى خليل

ومن قصائده ـ رحمه الله وعفا عنه ـ : [الرمل]

سائقَ الأظعانِ يَطْوي البِيدَ طَيّ مُنْعِماً عَرِّجْ على كُثْبانِ طَيّ
وبذات الشِّيح عنّي إن مررْ تَ بِحَيٍّ من عُرَيب الجِزْع حيّ
وتَلَطَّفْ واجْرِ ذِكْرى عندهم علّهم أن يَنْظُروا عَطْفاً إليّ
قُلْ تَرَكْتُ الصَّبَّ فيكم شَبَحاً ما له ممَّا بَراه الشّوقُ فَيّ
خافياً عن عائدٍ لاح كما لاحَ في بُرْدَيْه بعدَ النَّشْرِ طَيّ
صار وَصْفُ الضُّرِّ ذاتياً له عن عَناءٍ والكلامُ الحيُّ لَيّ
كَهِلال الشَّكّ لولا أنّه أنَّ عَيْنِي عَيْنَه لم تَتَأيّ
مثلَ مسلوبٍ حياةٍ مَثَلاً صار في حُبِّكم مَلْسُوبَ حيّ
مُسْبِلاً للنَّأي طَرْفاً جاد إن ضَنّ نَوْءُ الطَّرْف إذ يَسْقُط خَيّ
بين أَهْلِيه غَريباً نازِحاً وعلى الأوطان لم يَعْطِفْه لَيّ
جامحاً إن سِيمَ صبراً عنكمُ وعليكم جانحاً لم يَتَأيّ
نَشرَ الكاشحُ ما كان له طاوِيَ الكَشْحِ قُبَيْلَ النأي طَيّ
في هواكم رمضانُ عُمْرُهُ ينقضي ما بين إحْياءٍ وطَيّ

---

(١) في ابن خلكان: «لا أبصرت».

صادِياً شوقاً لِصَدى طَيْفِكم جِدَّ مُلْتاحٍ إلى رُؤيا وَرَيّ
حائراً فيما إليه أمْرُه حائر والمرءُ في المِحْنَة عَيّ
فكأيِّنْ من أسًى أعيا الإسَى نال لو يُغْنِيه قولي وكأيّ
رائياً إنكارَ ضُرٍّ مَسَّهُ حَذَرَ التعنيف في تعريف رَيّ
والذي أرْوِيه عن ظاهرِ ما باطني يَزْوِيه عن عِلْمِيَ زَيّ
يا أهَيْلَ الودِّ أنّى تُنْكِرو نِيَ كَهْلاً بعد عرفاني فُتَيّ
وهَوَى الغَادَة عَمْرِي عادةً يَجْلُبُ الشَّيْبَ إلى الشاب الأحَيّ
نَصَباً أكْسبني الشوقُ كما تُكْسِبُ الأفعالَ نَصْباً لام كيّ
[ومتى أشكو جراحاً بالحَشَى زِيدَ بالشَّكْوَى إليها الجُرْح كَيّ][1]
عينُ حُسّادِيّ عليها لي كَوَتْ لا تَعَدَّاها أليمُ الكَيّ كَيّ
عجباً في الحرب أدْعَى باسلاً ولها مُسْتَبْسِلاً في الحُبّ كَيّ
هل سمِعتم أو رأيتم أسداً صاده لحظُ مَهاةٍ أو ظُبَيّ
سَهْمُ شَهْمِ القومِ أشْوَى وشوى سهمُ ألحاظكُم أحشايَ شَيّ
وضَع الآسي بصدري كَفَّهُ قال ما لي حيلةٌ في ذا الهويّ
أيُّ شيءٍ مُبْرِدٌ حَراً شَوَى للشَّوَى حَشْوَ حَشَايَ أيُّ شَيّ
سقَمِي من سُقْم أجفانِكُم وبمعسول الثَّنايا لي دُوَيّ
أوْعِدُوني أوعِدُوني وامطُلُوا حُكْمُ دِين الحبِّ دَيْنُ الحِبِّ لَيّ
رجَع اللاَّحِي عليكم آيساً من رَشادِي وكذاك العشقُ غَيّ
أبَعيْنَيه عَمىً عنكم كما صَمَمٌ عن عَذْلِهِ في أذُنَيّ
أو لم يَنْهِ النُّهَى عن عَذْلِهِ زَاوِياً وجهَ قبولِ النُّصْحِ زَيّ
ظَلَّ يُهْدِي لي هُدًى في زَعْمه ضَلَّ كم يَهْذِي ولا أصْغَى لِغَيّ
ولِمَا يَعْذُلُ عن لَمْيَاءَ طَو عَ هوىً في العذل أعصى من عُصَيّ
لومه صَباً لدى الحِجْرِ صَبا بكم دَلّ على حِجْرِ صُبَي
عاذِلِي عن صَبْوةٍ عُذْرِيَّةٍ هي بي لا فَتِئت هيّ بن بيّ

---

(١) زيادة من ديوانه.

ذابت الرُّوح آشتياقاً فهي بَعْـ ـدَ نفادِ الدمع أجْرَى عَبْرَتيّ
فهَبُوا عَيْنيَّ ما أَجْدى البُكا عينَ ماءٍ فهي إحدى مُنْيَتيّ
أو حَشًا سال ولا أختارُها إنْ تَرَوْا ذاك بها منًّا عليّ
بل أَسِيئُوا في الهوى أو أَحْسِنُوا كلُّ شيء حسنٌ منكم لَدَيّ

وفيها تُوفّي عيسى بن سِنْجَر بن بَهْرَام بن جِبْريل بن حمّاد[1] الشيخ الإمام الأديب البارع حسام الدين أبو يحيى ــ وقيل: أبو الفضل ــ الإرْبليّ المعروف بالحاجِرِيّ الشاعر المشهور. كان جندياً من أولاد الأتراك. وكان أديباً فاضلاً ظريفاً فصيحاً، وله ديوان شعر مشهور، يغلب على شعره الرِّقة والانسجام.

قال آبن خلّكان ــ رحمه الله ــ: وكان صاحبي وأنشدني كثيراً من شعره، فمن ذلك وهو معنى جيّد في نهاية الجودة: [الكامل]

ما زال يحلِف لي بكلِّ أَلِيّةٍ ألَّا يزالَ مَدَى الزمان مصاحِبي
لمّا جَفَا نزل العِذَارُ بخدِّه فتعجَّبوا لسواد وجه الكاذبِ

قال وأنشدني لنفسه أيضاً: [مجزوء الخفيف]

لك خالٌ من فوق عر شِ شَقيقٍ قد آستَوى
بعث الصُّدْغَ مُرْسَلاً يأمرُ الناسَ بالهوى

اِنتهى.

قلت: ومن شعره أيضاً: [الكامل]

لكَ أن تُشَوِّقني إلى الأوطان وعليّ أن أبكي بدمعي القاني
إنّ الألَى[2] رحَلوا غداةَ محجّر ملؤوا القلوبَ لواعَج الأحزان

---

(١) في ابن خلكان والشذرات: «ابن خُمارتكين».

(٢) في الأصل:

إن الذي رحلوا غداة المنحنى ملؤوا القلوب لواعج الأشجان

وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن ديوانه.

فـلأبـعثـنّ مـع النـسيـم إليـهـمُ شَكْـوَى تَمِيل لهـا غصـونُ البـانِ
نـزلوا بـرامـة قـاطنين فـلا تَسَـلْ مــا حَـلّ بــالأغصـان والغِــزْلانِ

وكانت وفاته في يوم الخميس ثاني شوّال، وتقدير عمره خمسون سنـة. والحاجِريّ (بفتـح الحاء المهملة وبعد الألف جيم مكسورة وبعدها راء) وهذه النسبة إلى حاجر، وكانت بليدة بالحجاز. وسبب تسميته بذلك لأنّه كان يُكثِر من ذكر الحاجر في شعره فسمِّي بذلك.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الحسن بن صباح بن حُسام المخزوميّ الكاتب في رجب، وله إحدى وتسعون سنة. وتقي الدين عليّ بن أبي الفتح بن ماسويه الواسِطيّ في شعبان، وله ست وسبعون سنة. والأديب شرف الدِّين عمر بن علي بن المرشد الحَمَويّ بن الفارِض بمصر في جُمادى الأولى. والزاهد العارف أبو حفـص عمر بن محمد بن عبد الله التَّيْمِيّ السُّهْرَوَرْدِيّ في أوّل السنة، وله ثلاث وتسعون سنة. وأبو عبد الله محمد بن عِماد بـن محمد الحَرَّانيّ التاجر في صَفَر بالإسكندرية، وله تسعون سنة. والقدوة الزاهد غانم بن عليّ المقدسيّ. والقاضي العلامة بهاء الدين يوسف بـن رافِـع بن تَميم الشافعيّ آبن شَدّاد بحَلَب في صفر. وسيف الدولة محمد بن غَسّان الحِمْصِي في شعبان. وأبو الوفا محمود [بن إبراهيم بن سفيان][1] بن مَنْدَه التاجر بأصفهان شهيداً في خلق لا يُحْصَوْن بسيف التتار في شوّال. وأبو سعد محمد بن عبـد الواحـد المَديني. وحُسام الدين عيسى بن سِنْجـر بن بَهْرَام الإِرْبِليّ المعروف بالحَـاجِريّ الشـاعر المشهور، قتله شخص في شوّال، وله خمسون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلـغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن الشذرات.

السنة الثامنة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبـي بكر بن أيّوب، على مصر

وهي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

فيها آستعاد الكامل من الروم حَرّان والرُّها وغيرَهما، وأخرب قلعةَ الرُّهَا ونزل على دُنَيْسِر فأخْربهـا ومعه أخوه الأشرف، وبينما هم في ذلك جاء كتاب بدر الدين لؤلؤ إلى الأشرف يقول: قد قطَـع التّتارُ دِجْلَة في مائة طُلْبٍ كلّ طُلْب خمسمائة فارس، ووصلوا إلى سِنْجار، فخرج إليهم مُعين الدين بن كمال الدين بن مُهاجِر فقتلوه على باب سِنْجار، ثم رجـع التتارُ ثم عادت. فأمَّنهم الأشرفُ للتوجّه إلى جهة الشرق.

وفي هذه السنة كان الطاعون العظيم بمصر وقُراها، مات فيه خَلْق كثير من أهلها وغيرها حتى تجاوز الحدَّ.

وفيها جاءت الخُوَارَزْمِيَّة إلى صاحب مَارِدِين فنزل إليهم وقاتلهم، ثم نزلوا نَصِيبِينَ وأحرقوها، وفعلوا فيها أعظم ما فعل الكامل بدُنَيْسِر.

وفيها تُوفّي الحسن بن محمد القاضي القِيلُوِيّ، وقِيلُويّة: قريـة من قرى بغداد(١). كان فاضلاً كاتباً، وُلِد بالعراق سنة أربـع وستين وخمسمائة، وكان كثيرَ الأدب مليـحَ الخطّ عارفاً بالتواريـخ حسن العبارة متواضعاً، وكانت وفاته في ذي القعدة ودُفِن بمقابر الصوفيّة عند المُنَيْبِـع.

وفيها تُوفّي أبو المحاسن محمد بن نصر [الدين بن نصر بن الحسين](٢) بن عُنَيْن الزرعي، أصله من حَوْرَان.

قال أبو المظَّفر: «كان خبيثَ اللّسان هَجّاء فاسِقـاً متهتّكاً؛ عَمِـل قصيدةً سمّاها: «مِقراض الأعراض» خمسمائة بيت، لـم يُفْلِت أحد من أهل دمشق منها

---

(١) في معجم البلدان أن قيلوية قرية من نواحي مطيراباذ.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

بأقبح هجو. ونفاه السلطان صلاح الدين إلى الهند، فمضى ومدح ملوكها وآكتسب مالاً، وعاد إلى دمشق. ومن هجوه في السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب ــ رحمه الله تعالى ــ قوله: [مخلّع البسيط]

سلطانُنا أعرجٌ وكاتبه ذو عَمش والوزير مُنْحَدِبُ
وصاحبُ الأمر خُلْقه شَرِسٌ وعارضُ الجيش داؤه عَجَبُ
والدَّوْلَعيُّ الخطيب معتكف وهو على قشر بيضةٍ يَثبُ
ولابن باقًا وعظ يغرّ به النـ ـاس وعبد اللطيف مُحتَسِبُ

ولَمّا نُفِي كتب من الهند إلى دِمَشق: [الكامل]

فَعلامَ أبعدتم أخا ثقةٍ لم يجترِم ذنباً ولا سَرَقا
إنفُوا المؤذِّنَ من بلادكُم إن كان يُنْفَى كلُّ من صَدَقا

ولما عاد إلى دِمَشق هجا الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيّوب بقوله: [الخفيف]

إن سلطاننا الذي نَرْتَجيه واسعُ المال ضيِّقُ الإنفاقِ
هو سيف كما يُقال ولكنْ قاطعٌ للرُّسوم والأرزاقِ

قال: واستكتبه الملك المعظّم، وكان من أكبر سيِّئات المعظّم. ومات عن إحدى وثمانين سنة». اِنتهى كلام أبي المظفّر بآختصار.

وقال آبن خلّكان: «كان خاتمة الشعراء، لم يأتِ بعده مثلُه، ولا كان في أواخر عصره من يُقاس به، ولم يكن شِعْرُه مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد. ثم نَعَته بأشياء إلى أن قال: ولمّا ملَك الملك العادل دِمَشْق كتب إليه قصيدته الرائيّة يستأذنه في الدخول إليها، ويصف دمشق ويذكر ما قاساه في الغُرْبة؛ وقد أحسن فيها كلَّ الإحسان وآستعطفه كلَّ الاستعطاف، وأوّلها: [الكامل]

ماذا على طَيْفِ الأحِبّة لو سَرَى وعليهمُ لو سامحوني في الكَرَى

ثم وصَف دمشق وقال:

فـارقتُهـا لا عن رضـاً وهجـرتُهـا لا عن قِلًى ورحلتُ لا متخيِّـرا
أسعى لـرزقٍ في البـلاد مشتَّت ومن العجـائب أن يكـون مقتَّـرا
وأصـون وجه مـدائحي متقنِّعاً وأكفُّ ذيـلَ مـطامعي متستِّـرا

ومنها يشكو الغُرْبة:

أشكو إليك نـوىً تمادَى عمـرُها حتّى حسِبتُ اليومَ منهـا أشهـرا
لا عيشتي تصفو ولا رَسْم[1] الهَوَى يَعْفُـو ولا جَفْنِي يُصافحه الكَرَى
أُضْحِي عن الأَحْوَى المَرِيـع مُحَلَّأً وأَبيت عن وِرْد النَّـمِيـر منفَّـرا
ومن العجـائب أن يَقِيـلَ بـظلِّكم كلُّ الوَرَى وأَبِيت وَحْدِي بالعَـرَا

فلمّا وقف عليها العادل أَذِنَ له في الدخول إلى دمشق، فلّما دخلها قال: [المتقارب]

هجـوتُ الأكـابـر في جِـلَّقٍ ورُعْتُ الوَضِيـعَ بِسبِّ الرَّفِيـع
وأُخْـرِجـتُ مِنـهـا ولكـنَّنِـي رجعتُ على رَغْم أنف الجميـع

وفيها تُوفِّي أبو الخَطّاب بن دِحْيَـة المغرِبـيّ. قـال أبو المـظفّر: كـان في المحدِّثين مثلَ آبن عُنَيْن في الشعراء، يَثْلِبُ علماء المسلمين ويقـع فيهم، ويتزيّد في كلامه، فترك الناس الروايةَ عنه وكذّبوه. وكان الكامل مُقبِلاً عليه، فلمّا آنكشف له حاله أعرض عنه، وأخذ منه دارَ الحديث وأهانه، فمات في شهر ربيـع الأوّل بالقاهرة ودُفِن بقرافة مصر.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي الجمال أبو حمزة أحمـد بـن عمـر بن الشيـخ أبـي عمـر المَقْـدِسي. وعَفيف الـدين علـيّ بن عبد الصمد بن الرمّاح المصريّ المقرىء النحوي. وأبو الحسن عليّ بن أبـي بكر بن روزبة القَلانِسِيّ الصُّوفيّ في شهر ربيـع الآخر، وقد جاوز التسعين. والعلاّمة

(١) في الأصل: «ولا وجه الهوى». وما أثبتناه عن ديوانه وابن خلكان.

أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن عليّ البلَنْسِيّ المعروف بابن دِحْية في شهر ربيع الأوّل عن سبع وثمانين سنة. والفخر محمد بن إبراهيم بن مسلم الإرْبِلِيّ الصُّوفي بإرْبِل في شوّال أو شهر رمضان. وقاضي القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق آبن الشيخ عبد القادر الجِيلِيّ الحنبليّ في شوّال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وسبع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبعان.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر ابن أيّوب على مصر

وهي سنة أربع وثلاثين وستمائة.

فيها نزلت التّتارُ على إرْبِل وحاصرتها مدّة حتّى أخذوها عَنْوَةً، وقتلوا كلّ من فيها وسَبَوْا وفضَحوا البنات، وصارت الآبار والدُّور قبوراً للناس. وكان أَيْدِكِين مملوك الخليفة بالقلعة فقاتلهم، فنقبوا القلعة وجعلوا لها سِرْدَاباً وطُرُقاً، وقلّت عندهم المياه حتّى مات بعضهم عطشاً، فلم يبقَ سِوى أخذها؛ فرحلوا عنها في ذي الحِجّة، وقد عجزوا عن حمل ما أخذوا من الأموال والغنائم.

وفيها آستخدم الملك الصالح نجمُ الدين أيّوب آبن الملك الكامل ـ صاحب الترجمة ـ الخُوَارَزْمِيّةَ أصحاب جلال الدين، فآنضمّوا عليه وآنفصلوا من الروم؛ وسُرّ والده الملك الكامل بذلك.

وفيها بدَت الوَحْشةُ بين الأخوين، وسببها أنّ الأشرف طلب من الكامل الرَّقّة وقال: الشرق كلُّه صار له، وأنا أركب كلّ يوم في خدمته، فتكون الرقّة برسم عليق دوابي، فأبى الكاملُ وأغلظ في الجواب، فوقعت الوحشةُ بينهم بسبب ذلك[1].

---

(١) في شفاء القلوب: ٣١٦ تفاصيل عن الخلاف بين الأخوين ومواقف الإخوة الآخرين.

وفيها تُوُفي الناصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهّاب الحنبليّ؛ وُلِد بدمشق ونشأ بها، وتفقّه ووَعظ وصنّف ودرّس بمدرسة ربيعة خاتون. ومات في غُرّة المحرّم.

وفيها تُوفّي السلطان الملك العزيز محمد آبن السلطان الملك الظاهر غازي آبن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. كان صاحب حَلَب، وليها بعد وفاة أبيه الظاهر. ومولده في ذي الحِجّة سنة تسع أو عشر وستمائة. وتُوُفِّي والده وهو طفل، فنشأ تحت حجر شهاب الدين الخادم، فرتّب شهابُ الدين أموره أحسن ترتيب إلى سنة تسع وعشرين وستمائة. اِستقل الملك العزيز هذا بالأمر إلى أن تُوُفّي بحلب في شهر ربيع الأوّل. وكان حسنَ الصورة كريماً عفيفاً، ولم يبلغ أربعاً وعشرين سنة. ودُفِن بقلعة حَلَب، وإليه تنسب المماليك العزيزية الآتي ذكرهم في عدّة أماكن.

وفيها تُوُفِّي كَيْقُبَاذ السلطان علاء الدين صاحب الروم. كان عاقلاً شجاعاً مقداماً جَوَاداً، وهو الذي كسر الخُوَارَزْمِيّ وكسر الكامل وآستولى على بِلاد الشرق. وكان الملك العادل زوّجه ابنتَه فأولدها أولاداً؛ وكان عادلاً منصفاً مَهِيباً، ما وقف له مظلوم إلّا وكشف ظُلامتَه، وكانت وفاته في شوّال.

قلت: وبنو قرمان[1] ملوك الروم في زماننا هذا يزعمون أنّهم من نسل السلطان علاء الدين هذا ــ والله أعلم ــ .

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفيّ الملك المحسن أحمد ابن السلطان صلاح الدين في المحرَّم، وله سبع وخمسون سنة. والخطيب أبو طاهر الخليل أحمد الجَوْسقِيّ في شهر ربيع الأوّل. وأبو منصور سعيد بن محمد بن يَس السفّار، وقد حجّ تسعاً وأربعين حجّة، في صفر. والحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكَلاَعِيّ البَلَنْسِيّ في ذي الحجة، وله سبعون

(١) قال ابن فضل الله العمري في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف»: وأما ملوكنا فأجلُّ من لديهم منهم (أي من أمراء الأتراك ببلاد الروم) جماعة بني قرمان، لقرب ديارهم وتواصل أخبارهم، ولنكايتهم في متملك سيس (تفصل بين حلب والروم من جهة الساحل) وأهل بلاد الأرمن، واجتياحهم لهم من ذلك الجانب مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب.

سنة. والإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الحنبليّ في المحرّم، وقد نيّف على الثمانين. ومفتي حَرّان ناصر الدّين عبد القادر بن عبد القاهر بن أبي الفَهْم الحنبليّ في شهر ربيع الأوّل عن آثنتين وسبعين سنة. وعليّ بن محمد بن جعفر بن كب المؤدّب. وكمال الدين عليّ بن أبي الفتح بن الكباري الطبيب بحلب في المحرّم. وسلطان الروم علاء الدين كَيْقُبَاذ بن كَيْخُسْرُو بن قلج أَرْسلان السَّلْجُوقِيّ في شوّال. والحافظ أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر القَطِيعيّ في شهر ربيع الآخر عن تسع وثمانين سنة. والملك العزيز محمد آبن الملك الظاهر غازي بن [صلاح الدين] يوسف صاحب حلب بها في شهر ربيع الأوّل. ومحتسِب دِمَشق الفخر محمود بن عبد اللطيف. وأبو الحسن مُرْتَضَى ابن أبي الجُود حاتم بن المسلم الحارثيّ المصريّ في شوّال. وأبو بكر هبة الله بن عمر بن الحسن القَطّان، وكان آخر مَن رَوَى عن أمّه كمال بنت عبد الله بن السَّمَرْقَنْدِيّ، وعن هبة الله الشِّبْلِي، عاش نيفاً وثمانين سنة. وياسمين بنت سالم بن عليّ بن البَيْطَار يومَ عاشوراء.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة العشرون من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

وهي السنة التي مات الكامل المذكور في رجبها، وحكم آبنه العادل في باقيها حسب ما تقدّم [في] وفاة الكامل في ترجمته. وفيها أيضاً توفي الملك الأشرف موسى، ثم بعده أخوه الملك الكامل. وملك دمشق بعد موت الأشرف الملك الجَوَاد بن الأشرف. على ما سيأتي ذكره [في] وفاة الأشرف في هذه السنة.

وفيها اختلفت الخُوَارَزْمِيّة على الملك الصالح أيّوب بن الكامل، وأرادوا

القَبْض عليه فهرب إلى سِنجار، وترك خزائنَه وأثقاله، فنهبوا الجميع. ولمّا قدِم الصالح سِنجار سار إليه بدر الدين لؤلؤ في ذي القعدة وحصره بها، فأرسل إليه الصالح يسأله الصلح؛ فقال: لا بُدّ من حمله في قَفَص إلى بغداد، وكان لؤلؤ[و]المشارقة يكرهونه وينسبونه إلى التكبُّر والظلم؛ فاحتاج الصالح أن يبعث إلى الخُوَارَزْمِيّة، وهم على حَرّان يستنجدهم، فساقوا جَريدة من حَرّان، وكَبَسوا لؤلؤاً، فنجا وحدَه، ونهبوا أمواله وخزائنه وجميعَ ما كان في عسكره.

وفيها تُوفّي الملك الأشرف أبو الفتح مظفر الدين موسى شاه أرمن آبن السلطان الملك العادل أبي بكر آبن الأمير نجم الدين أيّوب، أخو الملك الكامل محمد صاحب الترجمة. وأوّل شيء ملكه الأشرف هذا من القِلاع والبلاد الرُّها في أيّام أبيه، وآخر شيء دمَشق. ومات بها بعد أن مَلَك قِلاع ديار بكر سنين. وقد تقدّم من ذكره نبذةٌ كبيرة في حوادث دولة أخيه الكامل، وفي غزوة دِمْياط وغير ذلك. ومولده سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة بقصر الزمُرّد[١] بالقاهرة قبل أخيه المعظَّم عيسى بليلة واحدة، وكان مولدهما بموضع واحد ـ وقيل: كان بقلعة الكَرَك ـ والأول أشهر. وكان الملك الأشرف مَلِكاً كريماً حليماً واسع الصدر كريم الأخلاق كثير العطايا، لا يوجد في خزائنه شيء من المال مع آتّساع مملكته؛ ولا تزال عليه الديون؛ ونظر يوماً في دواة كاتبه وشاعره كمال الدين[٢] عليّ بن النَّبيه المصريّ فرأى بها قلماً واحداً فأنكر عليه، فأنشد الكمال بديهاً «دوبيت»:

قال الملك الأشرف قولا رَشَدَا أقلامُك يا كمال قلّت عَددا
جاوبتُ لعُظْمِ كَتْبِ ما تُطْلِقُه تَحْفَى فتُقَطّ فهي تَفْنَى أبدا

ولكمال الدين آبن النبيه المذكور فيه غُرَر المدائح معروفة بمخالص قصائده

(١) قصر الزمرّد: كان من جملة قصور الخلفاء الفاطميين داخل سور القصر الكبير. وقد عرف أيضاً بقصر قوصون الحجازية. (خطط المقريزي: ١/٤٠٤). ومحله اليوم جامع الحجازية وما يجاوره من الدور التي تحد من الشمال والغرب بعطفة القفاصين، ومن الجنوب ديوان بوليس قسم الجمالية، ومن الشرق ظهر الدور المشرفة على شارعي حبس الرحبة وبيت المال. (محمد رمزي).

(٢) كان صاحب ديوان رسائل الملك الأشرف. توفي سنة ٦١٩هـ. (فوات الوفيات والشذرات).

في ديوانه، وتُسَمّى الأشرفيّات. وكانت وفاة الأشرف في يوم الخميس رابع المحرّم بدِمَشق، ودُفِن بقلعتها؛ ثم نقل بعد مدّة إلى التربة التي أنشئت له بالكَلاَّسَة في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

وفيها تُوفّي يحيى بن هبة الله بن الحسن القاضي شمس الدين أبو البركات بن سَناَء الدولة؛ كان إماماً فقيهاً فاضِلاً حافظاً للقوانين الشرعيّة؛ ولي القضاء بالبيت المقدّس ثمّ بدمشق، وكان الملك الأشرف موسى يُحِبّه ويُثني عليه. ومات في ذي القعدة.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الأنجب بن أبي السعادات الحَمّامي في شهر ربيع الآخر، وله نيّف وثمانون سنة. وأبو محمد الحسين بن عليّ بن الحسين بن رئيس الرؤساء في رجب. وقاضي حلب زَيْن الدِّين أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عُلْوان الأسدي آبن الأستاذ. وأبو المُنَجّا عبد الله بن عمر بن عليّ بن اللَّتّي القزّاز في جُمادى الأولى، وله تسعون سنة. وأبو طالب عليّ بن عبد الله بن مظفَّر آبن الوزير عليّ بن طَرَّاد الزَّيْنَبِيّ في رمضان. والرَّضِي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجَبّار المَقْدِسِيّ المقرىء. وشيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرزّاق بن عبد الوهّاب بن سُكَيْنة في جُمادى الأولى. والسلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل في رجب بدِمَشق، وله ستون سنة. وأبو بكر محمد بن مسعود بن بِهْرُوز الطبيب في شهر رمضان، وقد نيّف على التسعين، وهو آخر مَن حدّث ببغداد عن أبي الوقت. وشرف الدين محمد بن نصر المَقْدِسِيّ آبن أخي الشيخ أبي البَيَان[1] في رجب. والقاضي شمس الدين أبو نصر محمد بن هِبة الله بن محمد آبن الشِّيرازِيّ في جمُادى الآخرة، وله ستّ وثمانون سنة. وخطيب دِمَشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل الدَّوْلَعِيّ في جُمادى الأولى، ودُفِن بمدرسته[2] بجَيْرُون، وله ثمانون سنة. ونجم الدين مكرَّم بن محمد بن حمزة بن أبي الصَّقْر القُرشِيّ السَّفّار في رجب، وله سبع وثمانون سنة.

---

(١) ذكره في حوادث سنة ٥٥١هـ.

(٢) هي المدرسة الدولعية. (انظر الدارس: ١/١٨٢).

والسلطان الملك الأشرف مظفَّر الدين موسى بن العادل في المحرّم، وله تسع وخمسون سنة. وقاضي القضاة شمس الدين يحيى بن هِبة الله بن سَنَاء الدولة في ذي القعدة، وله ثلاث وثمانون سنة، وهو من تلامذة القُطْب النَّيْسَابُورِيّ. والشهاب يوسف بن إسماعيل الحَلَبِيّ بن الشَّوّاء الشاعر المشهور.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً سواء.

ذكر سلطنة الملك العادل الصغير(١) على مصر

هو السلطان الملك العادل أبو بكر آبن السلطان الملك الكامل محمد آبن السلطان الملك العادل أبـي بكر آبن الأمير نجم الدين أيّوب الأيوبـيّ المصريّ. وسبب تسلطنه وتقدّمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيّوب أنّه لمّا مات أبوه الملك الكامل محمد بقلعة دِمَشق في رجب ـ حسب ما ذكرناه في أواخر ترجمته ـ كان آبنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ وهو الأكبر ـ نائب أبيه الملك الكامل على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان آبنه الملك العادل أبو بكر هذا ـ وهو الأصغر ـ نائب أبيه بديار مصر؛ فلمّا مات الكامل قعد الأمراء يشتورون فيمن يُولّون من أولاده فوقع الاتفاق بعد آختلاف كبير ـ نذكره من قول صاحب المرآة ـ على إقامة العادل هذا في سلطنة مصر والشام، وأن يكون نائبه بدمشق آبن عمّه الملك الجواد يونس، وأن يكون أخوه الملك الصالح نجم الدين أيّوب على ممالك الشرق على حاله، فتم ذلك وتسلطن الملك العادل هذا في أواخر سنة خمس وثلاثين وستمائة، وتمّ أمره ونُعِت بالعادل سيف الدين على لقب جَدّه. ومولد العادل هذا بالمنصورة، ووالده الملك الكامل على قتال الفرنج بدِمْياط في ذي الحجّة سنة سبع عشرة وستمائة.

وقال العلامة شمس الدين يوسف بن قزأُوغْلِي في مرآة الزمان: «ذكر ما جرى بعد وفاة الملك الكامل: اِجتمع الأمراء وفيهم سيف الدين [عليّ](٢) بن قِلِيج،

---

(١) تمييزاً له عن جدّه العادل أبـي بكر بن أيوب. ترجمته وأخباره في: السلوك: ١/٢/٢٦٧، وكنز الدرر: ٧/٣٦٣، والشذرات: ٥/٢٣٦، وشفاء القلوب: ٣٦٥، وابن خلكان: ٥/٨٤، والخطط المقريزية: ٢/٢٣٦، وبدائع الزهور: ١/٢٦٨، ومفرج الكروب: ٣/٣١٤.

(٢) زيادة عن السلوك.

وعزّ الدِّين أَيْبَك، والركن الهَيْجاوي، وعِماد الدين وفخر الدين آبنا الشيخ، وتشاوروا وآنفصلوا على غير شيء؛ وكان الناصر داود (يعني آبن الملك المعظّم عيسى) بدار[1] أَسامة، [فجاءه] الهَيْجاويّ؛ وأرسل إليه عز الدين أَيْبَك يقول: أَخْرِج المال وفرِّقه في مماليك أبيك المعظَّم والعوامُّ معك، وتملّك البلد ويبقوا في القلعة محصورين فما آتّفق ذلك؛ وأصبحوا يوم الجمعة في القلعة فحضر من سمّينا [بالأمس][2]، وذكروا الناصر والجواد ـ قلت: والناصر داود هو آبن المعظم عيسى، والجواد مظفّر الدين يُونُس هو آبن شمس الدين مودود بن العادل (أعني هما أولاد عمّ). اِنتهى ـ .

قال: وكان أضرَّ ما على الناصر عمادُ الدين آبن الشيخ، لأنّه كان يجري في مجالس الكامل مباحثات فيخطئه فيها ويستجهله فبقي في قلبه؛ وكان أخوه فخر الدين يَميل إلى الناصر؛ فأشار عماد الدين بالجواد، ووافقوا أمره، وأرسلوا الهَيْجاويّ في يوم الجمعة إلى الناصر، وهو في دار أسامة، فدخل عليه وقال له: إيش قعودك في بلد القوم؟ قم فآخرج، فقام وركب [وجميع مَن في دِمشق من دار أسامة إلى القلعة][2] وما شكّ أحد أنّ الناصر لمّا ركب من دار أسامة إلّا أنّه طالع إلى القلعة، فلمّا تعدّى مدرسة العِماد الكاتب وخرج من باب الدَّرْب عَرَج إلى باب الفَرَج، فصاحت العامّة لا لا [لا][2]؛ وآنقلبت دمشق وخرج الناصر من باب الفرج إلى القابون[3]، فوقع بهاء الدين بن بركيسو وغلمانه في الناس بالدبابيس، فأنكوْا فيهم فهربوا. وأمّا الجواد فإنّه فتح الخزائن وأخرج المال وفرّق ستة آلاف ألف دينار، وخَلَع خمسة آلاف خِلعة، وأبطل المكوس والخمور، ونفى الخواطىء. وأقام الناصر بالقابون أيّاماً، فعزموا على قبضه، فرحل وبات بقصر أمّ حكيم[4]، وخرج خلفَه أَيْبك الأَشْرفيّ ليمسكه، وعرَف عِماد الدِّين بن مُوسَك فبعث إليه في

---

(١) هي دار الملك المعظم.

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٣) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد إلى العراق وسط البساتين. (معجم البلدان).

(٤) قصر أم حكيم، بمرج الصفر من أرض دمشق.

السرّ، فسار في الليل إلى عَجْلون، ووصل أَيْبك إلى قصر أمّ حكيم، وعاد إلى دِمشق.

وسار الناصر إلى غَزة، فاستولى على الساحل؛ فخرج إليه الجَوَاد في عسكر مصر والشام، وقال للأشرفيّة: كاتبوه وأطمِعُوه فكاتبوه وأطمَعُوه فآغترّ بهم، وساق من غزّة في سبعمائة فارس إلى نابلُس بأثقاله وخزائنه وأمواله، وكانت على سبعمائة جمل، وترك العساكر منقطعة خلفه، وضَرَب دِهليزَه على سَبَسْطية[1]، والجواد على جَيْتَيْن[2] فساقوا عليه وأحاطوا به، فساق في نفر قليل إلى نابُلُس، وأخذوا الجِمال بأحمالها والخزائنَ والجواهر والجنائب وآستغْنوْا غِنى الأبد، وآفتقر هو فقراً ما آفتقره أحد؛ ووقـع عماد الدين بسَفَط صغير فيه آثنتا عشرة قطعة من الجوهر وفصوص ليس لها قيمة؛ فدخل على الجواد فطلبه منه فأعطاه إيّاه. وسار الناصر لا يَلْوِي على شيء إلى الكَرَك. ثم وقـع له أمور نذكر بعضها في حوادث العادل والصالـح وغيرهما». إنتهى.

ولمّا تمّ أمر العادل وتسلطن بمصر وآستقرّ الجواد بدمشق على أنّه نائب العادل، وبلـغ هذا الخبر الملك الصالـح نجم الدين أيّوب عَظُم عليه ذلك، كونه كان هو الأكبر، فقصد الشام بعد أمور وقعت له مـع الخُوَارَزْمِيّة ومـع لؤلؤ صاحب المَوْصِل؛ ثم سار الملك الصالـح بعساكر الشرق حتّى وافى دمشق ودخلها في جُمَادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة، فخرج إليه الملك الجواد وآلتقاه؛ وآتّفق معه على مقايضة دِمَشق بسِنجار وعانة، وسببه [ضِيقُ][3] عَطَن الجواد، [وعجزُه عن القيام بمملكة الشام][3] فإنّه كان يُظهر أنّه نائب العادل بدمشق في مدّة إقامته، ثم خاف الجوَاد أيضاً من العادل، وظَنّ أنّه يأخذ دمشق منه، فخرج الجَوَاد إلى البَرِّيّة وكاتب الملك الصالـح المذكور حتّى حضر، فلمّا حضر آستأنس به وقايضه ودخلا

---

(١) سبسطية: قرية تقـع على بعد ١٥ كلم إلى الشمال الغربـي من مدينة نابلس (الموسوعة الفلسطينية: ٢/٥٣٥).

(٢) جيتين: قرية ببلدة غزة (طبعة دار الكتب من النجوم، حاشية (٢)).

(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

دِمَشق، ومَشَى الجَوَاد بين يدي الصالـح وحَمَلَ الغاشية من تحت القلعة، ثمّ حملها بعده الملك المُظَفَّر صاحب حماة من باب الحديد(١)، ونزل الملك الصالـحُ أيّوب بقلعة دمشق، والجواد في دار فرخشاه؛ ثم ندِم الجواد على مقايضة دمشق بسِنجار، وآستدعى المقدَّمين والجند وآستحلفهم، وجمـع الصالـح أصحابه عنده في القلعة، وأراد الصالـح أن يحرق دار فرخشاه، فدخل آبن جرير(٢) في الوسط وأصلح الحال. ثم خرج الجواد إلى النَّيْرَب، وآجتمـع الخَلْق عند باب النصر(٣) يدعون عليه ويَسبُّونه في وجهه، وكان قد أساء السِّيرة في أهل دِمشق. ثم خرج الصالـح من دمشق وتوجّه إلى خَرِبَة اللّصوص على عزم الديار المصريّة، فكاتب عمّه صاحب بعلبكّ الملك الصالـح إسماعيل بن العادل، وسار الملك الصالـح نجم الدين إلى نابُلُس فآستولى عليها وعلى بلاد الناصر داود؛ فتوجّه الناصر داود إلى مصر داخلاً في طاعة الملك العادل، فأكرمه العادل وأقام الصالـح بنابُلُس ينتظر مجيءَ عمّه الصالـح إسماعيل، فلم يلتفت الملك الصالـح إسماعيل إلى آبن أخيه الصالـح نجم الدين أيّوب هذا؛ وتوجّه نحو دمشق وهجم عليها ومعه أسد الدين شِيرِكُوه صاحب حِمْص فدخلوها يوم الثلاثاء سابـع عشرين صفر من سنة سبـع وثلاثين؛ كلّ ذلك والصالـح نجم الدين مقيم بنابُلُس؛ وآتّفق الملك الصالـح إسماعيل صاحب بعلبكّ، وأسد الدين شِيرِكُوه صاحب حِمْص على أن تكون البلاد بينهما مناصفة.

ونزل الصالـحُ إسماعيل في دمشق بداره بدرب الشعّارين، ونزل صاحب حِمص بداره أيضاً، وأصبحوا يوم الأربعاء فزحفوا على القلعة ونقبوها من ناحية باب الفرج، وهتكوا حُرمتها ودخلوها، وبها الملك المغيث عمر بن الملك الصالـح أيّوب، فاعتقله الصالـح إسماعيل في بُرْج، وآستولى على جميـع ما في القلعة.

وبلـغ الملكَ الصالـحَ نجم الدين أيّوب ما جرى، وقيل له في العود إلى دمشق، فخلـع الصالـحُ أيّوب على عميه مُجير الدين وتقيّ الدين وعلى غيرهم،

---

(١) هو باب قلعة دمشق.

(٢) كان وزير الأشرف ثم الصالح إسماعيل. توفي سنة ٦٣٦هـ.

(٣) من أبواب دمشق، بين باب الجابية والفراديس.

وأعطاهم الأموال وقال لهم: ما الرأي؟ قالوا: نسوق إلى دمشق قبل أن تُؤخذ القلعة. فخرجوا من نابُلس فنزلوا القصَيْر فبلغهم أخذُ القلعة، فنفر بنو أيّوب بأسرهم وخافوا على أولادهم وأهليهم بدمشق، وكان الفساد قد لَعِب فيهم، فتركوا الصالحَ أيّوب وتوجّهوا إلى دمشق؛ وبَقِي الصالح في مماليكه وغِلْمانه لا غير، ومعه جاريته شجرة الدُّرّ أمّ خليل؛ فرحل من القُصَيْر يريد نابلُس فطمع فيه أهل الغَوْر والقبائل، وكان مقدّمهم شيخاً جاهلاً يقال له مسبل من أهل بَيْسَان قد سَفكَ الدماء، فتقاتل عسكر الصالح معه حتّى كسروه.

ثم آتّفق بعد ذلك الملك الناصر داود من مصر بغير رضاً من الملك العادل صاحب مصر ووصل إلى الكَرَك؛ وكتب الوزيريّ إلى الناصر يُخبره الخبر، فلمّا بلغ الناصرَ ذلك أرسل عماد الدين بن مُوسَك والظَّهير بن سُنْقُر الحَلَبـيّ في ثلاثمائة فارس إلى نابُلس. فركب الصالح أيّوب وآلتقاهم فخدموه وسلّموا عليه بالسلطنة، وقالوا له: طَيِّبْ قلبك، إلى بيتك جئتَ، فقال الصالح: لا ينظر آبن عمّي فيما فعلت، فلا زال الملوك على هذا؛ وقد جئتُ إليه أستجير به، فقالوا: قد أجارك وما عليك بأس؛ وأقاموا عنده أيّاماً حول الدار. فلمّا كان في بعض الليالي ضربوا بوقَ النَّفِير وقالوا: جاءت الفرنج، فركب الناس ومماليك الصالح ووصلوا سَبَسْطِيَة، وجاء عماد الدين والظهير بالعسكر إلى الدار، وقالوا للصالح: تطلع إلى الكَرَك، فإنّ آبن عمّك له بك آجتماع، وأخذ سيفَه. وكانت شجرة الدُّرّ حاملاً فسقطت، وأخذوه وتوجّهوا به إلى الكَرَك. وآستفحل أمر أخيه الملك العادل صاحب مصر بالقبْض على الصالح هذا، وأَخَذَ وأعطى وأمر ونَهَى، فتغيّر عليه بعضُ أمراء مصر، ولكن ما أمكنهم يومئذ إلّا السُّكات.

وأمّا الصالح، قال أبو المظفَّر: ولمّا آجتمعت به (يعني الصالح) في سنة تسع وثلاثين وستمائة بالقاهرة حَكَى لي صورةَ الحال قال: أركبوني بغلةً بغير مِهْمَاز ولا مِقْرعة، وساروا إلى البرّية في ثلاثة أيام، والله ما كلّمتُ أحداً منهم كلمةً، ولا أكلتُ لهم طعاماً حتى جاءني خطيب المُوتَة[1] ومعه بُرْدَةٌ عليها دَجاجة، فأكلت

(١) الموتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وهي على مرحلة من الكرك. (معجم البلدان).

منها وأقاموا بـي في الموتة يومين وما أعلم إيش كان المقصود، فإذا بهم يريدون [أن] يأخذوا طالعاً خبيثاً يقتضي ألاّ أخرج من حبس الكَرَك، ثم أدخلوني إلى الكرك ليلاً على الطالـع الذي كان سبب سعادتي ونحوسهم.

قلت: وأنا ممنَ يُنكِر على أرباب التقاويم أفعالهم وأقوالهم لأنّي من عمري أصحب أعيانهم فلم أرَ لما يقولونه صحّة، بل الكذب الصريـح المحض. ويعجبني قول الإمام الرَّبانيّ عبد المؤمن بن هبة الله الجرجانِي في كتابه «أطباق الذهب» الذي يشتمل على مائة مقالة [وآثنتين]، والذي أعجبني من ذلك هي المقالة الثالثة والعشرون، وهي ممّا نحن فيه من علم الفلك والنجوم، قال: « أهلُ التسبيـح والتقديس، لا يؤمنون بالتربيـع والتسديس؛ والإنسان بعد علّو النفس، يَجِلّ عن ملاحظة السعد والنحس؛ وإنّ في الدين القويم، آستغناء عن الزيـج والتقويم؛ والإيمان بالكهانة، باب من أبواب المهانة؛ فأعرض عن الفلاسفة، وغضّ بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة، فأكثرهم عَبَدة الطبـع، وحَـرَسة الكـواكب السبـع؛ ما للمنجم الغبـيّ، والعلم الغَيْبِـيّ، [وما للكاهن الأجنبـيّ][1]، وسرّ حُجب عن النبـيّ؛ وهل ينخدع بالفال، إلاّ قلوب الأطفال؛ وإنّ آمرأ جَهِل حال قومه، وما الذي يجري عليه في يومه، كيف يعرف علم الغد وبعده، ونحس الفلك وسعده! وإنّ قوماً يأكلون من قُرْصة الشمس لمهزولون، وإنهم عن السمـع لمعزولون؛ ما السموات إلاّ مجاهلُ خالية، والكواكب صُوَاها، والنجوم إلاّ هياكل عالية، ومن الله قُواها؛ سبعة سيّرة نيّرة، خمسة منها متحيّرة، شرّارة وخيّرة طباعها متغايرة؛ كلّ يسري لأمرٍ مُعَمّى، وكلّ يجري لأجل مسمّى!» اِنتهت المقالة بتمامها وكمالها. وقد خرجنا بذكرها عن المقصود، ولنرجـع إلى ما نحن فيه من ترجمة العادل وأخبار أخيه الصالـح.

قال: ووكّلوا بـي مملوكاً لهم، يقال له: زُرَيْق؛ وكان أضرّ عليّ من كلّ ما جرى، فأقمتُ عندهم إلى شهر رمضان سبعة أشهر؛ ولقد كان عندي خادمٌ صغير فآتفق أن أكَل ليلةً كثيراً فآتّخم وبال على البساط، فأخذتُ البساط بيدي والخادمَ،

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن أطباق الذهب المذكور.

وقمتُ من الإيوان إلى قرب الدِّهْليز، وفي الدهليز ثمانون رجلًا يحفظونني، وقلت: يا مقدّمون، هذا الخادم قد أتلف هذا البساط، فآذهبوا به إلى الوادي وآغسلوه فنَفَر فيّ زُرَيق، وقال: إيش جاء بك إلى ها هنا! وصاحوا عليّ فعدت إلى موضعي. اِنتهى.

قلت: وأمّا مماليكه وخزائنه فإنّ الوزيريّ توجّه بهم إلى قلعة الصَّلْت. وأقام مماليكه بنابُلُس، وآستمرّ الحال على ذلك إلى أن بلغ الملكَ العادلَ صاحبَ الترجمة ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح ودُقَّت الكوسات وزُيِّنت القاهرة؛ ثم أرسل الملك العادل المذكور العَلاءَ بن النَّابُلُسِيّ إلى الملك الناصر داود صاحب الكَرَك، يطلب الملكَ الصالح نجمَ الدين المذكور منه، ويُعطيه مائة ألف دينار فما أجاب[1]. ثم كاتبه الملك الصالح صاحبُ بعلبك، وصاحبُ حِمْص أسد الدين شِيركوه في إرساله إلى الملك العادل إلى مصر؛ كلُّ ذلك والعادل في قَلَق من جهة الصالح، فلم يلتفت الملك الناصر داود لكلامهم؛ وأقام الصالح مدّةً في الحبس حتّى أشار عِماد الدين وآبن قِلِيج والظَّهير على الملك الناصر بالاتّفاق مع الصالح نجم الدين أيّوب وإخراجه، فأخرجه الناصر وتحالفا وآتّفقا، وذلك في آخر شهر رمضان، وكان تحليفُ الناصر داود للصالح أيّوب على شيء ما يقوم به أحد من الملوك، وهو أنّه يأخذ له دمَشق وحِمْص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب وغيرها، فحَلَف الصالح على هذا كلّه وهو تحت القهر والسيف.

ولمّا علم الملك العادل صاحب الترجمة بخلاص أخيه الصالح آتّفق مع عمّه الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبكّ الذي ملك دمشق؛ فسار الملك العادل من مصر والملك الصالح من دمشق ومعه أسد الدين صاحب حِمْص، ثم عزموا على قصد الناصر والصالح؛ فأوّل من بَرزَ لهم الملك العادل صاحب الترجمة بعساكر مصر، وخرج وسار حتى وصل إلى بلبيس؛ وكان قد أساء السِّيرة في أمرائه وحواشيه، فوقع الخُلْف بينهم وتزايد الأمر حتى قبضوا عليه، وأرسلوا إلى الصالح

(١) في الأصل: «فأجاب». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

نجم الدين أيّوب يعرِّفونه ويسألونه الإسراع في المجيء إلى الديار المصريّة. فسار ومعه الملك الناصر داود صاحب الكَرَك وجماعة من أمرائه آبن مُوسَك وغيره، فكان وصول الصالح إلى بلبيس في يوم الأحد رابع عشرين ذي القعدة، فنزل في خَيْمة العادل، والعادل معتقل في خركاه.

قال أبو المظفر: حكى لي الصالح واقعات جرت له في مسيره إلى مصر [منها] أنّه قال: ما قصدت بمجيء الناصر معي إلّا خوفاً أن تكون معمولة عليّ، ومنذ فارَقْنَا غَزّة تغيّر عليّ، ولا شكّ أنّ بعض أعدائي أطمعه في المُلك، فذكر لي جماعة من مماليكي أنّه تحدّث معهم في قتلي. قال: ومنها أنّه لما أخرجني (يعني الناصر) ندم وعزم على حبسي، فرميت روحي على آبن قِلِيج، فقال: ما كان قصده إلّا أن يتوجّه إلى دمشق أوّلاً فإذا أخذنا دمشق عُدنا إلى مصر. قال: ومنها أنّه ليلة وصل إلى بلبيس شرِب وشطح إلى العادل، فخرج له من الخركاه فقبّل الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيتَ ما أشرتُ عليك ولم تقبل مني! فقال: يا خوند، التوبة، فقال: طيِّب قلبك، الساعة أطلِقك؛ وجاء فدخل علينا الخيمة ووقف، فقلت: باسم الله آجلس، فقال: ما أجلس حتى تُطلِق العادل، فقلت: أُقعد، وهو يكرّر الحديث؛ ثم سكت ونام فما صدّقت بنومه وقمت في باقي اللّيل، فأخذت العادل في محَفة ورحلتُ به إلى القاهرة. ولمّا دخلنا القاهرة بعثتُ إليه بعشرين ألفَ دينار، فعادت إليّ مع غلماني، وغضب وأراد نصف ما في خزائن مصر.

قلت: وآستولى الصالح على مُلك مصر وقبض على أخيه العادل صاحب الترجمة في يوم الاثنين خامس عشرين ذي الحجّة وحبسه عنده بالقلعة سنين.

قال سعد الدين مسعود بن حَمّويه: وفي خامس شوّال سنة ستّ وأربعين وستمائة جهّز الصالح أخاه أبا بكر العادل ونفاه إلى الشُّوبَك، وبعث إليه الخادم محسناً يُكلِّمه في السفر، فدخل عليه المحسن وقال له: السلطان يقول لك: لا بُدّ من رَوَاحك إلى الشُّوبَك، فقال: إن أردتم أن تقتلوني في الشوبك فها هنا أولى ولا أروح أبداً، فعذله محسنٌ، فرماه بدواة كانت عنده، فخرج وعرّف الصالحَ أيّوب بقوله، فقال: دَبِّرْ أمره، فأخذ المحسن ثلاث مماليك ودخلوا عليه ليلة الاثنين ثاني

عشر شوّال فخَنَقوُه بشاش وعلّقوه به، وأظهروا أنه شَنق نفسه وأخرجوا جنازته مثل بعض الغُرَباء، ولم يتجاسر أحد أن يترحّم عليه أو يبكي حول نَعْشه وعاش بعده الملك الصالح عشرةَ أشهر رأى في نفسه العِبرَ من مرض تمادىَ به وما نفعه الاحتراز كما سيأتي ذكره في ترجمته، إن شاء الله تعالى. وزاد آبنُ خَلّكان في وفاته بأن قال: ودُفِن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر ـ رحمه الله تعالى ـ. وكان للعادل المذكور ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيمٌ بالقلعة فلا زال بها إلى أن وصل آبنُ عمّه الملك المعظم تُوران شاه بعد موت أبيه الصالح نجم الدين إلى المنصورة، وسيّر المغيثَ المذكور من هناك ونقله إلى الشوبك؛ فلمّا جرت الكائنة على المعظّم ملك المغيثُ الكَرَك وتلك النواحي. قلت: وكانت ولاية الملك العادل على مصر سنة واحدة ونحو شهرين وأيّاماً مع ما وقع له فيها من الفتن والأنكاد، ولم يُعرف حاله فيها لِصغرَ سنه وقِصَر مدّته ـ رحمه الله تعالى ـ والعادل هذا يُعرف بالعادل الصغير، والعادل الكبير هو جدّه.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل الصغير أبي بكر آبن الملك الكامل محمد على مصر

وهي سنة ست وثلاثين وستمائة.

على أنّه ولي السلطنة في شهر رجب منها.

فيها تُوفّي محمود بن أحمد الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين الحَصِيريّ الحنفيّ؛ أصله من بُخارى من قرية يقال لها حَصِير[1]، وتفقّه في بلده وسمِع الحديث وبَرعَ في علوم كثيرة، وقدِم الشام ودرّس بالنوريّة؛ وآنتهت إليه رياسة الحنفيّة في زمانه؛ وصنّف الكتب الحِسان، وشرح «الجامع الكبير»[2]، وقرأ عليه

(١) لم نجد في معاجم البلدان قرية ببخارى بهذا الاسم. ولعل الصواب ما جاء في عقد الجمان: «والحصيري نسبة إلى محلة ببخارى يعمل بها الحصير».

(٢) راجع ص ٢٦٧، حاشية (٢).

الملكُ المعظّم عيسى الجامع الكبير وغيَره. وكان كثير الصدقات غزيرَ الدَّمْعَة، عاقلاً دَيِّناً نَزْهاً عفيفاً وَقُوراً؛ وكان المعظّم يحترمه ويُجِلّه. وكانت وفاته في يوم الأحد ثامن صفر، ودفِن بمقابر الصوفيّة عند المُنَيْبِع، ومات وله تسعون سنة.

وفيها تُوفّي عِماد الدين عمر آبن شيخ الشيوخ محمد المنعوت بالصاحب، وهو الذي كان السبب في عطاء دِمَشق الجواد، فلمّا مضى إلى مصر لاَمَهُ العادل على ذلك وتهدّده، فقال: أنا أَمْضِي إلى دمشق، وأنزِل بالقلعة وأبعَث بالجواد إليك، وإن آمتنع قُمْنا عليه؛ فسار إلى دِمَشق فوصلها قبل مجيء الملك الصالح نجم الدين أيّوب، ونزل بقلعة دمشق وأمر ونهى، وقال: أنا نائب العادل، وأمر الجوادَ بالمسير إلى مصر. وكان أسدُ الدين صاحب حِمص بدمشق، فآتفق مع الجواد على قتل عمادالدين، فآستدعى صاحبُ حِمْص بعضَ نصارى قارة[1] وأمره بقتله، فركب آبن الشيخ يوماً من القلعة بعد العصر فوثب عليه النَّصْرَانيّ وضربه بالسكاكين حتّى قتله؛ وذلك في جُمادى الأولى. ودخل الصالح أيّوب دمشق فحبس النَّصرَانِيّ أياماً ثم أطلقه، ومات عماد الدين وله ستّ وخمسون سنة.

وفيها تُوفّي الحافظ زكيّ الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف البِرزَالِيّ الإشْبِيليّ بحَمَاة في رابع عشرين شهر رمضان ودُفِن بها، وكان إماماً فقيهاً محدّثاً فاضلاً ديِّناً ـ رحمه الله ـ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو العباس أحمد بن عليّ القَسطلانيّ المالكيّ بمكّة. وصاحب مارِدِين ناصر الدين أُرْتُق الأُرْتُقِيّ. وأبو المعالي أسعد بن المسلم بن مَكّيّ بن عَلّان القَيْسِيّ في رجب، وله ست وتسعون سنة. والمحدِّث بدر[2] بن أبي المعمّر التِّبْرِيزيّ في جُمادى الأولى. وأبو الفضل جعفر بن عليّ بن هبة الله الهَمَذَانِيّ المالكيّ المقرىء في صفر، وله تسعون سنة. والعلاّمة جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المجيد بن

---

(١) قارة: قرية كبيرة على قارعة الطريق. وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق. وأهلها كلهم نصارى. (معجم البلدان).

(٢) في الشذرات: «بدل».

إسماعيل بن حَفْص الصفراوي المالكي مفتي الإسكندرية ومقرئها في شهر ربيع الآخر وله آثنتان وتسعون سنة. والشيخ عثمان القَصِير الزاهد. وشيخ نصيبين عسكر بن عبد الرحيم بن عسكر عن نيِّف وسبعين سنة. والصاحب عماد الدين عمر آبن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر الجُوَيْنِيّ قتيلًا بقلعة دمشق. وأبو الفضل محمد بن محمد بن الحسين[1] بن السبَّاك في شهر ربيع الآخر. والحافظ زكيّ الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن البِرْزَالِيّ الإشبيليّ بحَمَاة في رمضان، وله ستون سنة. والعلّامة جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السيد البُخَارِيّ الحَصِيريّ شيخ الحنفية بدمشق في صفر، وله تسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك العادل الصغير آبن الملك الكامل على مصر

وهي سنة سبع وثلاثين وستمائة.

فيها خُلِع الملك العادل المذكور من مُلك مصر بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيّوب حسب ما تقدّم ذكره.

وفيها هَجَم الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبكّ على دِمشق، ومعه أسد الدين شِيرِكُوه صاحب حمص ومَلَكها في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر.

وفيها تُوفّي الملك ناصر الدين أُرْتُق[2] صاحب مارِدين الأُرْتُقِي؛ كان الملك المعظّم عيسى بن العادل تزوّج أخته، وهي التي بنت المدرسة[3] والتربة عند الجسر

(١) في الشذرات: «الحسن».

(٢) هو الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن إيل غازي بن أرتق بن أرسلان بن إيل غازي بن ألبي.

(٣) هي المدرسة الماردانية، على حافة نهر ثورا لصيق الجسر الأبيض بالصالحية. وقد بنتها عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين، زوجة الملك المعظم عيسى. بنتها سنة ٦١٠هـ. (الدارس: ١/٤٥٤).

الأبيض بقاسِيون، ولم تُدفن فيها لأنّها نُقِلت بعد موت زوجها المعظم إلى عند أبيها بمارِدين فماتت هناك. وكان ناصر الدين المذكور شيخاً شجاعاً شهماً جواداً، ما قصده أحد وخيّبه. قتله ولده[١] بمارِدين خَنْقاً وهو سكران.

وفيها تُوفّي الملك المجاهد أسد الدين شِيرِكُوه بن محمد بن أسد الدين شِيرِكُوه ابن شادي الأيّوبي صاحب حِمْص؛ أعطاه آبنُ عمّ أبيه السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيّوب حِمْص بعد وفاة أبيه محمد بن شِيركوه في سنة إحدى وثمانين [وخمسمائة]، فأقام بها إلى هذه السنة، وحفظ المسلمين من الفرنج والعرب (؟)، ومات بحِمص في يوم الثلاثاء العشرين من شهر رجب ودُفِن بها.

وفيها تُوفّي يعقوب الخياط. كان يسكن مَغَارةَ الجوع بقاسِيون. وكان شيخاً صالحاً. لَقِي المشايخَ وعاصر الرجال ومات بقاسِيون ـ رحمه الله تعالى ـ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوَيِّيّ[٢] في شعبان، وله أربع وخمسون سنة. وأبو البقاء إسماعيل بن محمد بن يحيى المؤدِّب راوي مسند إسحاق، في المحرّم. والصدر علاء الدين أبو سعد ثابت بن محمد الخجَنْدِيّ بشِيراز، وله تسع وثمانون سنة. وأمين الدين سالم آبن الحافظ آبن صَصُرَّى في جُمادى الآخرة، وله ستون سنة. وصاحب حِمْص الملك المجاهد أسد الدين شِيرِكوه بن شادي في رجب، وكانت دولته ستاً وخمسين سنة. والقاضي أبو بكر عبد المجيد[٣] بن عبد الرشيد بن عليّ بن سَمّان الهَمَذانِيّ سِبط الحافظ أبي العَلاَء[٤] في شوّال عن ثلاث وسبعين سنة. وأبو القاسم عبد الرحيم بن يوسف بن هبة الله بن الطُّفَيْل في ذي الحجّة.

---

(١) ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة أن الذي قتله هو هولاكو؛ وروى الحادثة. (انظر الأعلاق الخطيرة: ٣/٥٧٠).

(٢) في الأصل: «الحصولي». والتصحيح عن الأعلام. والنسبة إلى خويّ بأذربيجان.

(٣) أشار محقق طبعة دار الكتب المصرية من النجوم الزاهرة أن الذهبي أورد اسمه في مجلد من تاريخه، محفوظ بدار الكتب : «محمد بن عبد الرشيد بن علي بن نبيهان أبو أحمد الهمذاني».

(٤) هو أبو العلاء الهمذاني العطار. انظر وفيات سنة ٥٦٩هـ.

وإمام الرَّبْوَة(١) عبد العزيز بن دُلَف المقرىء الناسخ في صفر. وأبو الحسن عليّ بن أحمد الأندلسيّ الحَرّانِيّ الصوفيّ المفسِّر بحَماة. وشمس الدين محمد بن الحسن بن محمد ابن عبد الكريم الكاتب بدِمَشق في رجب. والحافظ أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى في شهر ربيع الآخر، وله تسع وسبعون سنة. وتقي الدين محمد بن طَرْخان السلميّ الصالحيّ في المحرّم، وله ستّ وسبعون سنة. وأبو طالب محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن [بن أحمد بن عليّ](٢) بن صابر السلميّ الزاهد في المحرّم. والمحتسِب رشيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن الهادي التِّنّسِيّ في جُمادى الآخرة، وله ثمانٍ وثمانون سنة. والصاحب شرف الدِّين أبو البركات(٣) المبارك بن أحمد المُسْتَوفِيّ بالمَوْصِل في المحرّم. والصاحب ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم [بن عبد الواحد المعروف بآ](٤) بن الأثير الشَّيْبَانِيّ الجَزَرِيّ الكاتب مؤلّف كتاب «المثل السائر» في شهر ربيع الآخر، وله نحو من ثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وثماني أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصبعاً.

---

(١) أي ربوة دمشق.

(٢) زيادة عن الشذرات.

(٣) في الأصل: «أبو البركات نصر الله بن المبارك» وما أثبتناه عن ابن خلكان والشذرات.

(٤) زيادة عن ابن خلكان.

ذكر سلطنة الملك الصالـح نجم الدين أيّوب[1] على مصر

هو السلطان الملك الصالـح نجم الدين أيّوب آبن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد آبن السلطان الملك العـادل سيف الدين أبـي بكـر آبن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادي الأيوبـي سلطان الديار المصريّة. وقد تقدّم أنّ الملك الصالـح هذا ولي الشرق وديـار بكر في أيّام والده الملك الكامل سنين، وذكرنا أيضاً ما وقـع له بعد موت الكامل مـع أخيه العادل، ومـع آبن عمّه الملك الناصر داود وغيرهما في ترجمة أخيه العادل مفصّلاً إلى أن ملك الديار المصريّة في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي الحجّة سنة سبـع وثلاثين وستمائة. ومولده بالقاهرة في سنة ثلاث وستّمائة وبها نشأ، وآستخلفه أبوه على مصر لمّا توجه إلى الشرق فأقام الصالـح هذا بمصر مـع صواب الخادم لا أمرَ له ولا نهَي إلى أن عاد أبوه الكامل إلى الديار المصريّة، وأعطاه حِصْن كَيْفَا فتوجّه إليها، ووقـع له بها أمور ووقائـع مـع ملوك الشرق بتلك البلاد في حياة والده حتّى مات أبوه، ووقـع له ما حَكَيْناه إلى أن ملك مصر؛ ولمّا تمّ أمره بمصر أصلـح أمورها ومهّد قواعدها.

قلت: والملك الصالـح هذا هو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمَّرَهم بديار مصر، وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

الصالـح المُرْتَضَى أيّوبُ أكثرَ مِن ... تُـرْكٍ بـدولتـه يـا شـرَّ مجلوبِ
لا آخـذ الله أيّـوبـاً بـفَـعْـلَتِـه ... فـالناس كلُّهُمُ[2] في ضُرِّ أيّوبِ

(١) أخباره وترجمته في: السلوك: ٢٩٦/٢/١، وذيل الروضتين: ١٨٣، وخطط المقريزي: ٢٣٦/٢، وبدائـع الزهور: ٢٦٩/١، والشذرات: ٢٣٧/٥، وشفاء القلوب: ٣٦٧.

(٢) في بدائـع الزهور: «فالناس قد أصبحوا في صبر أيوب».

وقال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبيّ في تاريخه ــ بعد أن ذكر من مبدأ أمره نُبْذَةً إلى أن قال ــ : « ثم مَلَك مصر بلا كُلْفة وآعتقل أخاه، ثم جهزّ مَن أوهم الناصر بأنّ الصالح في نيّة القَبْض عليه، فخاف وغَضِب فأسرع إلى الكَرَك. ثم تحقّق الصالح [فساد][1] نِيّات الأشرفيّة، وأنّهم يريدون الوثوب عليه؛ فأخذ في تفريقهم والقبض عليهم، فبعث مقدّم الأشرفيّة وكبيرهم أَيْبك الأشقر[2] نائباً على جهة، ثم سير مَن قبض عليه، ثم مسكهم عن بَكرة أبيهم وسجنهم؛ وأقبل على شراء المماليك الترك والخطائيّة، وآستخدم الأجناد؛ ثم قبض على أكبر الخدّام: شمس الدِّين الخاصّ وجَوهر النُّوبيّ وعلى جماعة من الأمراء الكامِليّة وسجنهم بقلعة صَدْر بالقرب من أيْلةَ؛ وأخرج فخرَ الدين آبن الشيخ من سجن العادل فركب رَكْبَةً عظيمة، ودعت له الرعيّة لكرمه وحسن سيرته، فلم يعجب الصالح ذلك وتخيّل، فأمره بلزوم بيته: وآستوزر أخاه معين الدين. ثم شرع يُؤمِّر غِلْمانَه (يعني مماليكه) فأكثر من ذلك، وأخذ في بناء قلعة الجزيرة[3] وآتّخذها سكَناً، وأنفق عليها أموالاً عظيمة، وكانت الجزيرة قبلاً متنزهاً لوالده، فشيّدها في ثلاثة أعوام وتحوّل إليها. وأمّا الناصر داود فإنّه آتّفق مع عمّه الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص فآتّفقوا على الصالح [أيوب].

---

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) في الذهبي: «الأسمر». وفي السلوك: «الأمير عز الدين أيبك الأسمر؛ وكان يميل إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق. وكانت المماليك الكاملية تميل إلى الصالح نجم الدين، وهم الأكثر».

(٣) أي قلعة جزيرة الروضة. (انظر خطط المقريزي: ١٨٣/٢) قال الاستاذ محمد رمزي: «وقد درست هذه القلعة بما كان فيها ولم يبق لها أثر اليوم. ومن جملة بحوث تبين أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فداناً واقعة في الجزء الجنوبي من جزيرة الروضة. ومكانها المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع الملك المظفر، ومن الغرب بنهر النيل، ومن الجنوب بسلاملك سراي حسن باشا فؤاد المناسترلي وبمقياس النيل، ومن الشرق بسيالة جزيرة الروضة». قال ابن إياس (بدائع الزهور: ٢٦٩/١): ولما زاد أمر مماليك الصالح في أذى الناس، شرع في بناء قلعة الروضة وأسكنهم بها، وسماهم المماليك البحرية. وكانت عدتهم ألف مملوك قاطنين بهذه القلعة، لا يخالطون الناس بالمدينة، وأجرى عليهم ما يكفيهم من اللحوم والجراية والجوامك. وجعل حول هذه القلعة مراكب حربية مشحونة بالسلاح، واقفة عند الصناعة، مكملة من جميع الآلات، لا تبرح عن ذلك المكان، برسم ما يطرق من الأخبار عن الفرنج».

وأما الخُوَارَزْمِيّة فإنّهم تغلّبوا على عِدّة قِلاع وعاثوا وخرّبوا البلاد، وكانوا شرّاً من التّتَار، لا يعفون عن قتل ولا [عن] سَبْـي ولا في قلوبهم رحمة.

وفي سنة إحدى وأربعين وقـع الصلـح بين الصالحـيْن[١] و[المنصـور] صاحـب حِمْص، على أن تكون دمشق للصالـح إسماعيـل؛ وأن يُقيم هو[٢] والحلبيّون والحِمْصِيّون الخطبةَ في بلادهم لصاحب مصر، وأن يخرج [ولدُ الملك الصالح أيوب][٣] الملك المغيث من آعتقال الملك الصالح إسماعيل ـ والملك المغيث هو آبن الملك الصالـح نجم الدين، كان مُعْتَقلاً قبل سلطنته في واقعة جرت. قلت: (يعني أنّ الصالـح قَبَض عليه لمّا مَلك دِمَشق بعد خروج الصالـح من دِمَشق قاصداً الديار المصريّة قبل أن يقبِض عليه الناصر داود) وقد ذكرنا ذلك كلّه في ترجمة العادل مفصلاً. قلت وكـذلك أطلق أصحـاب الصالـح، مثـلَ حُسام الـدين بـن أبـي عليّ[٤]، ومجير الدين بن أبـي ذكرى، فأطلقهم الملك الصالـح إسماعيل ـ. وركب الملك المغيث وبقي يسير ويرجـع إلى القلعة، وردّ على حُسام الدين ما أخذ منه. ثم ساروا إلى مصر، وآتّفق الملوك على عداوة[٥] الناصر داود وجهّز الصالـح إسماعيل عسكراً يحاصرون عَجْلُون وهي للناصر، وخطَب لصاحب مصر في بلاده، [وبقي عنده المغيثُ حتّى تأتيه نُسَخُ الأَيْمان، ثم بَطَل ذلك كلّه][٦].

وقال آبن واصل: فحدثني جلال الدين الخِلاَطِيّ قال:

كنتُ رسولاً من جهة الصالـح إسماعيل، فورد عليّ منه كتابٌ وفي طيِّه كتابٌ من الصالـح نجم الدين إلى الخُوَارَزْمِيّة يحثّهم على الحركة ويعلمهم أنّه إنّما صالـح عمّه الصالـح ليُخلِّص آبنه المغيثَ من يده، وأنّه باقٍ على عداوته، ولا بدّ له

---

(١) هما الصالـح نجم الدين أيوب صاحب مصر، وعمه الصالـح إسماعيل صاحب دمشق.

(٢) أي الصالـح إسماعيل.

(٣) في الأصل: «وأن يخرج ولده الملك المغيث. . . إلـخ». وما أثبتناه عن السلوك وشفاء القلوب للتوضيـح.

(٤) حسام الدين أبو علي بن محمد بن أبي علي بن باشاك الهذباني، المعروف بابن أبـي علي. (السلوك).

(٥) اتفقوا على أن ينتزع الصالـح إسماعيل الكرك من الناصر داود.

(٦) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي. وسبب بطلان ذلك الاتفاق يفسّره ما سيأتي من رواية ابن واصل.

من أخذ دمشق منه، فمضيتُ بهذا الكتاب إلى الصاحب مُعين [الدين](١) فأوقفتُه عليه، فما أبدى عنه عُذْراً يسوغ. ورَدّ الصالحُ إسماعيلُ المغيثُ بن الصالح نجم الدين إلى الاعتقال، وقطع الخطبةَ ورَدّ عسكرَه عن عَجْلُون وأرسل إلى الناصر داود وآتّفق معه على عداوة صاحب مصر؛ وكذلك رجع صاحب حلب وصاحب حِمص عنه، وصاروا كلمةً واحدةً عليه، وآعْتُقِلت رسلُهم بمصر؛ وآعتضد صاحبُ دمشق بالفرنج، وسلّم إليهم القُدْسَ وطَبَرِيّة وعَسْقلان. وتجهّز صاحب [مصر](١) الملك الصالح هذا لقتالهم، وجهّز البعوثَ وجاءته الخُوارَزْمِيّة فساقوا إلى غَزّة وآجتمعوا بالمصريّين، وعليهم ركن الدين بيبرس البُنْدُقْدَارِيّ الصالحيّ. قلت: وبيبرس هذا هو غير بيبرس البُنْدُقْدَارِيّ الظاهريّ، وإنّما هذا أيضاً على آسمه وشهرته، وهذا أكبر من الظاهر بيبرس [وأقدم](١)، وقبض(٢) عليه الملك الصالح بعد ذلك وأعدمه. اِنتهى.

قال آبن واصل: وتسلّم الفرنج حرم القدس وغيره، وعمّروا قلعتي طَبَرِيّة وعَسْقلان وحصّنوهما، ووعدهم الصالح إسماعيل بأنّه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فتجمعوا وحشدوا وسارت عساكرُ الشام إلى غَزة، ومضى المنصور صاحب حِمْص بنفسه إلى عَكّا وطلبَها فأجابوه. قال: وسافرتُ أنا إلى مصر ودخلتُ القُدْسَ، فرأيت الرُّهْبانَ على الصخرة وعليها قَنَانِي الخمر، ورأيت الجَرَسَ في المسجد الأقصى، وأُبْطِل الأذان بالحرم وأعلن الكفر. وقَدِم ـ وأنا بالمقدس ـ الناصر داود إلى القدس فنزل بغربيّه.

وفيها(٣) وَلّى الصالحُ نجمُ الدين قضاءَ مصر للأفضل(٤) بعد أن عزَل آبنُ عبد السلام(٥) نفسَه بمُدَيْدَة.

---

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) عبارة الأصل: «وقتله الملك الصالح بعد ذلك وأعدمه». وما أثبتناه عن الذهبي.

(٣) أي سنة ٦٤١هـ.

(٤) هو الأفضل الخَوْنجي، محمد بن ناماور بن عبد الملك الخونجي، أبو عبد الله، أفضل الدين. توفي سنة ٦٤٦هـ. (الأعلام: ١٢٢/٧).

(٥) هو عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. وسيذكره المؤلف في وفيات سنة ٦٦٠هـ. وفي السلوك

ولمّا عَدّت الخُوَارَزْمِيّة الفُرات، وكانوا أكثر من عشرة آلاف ما مرّوا بشيء إلّا نَهبوه، وتقهقر الذين بغزّة منهم، وطلع الناصر إلى الكَرَك وهربت الفرنج من القدس، فهجمت الخُوَارَزْمِيّة [على] القدس وقتلوا مَن به من النصارى، وهدموا مقبرة القُمَامة[1]، وجمعوا بها عِظَام الموتى فحرقوها، ونزلوا بغَزّة وراسلوا صاحبَ مصر (يعني الملك الصالح هذا) فبعث إليهم بالخِلَع والأموال وجاءتهم العساكر، وسار الأمير حُسام الدين بن أبي عليّ بعسكرٍ ليكون مركزاً بنابُلُس، وتقدّم المنصور إبراهيم على الشاميّين (يعني لقتال المصريّين) وكان شهماً شجاعاً قد آنتصر على الخُوَارَزْمِيّة غيرَ مرّة، وسار بهم ورافقتْه الفرنج من عَكّا وغيرها بالفارس والراجل، ونفّذ الناصر داود عسكراً فوقع المصافُّ بظاهر غزّة، فآنكسر المنصور إبراهيم شَرَّ كَسْرة. وأخذت سيوفُ المسلمين[2] الفرنج فأفْنَوْهُمْ قتلاً وأسراً، ولم يُفْلِت منهم إلّا الشارِد، وأُسِر أيضاً من عسكر دمشق والكَرَك جماعةٌ من المقدّمين.

قال آبن واصل: حُكي لي عن المنصور أنّه قال: والله لقد قصّرتُ ذلك اليومَ ووقع في قلبي أنّه لا ننتصر لانتصارنا بالفرنج ــ قلت: عليه من الله ما يستحقّه من الخزي. وإيش يفيد تقصيره بعد أن صار هو والفرنج يداً واحدة على المسلمين! ــ قال: ووصلْت عسكر دِمشق معه في أسوأ حال.

وأمّا مصر فزيِّنت زينةً لم يُرَ مثلُها، وضُرِبت البشائر ودخلت أُسارى الشام الفرنج والأمراء، وكان يوماً مشهوداً بالقاهرة.

ثم عطف حُسام الدين بن أبي عليّ، وركن الدين بيبرس فنازلوا عسقلانَ وحاصروها وبها الفرنج الذين تسلّموها فجُرِح حُسام الدين.[وامتنعت عليهم عسقلان

= للمقريزي أن الصالح نجم الدين ولّى الخونجي القضاء في هذه السنة بعد أن صرف قاضي القضاة صدر الدين موهوب الجزري. ورواية المؤلف هنا توافق رواية السيوطي في حسن المحاضرة: ٢/١٣١.

(١) أي المقبرة التي يعتقد النصارى أن المسيح دفن فيها، وهي في كنيسة القيامة. والعرب تقول: كنيسة قمامة. راجع عنها ياقوت في معجم البلدان.

(٢) المراد الخوارزمية.

لحصانتها][١]؛ ثم ترحّلوا إلى نابُلس، وحَكَمُوا على فِلَسْطِين والأغوار إلا عَجْلُون فهي بيد سيف الدين [بن] قِلِيج نيابةً عن الناصر داود.

ثم بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين آبن الشيخ على جيشه وأقامه مُقام نفسه، وآنفذ معه الخزائن وحكّمه في الأمور، وسار إلى الشام ومعه الخُوَارَزْمِيّة، فنالوا دمشق وبها الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حِمْص؛ فذَلّ الصالح إسماعيل، وبعث وزيره أمينَ الدولة مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين آبن أخيه الملك نجم الدين، فلم يَظْفَر بطائل[٢]، ورجع وآشتدّ الحِصار على دمشق، وأُخِذت بالأمان لقلّة مَن مع صاحبها، ولعدم المِيرَة بالقلعة، ولتَخَلّي الحلبيين عنه، فترحّل الصالح إسماعيل إلى بعلبك، والمنصور إلى حِمْص، وتسلّم الصاحب معين الدين القلعة والبلد.

ولما رأت الخُوَارَزْمِيّة أنّ السلطان قد تملّك الشام بهم وهزم أعداءه صار لهم عليه إدلال كثير، مع ما تقدّم من نصرهم له على صاحب المَوْصل قبل سلطنته وهو بسِنْجار، فطمِعوا في الأخباز[٣] العظيمة؛ فلمّا لم يحصلوا على شيء فسدت نيّتهم له وخرجوا عليه، وكاتبوا الأمير ركنَ الدين بيبرس البُنْدُقْدَارِيّ، وهو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيّوب، وكان بغزّة، فأصغى إليهم ـ فيما قيل ـ وراسلوا صاحب الكَرَك فنزل إليهم [ووافقهم][٤]. وكانت أمُّه [أيضاً][٤] خوارزمِيّة وتزوّج منهم، ثم طلع إلى الكَرَك وآستولى حينئذٍ على القُدْس ونابُلس [وتلك الناحية][٤]، وهرب منه نوّاب صاحب مصر؛ ثم راسلت الخوارزميةُ الملك الصالح إسماعيل وهو في بَعْلَبَكّ وحَلَفُوا له فسار إليهم، وآتّفقت كلمة الجميع على حرب الصالح صاحب مصر؛ فقلِق الصالح لذلك وطلب ركن الدين بيبرس فقدِم مصر فاعتقله، وكان آخر العهد به.

---

(١) زيادة عن السلوك لزيادة الايضاح.

(٢) ذكر المقريزي في السلوك أنه في ذاك الوقت بعث الخليفة من بغداد بالخلعة إلى الصالح نجم الدين أيوب اعترافاً بسلطنته.

(٣) الأخباز: جمع خبز، وهو الإقطاع، في لغة ذلك العصر.

(٤) زياده عن الذهبي.

ثم خرج بعساكره فخيم بالعبّاسة وكان قد نفّذ رسوله إلى الخليفة المستعصم يطلب تقليداً بمصر والشام [والشرق][1]، فجاءه التشريف والطَّوْقُ الذهب والمركوب، فلَبِس التشريفَ الأسودَ والعمامة والجُبَّة، ورِكب الفرس بالحِلْية الكاملة، وكان يوماً مشهوداً؛ ثم جاء الصالح والخُوَارَزْمِيّة ونازلوا دمشق وليس بها كبيرُ عسكر، وبالقلعة الطَّوَاشِي رشيد، وبالبلد نائبها حُسام الدين بن أبي عليّ الهذباني، فضبطها وقام بحفظها بنفسه ليلاً ونهاراً، وآشتدّ بها الغلاء وهلك أهلها جوعاً ووباءً. قال: وبلغني أنّ رجلاً مات في الحبس فأكلوه؛ كذلك حدّثني حسام الدين بن أبي عليّ، فعند ذلك آتّفق عسكر حلب والمنصور صاحب حِمْص على حرب الخوارَزْميّة وقصدوهم، فتركوا حصار دمشق وساقوا أيضاً يقصدونهم فآلتقى الجمعان، ووقع المصافُ في أوّل سنة أربع وأربعين على القصب، وهي منزلة بريد من حِمْص من قبليها، فاشتدّ القتال والصالح إسماعيل مع الخوارزميّة فانكسروا عندما قُتِل مقدمهم حُسام الدين بركة خان، وآنهزموا ولم تَقُم لهم بعدها قائمة، وقَتل بركةَ خان مملوكُ من الحلبيّين وتشَتَّتَ الخُوَارَزْميّة، وخدَم طائفة منهم بالشام وطائفةٌ بمصر وطائفة مع كشْلُوخان ذهبوا إلى التّتار وخدموا معهم؛ وكفى الله شرّهم. وعُلِّق رأس بركة خان على قلعة حلب. ووصل الخبر إلى القاهرة فَزُيِّنت، وحصل الصلح التامّ بين السلطان (يعني الصالح نجم الدين أيّوب) وبين صاحب حِمْص والحلبيّين.

وأمّا الصالح إسماعيل [فإنّه] آلتجأ إلى آبن أخته[2] الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب. وأما نائب دمشق حُسام الدين فإنه سار إلى بعلبّك وحاصرها وبها أولاد الصالح إسماعيل فسلّموها بالأمان؛ ثم أرسلوا إلى مصر تحت الحوطة هم والوزير أمين الدولة والأستادار ناصر الدين بن يَغْمُور فآعْتُقِلُوا بمصر. وصَفَت البلاد للملك الصالح. وبقي الملك الناصر داود بالكَرَك في حكم المحصور، ثم رضي السلطان على فخر الدين آبن الشيخ وأخرجه من الحبس بعد

---

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) في الأصل: «ابن أخيه». والتصحيح عن الذهبي.

موت أخيه الوزير معين الدين، وسيّره إلى الشام وآستولى على جميع بلاد الناصر داود، وخرّب ضياعَ الكَرَك ثم نازلها أياماً، وقلّ ما عند الناصر من المال والذخائر وقلّ ناصره، فعمل قصيدة يعاتب فيها السلطان فيما له عنده من اليد من الذّب عنه وتمليكه ديار مصر، وهي: [الرجز]

قـل للذي قـاسمتُـه ملك اليدِ ... ونهضتُ فيه نهضَةَ المُسْتـأسِدِ
عاصيتُ فيه ذَوِي الحِجَى من أسْرتي ... وأطعتُ فيـه مكـارمي وَتَـودُّدِي
يا قاطـعَ الرَّحِمِ التي صِلتي بها ... كُتِبَت على الفلك الأثِير بعَسْجَدِ
إن كنتَ تقدح في صريح مَنَاسِبي ... فـآصبر بعَـزْمِك لِلهيب المُـرْصَدِ
عَمِّي أبـوك ووالـدي عـمٌّ بِـه ... يعلو آنتسـابُـك كـلّ مَلْكٍ أصْيَدِ
صـالاَ وجـالاَ كـالأسـود ضـوارياً ... فـارتـدّ تيّـار الفُـرَات المُـزبدِ
دع سيف مِقْوليَ البليـغ يذُبّ عن ... أعـراضكم بفِـرنـده المتـوقّـدِ
فهو الذي قد صاغ تـاجَ فخارِكم ... بمُفَـصَّـلٍ من لـؤلؤ وزَبَـرْجَـدِ

ثم أخذ يصف نفسه [وجوده ومحاسنه وسؤدده][١] إلى أن قال:

يـا مُحْرِجي بـالقـول والله الـذي ... خضعتْ لعِـزَّتِـهِ جِبـاهُ السُّجَّـدِ
لـولا مقالُ الهُجْـرِ منك لَمـا بدا ... منّي آفتخـارٌ بـالقـريض المُنشَـدِ
إن[كنتُ][٢] قلتُ خلافَ ماهوشيمتي ... فـالحـاكمـون بمَسْمَـعٍ وبمَشْهَـدِ
والله يـآبنَ العَـمِّ لـولا خِيفتي ... لـرميتُ ثغرك بـالعداة المُـرَّدِ
لكنني ممَن يخـاف حـرامـه[٣] ... نـدَمًـا يُجَـرِّعني سِمَام الأسـودِ
فـأراك ربُّك بـالهُدى مـا تـرتجي ... لنـراك تفعـل كـلَّ فعـل مرشـدِ
لتُعيدَ وجه الملك طَلْقاً ضاحكـاً ... وتـردَّ شمـلَ البيت غيـرَ مبـدَّدِ
كي لا تـرى الأيامُ فينـا فـرصـةً ... للخـارجين وضُحْكَـةً للحُسَّـدِ

---

(١) زيادة عن الذهبي.
(٢) زيادة عن الذهبي وشفاء القلوب.
(٣) في شفاء القلوب: «حزامة».

[لا زال هذا البيت مرتفع البِنا   يزهى بأمجد بعد آخر أمجدِ][١]

قال: ثم إنّ السلطان طلب الأمير حسام الدين بن أبـي عليّ وولّاه نيابة الديار المصريّة، وآستناب على دمشق الصاحبَ جمال الدين يحيـى بن مطروح؛ ثم قدِم الشام وجاء إلى خدمته صاحبُ حَمَاة الملك المنصور وهو آبن آثنتي عشرة سنة وصاحبُ حِمْص [وهو صغير][٢]، فأكرمهما وقرّبهما، ووصل إلى بعلبكّ، ثم ردّ إلى الشام، ثم رجـع السلطان ومرِضَ في الطريق.

قال آبن واصل: حَكَى لي الأمير حسام الدين قال: لمّا ودّعني السلطان قال: إنّي مسافر وأخاف أن يَعْرِضَ لي موت وأخي العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد وما يجري عليكم منه خيرٌ، فإن مرِضتُ ــ ولو أنّه حمّى يوم ــ فأعْدِمْه[٣]، فإنّه لا خيرَ فيه؛ وولدي تُوران شاه لا يصلـح للملك، فإن بلغك موتي فلا تُسَلِّم البلاد لأحد من أهلي، بل سَلِّمها للخليفة. اِنتهى.

قال: ودخل السلطان مصر، وصرف حسامَ الدين عن نيابة مصر بجمال الدين ابن يَغْمُور، وبعث الحُسام بالمصريّين إلى الشام، فأقاموا [بالصالحيّة][٢] أربعةَ أشهر. قال آبن واصل: وأقمتُ مـع حسام الدين هذه المدّة، وكان السلطان في هذه المدّة وقبلها مقيماً بأشمون[٤] طَنَّاح.

ثم في السنة خرج الحلبيّـون وعليهم شمس الدين لؤلؤ الأمِينِيّ، فنـازلوا حِمْص، ومعهم الملك الصالـح إسماعيل يرجعون إلى رأيه، فحاصرها شهرين ولم يُنجِدها صاحب مصر؛ وكان السلطان مشغولاً بمرضٍ عَرَض له في بيضه ثم

---

(١) زيادة عن شفاء القلوب.

(٢) وذكر المقريزي أن الملك العادل مات خنقاً بقلعة الجبل سنة ٦٤٤هـ. قال: وقيل سنة ٦٤٥ وهو أثبت. (انظر السلوك: ١/٣٢٧).

(٣) زيادة عن الذهبي.

(٤) أشموم طناح: من المدن المصرية القديمة. تقع على الشاطىء الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى بحر أشموم. وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان. وهي من قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهلية. (محمد رمزي).

فتـح، وحصل منه ناسورٌ بعُسر بولٍ[(١)]، وحصلت له في رئته بعضُ قُرحة متلفـة؟ لكنّه عازم على إنجاد صاحب حِمْص. ولمّا آشتدّ الحِصار بالأشرف صاحب حِمْص آضطرّ إلى أن أذعن بالصلـح، وطلب العِوَض عن حِمْص تلَّ باشِر[(٢)] مضافاً إلى ما بيده، وهو الرَّحَبَةُ[(٣)] وتَدْمُر، فتسلمها الأمير شمس الدين لؤلؤ الأَمِينيّ، وأقام بها نوّاباً لصاحب حَلَب. فلمّا بلـغ السلطان أخذُ حِمْص، وهو مريض، غضِب وعظُم عليه، وترحّل إلى القاهرة فاستناب بها آبنَ يغمور وبعث الجيوش إلى الشام لاستنقاذ حِمْص.

وسار السلطان في مِحَفّة، وذلك في سنة ستّ وأربعين وستمائة؛ فنزل بقلعة دمشق وبعث جيشَه فنازلوا حِمْص ونصبوا عليها المجانيق، منها منجنيق مَغْربـيّ، ذكر الأمير حُسام الدين أنّه كان يَرْمِي حجراً زنتُهُ مائة وأربعون رطلاً بالدمشقيّ؛ ونصب عليها قَرَابُغا آثني عشر منجنيقاً سلطانيّة، وذلك في الشتاء. وخرج صاحب حلب بعسكره فنزل بأرض كَفَرْطَاب، ودام الحصار إلى أن قدِم البادرائيّ[(٤)] للصلـح بين صاحب حلب والسلطان، على أن تَقِرّ حِمْصُ بيد صاحب حلب، فوقـع الاتّفاق على ذلك؛ وترحّل السلطان عن حِمْص لمرض السلطان ولأنّ الفرنـج تحرّكوا [وقصدوا مصر][(٥)]، وترحّل السلطان إلى الديار المصريّة كذلك وهو في محِفّة. وكان الناصر صاحب الكَرَك قد بعث شمس الدين الخُسْرُوشَاهِي إلى السلطان

---

(١) عبارة الذهبي: «يعسر برؤه، وحصلت له في رئته قرحة... إلـخ». وخطأ المؤلف هنا تابـع لخطئه السابق حين قال: «بمرض عرض له في بيضه». وصوابه ما ذكره المقريزي في السلوك: «.. بسبب ورم مأبضه»، وكان قد اشتد به حتى حصل منه ناصور». والمأبض: باطن الركبة أو المرفق. ومن روايتي المقريزي والذهبي نقترح تصحيح رواية أبي المحاسن على الوجه التالي: «وكان السلطان مشغولاً بمرض عرض له في مأبضه، ثم فتح، وحصل منه ناسور يعسر برؤه... إلـخ».

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة شمالي حلب (معجم البلدان).

(٣) هي الرحبة الجديدة، على نحو فرسخ من الفرات.

(٤) في الأصل: «البادراتي» والتصويب عن السلوك. وهو نجم الدين الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبـي الوفاء الشافعي البادرائي الذي قدم من قبل الخليفة المستنصر بالله للصلـح بين الحلبيين والسلطان. والبادرائي: نسبة إلى بادرايا، قرية من عمل واسط.

(٥) زيادة عن الذهبي.

وهو بدمشق يطلب خُبْزاً بمصر والشُّوبَك وينزل له عن الكَرَك، فبعث السلطان تاج الدين [بن][1] مهاجر في إبرام ذلك إلى الناصر، فرجع عن ذلك لمّا سمع حركة الفرنج؛ وطلب السلطان نائب مصر جمال الدين بن يغمور فآستنابه بدمشق وبعث على نيابة مصر حُسام الدين بن أبي عليّ فدخلها في المحرّم سنة سبع وأربعين؛ وسار السلطان فنزل بأُشموم طَنَّاح ليكون في مقابلة الفرنج إن قصدوا دِمياط.

وتواترت الأخبار بأنّ ريدا فَرَنْس[2] مقدّم الأفرنسيسيّة قد خرج من بلاده في جموع عظيمة وشَتّى بجزيرة قُبْرُص[3]؛ وكان من أعظم ملوك الفرنج وأشدّهم بأساً ــ ورِيدا بلسانهم: الملك ــ فشُحِنت دِمْياط بالذخائر وأُحْكِمت الشواني، ونزل فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر على جزيرة دِمْياط، فأقبلت مراكب الفرنج فأرست في البحر بإزاء المسلمين في صفر من السنة. ثم شرعوا من الغد في النزول إلى البرّ

---

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) ريدافرنس: هو الملك لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا. وقد جاء على رأس الحملة الصليبية السابعة. وذكره المؤرخون العرب باسم: ريدافرنس، وريدأفرنس... وهي كلها تعريب لعبارة: Roi de france أي ملك فرنسا. ويقال له أيضاً: الفرنسيس. وفي ذلك الوقت كان الملك فردريك الثاني ــ الذي تسلم القدس من الكامل والد الصالح ــ مصافياً للصالح. وعندما عزم لويس التاسع ملك فرنسا على تنظيم حملة جديدة على مصر حاول فردريك ثنيه عن عزمه. وأكثر من هذا فإنه كان يعلم الملك الصالح أولاً بأول باستعدادات الحملة الفرنسية.

(٣) وصل لويس التاسع إلى الشرق في أيلول سنة ١٢٤٨م، ولكنه لم يتوجه مباشرة إلى الشواطىء المصرية مقدراً أن خوض معركة قبل الربيع مخاطرة كبرى. وعليه فقد أقام في قبرص جاهداً في تحقيق الحلم الذي سيراود الفرنج حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي: وهو إبرام حلف مع المغول لوضع العالم العربي في فك كماشة. وأخذ السفراء يتنقلون مذاك بين غزاة الشرق وغزاة الغرب. وفي نهاية عام ١٢٤٨م استقبل لويس في قبرص بعثة مغولية ذهبت إلى حدّ التلويح له بإمكان اعتناق المغول الديانة المسيحية. وإذ دغدغت هذه التلويحات مشاعره فقد بادر إلى تزويد البعثة عند عودتها بهدايا دنيوية ودينية نفيسة. بيد أن خلفاء جنكيزخان لم يدركوا القصد من بادرته. وإذ كانوا ينظرون إلى ملك فرنسا على أنه واحد من أتباعهم فقد سألوه أن يرسل إليهم في كل عام هدايا من النوع نفسه. ولسوف يجنّب هذا الالتباس العالم العربي آنياً على الأقلّ ــ هجوماً متوافقاً عليه من العدوّين. (عن الحروب الصليبية كما رآها العرب: ص ٢٩٥) ــ وانظر مقدمة كتاب: القديس لويس، لجوانفيل؛ ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشي.

الذي فيه المسلمون وضُربتْ خَيْمَةٌ حمراء لريدَا فَرَنْس وناوشهم [المسلمون][1] القتال، فقُتِل يومئذ الأميرُ نجم الدين آبن شيخ الإسلام، والأمير الوزيريّ ـ رحمهما الله تعالى ـ فترحّل فخر الدين آبن الشيخ بالناس، وقطع بهم الجسرَ إلى البرّ الشرقي الذي فيه دِمْياط، وتقهقر إلى أُشمون طَنّاح، ووقع الخذلان على أهل دِمْياط، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم حتّى لم يبق بها أحد؛ وكان هذا من قبيح رأي فخر الدين؛ فإنّ دِمْياط كانت في نَوْبة سنة خمس عشرة وستمائة أقلّ ذخائر وعدداً، وما قدر عليها الفرنج إلاّ بعد سنة، وإنّما هرب أهلُها لمّا رأوا هرب العسكر وضَعْفَ السلطان؛ فلمّا أصبحت الفرنج ملكوها صَفْواً بما حوت من العُدَد والأسلحة والذخائر والغِلال والمجانيق، وهذه مصيبة لم يجر مثلها! فلمّا وصلت العساكر وأهل دِمْياط إلى السلطان حَنِقَ على الشجعان الذين كانوا بها، [وأَمَرَ بهم][1] فشُنِقُوا جميعاً ثم رَحَل بالجيش، وسار إلى المنصورة فنزل بها في المنزلة التي كان أبوه نزلها، وبها قصرٌ بناه أبوه الكامل. ووقع النَّفِير العامّ في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أممٌ لا يُحْصَوْن من المطوعة والعُرْبان؛ وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وتخطّفهم، وآستمرّ ذلك أشهراً، والسلطان يتزايد [مرضه] والأطباء قد آيستْه لاستحكام المرض به.

وأمّا صاحب الكَرَك (يعني الملك الناصر داود) فإنّه سافر إلى بغداد فاختلف أولاده، فسار أحدهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيّوب وسلّم إليه الكرك، ففرح [بها] مع ما فيه من الأمراض، وزُيِّنت بلاده وبعث إليها بالطواشي بدر الدين الصَّوابِي نائباً، وقدم عليه أولادُ الناصر داود، فبالغ الملك الصالح في إكرامهم وأقطعهم أخبازاً جليلة. ولم يزل يتزايد به المرض إلى أن مات، وأخفِي موته على ما سيأتي ذكره. إن شاء الله تعالى.

قال آبن واصل في سيرة الملك نجم الدين أيّوب هذا: وكان مَهِيباً عزيز النفس عفيفاً طاهر اللّسان والذَّيْل، لا يرى الهزل ولا العبث، شديدَ الوقار كثير

(١) زيادة عن الذهبي.

الصَّمْت، اِشترى من المماليك الترك ما لم يشترِه أحدٌ من أهل بيته حتّى صاروا معظم عسكره، ورجّحهم على الأكراد [وأَمّرهم][١]، وآشترى وهو بمصر خَلْقاً منهم، وجعلهم بطانته والمحيطين بِدهْلِيزِه، وسمّاهم «البحرية». حكى لي حسام الدين بن أبي عليّ: أن هؤلاء المماليكَ مع فرط جبروتهم وسطوتهم كانوا أبلغ مَن يُعَظِّم هيبته؛ كان إذا خرج وشاهدوا صورته يرعدون خوفاً منه، وأنّه لم يقع منه في حال غضبه كلمةٌ قبيحة قطُّ، أكثر ما يقول إذا شتم: يا متخَلِّف؛ وكان كثير الباه بجواريه فقط، ولم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين: إحداهما شجرة الدُّر، والأخرى بنت العالمة، تزوّجها بعد مملوكه الجُوكَنْدار[٢] وكان إذا سمِع الغِناء لا يتزعزع ولا يتحرّك، وكذلك الحاضرون يلتزمون حالته كأنّما على رؤوسهم الطير؛ وكان لا يستقِل أحداً من أرباب دولته بأمرٍ بل يراجعون القصص مع الخُدّام، فيوقِّع عليها بما يعتمده كُتّابُ الإنشاء؛ وكان يُحبّ أهل الفضل والدِّين، وما كان له مَيْلٌ لمطالعة الكتب؛ وكان كثير العُزْلة والانفراد، وله نَهْمَة باللّعب بالصَّوالجة، وفي إنشاء الأبنية العظيمة الفاخرة. اِنتهى كلام آبن واصل.

وقال غيره: وكان مَلِكاً مَهِيباً جبّاراً ذا سطوة وجلالة؛ وكان فصيحاً حسن المحاورة عفيفاً عن الفواحش، أَمّر مماليكَه الترك؛ وجرى بينه وبين عمِّه الملك الصالح أمور وحروب إلى أن أخذ نقابة دِمَشق عام ثلاثة وأربعين، وذهب إسماعيل إلى بعلبكّ، ثم أخذت من إسماعيل بعلبك، وتعثّر وآلتجأ إلى آبن أخته الناصر صاحب حلب. ولمّا خرج الملك الصالح هذا من مصر إلى الشام خاف من بقاء أخيه الملك العادل فقتله سراً ولم يتمتع بعده؛ ووقعت الأكِلَة في فخذه[٣] بدمشق. ونزل الأَفْرَنْس ملك الفرنج بجيوشه على دِمْياط فأخذها، فسار إليه الملك الصالح في محفّة حتى نزل المنصورة عليلاً، ثم عرض له إسهال إلى أن مات في ليلة

---

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) الجوكندار: كلمة فارسية مركبة من كلمتين: جوكان، ومعناها الصولجان؛ ودار ومعناها حامل أو صاحب. والجوكندار هو حامل الصولجان في لعب الكرة أو الصوالجة.

(٣) في الأصل: «خدّه». وما أثبتناه عن الذهبي. وهو يوافق ما أوردناه في الحاشية (١) ص ٢٩١ من هذا الجزء، فليراجع. ــ والأكلة: الحكّة.

النصف من شعبان بالمنصورة، وأُخْفِيَ موتُه حتى أحضروا ولَدَه الملك المعظم تُوران شاه من حِصْن كَيْفَا وملّكوه.

وقال سعد الدين: إنّ آبن عمّه فخر الدين نائب السلطنة أمر بتحليف الناس لولده الملك المعظم تُوران شاه، ولوليّ عهده فخر الدين فتقرّر ذلك، وطلبوا الناس فحضروا وحَلَفوا إلّا أولاد الناصر داود صاحب الكرك توقّفوا، وقالوا: نشتهي [أن] نبصرَ السلطان، فدخل خادم وخرج وقال: السلطان يُسَلِّم عليكم، وقال: ما يشتهي أن تروه في هذه الحالة، وقد رسم لكم أن تحلفوا. فحلفوا؛ وكان للسلطان مدّة من وفاته ولا يعلم به أحد، وزوجته شجرة الدّر تُوَقِّـع مثل خطّه على التواقيـع ــ على ما يأتي ذكره ــ ولمّا حلف أولاد الناصر صاحب الكَرَك جاءتهم المصيبة من كلّ ناحية، لأنّ الكرك راحت من يدهم، وآسودّت وجوههم عند أبيهم، ومات الملك الصالـح الذي أمّلوه وأعطَوه الكرك؛ ثم عقيب ذلك نَفَوْهم من مصر. ثم إنّ الأمير فخر الدين نفّذ نسخة الأيمان إلى البلاد، ثم كلّ ذلك والسلطان لم يظهر موته. قال: وكانت أمُّ ولده شجرة الدّر ذاتَ رأيٍ وشهامة، فدّبرت أمر الملك الصالـح وأخفتْ موته. وهي التي وَلِيت الملك مدّة شهرين بعد ذلك، وخُطِب لها على المنابر بمصر وغيرها ــ على ما يأتي ذكر ذلك في محلّه إن شاء الله تعالى. ثم ملك بعدها الأتراك إلى يومنا هذا. اِنتهى.

وقال الشيـخ شمس الدين يوسف بن قزأوغلي في تاريخه مرآة الزمان ــ بعد ما ذكر آسم الملك الصالـح ومولده قال ــ: «ولما ملك مصر آجتهد في خلاص ولده المغيث فلم يقدر. قلت (يعني المغيث الذي كان حبسه الملك الصالـح إسماعيل بقلعة دمشق في مبادىء أمر الملك الصالـح). قال: وكان مهيباً، هيبته عظيمة، جبّاراً أباد الأشرفيّة وغيرهم. وقال جماعة من أمرائه: والله ما نقعد على بابه إلّا ونقول من ها هنا نحمل إلى الحبوس؛ وكان إذا حبس إنساناً نسيه، ولا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه، وكان يحلِف أنّه ما قتل نفساً بغير حقّ. قال صاحب المرآة: وهذه مكابرة ظاهرة؛ فإنّ خواص أصحابه حكوا أنّه لا يمكن إحصاء من قتل من الأشرفية وغيرهم، ولو لم يكن إلّا قتل أخيه العادل [لكفى]. قال: وكانت عتيقته شجرة الدّر

تكتب خَطّاً يُشبِه خطّه، فكانت تعلّم على التواقيع، وكان قد نسر مخرجُ السلطان وآمتدّ إلى فخذه اليمنى ورجله ونَحُل جسمه وعُمِلت له مِحَفّة يركب فيها، وكان يتجلّد، ولا يطّلِع أحدٌ على حاله؛ ولمّا مات حُمِل تابوتُه إلى الجزيرة فعُلِّق بسلاسل حتّى قُبِر في تربته إلى جانب مدرسته بالقاهرة».

قلت: وذكر القطب اليُونينِيّ[1] في كتابه الذيل على مرآة الزمان، قال في ترجمة البهاء زُهَيْر كاتب الملك الصالح قال:

فلمّا خرج الملك الصالح بالكَرَك من الاعتقال وسار إلى الديار المصرية، كان بهاء الدين زُهَيْر المذكور في صحبته، وأقام عنده في أعلى المنازل وأجلّ المراتب، وهو المشار إليه في كُتّاب الدرج والمقدّم عليهم، وأكثرهم آختصاصاً بالملك الصالح واجتماعا به. وسيّره رسولاً في سنة خمس وأربعين وستمائة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب منه إنفاذَ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل إليه فلم يُجب إلى ذلك، وأنكر الناصر هذه الرسالة غاية الإنكار، وأعظمها وآستصعبها، وقال: كيف يسعني أن أسيِّر عمّه إليه، وهو خال أبي وكبير البيت الأيّوبيّ حتى يقتله، وقد آستجار بي! والله هذا شيء لا أفعله أبداً. ورجع البهاء زُهَيْر إلى الملك الصالح نجم الدين بهذا الجواب، فعَظُم عليه وسكت على ما في نفسه من الحنَق. وقبل موت الملك الصالح نجم الدين أيّوب بمُدَيْدَة يسيرة ـــ وهو نازل على المنصورة ـــ تغيّر على بهاء الدين زهير وأبعده لأمر لم يطلّع عليه أحد. قال: حكى لي البهاء أن سبب تغيّره عليه أنّه كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود صاحب الكَرَك، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليُعَلِّم عليه على العادة، فلمّا وقف عليه الملك الصالح كتب بخطّه بين الأسطر: «أنت تعرف قلّة عقل آبن عمّي، وأنّه يحبّ من يعظّمه ويعطيه من يده فآكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه»، وسيّر الكتاب إلى البهاء زهير ليغيِّره، والبهاء زهير مشغول، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان وأمره بخَتْمه، فختمه وجهّزه إلى الناصر

(١) هو قطب الدين موسى بن أحمد اليونيني. صنّف ذيلاً على مرآة الزمان. توفي سنة ٧٢٦هـ.

على يد نجّاب، ولم يتأمّله فسافر به النجّاب لوقته؛ وآستبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليُعَلِّم عليه؛ ثم سأل عنه بهاء الدين زهير بعد ذلك، وقال له: ما وقفتَ على ما كتبتُه بخطّي بين الأسطر؟ قال البهاء زُهَيْر: ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى آبن عمّه! وأخبره أنّه سيّر الكتاب مع النجّاب، فقامت قيامة السلطان، وسيّروا في طلب النجّاب فلم يدركوه؛ ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكَرَك فعظُم عليه وتألّم له، ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح، وهو يَعْتِبُ فيه العتب المؤلمَ، ويقول له فيه: والله ما بي ما يصدر منك في حقيّ، وإنما بي آطلاع كُتّابك على مثل هذا! فعَزَّ ذلك على الملك الصالح، وغضِب على بهاء الدين زهير، وبهاء الدين لكثرة مروءته نسب ذلك إلى نفسه ولم يَنْسُبْه لكاتب الكتاب، وهو فخر الدين بن لقمان ــ رحمه الله تعالى ــ. قال: وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير والمعاقبة على الوَهْم، لا يقيل عَثْرة ولا يقبل معذرة ولا يرعى سالفَ خدمة، والسيئة عنده لا تُغفر، والتوسّلُ إليه لا يقُبل، والشفائعُ لديه لا تؤثّر، فلا يزداد بهذه الأمور التي تَسُلّ سخائمَ الصدور إلا آنتقاماً. وكان ملِكاً جبّاراً متكبِّراً شديد السطوة كثير التجبّر والتعاظم على أصحابه وندمائه وخواصه، ثقيل الوطأة، لا جَرَمَ أن الله تعالى قصّر مدّة ملكه وآبتلاه بأمراض عدِم فيها صبرَه. وقتَل مماليكُه ولدَه توران شاه من بعده؛ لكنه كان عنده سياسةٌ حسَنة ومَهابةٌ عظيمة وسَعَةَ صَدْر في إعطاء العساكر والإنفاق في مهمّات الدولة، لا يتوقّف فيما يخرجه في هذا الوجه؛ وكانت همّته عالية جداً، وآماله بعيدةً، ونفسُه تحدّثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها والتغلّب عليها، وآنتزاعها من يدِ ملوكها، حتى لقد حدّثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق؛ وكان لا يمكّن القويّ من الضعيف، وينصف المشروف من الشريف؛ وهو أوّل من آستكثر من المماليك من ملوك البيت الأيّوبيّ، ثم آقتدوا به لمّا آل الملك إليهم.

قلت: ومن ولِي مصر بعد الصالح من بني أيّوب حتى آقتنى المماليكَ! هو آخر ملوك مصر، ولا عِبرة بولاية ولده الملك المعظم توران شاه، اللهم إن كان الذي بالبلاد الشاميّة فيمكن، وأمّا بمصر فلا.

وكانت ولايته بمصر تسعَ سنين وسبعة أشهر وعشرين يوماً لأنّه ولِي السلطنة في عشرين ذي الحجّة سنة سبع وثلاثين، ومات في نصف شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة. اِنتهى.

قال: ولمّا مات الملك الصالح نجم الدين لم يَحْزَن لموته إلّا القليل، مع ما كان الناس فيه من قصد الفرنج الديار المصرية وآستيلائهم على قلعة منها، ومع هذا سُرّ معظم الناس بموته حتّى خواصّه، فإنّهم لم يكونوا يأمنون سطوته ولا يقدِرون على الاحتراز منه. قال: ولم يكن في خُلُقه الميل لأحد من أصحابه ولا أهلِه ولا أولادِه ولا المحبةُ لهم ولا الحنو عليهم على ما جرت به العادة. وكان يلازم في خَلَواته ومجالِس أنسه من الناموس[1] ما يلازمه إذا كان جالساً في دَسْت السلطنة. وكان عفيف الذيل طاهرَ اللسان قليلَ الفُحْش في حال غضبه، ينتقم بالفعل لا بالقول ــ رحمه الله تعالى ــ. اِنتهى ما أوردناه في ترجمة الملك الصالح من أقوال جماعة كثيرة من المؤرّخين ممن عاصره وبعدهم، فمنهم من شكر ومنهم من أنكر.

قلت: وهذا شأن الناس في أفعال مُلُوكهم؛ والحاكم أحد الخصمين غضبان منه إذا حكم بالحقّ، فكيف السلطانُ! وفي الجملة هو عندي أعظمُ ملوك بني أيّوب وأجلُّهم وأحسنُهم رأياً وتدبيراً ومَهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، وهو أخو جدّه الملك العادل أبي بكر بن أيّوب؛ ولو لم يكن من محاسنه إلّا تجلُّده على مقابلة العدوّ بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المُـزْمِنة المذكورة وموته على الجهاد، والذبّ عن المسلمين. ــ والله يرحمه. ما كان أصبره وأغزر مُرُوءته!

ولمّا مات رثاه الشعراء بعدّة مَرَاثٍ. وأمّا مدائحه فكثيرة من ذلك ما قاله فيه كاتبه وشاعره بهاء الدين زُهَيْر من قصيدته التي أوّلها: [الكامل]

وَعَد الزيارةَ طَرْفُه المُتَملِّقُ ... وبلاء قلبي من جفونٍ تَنْطِقُ
إنّي لأهوَى الحسن حيثُ وجدتُه ... وأَهِيم بالقَدّ الرشيق وأعشَقُ

(١) الناموس هنا بمعنى الهيبة والوقار.

يا عاذلِي أنا مَنْ سمِعتَ حديثَه ... فعساكَ تحنُو أو لعلَّكَ تَرْفُقُ
لو كنتَ منّا حيثُ تسمَع أو تَرى ... لرأيتَ ثوبَ الصبر كيف يُمَزَّقُ
ورأيتَ ألطفَ عاشِقَيْن تشاكيا ... وعجِبتَ ممنّ لا يُحِبّ ويَعْشَق
أيَسُومُنِي العُذّالُ عنه تصبُّرا ... وحياتِه قلبي أرقّ وأشْفَق
إنْ عنّفُوا أو سوّفُوا أو خوّفوا ... لا أنتهي لا أنْثَنِي لا أفْرقَ
أبداً أزيد مع الوصال تَلَهُّفاً ... كالعِقْد في جِيد المليحةِ يَقْلَق
يا قاتلي إنّي عليكَ لمُشْفِقٌ ... يا هاجِري إنّي اليكَ الشَيِّقُ
وأذاع أنّي قد سلَوْتُك مَعْشرٌ ... يا ربِّ لا عاشوا لذاكَ ولا بَقُوا
ما أُطْمِعُ العُذَّال إلاّ أنّني ... خوفاً عليك إليهِمُ أتملَّق
وإذا وعَدْتُ الطيف منك بهَجْعَةٍ ... فأشهد عليّ بأنّني لا أصْدُق
فعَلامَ قلبكَ ليس بالقلب الذي ... قد كان لي منه المُحِبّ المُشْفِق
وأظنُّ قدّك شامتاً لفراقنا ... فلقد نظرتُ إليه وهو مُخلَّق
ولقد سعيتُ إلى العُلا بعزيمةٍ ... فقضَى لسعيي أنّه لا يُحْقَق
وسريتُ في ليلٍ كأنّ نجومَهُ ... من فَرْط غيرتها إليّ تُحدِّق
حتّى وصلتُ سُرادِقَ المَلِكِ الذي ... تقف الملوك ببابه تَسْتَرْزِق
ووقفتُ من ملكِ الزمان بموقفٍ ... ألفيتُ قلبَ الدهرِ منه يَخْفُقُ
فإليكَ يا نجمَ السماءِ فإنّني ... قد لاح نجم الدين لِي يَتَألَّقُ
الصالحُ الملكُ الذي لزمانه ... حُسْنٌ يَتيه به الزمانُ ورَوْنَقُ
ملِكٌ تحدَّث عن أبيه وجَدّه ... نسب لعَمْري في العلا لا يُلْحَق
سجدتْ له حتّى العيونُ مَهابةً ... أو ما تَراها حين يُقْبِل تُطْرِق

والقصيدة أطول من هذا تركتُها خوف الإطالة والملل.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الصالـح نجم الدين أيّوب بن الكامل محمد على مصر

وهي سنة ثمانٍ وثلاثين وستمائة.

فيها سلّم الملك الصالـح إسماعيل الشَّقِيف[١] لصاحب صَيْدَاء الفرنجيّ، وعزل عِزَّ الدين بن عبد السلام عن الخطابة وحبسه، وحبس أيضاً أبا عمرو بن الحاجب[٢] لأنّهما أنكرا عليه فعلَه[٣]، فحبسهما مدّة ثم أطلقهما؛ وولّى العِماد آبن خَطيب بيت الأَبّار الخَطابةَ عِوَضاً عن آبن عبد السلام.

وفيها ظهر بالروم رجل تُرْكُمانِيّ يقال له البابا وآدّعى النبوة، وكان يقول قولوا: لا إله إلا الله البابا وليُّ الله، وآجتمـع إليه خلق كثير؛ فجهَّز إليه صاحب الروم جيشاً فآلتقَوْا، فقُتِل بينهم أربعة الآف، وقُتِل البابا المذكور. قال أبو المظفَّر:

«وفيها ذكر أنّ بمازَنْدِران ــ وهي مدينة العجم ــ عينَ ماء يطلـعُ منها في كلّ ستّ وثلاثين سنة حيَّةٌ عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول النهار، فإذا غربَت الشمس غاصت الحيّة في العين فلا تُرى إلّا مثل ذلك الوقت؛ وقيل: إنّ بعض ملوك العجم جاء بنفسه إليها في مثل ذلك اليوم، وربطها بسلاسل حتّى يَعُوقها، فلمّا غرَبت الشمس غاصت في العين، وهي إلى الآن إذا طلَعت رأوا السلاسل في وسطها».

قلت: ولعّلها لم تتعرّض لأحد بسوء، وإلّا فكان الناس تحيّلوا في قتلها وقتلوها بأنواع المكايد. وأمرُ هذه الحيّة مشهور ذكره غير واحد من المؤرّخين.

---

(١) راجع ص ٣٩، حاشية (٣).

(٢) هو الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب. توفي سنة ٦٤٦هـ.

(٣) وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام قد ترك الدعاء له في الخطبة. ولما ترك دمشق، أرسل السلطان الملك الصالـح إسماعيل إليه وهو في الطريق رسولاً يتلطف به في العود إلى دمشق ويقول له: «ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير، فقال له الشيخ: يا مسكين، ما أرضاه يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده. يا قوم، أنتم في واد وأنا في واد، والحمـد لله الذي عافانا مما ابتلاكم.» (انظر حسن المحاضرة: ٢/١٣٠).

وفيها وصل الملك الناصر داود من مصر إلى غَزّة، وكان بينه وبين الفرنج وقعة، وكسَرهم فيها وغنم منهم أشياء كثيرة.

وفيها تُوفّي أبو بكر محمد بن عليّ بن محمد الشيخ الإمام محيي الدين العالم المشهور بآبن عربي الطائيّ الحاتِميّ في شهر ربيع الآخر، وله ثمانٍ وسبعون سنة، وكان إماماً في علوم الحقائق، وله المصنَّفات الكثيرة. وقد آختلف الناس في تصانيفه وأقواله آختلافاً كبيراً. قال: وكان يقول: أعرِف الاسم الأعظم، وأعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، وكانت وفاته بدمشق ودُفِن بقاسيون بتربة القاضي محيي الدين [بن الزكيّ][1]. ومن شعره في جزار: [الكامل]

نـاديتُ جَزّاراً تَـرُوق صفاتُـه ... قـد أخجلَت سُمْرَ القَنا حركـاتُه
يـا واضعَ السِّكين في فَمِه وقـدْ ... أهـدى بهـا مـاءَ الحياة لَهـاتُـه
ضَعْهـا على المذبـوح ثانِي كَـرّةٍ ... وأنـا الضمين بـأنْ تعـودَ حياتُـه

قلت: وأحسن من هذا قول البُرْهان القِيراطيّ[2] ـ رحمه الله ـ في المعنى: [مجزوء الرمل]

رُبّ جـزّارٍ هـواه ... صـار لـي دمّـاً ولحمـا
فـزْتُ بـالألْيـة مـنـه ... وآمتـلا قلبي شَحمـا

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو عليّ أحمد بن محمد بن محمود الحَرّانيّ ثم البَغْداديّ في المحرّم. والعلّامة القاضي نجم الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن خَلَف بن راجِح المَقْدِسيّ الشافعيّ مدرس العَذْراويّة في شوّال. وخطيب دَاريّـا سَمْح بن ثابت. وجمال الملك عليّ بن مختار العامرِيّ آبن الجَمَل في شعبان، وله تسعون سنة. ومحيي الدين أبو بكر محمد بن عليّ بن محمد بن العربيّ الطائي الحاتميّ المُرْسِيّ، وله ثمانٍ وسبعون سنة. مات في شهر ربيع الآخر.

---

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) هو برهان الدين إبراهيم بن شرف الدين عبد الله بن محمد بن عسكر القيراطي الشافعي. توفي سنة ٧٧١هـ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وتسع أصابع.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر

وهي سنة تسع وثلاثين وستمائة.

فيها شرع الملك الصالح المذكور في عمارة المدارس[١] ببين القصرين من القاهرة، وشرعَ أيضاً في بِناء قلعة[٢] الجزيرة، وأخذ أملاكَ الناس، وأخرب نيِّفاً وثلاثين مسجداً، وقطَع ألف نخلة، وغرِمَ عليها خراج مصر سنين كثيرة؛ فلم تقم بعد وفاته، وأخربها مماليكُه الأتراكُ سنة إحدى وخمسين وستمائة.

وفيها تُوُفّي أحمد بن الحسين بن أحمد الشيخ الإمام العالم شمس الدين النحوي الإِرْبِلِيّ ثم المَوْصِلِيّ الضَّرير [المعروف بابن الخَبّاز] صاحب التصانيف. كان إماماً بارعاً مفتناً عالماً بالنحو واللغة والأدب. ومن شعره في العِناق: [السريع]

كأنّني عانقتُ رَيْحانةً تنفّستْ في ليلها البارِدِ

فلو تَرانا في قميص الدُّجى حسِبتنا في جسدٍ واحدِ

---

(١) هي المدارس التي أنشأها الملك الصالح بخط بين القصرين من القاهرة باسم «المدرسة الصالحية» كما هو مذكور في اللوحة المثبتة فوق الباب العمومي لهذه المدارس بأسفل المئذنة. وكان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقي (القصر الفاطمي الكبير). وقد ذكرها المقريزي في خططه: ٣٧٤/٢. وكانت هذه المدرسة تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ستة آلاف متر مربع، وكانت تتكون من قسمين، في كل قسم إيوانان؛ فكان بها أربعة أواوين للمذاهب الأربعة: الحنبلي والشافعي والمالكي والحنفي. وهي أول مدرسة أنشئت بمصر للمذاهب الأربعة معاً. وبسبب ذلك عرفت باسم: المدارس الصالحية. ولم يبق من هذه المدرسة إلى اليوم إلا وجهتها الغربية التي بها الباب العمومي المشرف على شارع بين القصرين وتعلوه مئذنتها. وبقي وراء هذه الوجهة الغربية إيوان المدرسة المالكية وبقايا إيوان المدرسة الشافعية بمحاريبه. وما بقي يحتجب اليوم وراء سبيل خسرو باشا وما يجاوره من دكاكين بشارع بين القصرين ووراء دكاكين شارع الصرماتية. (عن تعليقات الاستاذ محمد رمزي).

(٢) راجع ص ٢٨٣ من هذا الجزء، حاشية (٣).

قلت: ومثل هذا قول العلّامة أبي الحسن عليّ[١] بن الجَهْم ـ رحمه الله تعالى ـ : [الطويل]

سقَى الله ليلاً ضمَّنا بعد هَجْعَةٍ وأدنَى فؤاداً من فؤادٍ معذَّبِ
فبِتْنا جميعاً لو تُراق زُجاجَةٌ من الخمر فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

ومثل هذا قول القائل[٢]: [البسيط]

لا والمنازل من نَجْدٍ وليلتِنا بالخَيفِ[٣] إذ جسدانا بيننا جَسَدُ
كم رام منا[٤] الكَرَى من لطف مَسْلَكِهِ نَوْماً فما آنفكَّ لا خدٌ ولا عَضدُ

ومثل هذا أيضاً قول [آبن] التَّعاويذيّ[٥] ـ رحمه الله تعالى ـ : [الطويل]

فكم ليلةٍ قد بِتُّ أَرْشُفُ ريقَه وجُرْتُ على ذاك الشَّنِيبِ المُنضَّدِ
وبات كما شاء الغرامُ معانِقي وبتّ وإيّاه كحرف مشدَّدِ

وقد خرجنا عن المقصود ولنرجع لِما نحن بصدده.

وفيها تُوفي موسى بن يونس بن محمد بن مَنَعَة بن مالك العَلّامة كمال الدين أبو الفتح المَوْصِليّ الشافعيّ. مولده في صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بالموصل، وتفقَّه على والده وغيرِه، وبَرع في عدّة علوم.

قال آبن خلّكان ـ رحمه الله ـ : وكان الشيخ يَعْرِف الفقه والأصلين والخلاف والمنطق والطبيعي والإلهي والمَجَسْطِي وإقْلِيدِس والهيئة والحساب

---

(١) تقدمت وفاته في حوادث سنة ٢٤٩هـ.

(٢) هو محمد بن محمد بن عروس الشيرازي، الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٢٨٠هـ، كما جاء في فوات الوفيات. وقد ذكر صاحب الفوات هذين البيتين واللذين قبلهما لعلي بن الجهم في مناظرة جرت بين الاثنين.

(٣) في الفوات: «بفَيْد».

(٤) في الفوات: «فينا».

(٥) راجع حوادث سنة ٥٨٣هـ.

والجبر والمقابلة والمِساحة والمُوسِيقى معرفة لا يشاركه فيها غيرُه. ثم قال بعد ثناء زائد إلّا أنه كان يُتَّهَم في دينه لكون العلوم العقلية غالبةً عليه.

وعمل فيه العِماد المَغْربيّ وهو عمر[١] بن عبد النور الصَّنْهاجي النحويّ هجواً ـ رحمه الله تعالى ـ : [الطويل]

أجدّك أنْ قد جاء بعدَ التعبُّسِ غزالٌ بوصلٍ لي وأصبح مُؤْنِسِي
وعاطيته صَهْباءَ من فيه مَزْجُها كرقّة شِعْرِي أو كدِينِ آبن يُونُسِ

وكان العِماد المذكور قد مدَحه قبل ذلك بأبيات منها: [الطويل]

كمالُ كمالُ الدين للعلم والعُلا فهيهاتَ ساعٍ في مَساعيكَ يَطْمَعُ
إذا آجتمع النُّظّارُ في كلّ موطنٍ فغايةُ كلٍّ أن تقول ويسمعُوا
فلا تحسَبُوهم من عنادٍ تَطَيْلَسُوا ولكنْ حياءً وآعترافاً تَقَنَّعُوا

ومن شعر آبن يونس ما كتبه لصاحب المَوْصل يشفَع عنده شفاعة، وهو: [الكامل]

لئن شَرُفَتْ أرضٌ بمالك قدرِها[٢] فمملَكَةُ الدنيا بكُم تَتَشَرَّفُ
بَقِيتَ بَقَا نوحٍ وأمرُك نافذٌ وسَعْيُك مشكورٌ وظلُّكَ مُنْصِفُ[٣]
ومُكّنت في حفظ البَسيطة مثلَ ما تمكّن في أمصار فِرْعونَ يُوسفُ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي العلاّمة شمس الدين أحمد بن الحسين بن أحمد الإِرْبلِيّ ثم المَوْصِلِيّ الضَّرير النحويّ صاحب التصانيف. وأحمد بن يعقوب أبو العَيْناء المارَسْتَانِيّ الصُّوفِيّ في ذي الحجّة. والفقيه إسحاق بن طَرْخان الشَّاغُورِيّ في رمضان، وله نحوُ تسعين سنة. وأبو الطاهر إسماعيل بن ظَفَر النابُلُسيّ في شوّال، وله خمس وستّون سنة. وأبو عليّ

(١) توفي سنة ٦٤٩هـ. (انظر ابن خلكان: ٣١٦/٥، ٣١٧).
(٢) في ابن خلكان: «بمالك رقّها». وفي البداية والنهاية: «لئن زيّنت دنيا بمالك أمرها».
(٣) في ابن خلكان والبداية والنهاية:
بقيت بقاء الدهر أمرك نافذٌ وسعيك مشكور وحكمك منصف

الحسن بن إبراهيم بن هِبة الله بن دِينار الصائغ في جُمادَى الآخرة. وخطيب بيت[١] لهيَا أبو الرَّبيع سليمان بن إبراهيم بن هِبة الله بن رحمة الإِسْعِرديّ الحنبليّ في شهر ربيع الآخر. والفقيه عبد الحميد بن محمد بن أبي بكر بن ماض. والعلاّمة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونُس المَوْصِليّ، ذو الفنون في شعبان عن تسع وثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ستَّ عشرةَ ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر

وهي سنة أربعين وستّمائة.

فيها كان الوباء ببغداد وتزايدت الأمراض. وتُوُفّي الخليفة المستنصر وبويع آبنه المستعصِم.

وفيها عزَم الملك الصالح المذكور على التوجّه إلى الشام، فقيل له: البلاد مختلة والعساكر مختلفة فجهّز إليها العساكر وأقام هو بمصر.

وفيها تُوُفّي كمال الدين أحمد بن صدر الدين شيخ الشيوخ بمدينة غَزّة في صفر عن ستّ وخمسين سنة، وبَنَى عليه أخوه مُعين الدين قُبّة على جانب الطريق، وكان قد كسره الجواد بعسكر الملك الناصر داود صاحب الكَرَك؛ وقيل: إنّه مات مسموماً. ومن شعره ما كتبه لابن عمّه سعد الدين: [البسيط]

لو أنّ في الأرض جَنّاتٍ مُزَخْرَفةً ... تحُفّ أركانَها الوِلْدانُ والخَدَمُ
ولم تَكُنْ رأى عَيْني فالوجودُ بها ... إذْ لا أراكَ وجودٌ كلُّه عَدَمُ

وفيها تُوُفّي الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو جعفر منصور آبن الخليفة

(١) بيت لهيا: من قرى غوطة دمشق.

الظاهر بأمر الله محمد آبن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد آبن الخليفة المستضيء بأمر الله حسن آبن الخليفة المستنجِد بالله يوسف العباسيّ الهاشمي البَغْداديّ. مولدُه في سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة ببغداد، وأمّه أمّ ولد تركيّة؛ بُويع بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر بأمر الله في شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة؛ ولمّا وَلِي الخلافة نشر العدل في الرعايا وبذَل الإنصاف، وقرّب أهلَ العلم والدين، وبَنَى المساجد والرُّبُطَ والمدارسَ، وأقام منارَ الدين وقمعَ المتمردة، ونشَر السنن وكفَّ الفتن. وكان أبيض أشقر الشعر ضَخْماً قصيراً، وخَطَه الشيب فخضَب بالحنّاء، ثم ترك الخِضاب. ومات في العشرين من جُمادَى، وقيل: في يوم الجمعة عاشر جُمادَى الآخرة عن إحدى وخمسين سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام وكُتِم موتُه، وخُطِب له يومئذٍ بالجامع حتى أقبل شرف الدين إقبال الشَّرَابيّ ومعه جمع من الخدّام، وسلّم على ولده المستعصم بالله أمير المؤمنين، وآستدعاه إلى سُدّة الخلافة ثم عرَّف الوزير وأستاذ الدار، ثم طلبوا الناس، وبايعوه بالخلافة وتمّ أمْره.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي زين الدين أحمد بن عبد الملك بن عثمان المقْدِسيّ المحدِّث الشُّرُوطِيّ. وإبراهيم بن بركات بن إبراهيم الخُشُوعِيّ في رجب. وعبد العزيز بن محمد بن الحسن بن عبد الله ويعرف بآبن الدجاجيّة. وعلم الدين عليّ بن محمود آبن الصابونيّ الصُّوفي في شوّال، وله أربع وثمانون سنة. وأبو الكَرَم محمد بن عبد الواحد بن أحمد المتوكِّلي، المعروف بآبن شُفْنِين في رجب، وله إحدى وتسعون سنة. والمستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر، وله آثنتان وخمسون سنة، توفّي في جُمادى الآخرة، وكانت خلافته ثلاث عشرة سنة.

قلت: لعل الذهبيّ وهم في مدّة خلافته، والصحيح أنّه ولي سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وتوفّي سنة أربعين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر

وهي سنة إحدى وأربعين وستمائة.

فيها تردّدت الرسل بين السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب المذكور وبين عمّه الملك الصالح إسماعيل صاحب الشام [في الصلح]؛ وكان الملك المغيثُ بنُ الصالح نجم الدين هذا في حبس الصالح إسماعيل صاحب الشام بدمشق، فأطلقه الصالح إسماعيل وخَطَب للصالح هذا ببلاده، ثم تغيّر ذلك كلّه وقبَض الصالح إسماعيل ثانياً على الملك المغيث بن الصالح نجم الدين وحبَسه.

قال أبو المظفر ــ رحمه الله ــ: «وفيها قدِمتُ القاهرة وسافرتُ إلى الإسكندريّة في هذه السنة، فوجدتُها كما قال الله تعالى: ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ معمورةً بالعلماء، مغمورةً بالأولياء، [الذين هم في الدنيا شامة][1]: كالشيخ محمد القَبَّارِيّ والشاطِبيّ وآبن أبي أسَامة. وهي أولى بقول القَيْسرانيّ رحمه الله في وصف دمشق: [البسيط]

أرضٌ تَحُلّ الأماني من أماكنها ... بحيثُ تجتمعُ الدنيا وتفترقُ
إذا شدى الطير في أغصانها وقَفَتْ ... على حدائقها الأسماعُ والحَدَقُ

قلت: وأين [قول] أبي المظفَّر من قول مُجير الدين بن تَميم في وصف الإسكندريّة!: [الكامل]

لمّا قصدتُ سكندريّة زائراً ... ملأتْ فؤادي بهجةً وسُرُورا
ما زرتُ فيها جانباً إلاّ رأتْ ... عينايَ فيها جنّةً وحريرا

وفيها صالحَ صاحبُ الروم التتارَ على أن يدفع إليهم في كلّ يوم ألفَ دينار وفرساً ومملوكاً وجارية وكلبَ صيد؛ وكان صاحب الروم يومئذ آبن علاء الدين كَيْقُباذ، وهو شابَ لعّاب ظالم قليلُ العقل، يلعب بالكلاب والسباع ويسلّطها على الناس فعضّه بعد ذلك سَبُعٌ فمات، فأقام التتارُ شِحْنةً على الروم.

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

وفيها توفّي الشيخ نجم الدين خليل بن عليّ بن الحسين الحمَويّ الحنفيّ الفقيه. قدِم دِمَشْقَ وتفقّه بها وخدَم المعظَّم ودرَس في الرَّيْحانيّة بدِمشق، وناب في القضاء بها عن الرَّفِيـع[١]. ومات في شهر ربيـع الأوّل ودُفِن بقاسيون.

وفيها تُوُفّي مظفَّر الدين الملك الجواد يـونس بن مودود بن الملك العـادل أبـي بكر بن أيّوب. وقد تقدّم من ذكره نبذةٌ كبيرة عند وفاة الملك الكامل محمد بدِمشق. اِنتهى. وكان مظفَّر الدين هذا قد جاء إلى آبن عمّه الملك المعظّم لمّا وقَـع بينه وبين الملك الكامل صاحب مصر [ما وقـع] فأحسن إليه المعظَّم، ثم عاد إلى مصر لما مات الملك الأشرف موسى شاه أرمن، فأقام بها عند الكامل إلى أن عاد صحبتَه إلى دِمشق وأقام بها إلى أن مات الكامل فملّكوه دِمشق، حسب ما حكيناه في ترجمة الكامل والعادل آبنه، ووقَـع له بعد ذلك أمور. وكان جواداً كما آسمه، ويحبّ الصالحين والفقراء.

قال أبو المظفَّر: « إلّا أنّه كان حوله مَنْ ينهب الناس ويظلِم وينسُب ذلك إليه». قلت: ثمّ قَبض عليه عمه الملك الصالـح إسماعيل وآعتقله، فطلبه الفرنـجُ لصحبة[٢] كانت بينهم، فخنَقه آبن يغمور وقال: إنّه مات، وكان ذلك في شوّال، ودفن بقاسِيُون دِمشق في تربة المعظَّم. وأمّا آبن يغمور فإنه حُبِس بإذن الصالـح بقلعة دِمشق، ثـم شنقه الملك الصالـح أيّوب لما ملَك دمشق. بعث به آبن شيـخ

(١) هو عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل، أبو حامد الملقب بالرفيـع، قاضي القضاة بدمشق. سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٤٢هـ.

(٢) ذكر سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان عن الملك الجواد هذا أنه لما تقلّبت به الأحوال بسبب خلافه مـع أبناء أسرته، قصد الصليبيين وأقام معهم، وحضر معهم غزوهم قلنسوة، وأنهم قتلوا ألفاً من أهلها المسلمين وهو لا يحرّك ساكناً. وقد انفرد القلقشندي في صبح الأعشى بإيراد نص رسالة هامة من الملك الجواد إلى فردريك الثاني ملك بيت المقدس، وهي توضح العلاقات المتينة التي كانت تربط الجواد بالصليبيين. ومن المعروف عن الجواد أنه كان فيه طيش وحمق وتبذير، وكان يقول: «مالي وللملك! باز وكلب أحبّ إليّ منه!». (انظر صبـح الأعشى: ١٢٤/٧؛ والقلقشندي وكتابه صبـح الأعشى: بحث حول وثائق صبح الأعشى للدكتور عبد القادر طليمات، ص ١١٩؛ والأعلام: ٢٦٣/٨).

الشيوخ إلى مصر، فحبسه الصالح بالجُبّ، ثمّ شنقه بعد مدّة هو وأمين[١] الدولة على قلعة القاهرة.

وفيها توفّي الشيخ الصالح الزاهد أبو بكر [الشُّعَيْبي][٢]؛ كان من أهل مَيّافارِقين وكان من الأَبْدال، بعث إليه غازِي صاحب ميّافارقين مراراً يسأله الإذن في الزيارة، فلم يأذن له، فقيل له: هل يطرقُ البلادَ التتارُ؟ فرفع رأسه إلى السماء وأنشد: [الطويل]

وما كُلُّ أسرار القلوب مباحةٌ ولا كلُّ ما حلَّ الفؤادَ يُقالُ

ثم خرج إلى الشُّعَيْبة وهي قرية هناك وقال: اِحفروا لي ها هنا، فبعد يومين أموت، فمات بعد يومين ــ رحمه الله تعالى ــ .

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي أبو تَمّام عليّ ابن أبي الفَخَار هِبة الله بن محمد الهاشميّ خطيب جامع آبن المطَّلب [ببغداد][٣]، وله تسعون سنة. وأبو الوفاء عبد الملك بن عبد الحقّ [بن عبد الوهّاب بن عبد الواحد][٣] بن الحَنْبلي. وأمّ الفضل كريمة بنت عبد الوهاب القُرَشِيّة في جمادى الآخرة. والعدل أبو المَكارم عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عبد الواحد [بن محمد][٣] بن هِلال في رجب. وأبو طالب عبد اللطيف بن محمد بن عليّ بن القُبَّيطِيّ التاجر، وله ستٌّ وثمانون سنة. وأبو محمد عبد الحقّ بن خَلَف الحنبليّ. وأبو الرضا عليّ بن زيد التَّسَارَسِيّ[٤] الخيّاط بالثغر. والأعزّ بن كرم بن محمد الإسكاف. والقاضي شمس الدين عمر بن أسعد بن المُنَجّا الحنبليّ، وله أربع وثمانون سنة. والحافظ تقُي الدين إبراهيم بن محمد بن الأزهر بدِمشق، وله ستون

---

(١) هو أمين الدولة بن غزال بن أبي سعيد، أبو الحسن. كان سامرياً وأسلم في دمشق. استوزره الملك الأمجد بهرام شاه ثم استوزره الملك الصالح إسماعيل. (الأعلام: ١٧/٢؛ وفيه أنه قتل سنة ٦٤٨هـ).

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٣) زيادة عن الشذرات.

(٤) التَّسارسي: نسبة إلى تسارس، قصر ببرقة. (معجم البلدان).

سنة. وقيصر بن فَيْرُوز المُقْرىء البوّاب في رجب. وقاضي القضاة الرَّفيـع الحنبليّ في آخر السنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع، وقيل أكثر. مبلـغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثماني أصابـع.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الصالـح نجم الدين أيّوب على مصر

وهي سنة آثنتين وأربعين وستمائة.

فيها تُوفّي شِهاب(١) الدين أحمد [بن محمد](٢) بن الناقد وزير الخليفة. كان أبوه وكيلَ أمّ الخليفة الناصر لدين الله، ونشأ آبنه هذا وتنقّل في الخِدَم حتّى ولي الوزارةَ للخليفة المستنصر، ولقب مؤيّدَ الدين، وحَسُنَتْ سيرته. وكان رجلاً صالحاً فاضلاً عفيفاً ديّناً صار في وزارته أحسنَ سِيرة ــ رحمه الله تعالى ــ.

وفيهـا توفّي شيـخ الشيـوخ تاج الـدين أبو محمـد عبد الله بن عمـر [بن عليّ](٣) بن محمد بـن حَمّويه. كان فاضلاً نزهاً شريفَ النفس عاليَ الهمّة؛ صنّف التاريـخ(٤) وغيره، وكان معدوداً من العلماء الفضلاء. ومات في صفر.

وفيها قُتِل القاضي الرَّفيع عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل أبو حامد الملقب بالرَّفيـع. قال أبو المظفر في تاريخه: قيل إنّه كان فاسدَ العقيدة دَهْرِياً مستهتراً بأمور الشريعة، يخرج إلى الجمعة سكران، وكذلك كان يجلس في مجلس الحكم، وكانت داره مثل الحانات؛ قَبَض عليه أمين الدولة وبَعث به في الليل إلى بَعْلَبَكّ، وصُودر هناك، وباع أملاكه؛ وبعد ذلك جـاءه داود النصرانيّ فقـال:

---

(١) في البداية والنهاية والفخري: «نصير الدين أبو الأزهر».

(٢) زيادة عما سبق.

(٣) زيادة عما سيأتي.

(٤) لعله كتاب «عطف الذيل» في التاريـخ. (الأعلام: ٤/ ١١٠).

قد أمرنا بحملك إلى بعلبكّ، فأيقَن بالهلاك؛ فقال: دَعُوني أُصلي ركعتين! فقال له داود: صلِّ، فقام يُصلِّي فأطال، فرَفسه داود من رأس شقيف مطلّ على نهر إبراهيم فوقَع، فما وصل إلى الماء إلا وقد تقطّع ـ وقيل: إنّه تعلّق بذيله بسِنّ الجبل فما زال داود يضربه بالحجارة حتّى قتلَه ـ قلت: لا شُلّت يداه! فإنّه كان من مساوىء الدنيا!.

وفيها توفّي الملك المُغيث عمر بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب صاحب الترجمة؛ مات في حياة والده الملك الصالح في حبس دِمَشْق ـ بعد أن عجز والده في خلاصه ـ في يوم الجمعة ثاني عشرين شهر ربيع الآخر، وحُمِل إلى تربة جدّه الملك الكامل محمد فدُفن بها؛ وكان شاباً حسناً عاقلاً ديِّناً. وقد مرّ من ذكره نبذة كبيرة في عدّة مواضع من هذا الكتاب.

وفيها توفِّي شمس الأئمة محمد بن عبد الستار[1] بن محمد الإمام العلّامة فريدُ دهره ووحيدُ عصره المعروف بشمس الأئمة الكَرْدرِيّ[2] البَراتَقِينيّ الحنفيّ. وبَرَاتَقِين: قصبة من قصبات كَرْدَر من أعمال جُرْجَانِيّة. قال الذهبيّ: كان أستاذَ الأئمة على الإطلاق والموفودَ إليه من الآفاق؛ برَع في علوم، وأقرأ في فنون؛ وآنتهت إليه رياسة الحنفيّة في زمانه. اِنتهى قلت: وشمس الأئمة أحد العلماء الأعلام وأحد من سار ذكره شرقاً وغرباً، وآنتشرتْ تصانيفُه في الدنيا ـ رحمه الله تعالى ـ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفِّي شيخ الشيوخ تاج الدين عبد الله بن عمر بن عليّ الجُوَيْنِيّ في صفر، وله سبعون سنة. وأبو المنصور ظافر بن طاهر [بن ظافر بن إسماعيل][3] بن سحم الأزدي المطرّز بالإسكندريّة في شهر ربيع الأوّل. وأبو الفضل يوسف بن عبد المعطي بن منصور بن نجا العساليّ. آبن المَخِيليّ أحد رؤوس الثغر في جمادى الآخرة، وله أربع وسبعون سنة.

---

(١) في الشذرات: «محمد بن عبد الغفار».

(٢) كذا في الشذرات، نسبة إلى كردر ناحية بخوارزم. وفي الأصل: «الكردي» وهو تحريف.

(٣) زيادة عن الشذرات.

وأبو الضوء قمر بن هلال بن نـطّاح القطيعِيّ في رجب. وتاج الدين أحمد بن محمد بن هبة الله بن محمد بن الشّيرازِيّ في رمضان، وقد نيّف على السبعين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر

وهي سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

فيها كان الحِصار على دِمَشْق من الخُوَارَزْميّة.

وفيها كان الغلاء العظيم بدِمَشْق، وبلَغت الغِرارة القمح ألفاً وستمائة درهم، وأبيعت الأملاك والأمتعة بالهَوان.

وفيها أيضاً كان الغلاء بمصر، وقاسى أهلها شدائد.

وفيها توفِّي الوزير مُعِين الدين الحسن آبن شيخ الشيوخ أبو عليّ وزير الملك الصالح أيّوب، وهو الذي حصر دِمشق فيما مضى. كان آستوزره الملك الصالح بعد أخيه عماد الدين، وكانت وفاته بدِمَشْق في شهر رمضان، ودُفِن إلى جانب أخيه عِماد الدين المذكور بقاسِيُون.

وفيها توفِّي عبد المحسن بن حَمود بن [عبد][1] المحسن أبو الفضل أمين الدين الحَلَبِيّ؛ كان كاتباً لعزّ الدين أَيْبك المعظّميّ، وكان فاضلاً ديِّناً بارعاً حسن الخط. ومن شعره في إجازة ـ رحمه الله تعالى ـ: [المتدارك]

قد أجزتُ الذي فيها إلى ما آلتمسوه مني

[فلهم بعدها رواية ما صح لديهم من الرواية عني][2]

(١) زيادة عن الأعلام وفوات الوفيات.

(٢) هذا البيت غير مستقيم الوزن.

وكانت وفاته في شهر رجب، ودُفن بباب[١] تُوما.

وفيها تُوفِّيت رَبِيعة خاتُون بنت أيّوب أختُ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، وأخت الملك العادل أبي بكر بن أيّوب؛ كان تزوّجها أوّلاً سعد الدين مسعود بن مُعين [الدين] أُنُر، وبعد موته تزوّجها صلاح الدين بن مظفَّر الدين بن زين الدين صاحب إرْبِل، ثم قدِمت دمشقَ، وهي صاحبة الأوقاف، وماتت بدمشق ودُفنت بقاسِيُون، وقد جاوزتْ ثمانين سنة.

وفيها توفِّي أحمد بن عيسى آبن العلامة موفّق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدَامة الإمام الحافظ الزاهد سيف الدين بن المجد الحنبليّ. وُلِد سنة خمس وستمائة. وسمع الحديثَ الكثير، وكتب وصنّف وجمعَ وخرّج، وكان ثقة حجّة بصيراً بالحديث ورجالِه، ومات في أوّل شعبان.

وفيها تُوفي عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبي نصر، الإمام المفتي تقيّ الدين أبو عمرو آبن الإمام البارع صلاح الدين النَّصْرِي الكُرْدِيّ الشَّهْرُزُوري الشافعيّ المعروف بآبن الصلاح. ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة وتفقّه على والده الصلاح بشَهْرُزور وغيره، وبرع في الفقه والحديث والعربيّة وشارك في فنون. ومات في شهر ربيع الآخر ودُفِن بمقابر الصوفيّة.

وفيها توفّي عليّ بن محمد بن عبد الصمد العلامة شيخ القُرّاء بدِمَشق علمُ الدين أبو الحسن الهَمَذانيّ السَّخاويّ المصريّ. ولد سنة ثمانٍ أو تسع وخمسين وخمسمائة؛ وكان إماماً عَلاّمة مقرئاً محققاً مجوِّداً بصيراً بالقراءات، ماهراً في النحو واللغة، إماماً في التفسير، مات بدمشق في جمادى الآخرة.

وفيها توفي محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل، الحافظ ضياء الدين أبو عبد الله المَقْدِسيّ السَّعْديّ ثم الدِّمَشْقيّ الصالحيّ صاحب التصانيف المشهورة. ولد سنة تسع وستين وخمسمائة، وسمِعَ الكثير ورحل

(١) من أبواب دمشق.

البلاد، وكتب وصنّف وحصّل شيئاً كثيراً من الأجزاء والأسانيد. ومات يوم الاثنين الثامن والعشرين من جُمادَى الآخرة، وله أربع وسبعون سنة.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مقرّب التُّجِيبِي الإسكندريّ في صفر. والحافظ أبو العبّاس أحمد بن محمود بن إبراهيم بن نَبْهَان بن الجوهريّ بدمشق في صفر. والحافظ العّلامة تقيّ الدين عثمان بن الصلاح عبد الرحمن بن عثمان الكُرْدِيّ في شهر ربيع الآخر، وله ست وستون سنة. والحافظ سيف الدين أحمد بن المجد عيسى بن الموفَّق في شعبان. والحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المَقْدِسيّ في جُمادَى الآخرة، وله أربع وسبعون سنة. والحافظ الفقيه تقيّ الدين أحمد بن المعزّ محمد بن عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدِسيّ في شهر ربيع الآخر، وله آثنتان وخمسون سنة. والحافظ المفيد تاج الدين محمد بن أبي جعفر [أحمد بن عليّ][1] القُرْطُبيّ إمام الكَلاّسة في جُمادَى الأولى. والرئيس عزّ الدين آبن النسّابة محمد بن أحمد بن محمد [بن الحسن][1] بن عَسَاكر في رجب، وله ثمانٍ وسبعون سنة. والعلامة موفَّق الدين يَعيش بن عليّ بن يعيش النحويّ بحلب في جمادَى الأولى، وله تسعون سنة. والعَلاّمة علم الدين عليّ بن محمد بن عبد الصمد الهَمَذانيّ السَّخَاوِيّ المُقْرِىء المفسِّر؛ وله خمس وثمانون سنة في جُمادَى الآخرة. وأبو غالب منصور بن أحمد بن أبي غالب [محمد بن محمد][1] المَرَاتِبِيّ آبن المعوج فيه، وله ثمان وثمانون سنة. وخطيب الجبل شرف الدين عبد الله آبن الشيخ أبي عمر [محمد][1] المَقْدِسيّ فيه أيضاً. والحافظ مجد الدين محمد بن محمود بن حسن [بن هبة الله بن مَحَاسِن][1] بن النجّار محدث العراق في شعبان، وله خمس وتسعون سنة. والصاحب مُعِين الدين حسن آبن شيخ الشيوخ صَدْر الدين محمد بن عمر الجُوَينيّ بدِمشق في رمضان. والشيخ أبو الحسن عليّ بن الحسين بن المقيِّر النجّار بمصر في ذي القعدة، وله ثمانٍ وتسعون سنة. وأبو بكر محمد بن سعد بن المُوَفقّ الصُّوفِيّ بن الخازن ببغداد في ذي الحجة، وله

(١) الزيادة عن الشذرات.

سبع وثمانون سنة. والأمير سيف الدين عليّ بن قِلِيج، ودُفن بتربته داخل دِمشق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وأربع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيُّوب على مصر

وهي سنة أربع وأربعين وستمائة.

فيها تُوفِّي الملك المنصور صاحب حِمْص، وآسمه إبراهيم بن شِيرِكُوه بن محمد بن أسد الدين شِيركُوه الكبير أخو أيُّوب. كان المنصور هذا شجاعاً متواضعاً موافقاً للملك الصالح إسماعيل ومصاهِراً له. ومات بدِمَشق في يوم الأربعاء حادي عشر صفر، وحُمِل في تابوت إلى حمص، ومات وله عشرون سنة. وقام بعده على حِمْص ولده الأشرف موسى، فأقام بها سنتين وشهوراً وأخِذتْ منه.

وفيها تسلَّم السلطان الملك الصالح أيُّوب قلعة الصُّبَيْبَة[١] من آبن عمّه الملك السعيد آبن الملك العزيز، ثم أخذ السلطانُ أيضاً حصن الصَّلْت[٢] من الملك الناصر داود صاحب الكَرَك.

وفيها قدِم رسولانِ من التَّتار إلى بغداد، أحدهما من برَكَةَ خان، والآخر من باجو[٣]، فآجتمعا بالوزير مؤيّد الدين آبن العَلْقَمِيّ، فَتَغمَّت على الناس بواطن الأمور.

وفيها أخذت الفِرنْجُ مدينةَ شاطِبَة[٤] من بلاد المغرب صلحاً، ثم أجْلَوْا أهلَها بعد سنة عنها. فما شاء الله كان.

---

(١) قلعة الصبيبة: قلعة منيعة في بانياس، من عمل دمشق. (صبح الأعشى: ٤/١٠٨).

(٢) حصن الصلت: في مدينة الصلت، من جند الأردن، في جبل الغور الشرقي في جنوب عجلون. وقد بنى هذا الحصن الملك المعظم عيسى (صبح الأعشى: ٤/١١٠).

(٣) كذا في الفخري. وفي الحوادث الجامعة لابن الفوطي: «بايجو». وفي الأصل: «ناخو».

(٤) شاطبة: مدينة بالأندلس، قريبة من جزيرة شقر (الروض المعطار: ٣٣٧).

وفيها توفّي بركة خان الخُوَارَزْميّ أحدُ الخانات الأربعة، كان أصلحهم في الميل إلى الخير، وكان الملك الصالـح نجم الدين ـ صاحب الترجمة ـ قد صاهرَه وأحسن إليه، وجرى منه [عليه] ما جرى في حياة والده الملك الكامل. ولمّا قُتِل آنحلّ نظامُ الخُوَارَزْمِيّة من بعده، وكان قتلهُ بالقرب من حلَبَ في قتال كان بينه وبين صاحب حلب وحِمْص. وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه في أوّل ترجمة الصالح هذا.

قال الأمير شمس الدين لؤلؤ: لمّا آلتقينا على حِمْص رأيتُ الخُوَارَزْمِيّة خَلْقاً عظيماً، وكنّا بالنسبة إليهم كالشّامة السوداء في الثور الأبيض، فقال لي غلماني (يعني مماليكه): أيُّما أحبُّ إليكَ، نأخذ بركة خان أسيراً، أو نَحمِل رأسه إليك؟ فقلت: رأسَه، كأنّ الله أنطقني وآلتقينا. فلمّا كان بعد ساعة وإذا بواحد من أصحابنا يحمل رأساً مليحَ الصُّورة وليس في وجهه سوى شَعَرات يسيرة، ولم يعرفه أحد ولا نحن عرَفناه، وآنهزموا، وجيء بطائفة منهم أُسارَى، فلمّا رأوا الرأسَ رَمَوْا نفوسهم من خيولهم وحَثَوُا الترابَ على رؤوسهم، فعلِمنا حينئذ أنّه رأسه، وبعثنا به إلى حلب.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو عبد الله محمد بن حسّان بن رافع العامريّ خطيبُ الموصل. وعبد المنعم بن محمد [بن محمد][1] بن أبي الضياء[2] الدِّمَشْقيّ بحَماةَ. والزاهد إسماعيل بن عليّ الكُورَانِيّ، ودُفن بمقابر الصُّوفيّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستُّ أذرع سواء. مبلـغ الزيـادة سبـعَ عشرةَ ذراعـاً وتسـع أصابـع.

* * *

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) في الشذرات: «ابن أبي المضاء».

السنة الثامنة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وأربعين وستِّمائة.

فيها نزل الوزير فخر الدين آبن الشيخ بعسكر الصالح نجم الدين المذكور على طَبَريّة ففتحها عَنْوَةً، وحاصر عسْقلان وقاتل عليها قِتالاً عظيماً [وأخذها المسلمون].

وفيها وجَّه الملك الصالح نجمُ الدين تاجَ الدين بن مهاجِر من مصر إلى دمشق ومعه المبارِز نسيبُه ومعهما تَذْكِرة فيها أسماء جماعة من أعيان الدَّمَاشِقَة بأن يُحْمَلوا إلى مصر فحُمِلُوا، وهم: مُحْيِي الدين بن الزّكِيّ وآبن الحَصِيرِيّ وآبن العِمَاد الكاتب وبنو صَصُرَّى الأربعة، وشرف الدين بن المعتمِد وآبن الخَطيب العَقْرَبَانِيّ والتاج [الإسكندرانيّ][1] الملقَّب بالشُّحْرُور وأبو الشامات والحكِيمِيّ مملوك إسماعيل وغازي والي بُصْرَى وآبن الهادي المُحتَسِب؛ وأخرَجَ العماد آبن خطيب بَيْت الأبّار من جامع دِمَشق، وولّى العمادَ الحَرَسْتَانِيّ الخطابةَ عوضَهَ. وسبب حَمْل هؤلاء الجماعة إلى مصر، أنّه نُقِل إلى الملك الصالح أيّوب أنهم خواصُّ الصالح إسماعيل، فخاف أن يَجْرِي ما جرى في النوبة الأولى من أخذ دِمشق. ولمّا وصلوا إلى مصر حبَس منهم السلطانُ الملك الصالح جماعةً فأقاموا في الحَبْس إلى أن مات الملك الصالح، فأُخْرِجوا وعادوا إلى دِمَشق.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي العَلاّمة أبو عليّ عمر بن محمد الأَزْدِيّ الإشْبِيليّ النحويّ الشَّلَوْبِينِي[2] في صَفَر، وله ثلاث وثمانون سنة. وأبو مَدْيَن شُعَيب بن يحيى الإسكندرانيّ الزَّعْفَرانيّ التاجر بمكّة ــ شرّفها الله تعالى ــ والشيخ عليّ [بن الحسن بن المنصور][3] الحَريريّ في رمضان عن سِنّ عالية.

---

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) الشلوبيني: نسبة إلى الشلوبين، وهي بلغة الأندلس: الأبيض الأشقر. (ابن خلكان).

(٣) زيادة عن فوات الوفيات.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستُّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرةَ ذراعاً وتسعَ عشرة إصبعاً.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيُّوب على مصر

وهي سنة ستّ وأربعين وستمائة.

فيها قايض الملكُ الأشرفُ موسى صاحبُ حِمْص تلَّ باشر بحمص مع الملك الناصر يُوسف [بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين] صاحب حلب، ولذلك خرج الملك الصالح نجم الدين أيُّوب هذا من مصر بالعساكر حسب ما ذكرناه في ترجمته، ثم عاد مريضاً لمّا بلغه مجيء الفرنج إلى دِمْياط.

وفيها أخَذ الملك الصالح نجم الدين المذكور من الأمير عَلَاء الدين أَيْدِكِين البُنْدُقْدَارِيّ الذي تسلطن [فيما بعد]. اِشتراه منه ورقّاه إلى أن صار من أمره ما صار.

وفيها زار الملك الصالح في عَوْده إلى مصر القُدْسَ الشريف، وأمر أن يُذْرَع سُورُه، فجاء ستةَ آلاف ذراع، فأمر بأن يصرف مُغَلّ القدس في عمارته. وتصدّق السلطان الملك الصالح بألفي دينار في الحرم، وزار الخَليل ـ عليه السلام ـ ثم عاد إلى مصر.

وفيها تُوفّي عليّ بن أبـي الجنّ بن منصور الشيخ أبو الجنّ. وأبو محمد[١] الحَريريّ، مقدَّم الطائفة الفقراء الحَرِيريَّة، وُلِد بقرية بُسْر[٢] وقدِم دِمَشق صبيّاً فنشأ بها. وفي أحوال الحَريريّ هذا أقوال كثيرة، أَثْنَى[٣] عليه أبو شامة وغيرُه، وتكلّم فيه جماعة منهم الذهبـيّ وغيرُه. والله أعلم بحاله. وقال آبن إسرائيل: وتوفّي في الساعة

(١) في الفوات: «أبو الحسن». وهو الذي ذكره في السنة الماضية عن وفيات الذهبـي.

(٢) بسر: من قرى حوران.

(٣) لم يثن عليه أبو شامة في الذيل على الروضتين ولا نعلم أحداً غيره أثنى عليه؛ وإنما وصفوه بالزندقة والاستهتار بأمور الشرع. ولعلّ التعبير هنا سبق قلم من المؤلف أو الناسخ.

التاسعة من يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان سنة خمس وأربعين من غير مرض، وكان أخْبر بذلك قبل موته بمدّة.

وفيها توفِّي عثمان بن عمر بن أبـي بكر بن يونس الشيخ الإمام العالم العَلاَّمة جمال الدين أبو عمرو المعروف بآبن الحاجِب الكُرْدِيّ المالِكيّ النحويّ الأُصوليّ صاحبُ التصانيف في النحو وغيره. مولده في سنة سبعين وخمسمائة بإسنا[1] من بلاد الصعيد، ومات في شوّال، وفي شهرته ما يُغْني عن الإطناب في ذكره ــ رحمه الله تعالى ــ.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها توفِّي أبو عليّ منصور آبن سَند[2] بن منصور المعروف بآبن الدبّاغ بالإسكندريّة في شهر ربيـع الأوّل. وأبو القاسم عبد الله بن الحسين بن عبد الله [بن الحسين بن عبد الله][3] بن رَوَاحَة الأنصاريّ في جُمادَى الآخرة. وله ستّ وثمانون سنة. وأمّ حَمْزة صفيّـة بنت عبد الوهّاب بن عليّ القُرَشيّة أخت كَريمة في رجب. والعلاّمة أبو الحسن عليّ بن جابر بن الدَّبّاح الإشْبِيلِيّ بها عند آستيلاء الفِرنْـج عليها. والوزير الأكرم عليّ بن يوسف جمال الدين القِفْطِي بحَلَب. والعلاّمة جمال الدين أبـو عمرو عثمـان بن الحاجب. وعمرو بن عبد الله بن أبـي بكر الإشْبِيلِيّ في شوّال بالإسكندريّة، وله ستٌّ وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأربـع وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

(١) إسنا: مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى، تقـع على الشاطىء الغربـي للنيل.

(٢) في الأصل: «أبو علي منصور بن سد بن الدماغ». وما أثبتناه عن تاريخ الإسلام للذهبـي.

(٣) زيادة عن الذهبـي.

السنة العاشرة من سلطنة السلطان الملك الصالح نَجْم الدين أيّوب على مصر

وهي سنة سبع وأربعين وستمائة.

وفيها كانت وفاته في شعبان، حسب ما تقدّم ذكره.

فيها في أوّلها كان عَوْد السلطان الملك الصالح المذكور من دِمَشْق ـ حسب ما ذكرناه في العام الماضي ـ قال الذهبيّ: وفيها في أوّلها عاد الملك الصالح إلى الديار المصريّة مريضاً في محفَّة، وكان قد قتَل أخاه الملكَ العادلَ قبل خروجه من مصر فما هنّأه الله. وآستعمل على نِيابة دِمَشْق الأميرَ جمالَ الدين بن يَغْمُور. قال: وفيها ولدت آمرأةٌ ببغداد آبنين وبنتين في جَوْف، وشاع ذلك فطُلبوا إلى دار الخلافة وأُحْضِروا، وقد مات واحد، فأُحضر ميتاً فتعجّبوا، وأُعطيتِ الأُمّ من الثياب والحُلِيّ ما يبلغ ألفَ دينار.

وفيها توجّه الملك الناصر داود صاحب الكَرَك إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، وبلغ السلطانَ الملكَ الصالح نَجم الدين ذلك، فأرسل إلى نائبه آبن يَغْمُور بدِمَشْق بخراب دار أُسامَة وقَطع شجرِ بستان القَصْر الذي للنّاصر داود بالقَابُون[1] وخَراب القصر، ففعَل ذلك.

وفيها سار الملك الظاهر [شادِي] والملك الأمجد آبنا الملك الناصر داود المقدّم ذكره من الكَرَك إلى مصر، وسلمّا الكَرَك إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين بغير رضا أبيهما الناصر، فأعطى الملكُ الصالح للظاهر بن الناصر داود عِوَضاً عن الكَرَك خبز[2] مائتي فارس بمصر، وخمسين ألف دينار، وثلاثمائة قطعة قماش، والذخائر التي بالكَرَك؛ وأعطى لأخيه الأمجد إخْمِيم[3]، وخبزَ مائة وخمسين

(١) القابون: على مسافة ميل واحد من دمشق في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين. (معجم البلدان).

(٢) الخبز في اصطلاح ذلك العصر هو الإقطاع. ولعلّ المؤلف يستعمله هنا بمعنى العطاء بشكل عام، أو الراتب والجامكية.

(٣) إخميم: بلدة قديمة بصعيد مصر على شاطىء النيل.

فارساً بمصر؛ فلم تَطُلْ مدّتُهم بمصر ومات الملك الصالح وزال ذلك كلُّه من أيديهم حسب ما تقدّم ذكره، وحسب ما يأتي ذكره أيضاً.

وفيها هاجمت الفِرنـج دِمْياط وأحاطت بها في شهر ربيـع الأوّل، وقد ذُكر ذلك كلّه.

وفيهـا توفِّي الصّـاحب فخر الـدين يوسف بن صـدر الدين شيـخ الشيـوخ [أبي الحسن محمد بن عمر بن عليّ بن محمد بن حمّويه الجُوَيْنِيّ][1]. كان عاقلاً جَواداً ممدّحاً مدبِّراً خليقاً بالملك محبوباً إلى الناس. ولمّا مات الملك الصالـح نَجْم الدين أيّوب على دِمياط ندب إلى الملك فآمتنع، ولو أجاب لما خالفوه، وآستُشْهِد على دِمْياط بعد أخذها. ومن شعره قوله: [الطويل]

عَصَيْتُ هَوى نفسِي صغيراً فعِنْدَمَا رَمَتْنِي الليـالِي بالمَشِيب وبـالكِبَرْ
أطعتُ الهوى عكسَ القضيّة ليْتَنِي خُلِقْتُ كبيراً وآنتقلتُ إلى الصِّغَرْ

قلت: ويُذكر هذا الشعر أيضاً لغيره فيما يأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها توفِّي أبو يعقوب يوسف ابن محمود بن الحسين الساوِيّ في رجب بالقاهرة؛ وولد بِدمَشْق في سنة ثمان وستّين. والسلطان الملك الصالـح نجم الدين أيُّوب بن الكامل بن العادل بالمنصورة في شعبان، وله أربـع وأربعون سنة. والأمير مقدَّم الجيوش فخر الدين يوسف ابن شيـخ الشيوخ صدر الدين الجُوَيْنِيّ في ذي القعدة شهيداً يوم وقعة المنصورة. وأبـو جعفر محمـد بن عبـد الكـريم بن محمـد ببغـداد. وصَفِيّ الـدين عمـر بن عبد الوهّاب بـن البَرَادِعِيّ في شهر ربيـع الآخر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وستُّ أصابـع. مبلـغ الزيادة سبـعَ عشرةَ ذراعاً وثماني أصابـع.

---

(١) زيادة عن الذهبي والشذرات.

ذكر سلطنة الملك المعظَّم تُوران شاه[1] على مصر

هو السلطان الملك المعظَّم تُوران شاه آبن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيُّوب آبن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد آبن الملك العادل سيف الدين محمد أبي بكر آبن نجم الدين أيّوب بن شادِي، سلطان الديار المصريّة الأيُّوبيّ الكُرْدِيّ، آخر ملوك بني أيّوب بمصر؛ ولا عِبْرة بولاية الأشرف في سلطنة الملك المعزّ أيْبَك.

تسلْطن الملك المعظَّم هذا بعد موت أبيه الملك الصالح بنحو شهرين ونصف، وقيل: أربعة أشهر ونصف وهو الأصّح؛ لأنّ الملك الصالح أيُّوب كانت وفاته في ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة، والفِرنْج مُحْدِقَةٌ بعساكر الإسلام، فأخْفَتْ زوجتُه أمّ ولدِه خَليل شجرةُ الدُّر موته مخافةً على المسلمين، وبايعوا لابنه المعظَّم هذا بالسلطنة في غَيْبته، وصارت شجرةُ الدُّرّ تدبِّر الأمور وتُخْفِي موت السلطان الملك الصالح إلى أن حضَر المعظَّم تُوران شاه هذا من حصن كَيْفَا إلى المنصورة في أوّل المحرّم من سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة. وكان المعظَّم هذا نائباً لأبيه الملك الصالح على حصن كَيْفَا وغيرِها من ديار بكر.

ولمّا وصَل المعظَّم إلى المنصورة فتح الله على يديه، ونصر، الله الإسلام في يوم دخوله فتيمّن الناسُ بطَلْعته. وسببُ النصر أنّه لمّا آستهلّتْ سنةُ ثمانٍ وأربعين والفِرنْجُ على المنصورة والجيوش الإسلاميّة بإزائهم، وقد طال القتال بين الفريقين

---

(١) أخباره وترجمته في: السلوك: ٣٥١/٢/١، وذيل الروضتين: ١٨٥، وكنز الدرر: ٣٨١/٧، والشذرات: ٢٤١/٥، وشفاء القلوب: ٤٢٦، وبدائع الزهور: ٢٧٩/١، وخطط المقريزي: ٢٣٦/٢، وابن خلكان: ٣٠٦/١.

أشهراً ضعُف حال الفرنـج لانقطاع المِيرَة عنهم، ووقـع في خيلهم وَبَاءٌ وموت، وعزَم مَلِكهم الفَرَنْسِيسُ[١] على أن يركب في أوّل الليل ويسير إلى دِمْياط، فعلِم المسلمون بذلك. وكان الفِرنـج قد عمِلوا جِسْراً عظيماً من الصَّنَوْبَر على النيل، فسهَوْا عن قطعه، فعبَر منه المسلمون في الليل إلى بَرِّهم، وخيامهم على حالها وثِقْلُهم، وأحدَق المسلمون بهم يتخطَّفونهم طولَ الليل قتلاً وأسراً، فالتجؤوا إلى قرية تسمى مُنْيَة[٢] أبي عبد الله وتحصّنوا بها، ودار المسلمون حولها، وظفِر أسطول المسلمين بأسطولهم، فغنِموا جميعَ المراكب بمَن فيها. وآجتمـع إلى الفرنسيس خمسُمائة فارس من أبطال الفِرنْج، وقعد في حوش مُنْيَة أبـي عبد الله؛ وطلب الطَّواشِي رشيد[٣] [الدين]، والأمير سيف الدين القَيْمُرِيّ فحضرا إليه؛ فطلب منهما الأمان على نفسه ومن معه؛ فأجاباه وأمّناه وهرب باقي الفرنـج على حَمِيّة[٣]؛ وأحدق المسلمون بهم؛ وبَقُوا يحملون عليهم حملةً بعد حملة، حتّى أُبيـدت الفرنـج، ولم يبق منهم سوى فارسين، فرَموْا نفوسَهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا، وغنِم المسلمون منهم ما لا يوصف وآستغنَى خلق؛ وأُنزل الفرنسيس في حَرَّاقة، وأُحْدقتْ به مراكب المسلمين تُضـرب فيها الكُوسات[٤] والطُّبول. وفي البرّ الشرقيّ العسكر سائر منصور مؤيّد، والبرّ الغربـيّ فيه العُربان والعامّة في لهوٍ وتَهَانٍ وسرور بهذا الفتـح العظيم، والأسرى تقاد في الحبال؛ فكان يوماً من الأيّام العظيمة المشهودة.

---

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا. راجع ص ٢٩٢ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) منية أبـي عبد الله: هذه القرية لا تزال موجودة إلى اليوم على الشاطىء الشرقي لفرع النيل الشرقي (فرع دمياط) وتعرف اليوم باسم «ميت الخولي عبد الله» إحدى قرى مركز فارسكور بمديرية الدقهلية. (محمد رمزي).

(٣) جاء في السلوك للمقريزي: «... وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، ونزلوا على أمانه؛ وأخذوا إلى المنصورة، فقيّد الملك ريدافرنس بقيد من حديد، واعتقل في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان ــ كاتب الإنشاء ــ التي كان ينزل بها من المنصورة، ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظّمي، واعتقل معه أخوه».

(٤) الكوسات: صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. (صبح الأعشى: ٤/٩).

وقال سعد الدين [بن حمويه](١) في تاريخه: لو أراد الفَرَنْسِيسُ أن ينجوَ بنفسه لخلص على خيل سَبقٍ أو في حَرّاقة، لكنّه أقام في الساقة يَحْمِي أصحابه. وكان في الأسر ملوكٌ وكنود(٢) من الفِرنْج. وأُحْصِيَ عدّةُ الأسرى فكانوا نيّفاً وعشرين ألفَ آدميّ، والذي غرق وقُتِل سبعة آلاف نفس. قال: فرأيت القتلى وقد ستروا وجه الأرض من كثرتهم، وكان الفارس العظيم يأتيه وسائقٌ يسوقه وراءه كأذلِّ ما يكون، وكان يوماً لم يشاهد المسلمون مثله؛ ولم يُقْتَل في ذلك اليوم من المسلمين مائةُ نفس، ونفّذ السلطان الملك المعظَّم توران شاه للفَرَنْسِيس والملوك الذين معه والكنود خِلعاً. وكانوا نيّفاً وخمسين، فلبِس الكلُّ سواه. وقال: إنّ بلادي بقدر بلاد صاحب مصر، كيف ألبَس خِلعتَه! وعمِل السلطان من الغد دعوة عظيمة فآمتنع الملعون أيضاً من حضورها؛ وقال: أنا ما آكل طعامه وما يُحْضِرني إلا ليَهْزأ بي عسكره ولا سبيلَ إلى هذا! وكان عنده عقلٌ وثباتٌ ودِين، فالنصارى كانوا يعتقدون فيه بسبب ذلك. وكان حسَنَ الخِلْقة. وأبقَى الملكُ المعظَّم الأسرى، وأخذ أصحاب الصنائع، ثم أمَر بضرب رقاب الجميع. اِنتهى.

وقال غيره: وحبَسوا الفرنسيس بالمنصورة بدار آبن لُقمان يحفظه الطواشي صَبِيح مكرماً غايةَ الكرامة. وقال آخر: بمصر(٣) بدار آبن لُقمان وهو الأصحّ، وزاد بعضهم فقال: دار ابن لقُمان هي الدار الكبيرة بالقرب من باب الخَرْق (يعني دار آبن قُطَينة) اِنتهى.

وقال أبو المظفَّر في تاريخه مرآة الزمان: «وفي أوّل ليلة منها (يعني سنة ثمانٍ

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) كنود: جمع كُنْد، وهو تعريب: كونت Comte أو Comes قومس، قُمص.

(٣) لعل أبا المحاسن ينفرد بهذه الرواية. إذ جميع المصادر تشير إلى دار ابن لقمان بالمنصورة. وقال الأستاذ محمد رمزي:

وهذه الدار لا تزال معروفة بالمنصورة، ولا يزال جزء منها، وهو الذي فيه الباب، قائماً إلى اليوم بجوار جامع الشيخ الموافي على يمين الداخل في الحارة المجاورة للجامع من الجهة الشرقية. وقد تسلمها ديوان الأوقاف من سنة ١٨٩٠م ووضعت لجنة حفظ الآثار العربية على بابها لوحة من الرخام عليها كتابة تفيد أن هذه الدار هي التي سجن فيها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

وأربعين) كان المصافُّ بين الفِرنْج والمسلمين على المنصورة بعد وصول المعظَّم تُوران شاه إلى المخيَّم، ومُسِكَ الفرنسيسُ وقُتِل من الفرنج مائةُ ألف، ووصَل كتابُ المعظَّم تُوران شاه إلى جمال الدين بن يَغْمُور (يعني إلى نائب الشام) يقول:

«الحمد لله الذي أذهَب عنّا الحَزَن. وما النصر إلّا من عند الله. ويومئذٍ يفرحَ المؤمنون بنصر الله ينصرُ مَنْ يشاء وهو العزيز الرحيم. وأمّا بنعمة ربِّك فحدِّث. وإنّ تعدّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها. نبشِّر المجلسَ السامي[١] الجماليّ، بل نبشِّر الإسلام كافّة بما مَنّ الله به على المسلمين، من الظَّفَر بعدّو الدين، فإنّه كان قد آستفحل أمرُه وآستحكم شرُّه؛ ويئِس العبادُ من البلاد، [والأهل][٢] والأولاد؛ فَنُودُوا: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ الآية. ولمّا كان يومُ الأربعاء[٣] مستهلّ السنة المباركة، تمّم الله على الإسلام بركتَها، فتَحْنا الخزائن، وبذَلْنا الأموال، وفرّقْنا السلاح، وجمَعْنا العربان والمطَّوِّعة وآجتمع خلق لا يُحْصِيهم إلّا الله تعالى، فجاؤوا من كلّ فَجّ عَميق، ومن كلّ مكانٍ بعيدٍ سحيق؛ ولمّا رأى العدوّ ذلك أرسل يطلُب الصلح على ما وقع عليه الاتّفاق بينهم وبين الملك العادل أبي بكر[٤] فأبَيْنا. ولمّا كان في الليل تركوا خيامَهم وأثقالَهم وأموالَهم وقصدوا دِمْياط هاربين، فسِرنا في آثارهم طالبين؛ وما زال السيف يعمَل فيهم عامّة الليل، ويدخُل فيهم الخزي والويل. فلمّا أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غيرَ من ألقى نفسه في اللُّجَج. وأمّا الأسرى فحدّث عن البحر ولاَ حَرج؛ وآلتجأ الفرنسيس إلى المُنْيَة وطلب الأمان

---

(١) المجلس السامي: كان هذا اللقب في أوائل الدولة الأيوبية مقصوراً على السلطان وحده، فلا يكتب به إلى أحد سواه. ثم استقر اصطلاح الدواوين في آخر العصر الأيوبي على كتابة هذا اللقب في المكاتبات الصادرة إلى أعيان الدولة من الوزراء وكبار الأمراء، وانفرد السلطان بلقب «المقام» و«المقرّ». (انظر معالم الكتابة لابن شيث القرشي: ص ٥٩ ـ ٦٠؛ وصبح الأعشى: ٤٩٧/٥). وللدكتور حسن الباشا (الألقاب الإسلامية: ص ٨٣) رأي مخالف لما أورده القلقشندي وابن شيث؛ فهو يرى أن هذا اللقب كان يرد كثيراً في مكاتبات الأسرة الأيوبية منذ بداياتها؛ ولم يقتصر عليهم بل تعداهم إلى غيرهم من كبار رجال الدولة وكتابها، كما توضح الأمثلة الكثيرة في مكاتبات القاضي الفاضل.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) في السلوك: «يوم الاثنين».

(٤) أي أن يتركوا دمياط ويغادروا الأراضي المصرية، وبالمقابل يعطون القدس.

فأمّناه، وأخذناه وأكرمناه؛ وتسلّمنا دِمْياط بعونه وقوته، وجلاله وعظمته».

وأرسل الملك المعظّم مع الكتاب إلى ٱبن يَغْمُور المذكور بغِفارة[١] الفَرَنْسِيس فلبِسها ٱبن يَغْمُور في دَسْت مملكته بدِمَشْق، وكانت سقراط[٢] أحمر بفرو سِنْجاب. فكتَب ٱبن يَغْمُور في الجواب إلى السلطان الملك المعظَّم المذكور بيتين لابن إسرائيل[٣]، وهما[٤]: [الطويل]

أسيِّدَ أملاكِ الزمانِ بأَسْرِهم   تَنَجَّزْتَ من نصر الإله وُعُودَه
فلا زال مولانا يُبيح حِمَى العِدَا   ويُلْبِس أسلابَ الملوكِ عبيدَه

اِنتهى كلام أبي المظَّفر بعد أن ساق كلاماً طويلاً من هذا النَّمُوذَج بنحو ما حكيناه.

وقال غيره: وبقي الفرنسيس في الاعتقال إلى أن قُتِل الملك المعظَّم تُوران شاه ٱبن الملك الصالح نجم الدين أيّوب (يعني صاحب الترجمة)، فدخَل حسام الدين بن أبي عليّ [نائب السلطان] في قضيته، على أن يسلِّم للمسلمين دِمْياط ويحمِل خمسمائة ألف دينار. فأركبوه بغلة وساقت معه الجيوشُ إلى دِمْياط، فما وصلوا إلاّ والمسلمون على أعلاها بالتكبير والتهليل، والفِرنْج الذين كانوا بها قد هربوا إلى المراكب وأخلَوْها، فخاف الفرنسيس وٱصفرّ لونُه. فقال الأمير حُسَام الدي بن أبي عليّ [للملك[٤] المعزّ]: هذه دِمْياط قد حصَلت لنا، وهذا الرجل في أسرنا وهو عظيمُ النصرانيّة، وقد ٱطَّلع على عوراتنا، والمصلحة ألاّ

(١) الغفارة والغفار: المعطف؛ وجمعها: غفائر. (السلوك: ٣٥٧/٢/١، حاشية عن دوزي) أو لعلها زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة. (المعجم الوسيط).

(٢) في المقريزي: «أشكرلاط». وكلا اللفظين تعريب محرَّف للفظ الفرنسي écarlate: ويعني اللون القرمزي. واللفظ يعني في الاصطلاح نوعاً من القماش، لونه قرمزي، كان يرد من بلاد إيرلندة.

(٣) هو نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل الشيباني الدمشقي الشاعر. توفي سنة ٦٧٧هـ.

(٤) ذكر المقريزي في السلوك أن البيتين المنسوبين لابن إسرائيل هما:

إن غفارة الفرنسيس التي   جاءت حباء لسيّد الأمراء
كبياض القرطاس لوناً ولكن   صبغتها سيوفنا بالدماء

أما البيتان الآتيان فقد أوردهما المقريزي تحت عنوان: وقال آخر.

نُطْلِقَه؛ وكان قد تسلطن أيبك التُّرْكُمَانِيّ الصالحيّ أو صار حاكماً عن الملكة شجرة الدّر؛ فقال أَيْبَك وغيرُه من المماليك الصالحيّة: ما نَرَى الغدر! وكانت المصلحة ما قاله حسام الدين. فقَوُوا عليه وأطلقوه طمعاً في المال! فركِب في البحر الروميّ في شِينيّ[١]. وذكر حسام الدين أنّه سأل الفَرَنْسِيس عن عدّة العسكر الذي كان معه لمّا قدِم لأخذ دِمْياط؛ فقال: كان معي تسعة آلاف وخمسمائة فارس، ومائة ألف وثلاثون ألف طَبْسِيّ[٢] سوى الغلمان والسُّوقَة والبحّارة. اِنتهى.

قال سعد الدين في تاريخه: اِتّفقوا على أن يسلِّم الفرنسيس دِمْياط، وأن يُعْطِي هو والكنود ثمانمائة ألف دينار عِوَضاً عما كان بدِمْياط من الحواصِل، ويُطْلِقوا أسرى المسلمين؛ فحلَفوا على هذا؛ وركبت العساكر ثاني صفر إلى دِمْياط قرب الظهر، وساروا حتّى دخلوها، ونهَبوا وقتلوا من بقِي من الفِرنج حتّى ضربتهم الأمراء وأخرجوهم، وقوّموا الحواصِل التي بقِيت في دمياط بأربعمائة ألفِ دينار؛ وأخذوا من الملك الفَرَنْسِيس أربعمائة ألف دينار، وأطلقوه العصر هو وجماعته؛ فآنحدروا في شِيني إلى البُطْس[٣]، وأنفَذ رسولاً إلى الأمراء الصالحيّة يقول: ما رأيت أقلّ عقلاً ولا دِيناً منكم! أمّا قلّة الدين فقتلتم سلطانَكم بغير ذنب (يعني لمّا قتلوا آبن أستاذهم الملك المعظّم تُوران شاه بعد أخذ دِمْياط بأيّام) على ما سنذكره هنا إن شاء الله تعالى. قال: وأمّا قلّة العقل فكذا، مثلي ملكُ البحر وقَع في أيديكم بعتموه بأربعمائة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعتُها لكم حتّى أخلُص. ثم لمّا سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دِمْياط فأهلكه الله تعالى. وندِمت الأمراء على إطلاقه.

ولمّا أراد الفرنسيس العَوْدَ إلى دِمْياط قال في ذلك الصاحب جمال الدين

---

(١) الشينيّ والشينية، وتجمع على شواني: هي سفن حربية كبيرة. ويقابلها بالفرنسية Galère. وكانت أكبر السفن وأكثرها استعمالاً بمصر (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٠٧).

(٢) الطبسي: كلمة فارسية مأخوذة عن العربية بمعنى الناس أو الجماعة أو الجنود. (القاموس الفارسي الانكليزي).

(٣) البطس: أي المراكب الكبيرة التي تؤلف الأسطول.

يحيـى بن مطروح قصيدتَه المشهورة، وكتب بها إليه يعني إلى الفرنسيس، وهي: [السريـع]

قـلْ لـلفـرنسيس إذا جئتَـه ... مقالَ صِدقٍ[1] من قؤول فصِيحْ
آجـرك الله على مـا جَـرَى ... من قتل عُبَّادِ يَسُوعَ المَسيح
أتيتَ مصـرَ تبتغِي مُلْكَـهـا ... تحسب أنّ الزمر يا طبلُ رِيح
فسـاقـك الحَيْنُ إلى أَدْهَم ... ضاق به عن ناظرَيْكَ الفَسيح
وكـلُّ أصحـابِـك أودعتَـهمْ ... بحسن تدبيرك بطنَ الضريح
خمسون[2] ألفاً لا تـرى منهمُ ... إلّا قتيـلاً أو أسيراً جـريـح
وفّـقَـكَ الله لأمـثـالـهـا ... لعـلّ عيسى منكمُ يستـريـح
إن كان بابـاكُمْ[3] بذَا راضياً ... فرُبَّ غِشٍّ قد أتَى من نَصيح
وقـلْ لهم إنْ أضمـروا عَـوْدةً ... لأخذ ثارٍ أو لعَقْـدٍ[4] صحيـح
دارُ آبنِ لقمانَ على حالهـا ... والقَيْدُ باقٍ والطواشِيّ صَبِيـح

قلت: لله درّه! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف والبلاغة وحسن التركيب، رحمه الله.

وأمّا أمرُ الملك المعظَّم تُوران شاه صاحب الترجمة، قال العَلّامة شمس الدين يوسف بن قِزَأوغلي في تاريخه في سبب قتله، قال: «ذكرنا مجيئَه إلى الشام وذَهابَه إلى مصر، وآتّفق كَسْرةُ الفِرنْج عند قدومه فتيمَّن الناس بطلعته، غيرَ أنّه بدَت منه أسبابٌ نفّرت القلوب عنه فآتّفقوا على قتله. وكان فيه نوع خِفّة، فكان يجلس على السماط، فإذا سمِع فقيهاً يذكر مسألةً وهو بعيد عنه، يَصِيح: لا نسلِّم!. ثمّ آحتَجب عن الناس أكثر من أبيه؛ وكان إذا سكِر يجمع الشموعَ ويضرِب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول: كذا أفعل بالبحريّة! يعني مماليكَ أبيه الذين كان جعلهم

(١) رواية المقريزي: «مقال نصح من قؤول نصيح».
(٢) كذا في خطط المقريزي. وفي السلوك: «سبعون ألفاً» وفي الأصل: «تسعون ألفاً».
(٣) في السلوك: «إن يكن الباب». والباب: لفظ استعمله العرب للتعبير عن «البابا».
(٤) في السلوك: «أو لفعل قبيح».

بقلعة البحر بجزيرة الرَّوْضَة، ثم يسمِّي مماليك أبيه بأسمائهم؛ وأهانَهم وقدَّم الأراذل وأبعد الأماثل. ووعَد [الفارس] أقطاي أن يؤمِّره ولم يفِ له، فآستوحش منه. وكانت أمّ خليل (يعني شجرة الدرّ) زوجة والده الملك الصالح لمّا وصل إلى القاهرة مضَتْ هي إلى القدس، فبعَث يهدّدها ويطلُب المالَ والجواهرَ منها فخافت منه، فكاتبت فيه[1]، فآتّفق الجميعُ عند ذلك على قتله. فلما كان يومُ الآثنين سابع عشرين المحرّم جلس المعظَّم على السِّماط فضربه بعضُ مماليك أبيه البحريّة بالسيف فتلقّاه بيده فقطَع بعضَ أصابعه؛ وقام من وقته ودخل البُرْجَ [الخشب الذي نصب له بفَارَسْكُور][2] وصاح: مَنْ جرَحني؟ قالوا: الحشيشيّة[3]. فقال: لا والله إلّا البَحْرِيَّة، والله لا أبقيتُ منهم بقيّةً[4].

وآستدعَى المزيِّن فخيّط يده وهو يتوعَّدهم، فقال بعضُهم لبعض: تمّموه وإلّا أبادكم! فدخلوا عليه فآنهزم إلى أعلى البرج، فأوقدوا النِّيران حول البرج ورمَوْه بالنُّشَّاب، فرَمىَ بنفسه وهرَب نحو البرج، وهو يقول: ما أريد مُلْكاً! دَعُوني أرجع إلى الحصن[5] يا مسلمون! ما فيكم من يَصْطنِعني ويجيرني! والعساكر واقفة فما أجابه أحد، والنُّشاب تأخذه، فتعلق بذيل [الفارس] أَقْطاي فما أجاره، فقطّعوه قِطعاً وبقي على جانب البحر ثلاثةَ أيّام مُنْتفخاً لا يجسر أحد أن يدفنه حتّى شفعَ فيه رسول الخليفة، فحُمِل إلى ذلك الجانب فدُفِن به. ولمّا قتلوه دخلوا على الفَرَنْسِيس الخيمةَ بالسيوف، فقالوا: نريد المال، فقال: نعم، فأطلقوه وسار إلى عَكّا على

---

(١) المراد أنها كاتبت المماليك البحرية. بما فعلته في حقّه، من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها. (السلوك: ٣٥٨/٢/١).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) أي أحد الباطنية الإسماعيلية.

(٤) تتفق رواية السلوك ومفرّج الكروب والروضتين على أن الذي ضربه بالسيف هو بيبرس البندقداري الذي صار إليه ملك مصر. وكان بيبرس هذا من جملة المماليك الكبار الذين نقموا على المعظم توران شاه وقرروا التخلّص منه. وكان في مقدمة هؤلاء: بيبرس البندقداري وعز الدين أيبك وأقطاي وشجرة الدر زوجة الملك الصالح.

(٥) يريد حصن كيفا. وكان يحكم عليه قبل مجيئه إلى القاهرة وسلطنته بها.

ما آتّفقوا عليه معه. قال: وكان الذي باشر قتلهَ أربعةٌ؛ وكان أبوه الملك الصالح أيُّوب قال لُمحْسِنٍ الخادم[١]: اِذهب إلى أخي العادل إلى الحبس، وخذ معك من المماليك من يخنُقه، فعرَض محسنٌ ذلك على جميع المماليك فآمتنعوا إلاّ هؤلاء الأربعة فإنّهم مضوْا معه وخنقوه، فسلّطهم الله على ولده فقتلوه أقبح قِتْلة، ومثلّوا به أعظم مُثْلة لِما فعل بأخيه!

قال الأمير حسام الدين بن أبي عليّ: كان تُوران شاه لا يصلُح للملك؛ كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيّوب: ما تُنْفِذ تُحْضِره إلى ها هنا! فيقول: دعوني من هذا، فألححنا عليه يوماً، فقال: أَجِيبه إلى ها هنا أقتله![٢]

وقال عماد الدين بن دِرْبَاس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالحَ أيّوبَ في المنام وهو يقول: [مجزوء الرمل]

قتلوه شرّ قِتْلهْ صار للعالم مُثْلَهْ
لم يراعوا [فيه][٣] إلاَّ لا ولا من كان قبْلَه
ستراهُمْ عن قليلٍ[٤] لأقلّ الناس أُكْلَه

وكانوا قد جمعوا في قتله ثلاثةَ أشياء: السيف والنار والماء!

وتسلطن بعدَه زوجةُ والده أمّ خليل شجرةُ الدرّ بآتّفاق الأمراء وخُشداشِينها[٥]

(١) في الأصل: «الخازن» وما أثبتناه من شفاء القلوب بروايته عن مرآة الزمان.

(٢) كان الملك الصالح أيوب يكره ولده توران شاه لما فيه من هوج واضطراب. وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك، بل قال للأمير حسام الدين بن أبي علي: إذا متّ لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه.

(٣) زيادة عن السلوك وشفاء القلوب.

(٤) في المصدرين السابقين: «عن قريب».

(٥) كانت علاقة «الخشداشية» أي الزمالة هي التي تربط بين جميع المماليك السلطانية باعتبارهم من أصل واحد وأوضاعهم متشابهة ويتبعون لسيّد واحد. وأصل الكلمة في الفارسية: «خواجه تاش». وهي مؤلفة من «خواجة» أي السيد، و«تاش» التركية، وأصلها داش وتدل على المشاركة؛ فمعنى خواجة تاش لغوياً هو الشريك في السيد؛ وتطلق هذه الكلمة بصيغها المختلفة (خشداش، خوشداش، خجداش، خوجداش) على المملوك ينشأ مع مملوك غيره في خدمة سيد واحد مشترك، فهما مولياه، وهما أخوا ولاء له. وقد استعملوا صيغة الجمع منها: خشداشية، وخشداشين.

المماليك الصالحية، وخُطِب لها على المنابر بمصر والقاهرة. وكانت ولاية تُوران شاه هذا على مصر دون الشهر، وقُتِل في يوم الاثنين سابع عشرين المحرّم من سنة ثمانٍ وأربعين وستّمائة؛ وكان قدومه من حصن كَيْفا إلى المنصورة في ليلة مستهلّ المحرّم من السنة المذكورة حسب ما تقدّم ذكره.

ذكر سلطنة الملكة شجرة[1] الدرّ على مصر

هي الملكة شجرةُ الدرّ بنت عبد الله، جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب وزوجته وأمّ ولده خليل؛ وكانت حَظِيّة عنده إلى الغاية، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لمّا حَبسه الملك الناصر داود صاحب الكَرَك بالكَرَك، ومعها ولدها خليل أيضاً؛ وقاست مع الصالح تلك الأهوال والمِحَن، ثم قدِمتْ معه مصر لمّا تسلطن؛ وعاش آبنها خليل بعد ذلك وتوفي صغيراً. ولا زالت في عَظَمتها من الحَشَم، وإليها غالب تدبير الديار المصريّة في حياة سيّدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته، والأمور تدبِّرها على أكمل وجه، إلى أن قَدِم ولدُ زوجها الملك المعظّم توران شاه، فلم يشكر لها تُوران شاه ما فعلتْه من الإخفاء لموت والده وقيامِها بالتدبير أتم قِيام، حتّى حضَر إلى المنصورة وجلَس في دَسْت السلطنة. ولم تَدَعْ أحداً يطمَع في الملك لعظمتها في النفوس، فتَرك تُوران شاه ذلك كلَّه وأخذ في تهديدها، وطلب الأموال منها بسرعة، فلم يحسن ذلك ببال أحد. وآتّفقوا على ولايتها لحسن سِيرتها وغزيرِ عقلها وجودة تدبيرها، وجعلوا المُعزَّ أيبك التركمانيّ أتابَكاً لها، وخُطِب لها على المنابر بمصر والقاهرة لكنها لم تلبس خِلْعة السلطنة الخَلِيفَتِي على العادة، غير أنّهم بايعوها بالسلطنة في أيّام أرْسالاً وتمّ أمرُها.

قال الشيخ صلاح الدين خَليل بن أَيْبك الصفديّ في تاريخه[2]: « شجرة

(١) ترجمتها وأخبارها في: السلوك: ١/٢/٣٦١؛ وبدائع الزهور: ١/٢٨٦؛ وخطط المقريزي: ٢/٢٣٧؛ وخطط علي مبارك: ٥/٧٩؛ وشذرات الذهب: ٥/٢٦٨؛ وعقد الجمان: حوادث سنة ٦٤٨هـ. ويسميها العيني والمقريزي: «شجر الدر».

(٢) الوافي بالوفيات.

الدر أمّ خليل الصالحيّة وجارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيُّوب، وأمّ ولده خَليل؛ كان الملك الصالح يُحِبّها حبّاً عظيماً، ويعتمِد عليها في أموره ومُهِمّاتِه؛ وكانت بديعة الجمال ذاتَ رأي وتدبير ودَهَاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم يَنلْه أحد في زمانها. ولما مات الملك الصالح في شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة على دِمْياط في حِصار الفرنج، أخفت موته وصارت تعلِّم بخطّها مثل علامة الملك الصالح، وتقول: السلطان ما هو طيّب. وتمنَع الناس من الدخول إليه؛ وكان أرباب الدولة يحترمونها. ولمّا علِموا بموت السلطان ملّكوها عليهم أيّاماً. وتسلطنتْ بعد قتل السلطان الملك المعظم آبن الملك الصالح نجم الدين أيّوب، وخُطِب لها على المنابر، وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة: «وآحْفَظ اللهمّ الجهةَ الصالحية ملكةَ المسلمين، عِصْمةَ الدنيا والدين أمّ خليل المستعصميّة[1] صاحبة السلطان الملك الصالح». اِنتهى كلام الصَّفَدِيّ.

وقال غيره: وكانت تعلِّم على المناشير وغيرها «والدة خليل[2]»، وبقِيتْ على ذلك مدّة ثلاثة أشهر إلى أن خلَعتْ نفسَها، وآستقرّ زوجها الملك المعزُّ أَيْبَك التُّرْكَمَانِيّ الصالحيّ الآتي ذكره [مدّة، إلى أن آتّفقت المماليك البحريّة وقالوا: لا بدّ لنا من واحد من بني أيّوب يجتمع الكلُّ على طاعته، وكان القائم بهذا الأمر الأمير الفارس أقطاي الجُمْدَار، وبيبرس البُنْدُقْدَاريّ، وبلبان الرشيديّ وسُنْقُر الرُّومِيّ؛ فأقاموا في السلطنة][3] الملكَ الأشرف الأيُّوبيّ[4]. وقيل: إنه تزوّجها أيبك

(١) يرى الدكتور محمد مصطفى زيادة (السلوك: ٣٦١/٢/١، حاشية) أن هذه النسبة تدل على أن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب. غير أن صمت جميع المصادر العربية عن هذه المسألة يحمل على الاعتقاد أن شجرة الدر ربما أقرت هذه النسبة في سكتها وخطبتها ترضية للخليفة في بغداد. ويقوي هذا الفرض أن الملك الصالح كان قد أوصى قبل موته بتسليم مملكته إلى الخليفة المستعصم ليرى فيها رأيه. (راجع ص ٣٣٠، حاشية: ٢).

(٢) في عقد الجمان: «والدة خليل المستعصمية».

(٣) زيادة عن المنهل الصافي.

(٤) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف الملقب بإتسز ابن الملك الكامل بن العادل بن أيوب. (عقد الجمان). وذكر المقريزي صراحة أن المعز أيبك كان شريكاً في الملك، قال: «تجمع الأمراء وقالوا: لا بدّ من إقامة شخص من بيت الملك (آل أيوب) مع المعزّ أيبك =

بعد سلطنته، وكانت مستوليةً على أيْبَك في جميع أحواله ليس له معها كلام. وكانت تركيّة ذات شهامة ونفس قويّة وسيرة حسنة، شديدَة الغيرة. فلمّا بلغها أنّ زوجها الملك المعزّ أيبك يريد أن يتزوّج ببنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وقد عزَم على ذلك، فتخيلت منه أنه ربّما عزَم على إبعادها أو إعدامها، لأنّه سئم من حَجْرها عليه وآستطالتها، فعاجلتْه وعزَمت على الفتك به وإقامة غيره في الملك.

قال الشيخ قطب الدين: «وطلبت صفيّ الدين [إبراهيم][1] بن مَرْزُوق، وكان بمصر، فآستشارته ووعَدَتْه بالوزارة، فأنكر عليها ونهاها عن ذلك فلم تُصْغِ إلى قوله، وطلبت مملوكاً للطَّوَاشِيّ مُحْسِن الجَوْجَري[2] الصالحي وعرضَتْ عليه أمرها ووعدته ومنّتْه إن قتل المعزّ! ثم آستدعتْ جماعةً من الخُدّام وآتّفقتْ معهم. فلمّا كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من شهر ربيع الأوّل [سنة ٦٥٥هـ] لعِب المعزّ بالكرة ومن معه، وصعد إلى القلعة آخرَ النهار، وأتى الحمّام ليغتسل، فلمّا قلَع ثيابَه وثَب عليه سِنْجَر الجَوْجَري والخدم فرمَوْه وخنقوه؛ وطلبت شجرة الدر آبن مرزوق على لسان الملك المعزّ، فركب حمارَه وبادر وطلَع القلعةَ من باب السرّ، فرآها جالسةً والمعزّ بين يديها ميّت، فأخبرتْه الأمرَ فعظُم عليه جدّاً، وآستشارته فقال: ما أعرِف ما أقول، وقد وقَعْتِ في أمر عظيم ما لكِ منه مَخْلَص! ثم طلبت الأمير جمال الدين[3] بن أيْدُغْدِي العَزِيزيّ وعزّ الدين أيبك[4] الحَلَبيّ، وعرَضتْ

= ليجتمع الكل على طاعته، ويطيعه الملوك من أهله... فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز». وظاهر ما ذكره المقريزي يدل على رغبة الأمراء في تحييد بقايا الأيوبيين، خاصة بعد «وقوع الاضطراب في البلاد واستيلاء كل أحد على ناحية» (عقد الجمان). غير أن عبارة ابن واصل في مفرج الكروب تشير إلى سبب آخر وهو أنفتهم وخوفهم من المعز أيبك التركماني، فقد «أنفوا من أن يكون عز الدين أيبك سلطاناً، فاختاروا أن يقيموا صبياً من بني أيوب، يكون له اسم الملك، ويكونون هم الذين يدبرون الملك ويأكلون الدنيا باسمه...» (السلوك: ٣٦٩/٢/١، حاشية).

(١) زيادة عن المنهل الصافي.

(٢) في عقد الجمان: «سنجر الجوهري مملوك الطواشي محسن» وفي المنهل الصافي: «محسن الجوهري».

(٣) أصله من مماليك الملك العزيز صاحب حلب. وتنقل في الخدم حتى صار من أكابر الأمراء وأعيان الدولة. توفي سنة ٦٦٤هـ (المنهل الصافي).

(٤) هو أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي الحلبي، الأمير الكبير. توفي سنة ٦٥٥هـ (المنهل الصافي).

عليهما السلطنة فامتنعا؛ فلمّا آرتفع النهار شاع الخبر وآضطربت الناس». اِنتهى كلام قطب الدين.

وقيل في قتله وجهٌ آخر: وهو أنّ شجرة الدرّ لمّا غارت رتّبتْ للمعزّ سِنْجَر الجوهريّ مملوك الفارس أَقْطاي، فدخل عليه الحمام ولكمه ورماه، وألزم الخُدّامَ معاونتَه، وبقِيتْ هي تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرّع إليها إلى أن مات؛ وآنطوت الأخبار عن الناس تلك الليلة. فلما كان سَحَرُ يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل ركِب الأمراء الأكابر إلى القلعة على عادتهم، وليس عندهم خبرٌ بما جرى، ولم يركب الفائِزيّ[1] في ذلك اليوم؛ وتحيّرت شجرةُ الدرّ فيما تفعل، فأرسلت إلى الملك المنصور نور الدين عليّ آبن الملك المعزّ تقول له عن أبيه: إنه ينزل إلى البحر في جمع من الأمراء لإصلاح الشواني التي تجهّزت للمضي إلى دِمْياط ففعل، وقصدت بذلك لتقلّ الناسَ من على الباب لتتمكن ممّا تريد، فلم يتّمّ مرادُها. ولمّا تعالى النهار شاع الخبر بقتل الملك المعزّ، وآضطربت الناس في البلد وآختلفت أقاويلهم ولم يقِفوا على حقيقة الأمر، وركب العسكر إلى جهة القلعة، وأحدقوا بها ودخلها مماليك الملك المعز أَيْبَك والأمير بهاء الدين بُغْدِي الأَشْرفي مقدّم الحَلْقَة؛ وطمِع الأمير عزّ الدين الحَلَبيّ في التقدّم، وساعده على ذلك جماعة من الأمراء الصالحيّة، فلم يتمّ له ذلك. ثم آستحصر الذين في القلعة الوزير شرف الدين الفائزيّ وآتّفقوا على تمليك الملك المنصور نور الدين عليّ بن الملك المعزّ أَيْبك، وعمره يومئذ نحو خمسَ عشرةَ سنة، فرتّبوه في الملك ونُودِي في البلد بشِعاره؛ وسكن الناس وتفرّقوا إلى دُورهم، ونزَل الأمراء الصالحيّة إلى دُورهم. فلما كان يوم الخميس خامس عشرين الشهر وقع في البلد خَبْطَة عظيمة وركب العسكر إلى القلعة. وآتّفق رأي الذين بالقلعة على نَصْب الأمير علم الدين سِنْجَر الحلبيّ

---

(١) هو هبة الله بن صاعد الفائزي، شرف الدين. خدم الملك الفائز إبراهيم بن أبي بكر ونسب إليه. وخدم بعده الكامل ثم ولده الصالح. واستوزره المعز أيبك فتمكن منه تمكناً عظيماً. وبعد المعز باشر الفائزي وزارة ابنه المنصور علي أياماً، ثم قبض عليه سيف الدين قطز فمات في حبسه مخنوقاً سنة ٦٥٥هـ. (الأعلام: ٧٢/٨).

في السلطنة، وكان أتابَك الملك المعزّ ويعرف بالمُشِدّ، وآستحلفوا العسكَر له، وحلف له الأمراء الصالحيّة على كره من أكثرهم، وامتنـع الأمير عزّ الدين ثم خاف على نفسه فحلف وانتظمت الأمور، ثم آنتقَض بعد ذلك. وفي يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيـع الأوّل خُطِب للملك المنصور بمصر والقاهرة.

وأمّا شجرة الدر صاحبة الترجمة فإنّها آمتنعتْ بدار السلطنة، هي والذين قَتلوا الملك المعز أَيْبَك؛ وطلب المماليكُ المعزيّة هجومَ الدار عليهم، فحالت الأمراءُ الصالحيّة بينهم وبينها، حِمْيَةً لشجرة الدر لأنّها خشداشتهم؛ فلمّا غُلِبُوا مماليكُ المعزّ منهم ومنها أمّنوها وحلَفوا لها أنّهم لا يتعرّضون لها بسوء. فلمّا كان يومُ الاثنين التاسع والعشرون منه أُخْرِجت من دار السلطنة إلى البرج[1] الأحمر فحُبِست به وعندها بعض جواريها؛ وقُبِض على الخُدّام وآقتسمت الأمراء جواريَها؛ وكان نصر العَزيزيّ الصالحيّ، وهو أحد الخُدّام القَتَلة، قد تسَّرب إلى الشام يوم ظهور الواقعة، وأحاطت المماليكُ المعزيّة بالدار السلطانية وجميـع ما فيها؛ ويوم ظهور الواقعة أحْضِر الصفي بن مَرْزُوق من الدار وسُئِل عن حضوره عند شجرة الدر لمّا طلبتْه بعد قتل المُعِزّ وآستشارته، فعرّفهم صورة الحال قصـدقوه وأطلقوه. وحضر الأمير جمال الدين أيْدُغْدِي العزيزيّ، وكان الناس قد قَطَعوا بموت المعزّ، فعند حضور أيْدُغْدِي العزيزيّ المذكور أُمِر بآعتقاله بالقلعة، ثم نُقِل إلى الإسكندريّة، فآعتُقِل بها؛ ثمّ صُلِب الخدّام الذين آتّفقوا على قتل المعزّ؛ وهرَب سِنْجَر غلام الجوهريّ ثم ظُفِر به وصُلِب إلى جانب أستاذه محسن، فمات سِنْجَر من يوم الاثنين المذكور وقت العصر على الخشبة، وتأخر موت الباقين إلى تمام يومين. وآستمرّت شجرة الدرّ بالبرج الأحمر بقلعة الجبل، والملك المنصور عليّ آبن الملك المعز أَيْبكَ ووالدته يحرّضان المعزّيةَ على قتلها، والمماليك الصالحيّة تمنعهم عنها، لكونها جاريةَ أستاذهم، ولا زالوا على ذلك إلى يوم السبت حادي عشر شهر ربيـع

---

(١) البرج الأحمر: من الأبراج التي كانت في قلعة القاهرة، بناه الملك الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب. (صبح الأعشى: ٤٢٢/٣) وهذا البرج يعرف اليوم باسم برج المقطم في الجهة الجنوبية من القلعة ويشرف على باب المقطم. (محمد رمزي).

الآخرُ [حيث] وجَدت مقتولةً[١] مسلوبةً خارجَ القلعة، فحُمِلت إلى التُّرْبة التي كانت بنتها لنفسها بقُرْب مشهد السيدة نفيسة ــ رحمها الله تعالى ــ فدُفِنت بها. ولشجرة الدرّ أوقاف على التربة المذكورة وغيرها. وكان الصاحب بَهَاء الدين عليّ بن محمد بن سليم المعروف بآبن حِنّا وزيرَها، ووزارتُه لها أوّل درجة ترقّاها من المناصب الجليلة. ولما تيقّنت شجرة الدرّ أنّها مقتولة أودعت جُمْلةً من المال والجواهر، وأعدّت أيضاً جملة من الجواهر النفيسة فسحقتها في الهاون لئلا يأخذَها الملك المنصور آبن المعزّ أيبك وأمّه، فإنّها كانت تكره المنصور ووالدته؛ وكانت غير متجمِّلة في أمرها لمّا تزوّجها أَيْبَك حتّى منعته الدخول إليهما بالكلّيّة، فلهذا كان المنصور وأمّه يحرِّضان المماليكَ المعزيّة على قتلها. وكانت خيِّرة ديِّنة رئيسةً عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر معروفة بها. والذي وقع لها من تملُّكِها الديار المصريّة لم يقع ذلك لامرأة قبلها ولا بعدها في الإسلام[٢].

* * *

[اِنتهى الجزء السادس من النجوم الزاهرة، ويليه الجزء السابع، وأوّله: ذكر سلطنة المعزّ أيبك التُّرْكُمَانيّ على مصر]

---

(١) قال المقريزي في السلوك: لما أقيم ابن المعز في السلطنة، حملت شجر الدر إلى أمه في يوم الجمعة سابع عشريه، فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، فبقيت في الخندق أياماً، ثم حملت في قفة ودفنت بتربتها قريب المشهد النفيسي.

(٢) كان لتولي شجرة الدرّ منصب السلطنة ضجة كبرى في عصرها، إذ لم يكن مألوفاً لدى عامة الناس أن تتولى امرأة حكم المسلمين. لهذا نرى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ــ سلطان العلماء والفقهاء في عصره ــ ينشىء مقامة يذكر فيها «ابتلاء المسلمين في مصر بولاية امرأة عليهم». كما أن الخليفة العباسي المستعصم بالله لم يقرّ مبدأ قيامها بالحكم، فأرسل إلى مصر منكراً متهكماً: «إن كانت الرجال قد عدمت من عندكم، فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلًا». (انظر بدائع الزهور: ١/٢٨٦، وكنز الدرر: ٧/٣٨٤).

ثبت المصادر والمراجع

١ ــ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد ــ تحقيق يحيى عبّارة ــ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨.

٢ ــ الأعلام، لخير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٨٦.

٣ ــ أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي ــ دار التعارف ــ بيروت ١٩٨٦.

٤ ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزي ــ مؤسسة ناصر الثقافية ــ بيروت.

٥ ــ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦.

٦ ــ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، لحسن الباشا ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

٧ ــ بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس ــ (الجزء الأول) تحقيق محمد مصطفى ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٢.

٨ ــ البداية والنهاية، لابن كثير ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٨٨.

٩ ــ البرق الشامي، لعماد الدين الكاتب الأصفهاني ــ (الجزء الثالث) تحقيق مصطفى الحياري، (الجزء الخامس) تحقيق فالح صالح حسين ــ مؤسسة عبد الحميد شومان ــ عمان ــ ١٩٨٦.

١٠ ــ بلدان الخلافة الشرقية، لسترانج ــ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ــ مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٤.

١١ ــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي ــ تحقيق كولان وبروفنسال ــ دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣.

١٢ ــ تاج العروس للزبيدي ــ مطبعة حكومة الكويت ١٩٦١.

١٣ ــ تاريخ ابن الأثير (الكامل في تاريخ) ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.

١٤ ــ تاريخ الإسلام، للذهبي ــ (١ ــ ٦) مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٦٧ ــ ١٣٦٩هـ.

١٥ ــ تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان ــ بيروت (بدون تاريخ).

١٦ ــ تاريخ الحكماء، لجمال الدين القفطي ــ تحقيق جوليوس ليبرت ــ ليبسك ١٩٠٣.

١٧ ــ تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر...) ــ نسخة مصورة عن طبعة بولاق.

١٨ ــ تاريخ الخلفاء، للسيوطي ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ مطبعة الفجالة الجديدة ــ القاهرة ١٩٦٩.

١٩ ــ تاريخ اليمن (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) لعمارة اليمني ــ تحقيق محمد بن علي الأكوع ــ مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٧.

٢٠ ــ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان ــ دار المعارف بمصر ١٩٧٩.

٢١ ــ تذكرة الحفاظ، للذهبي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٢ ــ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي ــ الهيئة المصرية العامة ١٩٨٤.

٢٣ ــ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري ــ تحقيق محمد حسين شمس الدين ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٨٨.

٢٤ ــ تقويم البلدان، لأبي الفداء إسماعيل صاحب حماة ــ باريس ١٨٤٠م.

٢٥ ــ تهذيب تاريخ ابن عساكر، للشيخ عبد القادر بدران ــ دمشق ١٣٥١هـ.

٢٦ ــ الحروب الصليبية، لسيّد علي الحريري ــ تحقيق عصام محمد شبارو ــ دار التضامن ومؤسسة دار الكتاب الحديث ــ بيروت ١٩٨٨.

٢٧ ــ الحروب الصليبية كما رآها العرب، لأمين معلوف ــ تعريب الدكتور عفيف دمشقية ــ دار الفارابي للنشر ــ بيروت ١٩٨٩.

٢٨ ــ حسن التوسل إلى صناعة الترسّل، لشهاب الدين محمود الحلبي ــ تحقيق أكرم عثمان يوسف ــ وزارة الثقافة والإعلام ــ بغداد ١٩٨٠.

٢٩ ــ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، للسيوطي ــ مطبعة إدارة الوطن، القاهرة ١٢٩٩هـ.

٣٠ ــ الحلّة السيراء، لابن الأبّار ــ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ــ الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣.

٣١ ــ الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ــ تأليف أحمد أحمد بدوي ــ دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢.

٣٢ ــ خريدة القصر، للعماد الكاتب الأصفهاني (قسم مصر) ــ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ــ القاهرة ١٩٥١.

٣٣ ــ خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجّة الحموي ــ دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ١٩٨٧.

٣٤ ــ الخطط التوفيقية الجديدة، لعلي باشا مبارك ــ الهيئة المصرية العامة ــ القاهرة ١٩٨٠ ــ ١٩٨٦.

٣٥ ــ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) للمقريزي ــ دار صادر، بيروت.

٣٦ ــ الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٩٠.

٣٧ ــ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ــ إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس ــ إصدار كتاب الشعب، القاهرة.

٣٨ ــ الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة ــ دار الكتاب العربي ــ دمشق ١٩٨٤.

٣٩ ــ ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي ــ طبعة الآباء اليسوعيين ــ بيروت ١٩٠٨.

٤٠ ــ ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) لأبي شامة ــ القاهرة ١٩٤٩.

٤١ ــ رسوم دار الخلافة، لهلال بن المحسن الصابىء ــ تحقيق ميخائيل عواد ــ دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٤.

٤٢ ــ الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري ــ تحقيق إحسان عباس ــ مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤.

٤٣ ــ الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة ــ دار الجيل، بيروت (نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ١٢٨٨هـ).

٤٤ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي ــ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

٤٥ ــ سيرة صلاح الدين الأيوبي (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لابن شداد ــ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيّال ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤.

٤٦ ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٤٧ ــ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، لأحمد بن إبراهيم الحنبلي ــ تحقيق ناظم رشيد ــ وزارة الثقافة والفنون ــ بغداد ١٩٧٨.

٤٨ ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٨٧.

٤٩ ــ الصليبيون وآثارهم في جبل عامل ــ الدكتور رضا السيّد حسن ــ دار مصباح الفكر ــ بيروت ١٩٨٧.

٥٠ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت.

٥١ ــ طبقات الأطباء (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة ــ تحقيق نزار رضا ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٥.

٥٢ ــ طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ــ تحقيق سترستين ــ دار الكلمة ــ صنعاء ١٩٨٥.

٥٣ ــ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، لبدر الدين محمود العيني ــ (عصر سلاطين المماليك) تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ــ الهيئة المصرية العامة ١٩٨٧.

٥٤ ــ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، لابن الطقطقي ــ دار صادر ــ بيروت.

٥٥ ــ فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي ــ تحقيق إحسان عباس ــ دار صادر ــ بيروت ١٩٧٣.

٥٦ ــ في التراث العربي، لمصطفى جواد ــ وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٥.

٥٧ ــ القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ــ مجموعة دراسات ــ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ــ منشورات الهيئة المصرية العامة.

٥٨ ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ــ دار الفكر ــ بيروت ١٩٨٢.

٥٩ ـ كنز الدرر وجامع الغرر، لابن أيبك الدواداري ـ (أخبار بني أيوب) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ـ نشر المعهد الألماني للآثار ـ القاهرة ١٩٧٢.
٦٠ ـ لسان العرب، لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.
٦١ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ـ العدد الثاني.
٦٢ ـ مذكرات جوانفيل (القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام) ترجمة الدكتور حسن حبشي ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
٦٣ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، للبغدادي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤.
٦٤ ـ معالم الكتابة ومغانم الإصابة، لابن شيث القرشي ـ تحقيق محمد حسين شمس الدين ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٨.
٦٥ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، للمستشرق زامباور ـ أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
٦٦ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٨٤.
٦٧ ـ معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا ـ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
٦٨ ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة.
٦٩ ـ مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، لابن واصل الحموي ـ (١ ـ ٣) تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ـ والجزء الرابع، تحقيق حسين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٥.
٧٠ ـ مقدمة ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩.
٧١ ـ منطلق تاريخ لبنان ـ كمال سليمان الصليبي ـ بيروت ١٩٧٩.
٧٢ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، لابن تغري بردي ـ الهيئة المصرية العامة.
٧٣ ـ الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال. منشورات دار الشعب ومؤسسة فرنكلين، القاهرة.
٧٤ ـ الموسوعة الفلسطينية ـ دمشق ١٩٨٤.
٧٥ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي.
ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ ـ ١٩٧٢م.
ـ طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر.
٧٦ ـ الوافي بالوفيات، للصفدي ـ (١ ـ ٩) منشورات فرانز شتاينز ـ فيسبادن ـ مطبوعات دار صادر، بيروت ١٩٦١.
٧٧ ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢.

فهرس الموضوعات

الجزء السادس